القول الأسمى

في

شرح أسماء الله الحسنى

إعداد
الشيخ علي أحمد عبد العال الطهطاوي
رئيس جمعية أهل القرآن والسنة

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٣ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3764-6



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١١٠)وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِى مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء١١١].

﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [طه٨].

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِى لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ(٢٢)هُوَ اللَّهُ الَّذِى لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ(٢٣)هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر٢٤].

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (ﷺ) عَنِ النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لِلَّهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ اسْمًا مَنْ حَفِظَهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَإِنَّ اللَّهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ».

عزيزى القارئ: يتهيأ لى أننا فى بلاد ألف ليلة وليلة، لماذا؟

لأن الصوفية لم يتركوا أى شيء فى الدين إلا حرفوه حتى أسماء الله تعالى الحسنى، أدخلوا فيها الشخير والنفير والنهيق والهوهوة، سمعتهم يقولون: «اللع» «اللع» يعنى «الله» «الله»، و«الهوة» «الهوة»، و«لاإيلاه إإيلا اللاه» يعنى «لا إله إلا الله».

وينبحون النبح الكلاب	طريقهم ليس على الصواب
وليس فيهم من فتى مطيع	فلعنة الله على الجميع

وقال آخر:

تُلى الكتاب فأطرقوا إلا خيفة	لكنه إطراق ساه لاه
أتى الغناء فكالحمير تراقصوا	والله ما رقصوا لأجل الله

وبناءاً على ما تقدم، فقد أدليت بدلوى وأخرجت كتابنا «**القول الأسمى فى شرح أسماء الله الحسنى**».

الفصل الأول: ويشمل تمهيد للفصل الثانى، وهو عبارة عن أذكار الصوفية ضلال وفسق، ثم أقوال السادة العلماء فى أذكار الصوفية، ثم الصوفية يحرفون أسماء الله الحسنى، ثم الذكر الصحيح، والحث عليه، ثم ذكر الله تعالى فى القرآن الكريم.

الفصل الثانى: يشمل شرحاً وافياً عن أسماء الله الحسنى .

وكــلى أمل فى علماء مصر الأجلاء «جزاهم الله خيراً» واقول لهم: أنتم مصابيح الأمــة، أنتم أطباء الأمة، بادروا بتصحيح المفاهيم، علموا الناس كيفية الذكر الصحيح بعــيداً عن الشخير والنقير، وكل ما نراه ونسمعه من خزعبلات ولخبطات وهستيريا، وإذا لم تصــحـحوا المفاهيم، وتبلغوا، فإن الله تعالى سائلكم عن هذا العلم قريباً، ولماذا السكوت، وهو أعلم ماذا تقولون لربنا؟ هل تقولون من أجل المال والمناصب وأغراض الدنيا الفانية، يا علماء العصر، يا ملح البلد، كيف يصلح الملح إذا الملح فسد؟

عزيزى القارئ : اقرأ وتدبر، وله الحمد والمنة.

الشيخ على محمد عبد العال الطهطاوى

رئيس جمعية أهل القرآن والسنة

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

السنة والبدعة فى الأذكار

ذكر الله تعالى فى القرآن الكريم

ذَكَــرَ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب ٢١].

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى ١٥].

ذَكَــرْتَ: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء ٤٦].

ذَكَرَهُ: ﴿كَلا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ [المدثر ٥٥].

﴿كَلا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ [عبس ١٢].

ذَكَرُوا: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران ١٣٥].

﴿إِلا الَّذِيــنَ آمَــنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَى مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء ٢٢٧].

أَذْكُرْكُمْ: ﴿فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِى وَلا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة ١٥٢].

أَذْكُرَهُ: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف ٦٣].

تَذْكُــرُ: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُــونَ مِنَ الْهَــالِكِينَ﴾ [يوسف ٨٥].

تَذْكُرُوا: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَــهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف ١٣].

تَذْكُرُونَ: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِــيرٌ بِالْعِبَــادِ﴾ [غافر ٤٤].

تَذْكُرُونَهُنَّ: ﴿وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِى أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلا أَنْ تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفًا وَلا تَعْزِمُــوا

عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة٢٣٥].

نَذْكُرَكَ: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِى أَمْرِى (٣٢) كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه٣٤].

يَذْكُرُ: ﴿أَوَلا يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مريم٦٧].

﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِى يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [الأنبياء٣٦].

يَذْكُرُهُمْ: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء٦٠].

يَذْكُرُوا: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ [الحج٢٨].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج٣٤].

يَذْكُرُونَ: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السماوات وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران١٩١].

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلا قَلِيلاً﴾ [النساء١٤٢].

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُهَا إِلا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام١٣٨].

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ﴾ [الصافات١٣].

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر٥٦].

اذْكُرْ: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِى آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِى وَالإِبْكَارِ﴾ [آل عمران٤١].

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ

بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِى إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ﴾ [المائدة١١٠]

﴿وَاذْكُـرْ رَبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف٢٠٥].

﴿إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُـلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّى لأقْرَبَ مِنْ هَـذَا رَشَـدًا﴾ [الكهف٢٤].

﴿وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [مريم١٦].

﴿وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم٤١].

﴿وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾ [مريم٥١].

﴿وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾ [مريم٥٤].

﴿وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم٥٦].

﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص١٧].

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِى الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص٤١].

اذْكُرْ: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِى الأيْدِى وَالأبْصَارِ﴾ [ص٤٥].

﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الأخْيَارِ﴾ [ص٤٨].

﴿وَاذْكُـرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف٢١].

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ [المزمل٨].

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الإنسان٢٥].

اذْكُـرْنَ: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِى بُيُوتِكُـنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيـفًا خَبِـيرًا ﴾ [الأحزاب٣٤].

اذْكُـرْنِي: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِى السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف٤٢].

اذْكُـرُوا: ﴿يَـا بَـنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِى الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّاىَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة٤٠].

﴿يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِى الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العالمين﴾ [البقرة٤٧].

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة ٦٣].

﴿يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العالمين﴾ [البقرة١٢٢].

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ [البقرة١٩٨].

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ [البقرة ٢٠٠].

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِى أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة٢٠٣].

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة٢٣١].

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة٢٣٩].

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران١٠٣].

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء١٠٣].

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [المائدة٤].

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِى وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [المائدة٧].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة١١].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ العالمين﴾ [المائدة٢٠].

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف٦٩].

﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف٦٩].

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف٧٤].

﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف٧٤].

﴿وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف٨٦].

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف١٧١].

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال٢٦].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تفلحون﴾ [الأنفال٤٥].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم٦].

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الحج٣٦].

اذكُروا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾ [الأحزاب٩].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيراً﴾ [الأحزاب٤١].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر٣].

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة ١٠].

اذكُروني: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة١٥٢].

اذْكُرُوهُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ [البقرة١٩٨].

ذُكِرَ: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام١١٨].

﴿وَمَا لَكُمْ أَلا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام١١٩].

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال٢].

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِى الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الحج٣٥].

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ [الزمر٤٥].

﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر٤٥].

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد٢٠].

يُذْكَرَ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِى خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلا خَائِفِينَ لَهُمْ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة١١٤].

﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام١٢١].

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِى عَزِيزٌ﴾ [الحج٤٠].

﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [النور٣٦].

تُذَكِّرَ: ﴿الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأخرى﴾ [البقرة٢٨٢].

ذَكِّـرْ: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَـئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام٧٠].

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق٤٥].

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات٥٥].

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ﴾ [الطور٢٩].

﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى٩].

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية٢١].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم٥].

ذُكِّـرَ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف٥٧].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ [السجدة٢٢].

﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ [يس١٩].

ذُكِّرُوا: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة١٣].

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة١٤].

ذُكِّرُوا: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام٤٤].

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف١٦٥].

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان٧٣].

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة١٥].

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ﴾ [الصافات١٣].

تَذَكَّرَ: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر٣٧].

تَذَكَّرُوا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف٢٠١].

تَتَذَكَّرُونَ: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلا أَنْ يَشَاءَ رَبِّى شَيْئًا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف٨٠].

﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السماوات وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِى وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة٤].

﴿وَمَا يَسْتَوِى الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر٥٨].

﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام١٥٢].

تذَكَّرُونَ: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِى السماوات وَفِى الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف٣].

﴿وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَى رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف٥٧].

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السماوات وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس٣].

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود٢٤].

﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِى مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود٣٠].

﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل١٧].

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْى يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل٩٠].

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّه قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون٨٥].

﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَات بَيِّنَات لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور١].

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور٢٧].

﴿أَمَّـنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل٦٢].

﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [الصافات١٥٥].

﴿أَفَرَأَيْـتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِه غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيه مِنْ بَعْد اللَّه أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية٢٣].

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات٤٩].

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة٦٢].

﴿وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة٤٢].

يَـتَذَكَّرُ: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [الرعد١٩].

﴿فَقُولا لَـهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه٤٤].

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيه مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر٣٧].

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاته وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [ص٢٩].

يَتَذَكَّرُ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [الزمر٩].

﴿هُوَ الَّذِى يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلا مَنْ يُنِيبُ﴾ [غافر١٣].

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ [النازعات٣٥].

﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَـهُ الذِّكْرَى﴾ [الفجر٢٣].

يَـتَذَكَّرُونَ: ﴿وَلا تَـنْكِحُوا الْمُشْرِكَات حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَة وَلَوْ أَعْجَبَـتْكُمْ وَلا تُـنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ

أُولَـئِكَ يَدْعُـونَ إِلَـى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة٢٢١].

﴿تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم٢٥].

﴿وَلَقَـدْ آتَيْـنَا مُوسَـى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص٤٣].

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص٤٦].

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص٥١].

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر٢٧].

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان٥٨].

يَذَّكَّرُ: ﴿يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِى خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [البقرة٢٦٩].

﴿هُـوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران٧].

﴿هَـذَا بَـلاغٌ لِلـنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [إبراهيم٥٢].

﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُـورًا﴾ [الفرقان٦٢].

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ [عبس٤].

﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ [الأعلى١٠].

لِيَذَّكَّرُوا: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلا نُفُورًا﴾ [الإسراء٤١].

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلا كُفُورًا﴾ [الفرقان٥٠].

يَذَّكَّرُونَ: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِـيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّـرُونَ﴾ [الأنعام١٢٦].

﴿يَا بَنِى آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف٢٦].

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف١٣٠].

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنفال٥٧].

﴿أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة١٢٦].

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل١٣].

ذِّكْر: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران٥٨].

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة٩١].

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف٦٣].

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف٦٩].

﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِى السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف٤٢].

ذِكْرٌ: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف١٠٤].

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد٢٨].

﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد٢٨].

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لمجنون﴾ [الحجر٦].

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر٩].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالاً نُوحِى إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل٤٣].

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل٤٤].

﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم٢].

﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء٢].

﴿وَمَــا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلا رِجَالاً نُوحِى إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء٧].

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِىَ﴾ [الأنبياء٢٤].

﴿وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء٢٤].

﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِيــنَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِى يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [الأنبياء٣٦].

﴿قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء٤٢].

﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ له مُنْكِرُونَ﴾ [الأنبياء٥٠].

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِى الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء١٠٥].

﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾ [النور٣٧].

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِى لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ [الفرقان١٨].

﴿لَقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِى وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً﴾ [الفرقان٢٩].

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء٥].

﴿اتْــلُ مَا أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت٤٥].

﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِىَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس١١].

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِى لَــه إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ [يس٦٩].

﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص٢].

﴿أَؤُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِنْ ذِكْرِى بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ [ص٨].

﴿فَقَالَ إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّى حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص٣٢].

﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص٤٩].

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلآسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِى ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [الزمر٢٢].

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَـهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر٢٣].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت٤١].

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ [الزخرف٥].

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَـنِ نُقَيِّضْ لَـهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَـهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف٣٦].

خواطرى نحو آية:

﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف ١٨٠].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لِلَّهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ اسْمًا مَنْ حَفِظَهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَإِنَّ اللَّهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ». أخرجاه فى الصحيحين من حديث سفيان ابن عيينة عن أبى الزناد عن الأعرج عنه، ورواه البخارى عن أبى اليمان عن شعيب عن أبى حمزة عن أبى الزناد، وأخرجه الترمذى فى جامعه عن الجوزجانى عن صفوان بن صالح عن الوليد بن مسلم عن شعيب، فذكر بسنده مثله، وزاد بعد قوله: «يحب الوتر» «هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلى الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوى المتين الولى الحميد المحصى المبدئ المعيد المحيى المميت الحى القيوم الواجد الماجد الواحد الأحد الفرد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالى المتعالى البر التواب المنتقم العفوّ الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغنى المغنى المانع الضار النافع النور الهادى البديع الباقى الوارث الرشيد الصبور». ثم قال الترمذى: هذا الحديث غريب وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة ولا نعلم فى كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا فى هذا الحديث، ورواه ابن حبان فى صحيحه من طريق صفوان، وقد رواه ابن ماجة فى سننه من طريق آخر عن موسى بن عقبة عن الأعرج عن أبى هريرة مرفوعاً فسرد الأسماء كنحو مما تقدم بزيادة ونقصان، والذى عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء فى هذا الحديث مدرج فيه، وإنما ذلك ما رواه الوليد ابن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعانى عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك، أى أنهم جمعوها من القرآن كما

روى عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبو زيد اللغوى والله أعلم، ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى غير منحصرة فى تسعة وتسعين بدليل ما رواه الإمام أحمد فى مسنده عن يزيد بن هارون عن فضيل بن مرزوق عن أبى سلمة الجهنى عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود (ﷺ) عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: «ما أصاب أحدًا قط هم ولا حزن فقال اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتى بيدك ماض فى حكمك عدل فى قضائك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ونور صدرى، وجلاء حزنى، وذهاب همى، إلا أذهب الله حزنه وهمه، وبدل مكانه فرحاً». فقيل: يا رسول الله، ألا نتعلمها؟ فقال: «بلى ينبغى لكل من سمعها أن يتعلمها». وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حبان البستى فى صحيحه بالمثل، وذكر الفقير الإمام أبو بكر بن العربى أحد أئمة المالكية فى كتابه ((الأحوذى فى شرح الترمذى)) أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم، والله أعلم، وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله تعالى:

﴿وَذَرُوا الَّذينَ يُلْحِدُونَ فِى أَسْمَائه﴾ [الأعراف ١٨٠].

قال: إلحاد الملحدين أن دعَوا اللات فى أسماء الله، وقال ابن جريج عن مجاهد: ﴿وَذَرُوا الَّذينَ يُلْحِدُونَ فِى أَسْمَائه﴾ [الأعراف ١٨٠]. قالوا: اشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز، وقال قتادة: يلَحدون: يشركون فى أسمائه. وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: الإلحاد التكذيب، وأصل الإلحاد التكذيب، وأصل الإلحاد فى كلام العرب: العدول عن القصد، والميل والجور والانحراف، ومنه اللحد فى القبر لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر.

وإلى الطرق الصوفية الضالة الذين يشخرون وينخرون وينهقون ويهوهوون وينبحون.

أقول لهم: اتقوا الله تعالى فى أسمائه الحسنى وابتعدوا عن الهذيان والخزعبلات واللخبطات والسفالات والتفاهات.

بحث فى لفظ يلحدون

قال تعالى: ﴿الَّذينَ يُلْحدُونَ فى أَسْمَائه سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف ١٨٠].

لحد: اللَّحْد: وَاللَّحْدَ: الشَّقُّ الذى يَكون فى جانب القبر موضع الميت لأنه قد أُميل عن وسط إلى جانبه، وقيل: الذى يحفر فى عرضه؛ والضريح والضريحة: ما كان فى وسطه، والجمع أَلْحادُ ولُحُودُ. والملحود كاللَّحْد صفة غالبة، قال:

حتَّى أغيب فى أثناء ملحود

ولحد القبر يلحده لَحْداً وألحده: عمل لـه لحداً، وكذلك لحد الميت يلحده: وألحده ولحد لـه وألحد، وقيل: لحده دفنه، وألحده: عمل لـه لَحْداً وفى حديث دفن النبى ﷺ: ألحدوا لى لَحْداً. وفى حديث دفنه أيضاً: فأرسلوا إلى اللاَّحِد والضارِح. أى الذى يعمل اللحد.

والضريح. الأزهرى: قبر ملحود لـه وقد لحدوا لـه لَحْداً، وأنشد:

أَناسـيّ ملحـودٌ لهـا فى الحواجـب

شـبه إنسان العين تحت الحاجب باللحد، وذلك حين غارت عيون الإبل من تعب السـير. أبو عبيدة: لحدت لـه وألحدت لـه ولحد إلى الشيء يلحد، والتحد: مال. ولحد فى الدين يلحد وألحد: مال وعدل، وقيل: لحد مال وجار. ابن السكيت: الملحد العادل عن لاحق المدخل فيه ما ليس فيه، يقال: قد ألحد فى الدين ولحد أى حاد عنه، والـتحد مثله. وروى عن الأحمر: لحدت جرت وملت، وألحدت: ماريت وجادلت. وألحد: مارى وجادل. وألحد الرجل: أى ظلم فى الحرم، وأصله من قوله تعالـى: ﴿وَمَـنْ يُرِدْ فيه بِإِلْحَاد بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج25] أى إلحاداً بظلم، والباء فيه زائدة؛ قال حَميد بن ثَور:

قدنى من نصر الخبيبين قـدى ليس الإمامُ بالشحـيحِ المُلْحِـد!

أى الجائر بمكة. قال الأزهرى: قال بعض أهل اللغة: معنى الباء الطرح، المعنى: ومن يرد فيه إلحاداً بظلم؛ وأنشدوا:

هن الحرائرُ لا ربّات أخْمـرة سودُ المحاجـرِ لا يقرأْنَ بالسـورِ

المعـنى عندهم: لا يقرأَن السورَ. قال ابن برى: البيتَ المذكور لحميد بن ثور هو لحمـيد الأرقـط، وليس هو لحميد بن ثور الهلالى، كما زعم الجوهرى. قال: وأراد بالإمام ههنا عبد الله بن الزبير. ومعنى الإلحاد فى اللغة الميل عن القصد، ولحد على فى شهادته يلحد لَحْداً: أثمَ ولحد إليه بلسانـه: مال.

الأزهـرى فى قولـه تعالى: ﴿بَشَرٌ لِسَانُ الَّذى يُلْحِدُونَ إِلَيْه أَعْجَمى وَهَذَا لِسَانٌ عَـرَبِى مُبِينٌ﴾ [النحل103] قال الفراء: قرئ يلَحدون فمن قرأَ يلحدون أراد يميلون إلـيه، ويلَحدون يعترضون. قال: وقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فيه بِإِلْحَاد بِظُلْم نُذِقْهُ مِنْ عَذَاب أَلـيم﴾ [الحج25] أى باعتراض. وقال الزجاج: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فيه بِإِلْحَاد﴾ [الحج25] قيل: الإلحاد فيه الشك فى الله، وقيل: كل ظالم فيه ملحد. وفى الحَديث: إِنَّ رَسُولَ اللَّه صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ قَالَ: «احتِكَارُ الطَّعَامِ فِى الْحَرَمِ إِلْحَادٌ فِيه» أى ظلم وعدوان. وأصل الإلحاد: المَيل عن الشيء.

وفى حديـث طهفة: «لا تلطط فى الزكاة ولا تلحد فى الحياة» أى لا يجرى منكم ميل عن لاحق ما دمتم أحياء؛ قال أبو موسى: رواه القتيبى: لا تلطط ولا تلحد على النهى للواحد، قال: ولا وجه لـه لأنه خطاب للجماعة، رواه الزمخشرى: لا نلطط ولا نلحد، بالنون وألحد فى الحرم: ترك القصد فيما أمر به ومال إلى الظلم؛ وأنشد الأزهرى:

لما رأى المُلْحِدُ، حين ألحمـا صواعـق الحجاجِ يمطرْن الدِّمـا

قـال: وحدثنى شيخ بنى شيبة فى مسجد مكة قال: إنى لأذكر حين نصب المنجنيق علـى أبى قبـيس وابن الزبير قد تحصن فى هذا البيت، فجعل يرميه بالحجارة والنيران فاشـتعلت النيران فى أستار الكعبة حتى أسرعت فيها، فجاءت سحابة من نحو الجُدَّة فـيها رعـد وبرق مرتفعة كأنها ملاءة حتى استوت فوق البيت، فأمطرت فما جاوز مطرها البيت، ومواضع الطواف حتى أطفأت النار، وسال المرزاب فى الحجر ثم عدلت إلى أبى قبيس فرمت بالصاعقة فأحرقت المنجنيق وما فيها؛ قال: فحدثت بهذا الحديث بالبصرة قوماً، وفيهم رجل من أهل واسط، وهو ابن سليمان الطيار شعوذى الحجاج، فقال الرجل: سمعت أبى يحدث بهذا الحديث؛ قال: لما أحرقت المنجنيق أمسك الحجاج عـن القـتال، وكتب إلى عبد الملك بذلك، فكتب إليه عبد الملك: أما بعد: فإن بنى إسرائيل كانوا إذا قربوا قرباناً فتقبل منهم بعث الله ناراً من السماء فأكلته، وإن الله قد رضى عملك وتقبل قربانك، فجد فى أمرك والسلام.

والملتحد: الملجأ لأن اللاجئ يميل إليه.

قال الفراء فى قوله: ﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف٢٧] إلا بلاغاً من الله ورسالاته أى ملجأ ولا سرباً ألجأ إليه. واللَّحَود من الآبار، كالدحول؛ قال ابن سيده: أراه مقلوباً عنه.

وألحد بالرجل: أزرى بحلمه كألهد. ويقال: ما على وجه فلان لحادة لحم ولا مزعة لحـم، أما عليه شيء من اللحم لهزاله. وفى الحديث: «حتى يلقى الله وما على وجهه لحادة من لحم» أى قطعة؛ قال الزمخشرى: وما أراها إلا لحاتة بالتاء من اللحت وهو أن لا يدع عند الإنسان شيئاً إلا أخذه. قال ابن الأثير: وإن صحت الرواية بالدال فتكون مبدلة من التاء كدولج فى تولج.

الذكر الصحيح والحث عليه [١]

١- قال الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [٢]

وقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [٣] وقال تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ [٤] دون الجهر: أقل من الجهر، قال ابن عباس: «أن تسمع نفسك دون غيرك». بالغدو: أول النهار. الآصال: آخره وخصا بطلب الذكر فيهما؛ لفضلهما، ولأن بدء اليوم وختمه بالبر والعمل الصالح مفض لغفران ما يقع بينهما من المخالفات.

٢- وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [٥].

٣- وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [٦].

٤- وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [٧]. والآيات في الباب كثيرة معلومة.

---

(١) رياض الصالحين تحقيقنا (٩٦٨).

(٢) [العنكبوت٤٥]. أكبر: أفضل من كل شئ.

(٣) [البقرة١٥٢]. فاذكروني: الذكر شرعاً: قيل هو قول سيق لثناء أو دعاء، وقد يستعمل لكل قول يثاب قائله، وقال الحافظ فى الفتح: يطلق الذكر ويراد به المواظبة على العمل أوجبه الله أو ندب إليه، ويكون باللسان؛ كالتسبيح والتحميد، وبالقلب كالتفكير فى أدلة الذات والصفات. والجوارح؛ كالاشتغال بالطاعات من صلاة وزكاة وحج. أذكركم: أرحمكم وأغفر لكم.

(٤) [الأعراف٢٠٥]. فى نفسك: أى سراً. تضرعاً: تذللاً. خيفة: خوفاً.

(٥) [الجمعة١٠].

(٦) [الأحزاب٣٥].

(٧) [الأحزاب٤١: ٤٢]. سبحوه: نزهوه عما لايليق به. بكرة: أول النهار. أصيلاً: آخر النهار.

وعن أبي هريرة رضى الله عنــه قال: «قَالَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) كَلمتَان خَفيفتَان عَلَى اللِّسَان ثَقيلَتَان فِى الْميزَان حَبِيبَتَان إِلَى الرَّحْمَنِ سُبْحَانَ اللَّه وَبِحَمْدِه سُبْحَانَ اللَّه الْعَظِيمِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْه.

الحديــث رواه الــبخارى فى الأيمان (باب إذا قال والله لا أتكلم اليوم) والدعوات (بــاب فضــل التســبيح) والتوحيد، ومسلم فى الذكر والدعاء (باب فضل التهليل والتسبيح).

لغَة الحَديث: كلمتان: المراد بالكلمة هنا المعنى اللغوى وهو الجملة المفيدة.

خفيفتان: سهلتان. قال الطيــبى: والخفة هنا مستعارة للسهولة، شبه سهولة جريان هذا الكلام على اللسان بما يخف حمله على الحامل من بعض المحمولات. ثقيلتان: قيل الــثقل فيهما على الحقيقة، لأن الأعمال تتجسم عند الميزان كالأعيان ويكون لها ثقل يــوزن، وقــيل توزن صحف الأعمال. فى الميزان: قيل الأصح أنه جسم محسوس ذو لسان وكفتين والله أعلم. حبيبتان إلى الرحمن: محبة الله تعنى الرضا عن قائلهما. سبحان الله وبحمــده: أى أنــزهه متلبســاً بحمده والثناء عليه، فالأول: من باب التخلية لــه سبحانه عما لا يليق به، والثاني: من باب التحلية بالثناء عليه بكمال الصفات.

٥- وعــنه رضــى الله عــنه قال: «قَالَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) لأنْ أَقُولَ سُبْحَانَ اللَّه وَالْحَمْــدُ لِلَّــه وَلا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ أَحَبُّ إِلَى مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْس». رواه مسلم.

الحديــث رواه مســلم فى كــتاب الذكر والدعاء (باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء).

أفــَادَ الحَدِيُث: والذى قبله. الحث على ذكر الله تعالى بتنزيهه وحمده وتعظميه وتوحيده وتكبيره، وإنما كانت هذه الأذكار خيراً من الدنيا، لأنها من أعمال الآخرة، وهــى الباقيات الصالحات، وثوابها لا يبيد، وأجرها لا ينقطع، بينما الدنيا صائرة إلى زوال وآيلــة إلى فناء، قال تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّه بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل٩٦].

٦- حَديثُ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِى اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّه (ﷺ) قَالَ مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لــه لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فِى يَوْمٍ مِائَةَ مَــرَّةٍ كَانَتْ لــه عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ وَكُتِبَتْ لــه مِائَةُ حَسَنَةٍ وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ

وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِى وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ وَمَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ فِى يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

الحديث الأول رواه البخارى فى الدعوات (باب فضل التهليل) وفى بدء الخلق (باب صفة إبليس) والحديث الثانى فى الدعوات (باب فضل التسبيح) رواهما مسلم.

فى الذكر والدعاء (باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء).

لغة الحديث: له الملك: أى له السلطنة والقهر دون سواه. عدل عشر رقاب: أى ما يساوى ثواب إعتاق عشر رقاب. حرزاً: حفظاً. عمل أكثر منه: أى زاد على المائة. زبد البحر: رغوته وما يطفو على وجهه.

٧- وعن أَبِى أَيُّوبَ الأَنْصَارِى رَضِى اللَّهُ عَنْهُ: «عَنِ النَّبِى (ﷺ) قَالَ مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ عَشْرَمرات كَانَ كَمَنْ أَعْتَقَ أَرْبَعَةَ أَنْفُسٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَعِيلَ». متفق عليه.

الحديث رواه البخارى فى الدعوات (باب فضل التهليل)، ومسلم فى الذكر (باب فضل التسبيح والتهليل والدعاء).

٨- عَنْ أَبِى ذَرٍّ قال: «قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلا أُخْبِرُكَ بِأَحَبِّ الْكَلامِ إِلَى اللَّهِ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِى بِأَحَبِّ الْكَلامِ إِلَى اللَّهِ فَقَالَ إِنَّ أَحَبَّ الْكَلامِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ». رواه مسلم.

الحديث رواه مسلم فى كتاب الذكر والدعاء (باب فضل سبحان الله وبحمده).

أفاد الحديث وما قبله: عظيم ثواب هذه الأذكار فى رفع الدرجات وتكفير السيئات، والحفظ من غوايات الشيطان، وذلك لاشتمالها على التقديس والتنزيه والثناء بأنواع الجميل، وقد قيل إن ما تمحوه هذه الأذكار من السيئات إنما هو الصغائر، وأما الكبائر، فلا بد لها من التوبة.

٩- عَنْ أَبِى مَالِك الأَشْعَرِى قال: «قال رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلآنِ أَوْ تَمْلأُ مَا بَيْنَ السماوات وَالأَرْضِ وَالصَّلاةُ نُورٌ وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا». رواه مسلم.

الحديث رواه مسلم فى الطهارة (باب فضل الوضوء).

لغة الحديث: الطهور: بضم الطاء فعل الطهارة، وبفتحها ما يتطهر به، شطر الإيمـــان: أصل الشطر النصف، وقيل معناه: شطر الصلاة، فالإيمان يطلق على الصلاة، قـــال تعالى: (وما كان الله ليضيع إيمانكم) يعنى صلاتكم. وقيل: المراد بالإيمان: الإيمان المعـــروف شـــرعاً، وهو التصديق القلبى بما جاء به النبى (ﷺ)، ومعنى كون الطهارة شـــطره؛ أنها أهم أمره، وذلك كقول الرسول (ﷺ): (الحج عرفة)، أى الوقوف بعرفة أهم أركان الحج.

أفـــاد الحديث: الحث على الطهارة الحسية والمعنوية، وعظيم ثواب هذه الأذكار، بحيـــث لـــو كانـــت هذه الكلمات أجساما لملأت الميزان، وملأت ما بين السماوات والأرض، بيان سعة فضل الله سبحانه، وعظيم رحمته.

١٠ – وعـــن سعد بن أبى وقاس (رضي الله عنه) قَالَ: «جَاءَ النَّبِى (ﷺ) أَعْرَابِى فَقَالَ يَا نَبِى اللَّـــه عَلِّمْـــنِى كَلامًا أَقولـــه قَالَ: «قُلْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَـــه اللَّهُ أَكْبَرُ كَـــبِيرًا وَالْحَمْـــدُ لِلَّه كَثِيرًا سُبْحَانَ اللَّه رَبِّ الْعَالَمِينَ لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللَّه الْعَزِيزِ الْحَكِـــيمِ قَالَ هَؤُلاءِ لِرَبِّى عَزَّ وَجَلَّ فَمَا لِى قَالَ قُلِ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِى وَارْحَمْنِى وَاهْدِنِى وَارْزُقْنِى». رواه مسلم.

الحديـــث رواه مســـلم فى كـــتاب الذكـــر والدعـــاء (باب فضـــل التسبيـــح والتهليـــل والدعاء).

أفاد الحديث: استحباب الإكثار من هذه الأذكار؛ إذ هى أطيب الكلام، وأحبه إلى الله تعالى، ولأن فيها الثناء عليه، مع إثبات الوحدانية لـــه دون غيره، وتنزيهه سبحانه عما لا يليق به، يستحب أن يدعو الإنسان لنفسه بأطيب الدعاء، وبما كان مأثورا مما فـــيه جوامـــع خير الدين والدنيا، فأهم أمر الدين الهداية الموصلة إلى مرضاة الله تعالى، وأهم أمر الدنيا الرزق الذى به قوام البدن، وستر الوجه عن ذل السؤال.

١١– عَنْ ثَوْبَانَ (رضي الله عنه) «قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلاته اسْتَغْفَرَ ثَلاثًا وَقَالَ اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلامُ وَمِنْكَ السَّلامُ تَبارَكْتَ يا ذَا الْجَلال وَالإِكْرَامِ قَالَ الْوَلِيدُ فَقُلْتُ لِلأَوْزَاعِى كَيْفَ الاسْتِغْفَارُ قَالَ تَقُولُ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ». رواه مسلم.

الحديـــث رواه مســـلم فى المســـاجد ومواضع الصلاة (باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته).

لغة الحديث: السلام: ذو السلامة، من كل ما لا يليق بجلاله تعالى، والسلام: اسم من أسماء الله تعالى. ومنك السلام: أى يُرْجَى منك السلامة. تباركت: كثرت خيراتك. يا ذا الجلال: يا صاحب العظمة والغلبة والقهر. أستغفر الله: أسأله المغفرة لذنوبى.

١٢ - حَدِيثُ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رَضِى اللَّهُ عَنْهُ: «عَنْ وَرَّادٍ مَوْلَى الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ كَتَبَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ إِلَى مُعَاوِيَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) كَانَ إِذَا فَرَغَ مِنَ الصَّلاةِ وَسَلَّمَ قَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ اللَّهُمَّ لا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلا مُعْطِىَ لِمَا مَنَعْتَ وَلا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ». متفق عليه.

الحديث رواه البخارى فى الأذان، (باب الذكر بعد الصلاة)، وكذلك روى فى كتاب القدر والاعتصام، ومسلم فى كتاب المساجد (باب استحباب الذكر بعد الصلاة).

لغة الحديث: الجد: الحظ والغنى، أى لا ينتفع الغنى من غناه، ولا يجديه منه إلا ما قدمه من عمل صالح.

١٣- عَنْ عبد الله بن الزُّبَيْر (رضي الله عنه) «أنه (ﷺ) كان يَقُولُ فِى دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ حِينَ يُسَلِّمُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَلا نَعْبُدُ إِلا إِيَّاهُ لَهُ النِّعْمَةُ وَلَهُ الْفَضْلُ وَلَهُ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ وَقَالَ ابن الزبير: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) وَسَلَّمَ يُهَلِّلُ بِهِنَّ دُبُرَ كُلِّ صَلاةٍ».

رواه مسلم. الحديث رواه مسلم فى كتاب المساجد (باب استحباب الذكر بعد الصلاة).

لغة الحديث: دبر كل صلاة: خلفها وبعد الفراغ منها. لا حول: أى لا قوة. النعمة: الأمر المستلذ المحمود العاقبة، الفضل: الكمال المطلق. الثناء: المدح والذكر الحسن الجميل.

أفادت الأحاديث: استحباب المحافظة على هذه الأذكار الجامعة لنعوت الكمالات الإلهية بعد كل صلاة مكتوبة، التوجيه إلى الاعتماد على الله تعالى والتسليم لحكمه.

١٤- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ «جَاءَ الْفُقَرَاءُ إِلَى النَّبِي (ﷺ) فَقَالُوا ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ مِنَ الأَمْوَالِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلا وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ وَلَهُمْ فَضْلٌ مِنْ أَمْوَالٍ يَحُجُّونَ بِهَا وَيَعْتَمِرُونَ وَيُجَاهِدُونَ وَيَتَصَدَّقُونَ قَالَ أَلا أُحَدِّثُكُمْ إِنْ أَخَذْتُمْ أَدْرَكْتُمْ مَنْ سَبَقَكُمْ وَلَمْ يُدْرِكْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِ إِلا مَنْ عَمِلَ مِثْلَهُ تُسَبِّحُونَ وَتَحْمَدُونَ وَتُكَبِّرُونَ خَلْفَ كُلِّ صَلاةٍ ثَلاثًا وَثَلاثِينَ فَاخْتَلَفْنَا بَيْنَنَا فَقَالَ بَعْضُنَا نُسَبِّحُ ثَلاثًا وَثَلاثِينَ وَنَحْمَدُ ثَلاثًا وَثَلاثِينَ وَنُكَبِّرُ أَرْبَعًا وَثَلاثِينَ فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ تَقُولُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ حَتَّى يَكُونَ مِنْهُنَّ كُلِّهِنَّ ثَلاثًا وَثَلاثِينَ». رواه البخارى. وزاد مسلم فى روايته: فرجع فقراء المهاجرين على رسول الله (ﷺ) فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله، فقال رسول الله (ﷺ): «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

«الدثور» جمع دثر بفتح الدال وإسكان الثاء المثلثة. وهو المال الكثير.

الحديث رواه البخارى فى كتاب الأذان (باب الذكر بعد الصلاة)، ومسلم فى المساجد (باب استحباب الذكر بعد الصلاة) وفى المساجد.

انظر شرحه فى باب بيان كثرة طرق الخير رقم ١٢٠/٤.

وقد أفاد هنا: قال فى فتح الإله: ما بينه أبو صالح من أن الإتيان بها مختلطات لا بكل نوع على حدته، غير معمول به بالنسبة للأكمل إذ هو أن يأتى بكل عدد على حدته. قال القاضى عياض: وهو أولى من تأويل أبى صالح. ثم هل يأتى بكل واحدة ثلاثا وثلاثين؟ أم يكون مجموعهن ثلاثا وثلاثين؟ فقد دلت الروايات على هذا وهذا، والأكمل بأن يؤتى بكل واحدة منها ثلاثا وثلاثين على حدة، كما يدل على ذلك الحديث الآتى.

١٥- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) «مَنْ سَبَّحَ اللَّهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ ثَلاثًا وَثَلاثِينَ وَحَمِدَ اللَّهَ ثَلاثًا وَثَلاثِينَ وَكَبَّرَ اللَّهَ ثَلاثًا وَثَلاثِينَ فَتِلْكَ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ وَقَالَ تَمَامَ الْمِائَةِ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ غُفِرَتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البحر» رواه مسلم.

الحديث رواه مسلم فى كتاب الذكر والدعاء (باب فضل التسبيح والتهليل).

لغة الحديث: زبد البحر: كناية عن الكثرة.

١٦- عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّه (ﷺ) «قَالَ مُعَقِّبَاتٌ لا يَخيبُ قَائلُهُنَّ أَوْ فَاعلُهُنَّ دُبُرَ كُلِّ صَلاة مَكْتُوبَة ثَلاثٌ وَثَلاثُونَ تَسْبِيحَةً وَثَلاثٌ وَثَلاثُونَ تَحْميدَةً وَأَرْبَعٌ وَثَلاثُونَ تَكْبِيرَةً». رواه مسلم.

الحديث رواه مسلم فى المساجد، (باب استحباب الذكر بعد الصلاة).

لغة الحديث: معقبات: تسبيحات تقال أعقاب الصلاة، أى بعدها.

١٧- وعن سعد بن أبى وقاص رَضِى اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) يَقُول: «اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بكَ منَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْجُبْنِ وَالْهَرَمِ وَالْبُخْلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَمِنْ فِتْنَة الْمَحْيَا وَالْمَمَات». رواه البخارى.

الحديث رواه البخارى فى الدعوات (باب التعوذ من البخل)، وفى الجهاد (باب ما يتعوذ من الجن).

لغة الحديث: أعوذ: ألتجئ. الجبن: الخوف ضد الشجاعة، وهو ضعف القلب. البخل: وهو شرعاً منع الواجب ومنع السائل مما يفضل عنه. أرذل العمر: أردؤه وأخسه، وهو الهرم. فتنة الدنيا: الانشغال بها عن الآخرة. فتنة القبر: سؤال الملكين.

أفاد الحديث: استحباب المواظبة على هذا الذكر فى دبر الصلوات، والجمع بينه وبين الأذكار السابقة أفضل. وقيل: هذه الكلمات كان النبى (ﷺ) يقولها فى آخر الصلاة قبل السلام، والتسبيحات السابقة كان يقولها دبر الصلاة بعد السلام.

١٨- عَنْ مُعَاذ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: «أَخَذَ بِيَدى رَسُولُ اللَّه (ﷺ) فَقَالَ إِنِّى لأُحِبُّكَ يَا مُعَاذُ فَقُلْتُ وَأَنَا أُحِبُّكَ يَا رَسُولَ اللَّه فَقَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ فَلا تَدَعْ أَنْ تَقُولَ فِى كُلِّ صَلاةٍ رَبِّ أَعِنِّى عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ».

رواه أبو داود بإسناد صحيح.

الحديث رواه أبو داود فى الوتر، (باب الاستغفار).

أفاد الحديث: بيان فضل معاذ بن جبل (رضي الله عنه) ومحبة النبى (ﷺ) له. ذكر الله تعالى يسوق المؤمن إلى شكره سبحانه، والشكر يسوقه إلى العبودية الصادقة.

١٩- حَديثُ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِى اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) «إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعذْ باللَّه منْ أَرْبَعٍ يَقُولُ اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بكَ منْ عَذَاب جَهَنَّمَ وَمنْ عَذَاب الْقَبْرِ وَمنْ فتْنَة الْمَحْيَا وَالْمَمَات وَمنْ شَرِّ فتْنَة الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ». رواه مسلم.

الحديث رواه مسلم فى كتاب الذكر والدعاء (باب التعوذ من شر الفتن).

لغـــة الحديث: فتنة المحيا: أى من جميع البلايا، والمحن الواقعة فى الحياة مما يضر ببدن أو دين. الممات: أى من الابتلاء الذى يتعرض لـــه الإنسان عند الاحتضار قبيل الممـــات. المســـيح: الممسوح إحدى عينيه. الدجال: الكذاب، والمسيح الدجال رجل كذاب يظهر قرب يوم القيامة، يدعى الألوهية ويُفتن به كثير من الناس.

أفاد الحديث: استحباب التعوذ بالله من هذه الأمور التى ذكرت فى الحديث، وبيان فتنة القبر والسؤال فيه، وظهور الدجال، وهن من علامات دنو يوم القيامة.

٢٠- عَنْ عَلى بْنِ أَبى طَالب قَالَ: ((كَانَ النَّبى (ﷺ) إذَا سَلَّمَ منَ الصَّلاة قَالَ اللَّهُمَّ اغْفرْ لِى مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ وَمَا أَسْرَفْتُ وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّى أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ لا إِلَهَ إلا أَنْتَ)). رواه مسلم.

الحديث رواه مسلم فى صلاة المسافرين (باب الدعاء فى صلاة الليل وقيامه).

لغة الحديث: أسررت: أخفيت. أعلنت: أظهرت. أسرفـــت: أكثرت.

أفـــاد الحديث: كمال خضوعه (ﷺ) لربه، وأداؤه لحق مقام العبودية لـــه. الحث عـــلى الاستغفار واستشعار الخضوع لمقام الربوبية. وإذا كان الرسول الذى عصمه الله مـــن الذنوب يأتى بهذا الكلام، فمن دونه من الناس غير المعصومين أولى بالإكثار من هذا الذكر المبارك.

٢١- حَديـــثُ عَائشَةَ رَضِى اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: ((كَانَ رَسُـــولُ اللَّه (ﷺ) يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِى رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِى)). متفق عليه.

الحديث رواه البخارى فى صفـــة الصلاة (((باب التسبيـــح والدعاء فى السجود)، و(باب الدعاء فى الركوع) ومسلم فى الصلاة (باب ما يقال فى الركوع والسجود).

٢٢- عـــنَّ عَائشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّه (ﷺ) ((كَانَ يَقُولُ فِى رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلائِكَةِ وَالرُّوحِ))، رواه مسلم.

الحديث رواه مسلم فى الصلاة (باب ما يقال فى الركوع والسجود).

لغة الحديث: سبوح قدوس: اسمان من أسماء الله تعالى يدلان على المبالغة فى النزاهة والطهـــارة عـــن كل ما لا يليق بجلاله تعالى وكبريائه وعظمته. الروح: جبريل ((عليه السلام)).

أفاد الحديث استحباب أن يقول المصلى ذلك فى ركوعه وسجوده، اقتداءاً برسول الله (ﷺ).

٢٣- عَـــنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) يقول: «فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَـــابَ لَكُـــمْ».

الحديث رواه مسلم فى الصلاة، (باب ما يقال فى الركوع والسجود).

لغة الحديث: فقَمِنٌ: أى جدير.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) قَالَ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ». رواه مسلم.

الحديث رواه مسلم فى الصلاة (باب ما يقال فى الركوع والسجود).

أفـــاد الحديث: والذى قبله: استحباب التسبيح فى الركوع، وأفضله: سبحان ربى العظـــيم وبحمده. وأقل السنة مرة، وأقل الكمال ثلاث، والأكمل إحدى عشر مرة. ويستحب فى السجود أن يكثر من الدعاء مع التسبيح، لكمال تواضع الإنسان لربه فى تلك الحالة، وهو واضع رأسه على الأرض امتثالاً لأمر الله، ولذلك كان وهو فى هذه الحـــال أقـــرب ما يكون من ربه، وهو قرب معنوى ينبئ عن رضى الله على عبده، واستجابته لطلبه.

٢٤- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) كَانَ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ دِقَّهُ وَجِلَّهُ وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ وَعَلانِيَتَهُ وَسِرَّهُ». رواه مسلم.

الحديث رواه مسلم فى الصلاة (باب ما يذكر فى الركوع والسجود).

لغة الحديث: دقه: صغيره. جلّه: كبره. علانيته: المعلن عنه.

٢٥- عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: «فَقَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) لَيْلَةً مِنَ الْفِرَاشِ فَالْتَمَسْتُهُ فَوَقَعَتْ يَدِى عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ وَهُوَ يَقُولُ اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ». رواه مسلم.

الحديث رواه مسلم فى الصلاة (باب ما يقال فى الركوع والسجود).

لغـــة الحديث: افتقدت: أى فقدته و لم أعثر عليه. تحسسته: طلبته وبحثت عنه. فى المسجد: فى السجود. سخطك: غضبك وانتقامك. بمعافاتك: بعفوك. أعوذ بك منك: ألتجئ برحمتك من عذابك فلا يُجير من عذابك إلا أنت، إذ لا يملك أحد معك شيئا. لا أحصى: لا أطيق أن أحصر أو أعد أوصافك الحسنة الجميلة وأفضالك الكثيرة. ثناءاً عليك: ذكراً بالجميل.

أفـــاد الحديث والذى قبله: استحباب ذكر الله تعالى فى السجود بهذه الأذكار التى جمعت بين صفات التتريه والتقديس لله تعالى ما هو أهل له، مهما بالغ الإنسان فى تقديس الله تعالى والثناء عليه، فإنه لا يبلغ مدى عظمة الله تعالى، وما أثنى هو به على نفسه سبحانه وتعالى فى كثير من آيات كتابه العزيز.

٢٦- وعن سعد بن أبى وقاص (ﷺ) قَالَ: «كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ كُلَّ يَوْم أَلْفَ حَسَنَة فَسَأَلَهُ سَائِلٌ مِنْ جُلَسَائه كَيْفَ يَكْسِبُ أَحَدُنَا يَا رَسُولَ اللَّه كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَة قَالَ يُسَبِّحُ مائَةَ تَسْبِيحَةَ فَيُكْتَبُ لَه أَلْفُ حَسَنَة أَوْ يُحَطُّ عَنْهُ أَلْفُ خَطِيئَة». قال الحميدى: كذا هو فى كتاب مسلم: «أو يحط». قال البرقانى: ورواه شعبة وأبو عوانة، ويحيى القطان عن موسى الذى رواه من جهته، فقالوا: «ويحط» بغير ألف.

الحديث رواه مسلم فى كتاب الذكر والدعاء (باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء).

لغة الحديث: يحط: أى يوضع عنه فلا يؤاخذ به.

أفاد الحديث: مضاعفة الحسنات إلى عشر أمثالها، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَة فَلا يُجْزَى إِلا مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام ١٦٠].

وهذا أقل درجات التضعيف، وإلا فقد ورد إلى سبعمائة ضعف. وقيل: (أو) فى الحديث بمعنى (الواو)، أى ويمحى عنه ألف معصية، وقيل للتنويع: فمن التسبيح ما يكتب له به حسنات، ومنه ما يمحى به عنه من السيئات.

٢٧- عَنْ أَبِى ذَرٍّ (ﷺ) عَنِ النَّبِى (ﷺ) «أَنَّهُ قَالَ يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ فَكُلُّ تَسْبِيحَة صَدَقَةٌ وَكُلُّ تَحْمِيدَة صَدَقَةٌ وَكُلُّ تَهْلِيلَة صَدَقَةٌ وَكُلُّ تَكْبِيرَة صَدَقَةٌ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوف صَدَقَةٌ وَنَهْى عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى». رواه مسلم.

الحديث رواه مسلم فى صلاة المسافرين (باب استحباب صلاة الضحى)، وفى الزكاة.

انظر شرحه فى باب كثرة طرق الخير رقم (١١٨/٢).

أفاد الحديث هنا: تأكيد فضل صلاة الضحى، إذ قامت بأداء شكر عافية الأعضاء وسلامتها من الأدواء.

٢٨- وعَنْ أم المؤمنين جُوَيْرِيَةَ: «أَنَّ النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ وَهِى فِى مَسْجِدِهَا ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى وَهِى جَالِسَةٌ فَقَالَ مَا زِلْتِ عَلَى الْحَالِ الَّتِى فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا قَالَتْ نَعَمْ قَالَ النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلاثَ مَرَّاتٍ لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ» رواه مسلم. وفى رواية لَهُ أَنَّهُ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ خَلْقِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ رِضَا نَفْسِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ زِنَةَ عَرْشِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ؟»). وفى رواية الترمذى: «ألا أعلمك كلمات تقولينها؟ سُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ خَلْقِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ خَلْقِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ خَلْقِهِ. سُبْحَانَ اللَّهِ رِضَا نَفْسِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ رِضَا نَفْسِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ رِضَا نَفْسِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ زِنَةَ عَرْشِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ زِنَةَ عَرْشِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ زِنَةَ عَرْشِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ».

الحديث رواه مسلم فى كتاب الذكر والدعاء، (باب التسبيح أول النهار وعند النوم)، والترمذى فى أبواب الدعوات (باب من أدعية المغفرة) رقم (٣٤٩٩).

لغة الحديث: فى مسجدها: موضع صلاتها فى بيتها. أضحى: دخل فى وقت الضحى، أى بعد أن ارتفعت الشمس. الحالة التى فارقتك عليها: أى من التوجه والذكر. وزنت: قوبلت. لوزنتهن: لساوتهن فى الأجر والفضل. رضى نفسه: رضى ذاته العلوية. زنة عرشه: أى مقدار ما يزن عرشه، والعرش السرير، وعرش الرحمن مخلوق والله أعلم به. مداد كلماته: كثرة كلماته، وكلمات الله قيل: هى كلامه القديم المنزه عن أوصاف الكلام الحادث، وقيل: علمه وكلامه، أو علمه لا يحد أن يحد، ولا يعد أن يعد.

أفاد الحديث: شرف هذا الذكر بأى صيغة من صيغه المذكورة، فى هذه الأحاديث. أن الله تعالى يثيب على العمل القليل بالأجر الجزيل.

٢٩- عَنْ أَبِى مُوسَى الأشعرى رَضِى اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «مَثَلُ الَّذِى يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِى لا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَى وَالْمَيِّتِ» رواه البخارى، ورواه

مسلم فقال: «عَنِ النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِى يُذْكَرُ اللَّهُ فِيهِ وَالْبَيْتِ الَّذِى لا يُذْكَرُ اللَّهُ فِيهِ مَثَلُ الْحَى وَالْمَيِّتِ».

الحديث رواه البخارى فى الدعوات (باب فضل ذكر الله عز وجل) ومسلم فى صلاة المسافرين (باب استحباب صلاة النافلة فى بيته).

أفاد الحديث: أن ترك الذكر يشبه الموت إذ أن تركه يورث الغفلة المبعدة عن فعل الخير فيقل النفع أو ينعدم، وهذا يشبه الميت فى عدم الانتفاع به.

٣٠- عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِى اللَّهُ عَنْهُ قال: «قال النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِى بِى وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِى فَإِنْ ذَكَرَنِى فِى نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِى نَفْسِى وَإِنْ ذَكَرَنِى فِى مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِى مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَى بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَى ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِنْ أَتَانِى يَمْشِى أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً». متفق عليه.

الحديث رواه البخارى فى التوحيد (باب ذكر النبى (ﷺ) وروايته عن ربه)، ومسلم فى الذكر والدعاء (باب الحث على ذكر الله).

لغة الحديث: عند ظن عبدى بى: أى أنا عند اعتقاد عبدى بى وتيقنه من الوثوق بوعدى والرهبة من وعيدى. ذكرنى فى نفسه: أى سراً. ذكرته فى جماعة من الذاكرين. خير من ملئه: وهم الملائكة الكرام، وتفضيل ملئهم إنما هو بسبب أن الله تعالى فى جانبهم.

أفاد الحديث: وجوب حسن الظن بالله تعالى، فلا يظن به إلا خيراً، فهو يقبل التوب ويغسل الحوب ويجير المضطر ويكشف السوء، لذلك كان اليأس من رحمته كفراً. الله تعالى مع عبده يسمع ذكره ويعلم سره ويقبل طاعته ويثيبه عليها.

قال العلماء: إن خواص البشر من الأنبياء أفضل من خواص الملائكة كجبريل، وخواص الملائكة، وعوام الملائكة أفضل من عصاة البشر.

٣١- عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسِيرُ فِى طَرِيقِ مَكَّةَ فَمَرَّ عَلَى جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ جُمْدَانُ فَقَالَ سِيرُوا هَذَا جُمْدَانُ سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ قَالُوا وَمَا الْمُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ».

الحديث رواه مسلم وروى: «الْمُفَرِّدُونَ» بتشديد الراء وتخفيفها، والمشهور الذى قاله الجمهور: التشديد.

الحديث رواه مسلم فى الذكر والدعاء (باب الحث على ذكر الله تعالى).

أفـــاد الحديث: استحباب الذكر والانشغال به عن اتباع الشهوات وإتيان اللذات، فإن السبق فى الآخرة إنما يكون بكثرة الطاعات والإخلاص فى العبادات.

٣٢- وعن جابر رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول:

«أفضل الذكر: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ». رواه الترمذى وقال: حديث حسن.

الحديـــث رواه الترمذى فى أبواب الدعـــوات (باب ما جاء أن دعـــوة المسلـــم مستجابة). رقم (٣٣٨٠).

أفـــاد الحديـــث: إن كـــلمة التوحيد أفضل الكلام، لأنها إثبات للوحدانية ونفى للشـــركاء، وهـــى أفضل ما قاله الأنبياء، ومن أجلها بُعثوا، وتحت رايتها قاتلوا، وفى سبيلها استشهدوا، وهى مفتاح الجنة والخلاص من النار.

٣٣- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ رَضِى اللَّهُ عَنْهُ «أَنَّ رَجُلاً قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ شَرَائِعَ الإِسْلامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَى فَأَخْبِرْنِى بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ قَالَ لا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّـــهِ قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ». رواه الترمذى وقال: حديث حسن.

الحديث رواه الترمذى فى أبواب الدعوات (باب فضل الذكر) (٣٣٧٢).

لغـــة الحديث: شرائع الإسلام: أحكامه من الواجبات والمندوبات التى شرعها الله لعباده. أتشبث: أتعلق به وأعتصم، ليكون مغنياً عن كثرة النوافل التى غلبتنى وعجزت عـــن استقصـــائها. رطبا: قال الطيبي: رطوبة اللسان عبارة عن سهولة جريانه، وهذا كناية عن المداومة على الذكر.

٣٤- عَنْ جَابِرٍ عَنِ النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ غُرِسَتْ لَـــهُ نَخْلَةٌ فِى الْجَنَّةِ» رواه الترمذى وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ.

الحديث رواه الترمذى فى أبواب الدعـــوات، (بـــاب فضـــل سبحـــان الله) رقم (/٣٤٦٠/٠).

أفاد الحديث: أن جنة الله واسعة، ويحتمل أن يكون الغرس على حقيقته فضلاً من الله تعالى على تسبيح العبد لربه، ويحتمل أن يكون المراد مجازاً على تثبيت الأجر وزيادة الثواب.

٣٥- عَــنِ ابْــنِ مَسْعُود قال: «قال رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِى بى فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّى السَّلامَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ عَذْبَةُ الْمَاءِ وَأَنَّهَا قِيعَانٌ وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ». رواه الترمذى وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

الحديث رواه الترمذى فى أبواب الدعوات...

(باب غرس الجنة سبحان الله...) رقم (٣٤٥٨)

لغة الحديث: قيعان: جمع قاع، وهو المكان الواسع المستوى من الأرض.

أفــاد الحديــث: أن ذكر الله بهذه الألفاظ يزيد من نعيم الجنة وأشجارها وبهائها، فلــيحرص المسلم على مثل ذلك، فإنه من فضل الله سبحانه على عباده، ومن واسع رحمته.

٣٦- عَــنْ أَبــى الدَّرْدَاء رَضِى اللَّهُ عَنْهُ قال: «قال النَّبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ أَلا أُنَبِّــئُكُم بِخَــيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعِهَا فِى دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَــاقِ الذَّهَــبِ وَالْوَرِق وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْــنَاقَكُمْ قَــالُوا بَلَى قَالَ ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى». رواه الترمذى. قال الحاكم أبو عبد الله: إسناده صحيح.

الحديث رواه الترمذى فى أبواب الدعوات (باب خير الأعمال) رقم (٣٣٧٤/٠).

لغــة الحديث أزكاها: أطهرها وأكثرها ثواباً. مليككم: مالككم. أرفعها: أعلاها وأزيدها.

أفاد الحديث: أن المداومة على ذكر الله ظاهراً وباطناً من أعظم القرب وأنفعها عند الله تعالى، لأنها تشغل الوقت كله والعمر كله، فهو نوع من الجهاد الذى يحمل الناس على التقوى، ويبعدهم عن الفتن وشهوات النفس الأمارة بالسوء، فيكون المؤمن على صلة دائمة بربه.

٣٧- عَــنْ سَعْد بْنِ أَبِى وَقَّاصٍ عَنْ أَبِيه «أَنَّهُ دَخَلَ مَعَ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ عَلَى امْرَأَة وَبَيْنَ يَدَيْهَا نَوًى أَوْ قَالَ حَصًى تُسَبِّحُ بِه فَقَالَ أَلا أُخْبِرُكِ بِمَا هُوَ أَيْسَرُ عَلَــيْكِ مِنْ هَذَا أَوْ أَفْضَلُ سُبْحَانَ اللَّه عَدَدَ مَا خَلَقَ فِى السَّمَاءِ وَسُبْحَانَ اللَّه عَدَدَ مَا خَلَقَ فِى الأَرْضِ وَسُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ مَا بَيْنَ ذَلِكَ وَسُبْحَانَ اللَّه عَدَدَ مَا هُوَ خَــالِقٌ وَاللَّهُ

أَكْبَرُ مِثْلَ ذَلِكَ وَالْحَمْدُ لِلَّه مِثْلَ ذَلِكَ وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ مِثْلَ ذَلِكَ». رواه الترمذى وقَالَ وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

الحديث رواه الترمذى فى أبواب الدعوات (باب فى دعاء النبى (ﷺ) وتعوذه فى دبر كل صلاة) رقم (٣٥٦٣/٠).

لغة الحديث: نوى: جمع نواة وهى بذرة التمر.

أفاد الحديث: أن الإتيان بهذه الألفاظ على نحو ما ورد فى الحديث أفضل من استعمال الحصى أو السبحة، لأن قوله عدد ما خلق وما ذكر بعد يكتب له فيه ثواب لعدد المذكورات، وما تعده بالحصى أو النوى قليل بالنسبة لذلك الكثير الذى لا يعلم كنهه وعدده إلا الله تعالى.

٣٨ - عَنْ أَبِى مُوسَى الأَشْعَرِى قال: «قال لِى رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ أَلا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّة أَوْ قَالَ عَلَى كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ فَقُلْتُ بَلَى يا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللَّه». متفق عليه.

الحديث رواه البخارى فى الدعوات (باب قول «لا حول ولا قوة إلا بالله») وفى المغازى والقدر، ومسلم فى الدعاء والذكر (باب استحباب خفض الصوت بالذكر).

لغة الحديث: كنز: الكنز المال المدفون، والمراد به ذخائر الجنة ونفائسها.

أفاد الحديث: استحباب الإكثار من الحوقلة، لأنها تعنى الاستسلام والتفويض لله، وإن العبد لا يملك من أمره شيئاً ليس له حيلة فى دفع شر ولا فى جلب خير إلا بإرادة الله تعالى.

ذكر الله تعالى قائماً وقاعداً ومضطجعاً ومحدثاً وجنباً وحائضاً، إلا القرآن فلا يحل لجنب ولا حائض

٣٩-قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فى خَلْقِ السماوات وَالأَرْضِ وَاخْتِلاف اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِى الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ (٨) [آل عمران١٩٠].

(٨) الآيات للدلالة على وجود الله ووحدانيته وعلمه وقدرته أولى الألباب أصحاب العقول النيِّرة.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله (ﷺ) يذكر الله على كل أحيانه». رواه مسلم.

الحديث رواه مسلم فى كتاب الحيض، (باب ذكر الله تعالى فى حال الجنابة).

لغـــة الحديث: على كل أحيانه: أى فى كل أوقاته وأحواله، سواء كان متطهراً من الحدثين أو كان به أحدهما.

أفاد الحديث: مشروعية الذكر واستحبابه فى كل وقت وعلى كل حال به.

٤٠ - عَـــنِ ابْنِ عَبَّاسٍ «عن النَّبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ قَالَ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَـــالَ بِاسْمِ اللَه اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا فَقُضِى بَيْنَهُمَا وَلَدٌ لَمْ يَضُرُّهُ». متفق عليه.

الحديـــث رواه البخارى فى بدء الخلق (باب صفة إبليس) والنكاح (باب ما يقول الـــرجل إذا أتى أهله) والدعوات (باب ما يقول إذا أتى أهله) والتوحيد (باب السؤال بأسماء الله تعالى)، ومسلم فى كتاب النكاح (باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع).

لغة الحديث: جنبنا الشيطان: أبعده عنا. فقضى: فقدّر.

أفاد الحديث: استحباب أن يقول الإنسان هذا الذكر قبل الشروع فى الجماع. أما فى حـــين الجماع فأنه يكره الكلام. حفظ المولود من مس الشيطان وأذاه ببركة هذا الذكر فيما إذا حملت المرأة من ذلك الجماع.

ما يقولـــه عند نومه واستيقاظه

٤٢ - عَـــنْ حُذَيْفَـــةَ بْنِ الْيَمَان وأبى ذر رَضى اللَّهُ عَنْهُمَا قـــالا: «أَنَّ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَنَامَ قَالَ اللَّهُمَّ باسْمكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا وَإِذَا اسْتَيْقَظَ قَالَ الْحَمْدُ للَّه الَّذى أَحْيَا نَفْسى بَعْدَ مَا أَمَاتَهَا وَإِلَيْه النُّشُور». رواه الترمذى.

الحديث رواه البخارى فى الدعوات (باب ما يقوله إذا نام) وفى التوحيـــد

السؤال بأسماء الله تعالى

لغة الحديث: أحيانا: أيقظنا. أماتنا: أنامنا. النشور: الحياة بعد الموت.

أفاد الحديث: استحباب هذا الذكر عند النوم وعند اليقظة، ليظل هذا الذكر حاملاً المرء على التيقظ، للإقبال على مولاه يقظةً ونوماً، ويستقبل ليله ونهاره بذكر الله تعالى، فلا يكون غافلاً عن ربه.

فضل حلق الذكر
والندب إلى ملازمتها والنهى عن مفارقتها لغير عذر

٤٣- قـــال الله تعـــالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِى يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾[الكهف٢٨].

٤٤- فضـــل ذكر الله عز وجل) ومسلم فى الدعوات (باب فضل مجالس الذكر). عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ إِنَّ للَّه مَلائكَةً يَطُوفُونَ فى الطُّرُق يَلْتَمسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتكُمْ قَـــالَ فَـــيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنحَتهِمْ إِلَى السَّمَاء الدُّنْيَا قَالَ فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ منْهُمْ مَا يَقُولُ عبَادى قَالُوا يَقُولُونَ يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ قَالَ فَيَقُولُ هَلْ رَأَوْنِى قَالَ فَيَقُولُونَ لا وَاللَّه مَا رَأَوْكَ قَالَ فَيَقُولُ وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِى قَالَ يَقُولُونَ لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عبَادَةً وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجيدًا وَتَحْميدًا وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا قَالَ يَقُولُ فَمَا يَسْأَلُونى قَالَ يَسْأَلُونَكَ الْجَنَّةَ قَالَ يَقُولُ وَهَلْ رَأَوْهَا قَالَ يَقُولُونَ لا وَاللَّه يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَـــا قَالَ يَقُولُ فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا قَالَ يَقُولُونَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حرْصًـــا وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا وَأَعْظَمَ فيهَا رَغْبَةً قَالَ فَممَّ يَتَعَوَّذُونَ قَالَ يَقُولُونَ منَ النَّار قَالَ يَقُولُ وَهَلْ رَأَوْهَا قَالَ يَقُولُونَ لا وَاللَّه يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا قَالَ يَقُولُ فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا قَالَ يَقُولُونَ لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ منْهَا فرَارًا وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً قَالَ فَيَقُولُ فَأُشْهدُكُمْ أَنِّى قَدْ غَفَـــرْتُ لَهُمْ قَالَ يَقُولُ مَلَكٌ منَ الْمَلائكَة فيهِمْ فُلانٌ لَيْسَ منْهُمْ إِنَّمَا جَاءَ لحَاجَة قَالَ هُمُ الْجُلَسَاءُ لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ». الحديث رَوَاهُ البخارى فى الدعوات (باب فضل ذكر الله عز وجل) ومسلم فى الدعوات (باب فضل مجالس الذكر).

لغـــة الحديـــث: يلتمسون: يبحثون. أهل الذكر: أصحاب الذكر. والذكر يشمل الصلاة، وقراءة القرآن، والدعاء بخير الدارين، وطلب العلم، ونحو ذلك.

وقـــال الحافظ فى الفتح: الأشبه اختصاص ذلك بمجالس التسبيح والتكبير والتلاوة فحســـب. تـــنادوا: نادى بعضهم بعضاً. هلمُّوا: تعالوا. يحفوهم: يطوفون ويدورون حولهـــم. يتعوذون: يستجيرون ويحتمون. سيارة: سياحين سائرين فى الأرض. فضلاً: أى زائديـــن عـــلى الحفظة، فهم سيارة لا وظيفة لهم إلا قصد حلق الذكر. يتتبعون: يبحثون.

أفـــاد الحديث: فضل الذكر والذاكرين، وفضل الاجتماع على ذلك، وإن جليس الـــذاكرين يندرج معهم فى جميع ما يتفضل عليهم ربهم إكراماً لهم وإن لم يشاركهم

فى أصـــل الذكـــر. محبة الملائكة للذاكرين من بنى آدم واعتناؤهم بهم. إن السؤال قد يصـــدر ممـــن هو أعلم بالمسؤول عنه من السائل، للتنويه بقدر المسؤول عنه، وإعلان شرف مترلته.

٤٥ - وعنه وعن أَبِى سَعِيد الْخُدْرِى: «عن النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ لا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إلا حَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ». رواه مسلم.

الحديـــث رواه مســـلم فى الذكر والدعاء (باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر).

لغة الحديث: حفتهم: أحاطت بهم. غشيتهم الرحمة: نزلت عليهم آثارها من الفضل الإلهى. السكينة: الطمأنينة، وأصل السكينة الوقار.

أفاد الحديث: فضل الذكر، وبيان شرف الذاكرين عند الله تعالى.

٤٦ - عَنْ أَبِى وَاقد الحارث بن عوف (رضي الله عنه) «أَنَّ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ فِى الْمَسْجد وَالنَّاسُ مَعَهُ إذْ أَقْبَلَ ثَلاثَةُ نَفَر فَأَقْبَلَ اثْنَان إِلَى رَسُول اللَّه صَـــلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ وَذَهَبَ وَاحدٌ قَالَ فَوَقَفَا عَلَى رَسُولِ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ فَأَمَّـــا أَحَدُهُمَـــا فَرَأَى فُرْجَةً فى الْحَلْقَة فَجَلَسَ فيهَا وَأَمَّا الآخَرُ فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ وَأَمَّا الثَّالثُ فَأَدْبَرَ ذَاهبًا فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ قَالَ أَلا أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الـــثَّلاثَة أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى اللَّه فَآوَاهُ اللَّهُ وَأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللَّهُ مِنْهُ وَأَمَّا الآخَرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللَّهُ عَنْـــهُ». متفق عليه.

الحديث رواه البخارى فى العلم (باب من قعد حيث ينتهى به المجلس). ومسلم فى السلام (باب من أتى مجلساً فوجد فرجة فجلس فيها، وإلا وراءهم).

لغـــة الحديث: ثلاثة نفر: ثلاثة رجال. فرجة: مكاناً فارغاً. حلقة: بإسكان اللام، رجال جالسين مستديرين بين يديه (صلى الله عليه وسلم) كالحلقة، والحلقة كل مستدير خالى الوسط. فأدبر: رجع وانصرف. أوى: نزل فى مكان الفرجة يستمع ذكر الله فأكرمه الله بفضيلة ذلك المجلس المبارك. فاستحيا: أى امتنع من المزاحمة لما فيها من التضييق فجلس خلف الحلقة. فاستحيا الله منه: المراد إكرام الله لـــه وعدم إهانته.

أفـــاد الحديث: استحباب الجلوس فى مجالس العلم والجلوس فى المكان الفارغ. بيان فضـــيلة الحياء وعدم مضايقة الناس. ذم الإعراض عن مجلس العلم بغير عذر، وإن من أعرض عن ذلك فقد تعرض لسخط الله تعالى.

٤٧ - عَنْ أَبى سَعيد الْخُدْرى قَالَ: ((خَرَجَ مُعَاوِيَةُ عَلَى حَلْقَة فى الْمَسْجد فَقَالَ مَا أَجْلَسَكُمْ قَالُوا جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ قَالَ آللَّه مَا أَجْلَسَكُمْ إلا ذَاكَ قَالُوا وَاللَّه مَا أَجْلَسَنَا إلا ذَاكَ قَالَ أَمَا إِنِّى لَمْ أَسْتَحْلفكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ وَمَا كَانَ أَحَدٌ بمَنْزلَتى منْ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّـــهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ أَقَلَّ عَنْهُ حَديثًا منِّى وَإِنَّ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ خَرَجَ عَلَى حَلْقَـــة مـــنْ أَصْحَابه فَقَالَ مَا أَجْلَسَكُمْ قَالُوا جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا للإسْلامِ وَمَنَّ به عَلَيْنَا قَالَ آللَّه مَا أَجْلَسَكُمْ إلا ذَاكَ قَالُوا وَاللَّه مَا أَجْلَسَنَا إلا ذَاكَ قَالَ أَمَا إِنِّى لَمْ أَسْتَحْلفكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ وَلَكنَّهُ أَتَانى جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِى بِكُمُ الْمَلائكَةَ)). رواه مسلم.

الحديـــث رواه مســـلم فى الذكر والدعاء (باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر).

لغة الحديث: تهمة لكم: شكاً فى صدقكم. يباهى: يفاخر.

أفاد الحديث: فضل مجالس الذكر، وكرامة الذاكرين على الله تعالى.

الذكر عند الصباح والمساء

٤٨ - قـــال الله تعالى ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِى نَفْسكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافلينَ﴾ [الأعراف٢٠٥] [٩].

٤٩ - ﴿فَاصْـــبِرْ عَلَـــى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْد رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه١٣٠].

٥٠ - ﴿فَاصْـــبِرْ إِنَّ وَعْـــدَ اللَّـــه حَـــقٌّ وَاسْـــتَغْفِرْ لذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْد رَبِّكَ بِالْعَشى والإبكار [١٠]﴾ [غافر٥٥] قال أهل اللغة: ((العشىّ)): ما بين زوال الشمس وغروبها.

---

(٩) فى نفسك: أى سراً. تضرعاً: تذللاً وخضوعاً. خيفة: خوفاً. دون الجهر: أقل من الجهر. قال ابن عباس: أن تسمع نفسك دون غيرك.

(١٠) الإبكار: أول النهار.

٥١ - ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾(١١) [النور٣٦].

٥٢ - ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾(١٢) [ص١٨].

٥٣ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قال: «قال رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي سُبْحَانَ اللَّه وَبِحَمْدِه مِائَةَ مَرَّةٍ لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ يَوْمَ الْقِيَامَة بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِه إِلا أَحَدٌ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ أَوْ زَادَ عَلَيْه». رواه مسلم.

الحديث رواه مسلم فى الذكر والدعاء (باب فضل التهليل والتسبيح).

أفاد الحديث: أن الاستكثار من هذا الذكر محبوب إلى الله تعالى، وأنه ليس له حد لا يتجاوز عنه، وحكمة تخصيص الصباح والمساء بالذكر؛ ليكون البدء والختم بعمل دينى وطاعة، فيكون كفارة لما يكون فى باقى النهار.

٥٤ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّه مَا لَقِيتُ مِنْ عَقْرَبٍ لَدَغَتْنِي الْبَارِحَةَ قَالَ أَمَا لَوْ قُلْتَ حِينَ أَمْسَيْتَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّه التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ تَضُرَّكَ». رواه مسلم.

الحديث رواه مسلم فى كتاب الذكر والدعاء (باب التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره).

لغة الحديث: ما لقيت: أى شيء عظيم لقيته. أعوذ: ألتجئ. كلمات الله: كلام الله وأقضيته وشؤونه وقدرته. التامات: المنزهات عن كل نقص.

أفاد الحديث: استحباب الاستعاذة بالله من سائر المؤذيات وحفظ الله لمن استعاذ به.

٥٥ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ يُعَلِّمُ أَصْحَابَهُ يَقُولُ إِذَا أَصْبَحَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلِ اللَّهُمَّ بِكَ أَصْبَحْنَا وَبِكَ أَمْسَيْنَا وَبِكَ نَحْيَا وَبِكَ نَمُوتُ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ وَإِذَا أَمْسَى فَلْيَقُلِ اللَّهُمَّ بِكَ أَمْسَيْنَا وَبِكَ أَصْبَحْنَا وَبِكَ نَحْيَا وَبِكَ نَمُوتُ وَإِلَيْكَ النُّشُورُ». رواه أبو داود، والترمذى وقال: حديث حسن.

الحديث رواه أبو داود فى الأدب (باب ما يقول إذا أصبح)، والترمذى فى الدعوات (باب ما جاء فى الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى) رقم (٠/٣٣٨٨).

---

(١١) أذن الله أن ترفع: أى أمر أن تُطَهَّر ويُعَظَّم قدرها.

(١٢) سخرنا: ذللنا. معه: أى مع داود «عليه السلام». الإشراق: أى وقت شروق الشمس.

لغة الحديث: بك أصبحنا: بقدرتك دخلنا فى الصباح. النشور: الرجوع.

٥٦ - عَـــنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِى اللَّهُ عَنْهُ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّه مُرْنى بِكَلِمَـــات أَقولُــهنَّ إِذَا أَصْبَحْتُ وَإِذَا أَمْسَيْتُ قَالَ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطرَ السماوات وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَة رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَليكَهُ أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْســى وَشَــرِّ الشَّــيْطَانِ وَشِــرْكِه قَالَ قُلْهَا إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ». رواه أبو داود، والترمذى وقال: حديث حسن صحيح.

الحديث رواه أبو داود فى الأدب (باب ما يقول إذا أصبح)، والترمذى فى الدعوات (باب ما يقال فى الصباح والمساء) رقم (٣٣٨٩/٠).

لغــة الحديــث فاطر: خالق على غير مثال سبق. الغيب والشهادة: ما غاب وما يشــاهد فــلا يغرب عن علمه شيء. مليكه: مالكه. وشركه: أى ما يدعو إليه من الإشراك بالله.

٥٧ - عـــن ابن مسعود (ﷺ) قال: كَانَ نَبِى اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ إِذَا أَمْسَى قَالَ أَمْسَيْنَا وَأَمْسَى الْمُلْكُ للَّه وَالْحَمْدُ للَّه لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَــه قَالَ أُرَاهُ قَـــالَ فيهنَّ لَــه الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ رَبِّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا فِى هَــذه اللَّــيْلَة وَخَيْرَ مَا بَعْدَهَا وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِى هَذه اللَّيْلَة وَشَرِّ مَا بَعْدَهَا رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَسُوءِ الْكِبَرِ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ فِى النَّارِ وَعَذَابٍ فِى الْقَبْرِ وَإِذَا أَصْبَحَ قَالَ ذَلِكَ أَيْضًا أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ للَّه». رواه مسلم.

الحديث رواه مسلم فى الذكر والدعاء (باب التعوذ من شر ما عمــل ومن شــر مـــا لم يعمل).

لغة الحديث: قال فيهن: أى قال معهن. سوء الكبر: المرض والهرم.

أفادت الأحاديث السابقة: استحباب المواظبة على هذه الأذكار فى الصباح والمساء، وعـــند الـــنوم واليقظة، ليظل الإنسان حاضر الذهن مع حضرة ربه، راجياً منه الحفظ والهداية والنجاة والسلامة من شر مؤذيات الدنيا والآخرة، مقراً لــه بالربوبية، معترفاً لــه بالألوهية.

٥٨ - عن عَبْد اللَّه بْنِ خُبَيْب (بضم الخاء المعجمة) عَنْ أَبِيه أَنَّهُ قَال قال لِى رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: « اقرأ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمْسِى وَحِينَ تُصْبِحُ

ثَلاثَ مَرَّات تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ». رواه أبو داود، والترمذى وقال: حديث حسن صحيح.

الحديث رواه أبو داود فى الأدب (باب ما يقول إذا أصبح)، والترمذى فى الدعوات (باب دعاء يقال عند النوم) رقم (٠/٣٥٧٠/).

لغة الحديث: المعوذتين: قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس. تكفيك: أى من غيرها من الأذكار، لتحصيل الثواب والوقاية من سائر المؤذيات.

أفاد الحديث: استحباب قراءة سورة الإخلاص والمعوذتين فى الصباح والمساء، فقد كان النبى (ﷺ) يقرؤها إذا أخذ مضجعه، ويمسح بها من جسمه جميع ما وصلت إليه يداه.

٥٩ - عن عُثْمَانَ بن عَفَّانَ رَضِى اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ مَا مِنْ عَبْد يَقُولُ فِى صَبَاحِ كُلِّ يَوْمٍ وَمَسَاءِ كُلِّ لَيْلَة بِسْمِ اللَّه الَّذى لا يَضُرُّ مَعَ اسْمه شَىْءٌ فِى الأَرْضِ وَلا فِى السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ثَلاثَ مَرَّاتٍ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ». رواه أبو داود، والترمذى وقال هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الحديث رواه أبو داود فى الأدب (باب ما يقول إذا أصبح)، والترمذى فى الدعوات (باب ما جاء فى الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى) رقم (٠/٣٣٨٥/).

لغة الحديث: بسم الله: أى أحتمى باسمه العزيز الذى يُحتمى به من كل سوء من جماد أو دابة أو جن أو شيطان أو حيوان عاقل أو غير عاقل، فهو العليم بأحوال الكائنات، القدير على تصريفها، حيث يشاء، فلا يقع منها شيء إلا بقدر أزلى.

أفاد الحديث: تأكيد الإتيان بهذا الذكر، ليتقى الإنسان بقدرة الله تعالى من جميع البأس والضرر. الاعتماد على الله تعالى وحده فى طلب النجاة والسلامة والعافية من جميع النوائب والمصائب والنوازل، فإنه سبحانه هو الواقى والحافظ للإنسان، وبقدرته يصرف كل أذى وبلاء.

ما يقوله عند النوم

٦٠ - قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ السماوات وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِى الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ

وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السماوات وَالأرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّار ﴾(١٣) [آل عمران١٩٠]

وعَنْ حُذَيْفَةَ وأبى ذر رضى الله عنهما قَالَ إن النَّبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ كان إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ قَالَ: «اللَّهُمَّ باسْمِكَ أَحْيَا وَأَمُوتُ». رواه البخارى.

أفاد الحديث: استحباب أن يقول المسلم هذه الكلمات قبل النوم، تأسياً برسول الله (ﷺ). يندب أن يكون الإنسان المسلم مستحضراً للموت فى كل حال.

٦١ - عَنْ عَلى (رضي الله عنه) أن رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ قَالَ لـه ولفاطمة رضى الله عنهما: إِذَا أَوَيْتُمَا إِلَى فِرَاشِكُمَا أَوْ أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا فَكَبِّرَا ثَلاثًا وَثَلاثِينَ وَسَبِّحَا ثَلاثًا وَثَلاثِينَ وَاحْمَدَا ثَلاثًا وَثَلاثِينَ «وفى رواية التَّكْبِيرُ أَرْبَعٌ وَثَلاثُونَ». متفق عليه.

الحديث رواه البخارى فى النفقات (باب عمل المرأة فى بيت زوجها) وفى الدعوات (باب التكبير والتسبيح عند المنام) ومسلم فى الذكر والدعاء (باب التسبيح أول النهار وعند النوم).

لغة الحديث: أويتما إلى فراشكما: اتجهتما إلى الفراش لإرادة النوم. مضاجعكما: جمع مضجع وهو مكان الاضطجاع والرقود، وجملة «أو أخذتما مضاجعكما» «شك أربعاً وثلاثين»وفى رواية «التكبير أربعاً وثلاثين». وجملة «التكبير أربعاً وثلاثين»وفى رواية عند النسائى: «لإحداهن أى التسبيح أو التحميد، أو التكبير أربعاً وثلاثين»وهذه الزيادة ليجتمع من ثلاثتها مائة مرة.

أفاد الحديث: الحث على ذكر الله تعالى بهذه الصيغ، والمداومة على ذلك قبل النوم، وفى حال الاضطجاع.

٦٢ - عَنْ أَبى هُرَيْرَةَ قال: قال النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشه فَلْيَنْفُضْ فِرَاشَهُ بدَاخلَة إِزَاره فَإِنَّهُ لا يَدْرِى مَا خَلَفَهُ عَلَيْه ثُمَّ يَقُولُ باسْمِكَ رَبِّ وَضَعْتُ جَنْبِى وَبِكَ أَرْفَعُهُ إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِى فَارْحَمْهَا وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِه عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ». متفق عليه.

الحديث رواه البخارى فى الدعوات (باب التعوذ والقراءة عند المنام) وفى التوحيد ومسلم فى الذكر والدعاء (باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع).

---

(١٣) لأولى الألباب: لأصحاب العقول.

لغـــة الحديـــث: بداخلة إزاره: أى بالطرف الذى يلى الجسد منه. أمسكت نفسى: كناية عن الموت. أرسلتها: كناية عن الإبقاء فى الدنيا.

أفـــاد الحديث: استحباب نفض الفراش قبل الدخول فيه، لتنظيفه مما وقع عليه من تراب أو أقذار أو حشرات مؤذية. الحث على الدعاء الوارد فى هذا الحديث، لأن فيه التفويض التام لله والحصول على الهدوء النفسى والطمأنينة الفكرية مما قُدر له.

٦٣ - عَنْ عَائشَةَ (رضي الله عنها) أَنَّ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ نَفَـــثَ فى يَدَيْه وَقَرَأَ بالْمُعَوِّذَات وَمَسَحَ بهمَا جَسَدَهُ. متفق عليه. وفى رواية لهما: أَنَّ النَّبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فرَاشه كُلَّ لَيْلَة جَمَعَ كَفَّيْه ثُمَّ نَفَثَ فيهمَا فَقَـــرَأَ فيهمَا قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ وَ قُلْ أَعُوذُ برَبِّ الْفَلَق وَ قُلْ أَعُوذُ برَبِّ النَّاس ثُمَّ يَمْسَحُ بهمَـــا مَا اسْتَطَاعَ منْ جَسَده يَبْدَأُ بهمَا عَلَى رَأْسه وَوَجْهه وَمَا أَقْبَلَ منْ جَسَده يَفْعَلُ ذَلكَ ثَلاثَ مَرَّات. متفق عليه. قال أهل اللغة: «النفثُ»نفخ لطيف بلا ريق.

الحديـــث الأول رواه الـــبخارى فى الدعـــوات (باب التعوذ والقراءة عند المنام) والحديث الثانى فى فضائل القرآن (باب فضل المعوذتين) ومسلم فى السلام (باب رقية المريض بالمعوذات والنفث).

لغة الحديث: بالمعـــوذات أى «قل هو الله أحد»والمعوذتين «قل أعوذ برب الفلق»و «قل أعوذ برب الناس» وأطلق على الثلاثة اسم المعوذات من باب التغليب».

أفاد الحديث: يعلمنا النبى (ﷺ) فى هذا الحديث بالقول والعمل ما نقوله ونفعله إذا أردنا النوم، ولا ريب أن فى ذلك اللجوء التام لله تعالى والنجاة من كل ضرر.

٦٤ - عَـــنِ الْـــبَرَاء بْـــنِ عَـــازب قال: قال النَّبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ للصَّلاة ثُمَّ اضْطَجعْ عَلَى شقِّكَ الأيْمَنِ ثُمَّ قُلِ اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِـــى إِلَيْكَ وَفَوَّضْتُ أَمْرى إِلَيْكَ وَأَلْجَأْتُ ظَهْرى إِلَيْكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ لا مَلْجَأَ وَلا مَـــنْجَا منْكَ إلا إِلَيْكَ اللَّهُمَّ آمَنْتُ بكتَابكَ الَّذى أَنْزَلْتَ وَبنَبيِّكَ الَّذى أَرْسَلْتَ فَإِنْ مُتَّ منْ لَيْلَتكَ فَأَنْتَ عَلَى الْفطْرَة وَاجْعَلْهُنَّ آخرَ مَا تَقُولُ». متفق عليه.

انظر تخريج الحديث وشرحه فى باب اليقين والتوكل رقم (٨٠/٧).

لغة الحديث: أسلمت نفسى إليك: جعلتها منقادة لحكمك. وجهت وجهى إليك: الوجه كناية عن الذات، أى جعلت ذاتى ونفسى متجهة إليك وحدك. ألجأت ظهرى

إلـيك: اعـتمدت عليك فى أمورى كلها. رهبة ورغبة إليك: أى خوفاً من عقابك وطمعاً فى ثوابك. الفطرة: دين التوحيد الخالى من أى شرك.

أفـاد الحديث: هنا: استحباب التوجه إلى النوم على طهارة، والدعاء بهذا الدعاء، الذى يظهر صدق العبودية والانقياد لله تعالى.

٦٥ - عَنْ أَنس أَنَّ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ كَانَ إذَا أَوَى إلَى فرَاشه قَال: «الْحَمْدُ للَّه الَّذِى أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا وَكَفَانَا وَآوَانَا فَكَمْ ممَّنْ لا كَافِى لـه وَلا مُؤْوِى». رواه مسلم.

الحديث رواه مسلم فى الذكر والدعاء (باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع).

لغـة الحديث: كفانا: من الكفاية. آوانا: جعل لنا مسكناً نأوى إليه. لا كافى ولا مؤوى: أى لا راحم ولا عاطف عليه، وقيل: لا وطن لـه ولا سكن يأوى إليه.

أفـاد الحديث: استحباب الدعاء بهذا الدعاء قبل النوم، وفيه تعداد العبد للنعم التى أنعـم الله بها عليه، والنظر إلى من جعلهم الله دونه فى المظاهر الدنيوية، ليعظم ما عنده ويزداد لله شكراً. الكافى والمؤوى هو الله سبحانه، فهو يكفى الناس رزقهم وييسر لهم المأوى.

٦٦ - عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِى اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ كَانَ إذَا أَرَادَ أَنْ يَـنَامَ وَضَعَ يَدَهُ تَحْتَ رَأْسِه ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ قِنِى عَذَابَكَ يَوْمَ تَجْمَعُ أَوْ تَبْعَثُ عبَادَكَ». رواه الترمذى. وقال حديث حسن؛ ومن رواية حَفْصَةَ زَوْجِ النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ كَانَ إذَا أَرَادَ أَنْ يَرْقُدَ وَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى تَحْتَ خَدِّه ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُمَّ قِنِى عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ ثَلاثَ مرَات».

الحديث رواه الترمـذى فى الدعـوات (باب من الأدعيـة عنـد النـوم) رقـم (٣٣٩٥/٠)، وأبو داود فى الأدب (باب ما يقوله عند النوم).

لغة الحديث: قنى: احفظنى.

أفـاد الحديث: فضل هذا الدعاء، وبيان خضوع النبى (ﷺ) لمولاه، وأداؤه لحقه فى دوام الـتذكر والإجلال. تنبيه النبى (ﷺ) للأمة أن لا يأمنوا عذاب الله، أو يتجاهلوا تقصيرهم نحوه، أو يغفلوا عن الشيطان ووسوسته لهم بالشر.

فضل الدعاء

٦٧ - قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخرينَ﴾[١٤] [غافر ٦٠]

٦٨ - ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحبُّ الْمُعْتَدينَ﴾[١٥] [الأعراف٥٥]

٦٩ - ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عبادى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة١٨٦].

٧٠ - ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّه قَليلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل ٦٢].

٧١ - عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ عَنِ النَّبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ)). رواه أبو داود، والترمذى وقال: حديث حسن صحيح.

الحديث رواه أبو داود فى الصلاة (باب الدعاء) والترمذى فى الدعوات (باب الدعاء مخ العبادة).

لغة الحديث: الدعاء: هو العبادة، قال القاضى عياض: أى هو العبادة الحقيقية التى تستأهل أن تسمى عبادة، للدلالة على الإقبال على الله تعالى والإعراض عما سواه.

أفاد الحديث: مفهوم العبادة فى الإسلام شامل لكل طاعة وتضرع وانقياد لله تعالى. ولكن ليس معنى ذلك أن الدعاء يغنى عن العبادات المفروضة من صلاة وصوم وزكاة وحج، وإنما أفاد الحديث أن الدعاء داخل فى شمول العبادة، وإظهار العبودية لله تعالى.

٧٢ - عَنْ عَائشَةَ رَضِى اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: ((كَانَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَحِبُّ الْجَوَامِعَ مِنَ الدُّعَاءِ وَيَدَعُ مَا سِوَى ذَلِكَ)). رواه أبو داود بإسناد جيد.

الحديث رواه أبو داود فى كتاب الصلاة (باب الدعاء).

لغة الحديث: يستحب: أى يحب، وصيغته الافتعال للمبالغة. الجوامع من الدعاء: أى الأدعية القليلة الألفاظ الجامعة للمعانى الكثيرة. يدع: يترك.

أفاد الحديث: استحباب الإتيان باللفظ اليسير فى الدعاء، وأن يكون الدعاء جامعاً، ليصل الداعى إلى مطلوبه بأسهل طريق.

٧٣ - عَنْ أَنَسٍ قَالَ كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ النَّبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ((اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الآخِرَة حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّار)). متفق عليه. زاد مسلم فى روايته قال: ((وكان أَنَسٌ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ بِدَعْوَةٍ دَعَا بِهَا فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ بِدُعَاءٍ دَعَا بِهَا فِيهِ)).

---

(١٤) ادعونى: المراد بالدعاء فى الآية العبادة، وقيل: السؤال.

(١٥) تضرعاً مظهرين الضراعة والذلة والاستكانة. خفية: سراً فى قلوبكم.

الذكر فى الفكر الصوفى (١٦)

أذكار الصوفية فسق وضلال

يعــد الذكر ركنا من أركان التصوف، ولا يختلف أحد من أمة الإسلام على أهمية الذكــر، فقــد نــص عليه القرآن الكريم فى محكم التنزيل، وأكدته الأحاديث النبوية الشريفة فى مئات المواضع عن سيد الأنبياء وخاتم المرسلين، إلا أن الاختلاف الحقيقى بين أهل السنة والجماعة وبين الصوفية يتولد من فهم الصوفية للذكر، بينما أهل السنة والجماعــة يــرون الذكر عبادة أصلية فى دين الله تعالى، وهى تشمل صور الطاعات الآتية:

١- قراءة القرآن الكريم آناء الليل وأطراف النهار.

٢- مجالس العلم: سواء تعلقت هذه المجالس بالقرآن الكريم تلاوة وتفسيرا وحفظا وتدبــرا، أو الحديــث الشريف، بدءاً من علم مصطلح الحديث إلى حفظ الحديث أو شرحه وبيان أحكامه، وما يتعلق به من أمور فقهية شرعية. أو مجلس يتعلم فيه طلاب العــلم علوم الفقه، وقواعده وأصوله وأحكامه، أو مجلس سيرة النبى (ﷺ) أو أى علم مــن علوم الإسلام حتى لو كان المجلس يتدارس فيه الناس السنن الكونية ويتدبرون فيه حكمة الله فى خلقه، فهذه كلها تعد مجالس ذكر يذكر فيها الله تبارك وتعالى بكل علم يقرب الناس إلى ربهم.

٣- الصــلاة المكــتوبة والنافلة، مع قراءة القرآن قائما، وتسبيح الله تعالى راكعا وساجدا.

٤- تسبيح الله تعالى بالأذكــار الثابتة عن سيد العارفين وإمام النبيين سيدنا محمد (ﷺ): كسبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، وأستغفر الله، أو أقول: سبحان الله والحمــد لله ولا إله إلا هو والله أكبر ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

---

(١٦) قلــت: إذا أردت المزيد فعليك بكتبنا: (بدع الصوفية والموالد، والدعاء لرب العالمين، دعاء الــنبى، دعاء الأنبياء، القول الجلى فى التوسل بالنبى والولى، كرامات أولياء الله الصالحين، العلاج بالبســملة، العــلاج بفاتحــة الكتاب، الاستعاذة، وكتاب الفتاوى للشيخ محمود شلتوت، ودليل المسلمين شرح رياض الصالحين للمؤلف.

٥- الاستغفار من الذنوب والآثام، ومن اللمم وصغائر المعاصى وكثرة الغفلة عن الله عز وجل، وأفضل الاستغفار سيده الوارد عن النبى (ﷺ).

٦ - الصلاة على النبى المختار سيدنا محمد بن عبد الله (ﷺ) بالصيغ المشروعة التى لا غلـــو فيها ولا انحراف، وأفضل الصيغ ما تلقاه النبى (ﷺ) عن أمين الوحى جبريل وجعلها فى التشهد الأخير من الصلاة، وهى المعروفة بالصلاة الإبراهيمية.

٧- الأدعية والأذكار النبوية التى ألزم النبى (ﷺ) بها نفسه، ودل أمته عليها: كدعاء الاستيقاظ من النوم، ودعاء دخول الحمام والخروج منه، ودعاء ما بعد الوضوء، ودعاء ارتـــداء الـــثوب الجديد، ودعاء الخروج من البيت ودخول المسجد، وركوب الدابة والسفر، والطعام والشراب، ورؤية المبتلى، ورؤية المطر وسماع الرعد، وما إلى ذلك مما يضيق المقام لحصره.

الذكر بالاسم المفرد

أما الصوفية[١٧] فهم يوافقون على جميع معانى الذكر السابق بيانها ويزيدون عليه ما يعرف بالذكر المجرد أو الذكر المفرد، وهو الذى تقوم عليه الحضرات، حيث يذكرون الله قياما أو قعودا، مع التمايل بحركات تناسب كل اسم من الأسماء أو طبقة الصوت التى يذكر بها الشيخ، سوءا بمزمار أو بغير مزمار، وربما بمنشد يمدح النبى ﷺ ويستلهم المـــدد من مشايخ الطريق الأحياء والمنتقلين إلى الدار الآخرة. وكل طريق من الطرق الصـــوفية يختار لـــه مجموعة من أسماء الله الحسنى ويذكرون بها فى حضراتهم، ويلقنون المريدين هذه الأسماء بالتدرج على مراحل كل منها يمثل مرتبة من مراتب الطريق، فلو كـــان الطريق سبع مراتب كان ذكر المريد على مراحل سبعة، ويتفق على هذا أغلب الطرق الصوفية، وإن اختلفت الأسماء التى يذكر بها المريد بشكل خاص، فالخلوتية مثلا لهم سبعة أسماء هي:

- «لا إلـــه إلا الله»، ويقابـــلها الاسم الأول حيث يكون المريد فى مقام النفس الأمارة بالسوء.
- «الله» ويذكر به المريد فى الاسم الثانى عندما يصل إلى مقام النفس اللوامة.
- «هو» ويذكر به من وصل إلى الاسم الثالث، ويرتقى إلى مقام النفس الملهمة.

---

(١٧) لا يوجد بالإسلام ولا فى كتب اللغة أساس للصوفية بل هم طائفة فاسدة مخلة مستهترة.

- «حق» ويذكر به المريد فى الاسم الرابع، ومن وصل إلى مقام النفس المطمئنة.
- «حى» ويذكر به المريد فى الاسم الخامس من وصل إلى مقام النفس الراضية.
- «قيوم» ويذكر به المريد فى الاسم السادس من وصل إلى مقام النفس المرضية.
- «قهار» ويذكر به المريد فى الاسم السابع، وبذلك يصل إلى مقام النفس الكاملة.

- ويصير المريد جاهزا لتلقى الترقية التالية ومن ثم يصبح شيخا للطريق، ويعطى إجازة من شيخه بتمام سلوكه على طريقته، ثم يرقى المريد بعد ذلك حين يأتيه الإذن بدعوة الخلق إلى طريق الحق، وعلى طريقة شيخه التى تلقاها عنه. وهيئة الذكر طوال هذه المراحل تكون بطريقتين الأولى:

أولا: الذكر المنفرد

حيث يختلى المريد فى مكان طاهر فى بيته يذكر الله تعالى حسب العدد الذى يرتبه له شيخه، مبتدءاً بقراءة الفاتحة لشيخه مع استحضار صورة شيخه وهيبته فى قلبه، ويضعه نصب عينيه، ثم يقرأ الفاتحة لشيخ شيخه، ثم ينتقل بالفاتحة ويهديها للنبى ﷺ ثم يبدأ الحضرة بالاستغفار بعدد مخصوص يحدده له شيخه، ثم يذكر الاسم الذى خصصه له شيخه حسب القواعد السالفة الذكر، وكل مريد يبدأ أولا بالاسم الأول، ثم يذكر بالاسم الثانى، وهكذا حتى إلى آخر مرحلة وصل إليها فى الطريق. ثم يصلى على النبى (ﷺ) بصيغة خاصة لكل طريق، تميزه عن غيره. ففى الخلوتية يصلى على الرسول (ﷺ) قائلاً: «اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله، عدد كمال الله وكما يليق بكماله». ثم يدعو لنفسه ولإخوانه ومشايخه بعد قراءة الفواتح بنفس الترتيب الذى بدأ به الحضرة.

ثانيا: الحضرات المجمعة [18]

لكل طريق مجموعة من الحضرات الأسبوعية التى يجتمع فيها المريدون مع شيخهم يذكر بهم الأسماء السبعة ثم يختم الحضرة هو أو من ينيبه عنه بالدعاء ثم يلتف المريدون حول الشيخ يحدثهم قليلا فى الطريق وآدابه وكرامات الشيخ وقليل من المشايخ الذى يعظهم ويعرفهم بربهم أو سنة نبيهم (ﷺ)، وقد يختلف أسلوب الذكر

---

(١٨) حضرات الكفر والشرك بالله والتنهيق والشخير والفوضى فيا ويلهم من رب العالمين.

من الحضرة إلى أخرى داخل نفس الطريق، وحسب الخليفة الذى يستفتح. كما أن هناك أسلوبا معينا يصاحب الذكر يختلف باختلاف الاسم، فذكر «لا إله إلا الله» يصاحبه حركة رأس المريد من أقصى اليمين ثم يتوجه الرأس إلى جهة القلب، وكأن المريد يصل أنوار الاسم فى قلبه.

بينما ذكر «الله الله» يصاحبه حركة الرأس من أعلى وإلى الخلف، ثم تتحرك الرأس كأنها تضرب الجسم إلى أسفل، وهكذا، يتلقى المريد عن شيخه طريق نطق كل اسم من الأسماء، ودرجة الصوت فى كل مرحلة من مراحل الحضرة حيث تختلف أسلوب النطق ومعدل الذكر من بدء الذكر بالاسم إلى نهاية الذكر.

وقد بحثنا فى كتب العلم ومصادر الحديث الشريف وفى أفعال النبى (ﷺ) عن دليل يشير إلى أن رسول الله (ﷺ) جلس يوما بين أصحابه وذكر الله تبارك وتعالى ذكراً مجرداً كذكر الصوفية اليوم. بمعنى آخر هل الحضرة بشكلها الذى شرحناه آنفا هى عبادة على هدى النبى (ﷺ)، فإن كانت كذلك فعلى الرحب والسعة، أما إذا كانت هذه الهيئة شيئا محدثا اخترعه مشايخ الصوفية من عند أنفسهم، فهذا هو الأمر الجلل، إذ أن كثيرا من الناس لا يفرق بين التقليد والاتباع، فالعمل يوم القيامة ينصب له ديوانان، أولهما ديوان الإخلاص لله تعالى، فلا بد للعمل حتى يقبله الحق تبارك وتعالى أن يكون خالصا من الرياء والشرك وحب السمعة والمحمدة، فإذا اجتاز العمل هذا الديوان، دخل إلى ديوان المتابعة وهل هذه العبادة قام بها العبد متبعاً فيها النبى (ﷺ) أم أن العبد اتبع المشايخ والأهل والعشيرة كما اتبع اليهود والنصارى الأحبار والرهبان، لذلك بحثنا عن الدليل والبرهان، وتوصلنا إلى أن الصوفية يستندون فى ذكرهم هذا على حديث يروونه أن النبى (ﷺ) جلس يوما بين أصحابه وذكر الله بالأسلوب الصوفى المتعارف عليه فى الحضرات، وهذا الحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده، والطبرانى فى معجمه الكبير، ونص الحديث:

«حَدَّثَنا أَبى شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ وَعُبَادَةُ بْنُ الصَّامِت حَاضِرٌ يُصَدِّقُهُ قَالَ كُنَّا عنْدَ النَّبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ فَقَالَ هَلْ فيكُمْ غَريبٌ يَعْنى أَهْلَ الْكتَاب فَقُلْنَا لا يَا رَسُولَ اللَّه فَأَمَرَ بغَلْق الْبَاب وَقَالَ ارْفَعُوا أَيْديَكُمْ وَقُولُوا لا إلَهَ إلا اللَّهُ فَرَفَعْنَا أَيْديَنَا سَاعَةً ثُمَّ وَضَعَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ يَدَهُ ثُمَّ قَالَ الْحَمْدُ للَّه اللَّهُمَّ بَعَثْتَنى بهَذه الْكَلمَة وَأَمَرْتَنى بهَا وَوَعَدْتَنى عَلَيْهَا الْجَنَّةَ وَإنَّكَ لا تُخْلفُ الْميعَادَ ثُمَّ قَالَ أَبْشرُوا فَإنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ غَفَرَ لَكُمْ».

ولو درسنا إسناد هذا الحديث لوجدنا إسماعيل بن عياش حذر منه الإمام مسلم فى مقدمة الصحيح، ثم روى خبرا قال فيه حدثنا الدارمى، أخبرنا زكريا بن على قال: قال لى أبـو إسحاق الفزارى: لا تكتب عن إسماعيل بن عياش ما روى عن المعروفين ولا عن غيرهم.

كمـا أن راشد بن داود وصفه علماء الجرح والتعديل بأنه صدوق، لـه أوهام، وقال عنه البخارى فيه نظر، وصرح الدارقطنى بتضعيفه حين قال: ضعيف لا يعتبر به.

فالإسـناد فيه راويين، أحدهما صرح العلماء بعدم الكتابة عنه، وبالتالى تكون رتبته فى علم الجرح والتعديل هى التاسعة، والثانى صرح الدارقطنى بتضعيفه، وبالتالى يكون الإسـناد متروكا، وهى أوهى درجات الحديث الضعيف، وحكمه عدم الاحتجاج به مطلقـا، ولا يـنقل بهذا الإسناد مطلقا، وأما من حيث المتن ففيه غرائب كثيرة، أولها سـؤال النبى: ((هل فيكم غريب))يوحى بأن هذه الواقعة كانت بعيدة عن أعين الناس، وهـذا حـال الإسـلام فى مكة، ويلغى هذا الاحتمال أن شداد بن أوس وعبادة بن الصامت من الأنصار، وأوس والد شداد بايع فى بيعة العقبة، وقتل يوم أحد، ولو كان شداد شابا فتيا آنذاك لقاتل يوم أحد، ولكنه كان صغيرا، وبالتالى لا يستطيع أن يحضر هـذا المجلـس مع النبى قبل يوم أحد، وبهذا نصل إلى أن هذه الواقعة كانت بعد زمن أحد، وما كان رسول الله ليسأل عن الغرباء من أهل الكتاب حتى يستفتح هذا الذكر، ومـن غـرابة هذا الحديث أيضا أن يرفع النبى (ﷺ) يديه طوال فترة هذا الذكر، ولم يتكرر هذا الأمر مرة ثانية طوال البعثة، ولم نرَ النبى (ﷺ) يرفع يديه ساعة فى أمر آخر سوى الدعاء حتى يرفعه فى الذكر.

أمـا عـن روايـة الطـبرانى، لهذه الواقعة فقد كان نصها: حدثنا أحمد بن المعلى الدمشـقى والحسين بن إسحاق التسترى، قالا ثنا هشام بن عمار، ثنا عبد الملك بن محمد الصنعانى، ثنا راشد بن داود الصنعانى، ثنا يعلى بن شداد بن أوس عن أبيه قال: إنى لمع رسول الله (ﷺ) فى بيت رجل من أصحابه فقال: انظروا هل فيكم من غيركم؟

فقـالوا: لا، فقال: احف (أى اغلق) الباب، فأغلق الباب، ثم قال: ارفعوا أيديكم وقولـوا: لا إلـه إلا الله، فرفع رسول الله (ﷺ) فرفعنا أيدينا، ثم قال: ضعوا أيديكم وأبشروا، فقد غفر لكم، إنى بُعِثْت بها، وبها أُمِرت، وعليها أدخل الجنة.

والتعليق على حالة السند أن طريق الحديث ينتهى إلى راشد بن داود عن يعلى عن أبيه، وهو نفس الطريق السابق، وراشد كما ذكرنا صدوق لـــه أوهام، وفيه نظر، وصرح الدارقطنى بتضعيفه. كما أن هذه الرواية تلغى أمر رفع اليدين، وأيضا لا تتفق مع الرواية الأولى فى تكرار الذكر بـــ«لا إله إلا الله»، وأقل ما يوصف به هذا الحديث أنه حديث ضعيف، والحديث الضعيف كما قرر علماء الحديث لا ينقل إلى الناس إلا مع التنبيه على ضعفه، ولا يحتج به ولا يعمل به، ولو أراد الصوفية أن يستندوا إلى هذا الحديـــث لإثبات صحة الحضرات نقول لهم: إن أمور هذا الدين التى تدل الناس على الخـــير العظيم لا ينقلها إلينا السلف عن الصحابة من خلال طريق معلوم، وإنما يحدده القرآن الكريم فى آياتها المحكمات، وتؤكده الأحاديث الصحيحة.

الأسماء السريانية

تحدثـــنا فى الكتاب السابق من هذه السلسلة عن الأسماء السريانية كنوع من العلوم الباطنية لدى الصوفية، وضربنا العديد من الأمثلة الموجودة اليوم فى أوراد أشهر الطرق الصوفية فى مصر، ولن نكرر الحديث هنا،: وإنما نناقش فى هذا الباب مكونات المنهج الذى يحدده الشيخ لمريديه، وما يأمرهم أن يتعبدوا الله تعالى به على طريقتهم، التى لا يخفـــى مـــا فيها من الزعم بأنها تنضح عن أنوار وفتوحات ومذاقات عالية، لذا فإننا ســـنعرض فى عجالة أخص أسرار القوم، حيث تخفى معظم الطرق الصوفية الفتوحات العالية التى نالها الشيخ من بركة اتباعه للملك الصوفى.

الطريقة الجيلانية

من الأسماء السريانية التى ابتكرها أتباع الجيلانى وأطلقوها على معبودهم ما جاء فى ورد الجلالـــة المنســـوب زورا وبهـــتانا للشيخ عبد القادر الجيلانى ما نصه: «وأسألك الوصـــول بالسر الذى تدهش منه العقول، فهو من قربه ذاهل، أيتنوخ، ياملوخ، باى، وامـــن أى وامـــن، مهباش الذى لـــه ملك السماوات والأرض»، ثم يستطرد قائلا: «طهفلـــوش انقطـــع الـــرجاء إلا منك، وسدت الطرق إلا إليك، وخابت الآمال إلا فيك» كما يقرأ المريد باقى الأوراد التى تقحم الأسماء الصوفية بين آيات القرآن الكريم، ومنها ما يقرأه المريد من الأسماء السريانية مندمجة ضمن آيات سورة الواقعة، منها: «يا باســـط يا غنى بمهبوب ذى لطف خفى بصعصع بسهسهوب ذى العز الشامخ، الذى لـــه العظمة والكبرياء بطهطهوب لهوب ذى القدرة والبرهان والعظمة والسلطان»، ثم

يستطرد قائلا: ((بحق سورة الواقعة وبحق فقج مخمت مفتاح جبار فرد معطى خير الرازقين))

الطريقة الدسوقية

يقول الدسوقى فى ورده المسمى الحزب الكبير ما نصه: ((اللهم آمنى من كل خوف وهم وغم وكرب كدكد كردد كردد كردد كرده كرده ده ده ده الله رب العزة))

الطريقة البرهانية

ورد فى الحزب الصغير: ((أحمى حميثا أطمى طميثا، ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب ٢٥]. وفى نفس الحزب يقول المريد: ((بها بها بهيا بهيا بهيا بهيات بهيات القديم الأزلى يخضع لى كل من يرانى، لمقفنجل يا أرض خذيهم.[١٩]

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ [الإسراء ٥٠]. ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصافات ٢٤].

﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون ٤] ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، طهور بدعق محببة صورة محببة سقفاطيس سقاطيم أحون أدم حم هاء آمين)).

الطريقة الشاذلية

والأسماء السابقة التى يذكر بها البرهانية هى نفسها من أوراد الشاذلية أيضاً، ويضيف كتاب أدل الخيرات ما يلي: ((يا لله يوه واه هو يا هو يا من هو أنت، أنت هو يوه هو يا يوه هو يا جليل يا هو يا من لا هو إلا أنت هو)).

الطريقة الفاسية

يمزج الفاسى الآيات القرآنية بعقيدة وحدة الوجود بالألفاظ السريانية فيقول: ((اللهم صل على كلمتك العليا من حيث الاختراع والابتداع، وعروتك الوثقى من حيث تتابع الأتباع، وحبلك المعتصم عند الضيق والاتساع وصراطك المستقيم للهداية والاتباع، ألم، حم، أَدُمَّ، حَمَّ (ق) (طم). (محمد رسول الله والذين آمنوا) أَحُونٌ ودود (طه) (يس) (ق). ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم١] اللهم صلى على المتخلق

---

(١٩) من أراد المزيد من البيان فليرجع إلى كتابنا (ظاهر الدين وباطنة) (٩٥: ٦١).

بصفاتك، المستغرق فى مشاهدة ذاتك، الحق المتخلق بالحق، حقيقة الحق، «أحق هو قل أى وربى إنه لحق».

الطريقة الخلوتية العيونية

يتلقى المريد فى بداية سلوكه عشر آيات قرآنية من دعاء يسمونه دعاء سر القاف، ويتكرر حرف القاف عشر مرات فى كل آية من هذه الآيات العشر، فيصبح مجموع حروف القاف فى الآيات مائة قاف، وهذا العدد هو جمل حرف القاف، حسب قواعد علم الجفر، أحد علوم بنى إسرائيل[٢٠]، بموجب قاعدة أبجد هوز.. وقد قرأت فيما أتذكر فى أحد الكتب الصفراء أن من يداوم على قراءة هذه الآيات يصبح من أهل التصريف.

ومن تدرج المريد فى مراتب الطريق السبعة تظهر الألفاظ السريانية تباعا، فإذا وصل المريد إلى الاسم السادس والسابع تلقى جرعة كبيرة من هذه الأسماء، وتبلغ الألفاظ السريانية فى ورد الاسم السابع ثمانين اسما، منها ما هو مكتوب نثرا، ويسمى دعاء البرهتية، ومنها ما نظمه المشايخ فى قصيدة تسمى الجلجلوتية. والبرهتية يقرأ فيها المريد (٤١) اسما، كل منها مكتوب مرتين بهذه الصورة: «برهتية برهتية، كرير كرير، تتليه تتليه، وهكذا».

ويشرح البونى فى كتابه (منبع أصول الحكمة) أسرار البرهتية بقوله: «فاعلم أن أسماء البرهتية هى القسم المعول عليه من قديم الزمان، وكان القدماء يسمونه بالعهد القديم، والميثاق العظيم، والسر المصون والكنز المخزون، والعهد القديم، والكبريت الأحمر، وقد تكلم به القدماء الأول، ثم السيد /سليمان بن داود «عليه السلام»، ثم آصف بن برخيا، ثم الحكيم قلفطيروس، ثم تتلمذ له إلى يومنا هذا، وهو قسم عظيم لا يتخلف عنه ملك، ولا يعصيه جنى ولا عفريت، ولا مارد ولا شيطان، وكل طالب لم تكن عنده أو لم يكن له علم بها فعلمه أجذم، وبالجملة فهذه الأسماء قسم جليل عظيم الشأن، كثير البركة والبرهان، يغن عن جميع ما عداه من العزائم والأقسام، ويتصرف فى جميع الأعمال من استنزال أملاك، واستحضار أعوان، وجلب دفع، وصرع وقهر، وإخفاء وإظهار». وهكذا يتلقى المريد أوراده عن الحكماء الأول وليس عن النبى (ﷺ)، وهذه الأدعية هى من علوم السحر لا دخل للفتوحات والأسرار

---

(٢٠) مجموع الأوراد الكبير ورد الجلالة للجيلانى صفحة (١٠).

والإلهامات الربانية، وبرغم اعتراف البونى أن هذه الأسرار ينسبها تارة إلى علوم الحكمة والفلاسفة، وينسبها تارة أخرى إلى علوم سليمان «عليه السلام»، إلا أن المريدين يتمسكون بها على أنها أرقى الفتوحات فى الإسلام.

جاه الحروف فى دعاء الصوفية

لا يخلو ورد من أوراد الطرق الصوفية من التوسل والدعاء بحق الحروف وجاهها عند الله وأسرارها الباطنية المودعة فيها، ويلتمس الصوفية بركة الحروف استنادا إلى أن القرآن الكريم قد استفتح بعض سوره بمجموعة من الحروف، فهم يقولون طالما أن الحق تبارك وتعالى ذكر «آلم، المر، طس، طسم، ق، ن، كهيعص»، وغيرها، فلا بد أن لها أسرارا خاصة، وفوائد جمة، وهذا يبرر لنا الدعاء بحقها، وهم فى حقيقة الأمر يتبعون الشيعة ويسيرون خلفهم، فهم أول من زعم فى الإسلام أن للحروف أسرارها، تارة، وينسبونها إلى سيدنا على بن أبى طالب، وقال بعض العلماء إن علم الحروف من معجزات إبراهيم الخليل ثم الإمام على «كرم الله وجهه» وورثه عن سيدنا رسول الله (ﷺ)، وإليه الإشارة بقوله «عليه السلام» «أنا مدينة فى العلم، وعلى بابها..»، وإليه ينسب تصنيف (الجفر الجامع فى أسرار الحروف).

وتارة ينسبونه إلى جعفر الصادق (رضي الله عنه)، ويسمون هذا العلم بعلم الجفر، وهذا العلم لا يتلقاه الأتباع من الكتب، إنما هو علم وهبى لذلك يقول علماء الشيعة: «علم الجفر هو علم الحروف الذى به تعرف الحوادث إلى انقراض العالم»وجاء عن جعفر الصادق أنه فسر علم الجفر أنه وعاء من آدم، فيه علم العلماء الذين مضوا من بنى إسرائيل، وجاء عنه الشيء الكثير عن الجفر، وإنا وإن لم نعرف هذا العلم والقصد منه،.. نعرف من هاتيك الأحاديث التى ذكرت عن الجفر أنه من مصادرهم أى أئمة الشيعة»وأن هذا العلم شريف منحهم الله إياه.

وهناك أساليب عديدة فى تطبيق قواعد تكثير الحروف منها: ثم هناك التركيب الحرفى، وهو مذهب أفلاطون الإلهى، والتركيب العددى، وهو مذهب سامور الهندى، وكل طريق منها موصلة إلى الغرض المطلوب».

والمتتبع لأوراد الطرق الصوفية يرى الكثير من الأمثلة التى تدندن حول جاه الحروف وأسرارها، ومن ذلك ما ورد فى ورد الخلوتية[٢١]:

«اللهم بحق كهيعص،.. وق ون، وبتصريفهم، اقهر لى خلقك أجمعين، وسخر لى كل أحد وصرفنا فى سرها كيف شئت».

وأمددنى برقائق اسمك الحفيظ، الذى حفظت به نظام الموجودات، واكسنى بدرع من كفايتك، وقلدنى بسيف نصرك وحمايتك، وتوجنى بتاج عزك وكرامتك، وردنى برداء منك، وأركبنى مركب النجاة فى المحيا بعد الممات، بحق «فجش ثظخز».

وقد نسى المشايخ أن أفضل عابد لله تعالى وأتقى الناس وأخشاهم لله تبارك وتعالى سيدنا محمد (ﷺ)، وهو قدوتنا والذى أمرنا الله تبارك وتعالى بقوله:

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر٧]. وأن هذا الدين يؤخذ بالتلقى عن رسول الله (ﷺ) وليس فيه مكان للتأليف والابتكار، خاصة فيما يتعلق بعبادة الله تبارك وتعالى، والتقرب إليه، بل أن الرسول (ﷺ) قد حذر أمته بأوضح بيان من مغبة إحداث أمور فى دين الله، فقال (ﷺ): «من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد»، والرد عودة إلى الجاهلية، واتباع الهوى والظن، وإن الظن لا يغنى عن الحق شيئا.

ولقد اقتبس الصوفية علوم الحرف التى أحدثها اليهود، وكانوا يستخدمونها فى زمن النبى (ﷺ)، ومن هذه العلوم علم الجفر، وحساب الجمل، والسحر والتنجيم والأوفاق وغيرها، وقد استعان بها كهان النصارى وأحبار اليهود، وهى لا تخرج عن كونها استعانة بالجن، ونوع من الحيل ومهارة السحرة، ويستعمل الصوفية هذه العلوم فى فك المربوط، ومعالجة الذى مسه الجن، ومعرفة المغيبات، وغير ذلك من الأمور التى تؤكد العلاقة الوثيقة بين الصوفية والجن، وقد اجتهد الصوفية فى فك ألغاز الحروف، والتعرف على أسرارها وصفاتها واستخداماتها، ولذلك فقد فقاموا بتجميع حروف أوائل السور ووجدوا أنها أربعة عشر حرفا، أطلقوا عليها الأسماء النورانية،

---

(٢١) المفاخر العليا فى المآثر الشاذلية لأحمد بن عباد (٢٢٢) وهذه الصيغة وردت فى مجموع أوراد البرهانية صفحة (٢١: ١٨)، مجموع الأوراد الكبير (١٦٩)، ورد الاسم الثانى من أوراد الخلوتية العونية.

وبالتالى أطلقوا على باقى حروف اللغة العربى بالحروف الظلمانية، كما اشتغل المشايخ بالأوفـاق وقسموها إلى الوفق الثلاثى والرباعى والخماسى وغير ذلك، وتعتمد هذه الأوفاق على قيمة كل حرف فى علم الجمل ويضعون فى كل خانة من خانات الجدول حرفا لا يتكرر فى باقى الجدول، بحيث تكون القيمة العددية لمجموع حروف كل صف أو كـل عمـود أو كـل قطر قيمة واحدة، وزعموا أن لهذه الأوفاق قوة تأثيرية فى الأشياء، فمثلا الوفق الثلاثى لـه اثر فى تيسير الوضع وتخفيف الآمة وما إلى ذلك من الخزعبلات والشعبذات.

وكثيرا ما ترى مشايخ الصوفية يكتبون بعض الحروف على طبق، ثم يغسلونه بالماء ويسقون هذا الماء لصاحب الحاجة، ويوهمون الناس ببركة هذه ا الأشياء، وقد تصادف حـدوث مراد الطالب، فتنة واستدراكا من الله لهؤلاء الحمقى، وبالتالى تزداد المشايخ علوا، وترتفع أسهم بركاهم فى المحافل الصوفية. وهكذا تحولت علوم الصوفية الباطنية إلى جملـة من علوم السحر وفنون بنى إسرائيل، والتعاون مع الجن لفتنة الناس وتحقيق الشهوات.

من دعاء النبى ﷺ (٢٢)

إن المسلم المحب لرسول الله (ﷺ) مطالب أن يثبت محبته هذه بصدق المتابعة، واتخاذ الـنبى الحبيـب قدوة حقيقية، فلا يجب الهدى إلا فى السير على نهجه، واقتفاء أثره. والمريد حين يلتقى بشيخ من مشايخ الصوفية يعتقد لأول وهلة أنه قد حظى برجل من رجـال الله، (جـل وعلا)، وأن هذا الشيخ يقتفى أثر سيد الخلق (ﷺ)، لذلك يأخذ المـريد عن شيخه ويستقيم على طاعته وهو لا يعلم أن خطواته تباعد بينه وبين المراد الحقيقى من هذا الطريق.

ولـو علم المريد حقيقة أن وجهته قد حولها شيخه بعيدا عن النبى (ﷺ) وأخذ بيد المـريد إلى هـواه وتقليده الأعمى لشيخ الطريق الأكبر، ما وافق المريد أن يستمر فى طريق إبعاده عن الحبيب المحبوب (ﷺ).

ربما يقرأ بعض الصوفية هذه السلسلة من الكتب ويوافقنا على ما ذهبنا إليه، ويشعر أن أركان الطريق الذى كان يسلكه قد قوضت بالحجة والبرهان، وربما خطر بباله أن

---

(٢٢) ((ذكر ودعاء)) جمع عبد الله أحمد زينة صفحة (٥٣).

يـنهل من القدوة الحقيقية سيدنا محمد ((صلوات ربى وسلامه عليه وعلى آله وصحبه وسلم))، لذا نعرض فيما يلى نماذج مختارة من أدعية خرج معظمها من فم النبى (ﷺ)، وربمـا أضفنا عليها بعض أدعية السلف الصالح من الصحابة والتابعين، ولا نهدف من ذكـر هـذه الأدعية أن نبتدع طريقا صوفيا جديدا، وإنما نعرض على القارئ نموذجا يوضح منهج رسول الله (ﷺ) فى الدعاء، وليتأكد المريدون أن أورادهم ليست مستقاة من مشكاة النبوة كما يظنون، ولا يظن عاقل طرفة عين أن تكون أدعية الرسول (ﷺ) عـلى هـذا القدر من الأدب، ومعبرة عن كمال العبودية لله وحده، ثم يأتى المشايخ ببضـاعتهم المزجاة فيفترون على رسول الله (ﷺ) الكذب حين يزعمون أنهم تلقوها عنه، (ﷺ) بإذن باطنى، يقظة أو مناماً.

ومن أراد أن ينتفع بأدعية نبوية[٢٣] فليقرأ أولا الفاتحة ثم يقول: ((سبحان ربى العلى الأعـلى الوهاب، سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضى نفسه، وزنة عرشه، ومداد كـلماته، لـك يا رب الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك، اللهم لك الحمـد حمدا كثيرا خالدا من خلودك، ولك الحمد حمدا لا منتهى لـه، دون علمك، ولـك الحمد حمداً لا منتهى لـه دون مشيئتك، ولك الحمد حمداً لا آخر لقائله إلا رضاك عنه)).[٢٤]

● الـلهم إنى أشـهد انك أنت الله لا إله إلا أنت، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الـذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن لـه كفوا أحد، أشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين، وأن محمدا رسول الله الصادق الوعد الأمين، رضيت بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد (ﷺ) نبيا ورسولا، وبالقرآن الكريم كتابا وإماما، اللهم صلّ وسلم على محمد وعـلى آل محمد كمـا صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبـارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد.

● اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا، وأنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لى مغفرة من عندك، واسترنى وارحمنى وألحقنى بالرفيق الأعلى، إنك أنت الغفور الرحيم، اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم، أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه.

---

(٢٣) كنوز الأسرار فى الصلاة والسلام على النبى المختار صفحة (٧٩).

(٢٤) ((ذكر ودعاء)) جمع عبد الله أحمد زينة صفحة (١١٧).

• اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت، خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، وأبوء لك بنعمتك على، وأبوء بذنبى فاغفر لى، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. اللهم إنى أستغفرك من كل ذنب: تبنا إليك منه ثم عدنا فيه، ونستغفرك من كل عمل أردنا بوجهك فخالطه غيرك، ونستغفرك من كل ما وعدناك به من أنفسنا ثم لم نوفِ به، ونستغفرك من كل نعمة أنعمت بها علينا فاستعنا بها على معصيتك، ونستغفرك يا عالم الغيب والشهادة من كل ذنب أتيناه بها فى بياض النهار، وفى سواد الليل، وفى ملأ وخلاء، وسر وعلانية يا حليم، اللهم إنك تعلم سرنا وعلانيتنا، فاقبل معذرتنا، وتعلم ما فى أنفسنا فاغفر لنا ذنوبنا. اللهم اغسل عنى خطاياى، بالماء والثلج والبرد ونقِّ قلبى من الخطايا كما ينقّى الثوب الأبيض من الدنس، وباعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم إنى أعوذ بك من شر ما عملت، ومن شر ما لم أعمل، اللهم أعنى على غمرات الموت وسكرات الموت، اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنّا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارضنا وارضَ عنّا، اللهم أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال، والأهواء والأدواء، اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى وإسرافى فى أمرى، وما أنت أعلم به منى، اللهم اغفر لى خطئى وعمدى، وهزلى وجدى، وكل ذلك عندى، اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير، اللهم اغفر لى ذنبى، ووسع لى فى دارى، وبارك لى فى رزقى، اللهم إنى أعوذ بك من الذنوب التى توجب النقم، أعوذ بك من الذنوب التى تغير النعم، وأعوذ بك من الذنوب التى تهتك الحرم، وأعوذ بك من الذنوب التى تحبس غيث الماء، وأعوذ بك من الذنوب التى تذل إلى الأعداء، اللهم أخرجنا من ذل المعصية إلى عز الطاعة، ولا تذلّنا لأحد من خلقك، وتوِّجنا بتاج عزك، اللهم اجعلنى من الذين إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أساءوا استغفروا، اللهم إنى أعوذ بك من أن أشرك بك شيئا أعلمه، وأستغفرك لما لا أعلمه.

• اللهم نامت العيون، وغارت النجوم، وأنت حى قيوم، اللهم طلبى للجنة بطئ، وهربى من النار ضعيف، اللهم اجعل لى عندك هدى ترده إلى يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد.

• اللهم إنى أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وفجاءة نقمتك وجميع سخطك.

● اللهم إنك تسمع كلامى، وترى مكانى، وتعلم سرى وعلانيتى، لا يخفى عليك شئ من أمرى، وأنا البائس الفقير المستغيث، الوجل المشفق المقر المعترف بذنبه، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، من خضعت لك رقبته، وفاضت لك عبرته، وذل لك جسمه، ورغم لك أنفه، اللهم لا تجعلنى بدعائك شقياً، وكن بى رؤوفا رحيما، يا خير المسئولين ويا خير المعطين.

● اللهم رب الناس مذهب البأس اشفنى أنت الشافى، لا شافى إلا أنت، أشفنى شفاء لا يغادر سقما، اللهم عافنى فى قوتى، واجعلهم الوارث منى.

اللهم إنى أسألك العافية، اللهم آت نفسى تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين، وأصلح لى شأنى كله، لا إله إلا أنت. اللهم إنى أعوذ بك من شر سمعى، ومن شر لسانى، ومن شر قلبى، ومن شر منيى، اللهم بارك لنا فى أسماعنا وأبصارنا، وقلوبنا وأزواجنا وذرياتنا وتب علينا، إنك أنت التواب الرحيم، واجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها قائلين بها وأتممها علينا، اللهم أنت خلقت نفسى وأنت توفاها، ولك مماتها ومحياها، إن أحييتها فاحفظها، وإن أمتها فاغفر لها.

● اللهم إنى أعوذ بك من فتنة النساء، اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفقر، اللهم إنى أعوذ بك من عذاب ا لقبر، لا إله إلا أنت، اللهم إنى أعوذ بك من الفقر والقلة والذلة، وأعوذ بك أن أَظْلِمَ أو أُظْلَم، اللهم إنى أعوذ بك أن أظلم فى سلطانك، أو أضام والأمر إليك. اللهم إنى أعوذ بك من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق، اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين وغلبة الرجال، اللهم إنى أعوذ بك من يوم السوء، ومن ليلة السوء، ومن صاحب السوء ومن جار السوء فى دار المقامة.

● اللهم الطف بى فى تيسير كل عسير، فإن تيسير كل عسير عليك يسير وأسألك اليسر، والمعافاة فى الدنيا والآخرة، اللهم واقية كوقاية الوليد. اللهم كما حسنت خلقى فحسن خلقى.

● أعوذ بوجه الله الكريم وبكلمات الله التامات المباركات التى لا يجازوهن بر ولا فاجر، من شر ما خلق وذرأ وبرأ، ومن شر ما يترل من السماء، ومن شر ما

يعرج فيها، ومن شر ما يخرج من الأرض، ومن شر ما يترل فيها، ومن شر فتنة الليل والنهار، ومن شر كل طارق يطرق، إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن.

• اللهم إنى أسلمت نفسى إليك وفوضت أمرى إليك، وألجأت ظهرى إليك ووجهت وجهى إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، أمنت بكتابك الذى أنزلت وبرسولك الذى أرسلته اللهم إنى أسألك رب الهدى والتقى والعفاف والغنى، اللهم إنى أسألك الصحة والعافية والعفة والأمانة وحسن الخلق والرضى بالقدر، اللهم اكفنى بحلالك عن حرامك، واغننى بفضلك عمن سواك، اللهم إنى أسألك عيشا نقيا، وميته سوية، ومردًا غير مخزٍ ولا فاضح.

• اللهم عافنى فى قدرتك، واقض أجلى فى طاعتك، واختم لى بخير عملى واجعل ثوابه الجنة، اللهم اصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى، وأصلح لى آخرتى التى فيها معادى، اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق: احينى ما علمت الحياة زيادة لى فى كل خير، واجعل الموت راحة لى من كل شر، إنى أسألك صحة فى إيمان، وإيمانا فى حسن خلق، ونجاحا يتبعه فلاح، ورحمة منك وعافية ومغفرة منك ورضوانا.

• اللهم اجعل خير عمرى آخره، وخير عملى خواتمه، وخير أيامى يوم لقائك، اللهم ثبتنى بأمرك، وأيدنى بنصرك، وارزقنى من فضلك، ونجّنى من عذابك يوم تبعث عبادك، فقد أتيتك برحمتك راجيا، اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى، وتجمع بها أمرى، وتلم بها شعثى، وتصلح بها غائبى، وترفع بها شاهدى، وتزكى بها عملى، وتلهمنى بها رشدى، وترد بها ألفتى، وتعصمنى بها من كل سوء، اللهم مصرِّف القلوب، صرف قلوبنا على طاعتك، اللهم طهّر قلبى من النفاق، وعملى من الرياء، ولسانى من الكذب، وعينى من الخيانة، فإنك تعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.

• اللهم أصلح ذات بيننا، وألِّف بين قلوبنا، واهدنا سبل السلام، وأخرجنا من ظلمات المعصية إلى أنوار الطاعة. اللهم إنى قد دعوتك رجاءاً لما عندك، فلا تجعلنى اليوم أخيب من دعائك، فأكرمنى بالجنة، ومُنّ علىّ بالمغفرة والعفو، وأجرْنى من النار، وادْرأ عنى شر خلقك، انقطع الرجاء إلا منك، وأغلقت الأبواب إلا منك، فلا تكلْنى إلى أحد سواك فى أمور دينى ودنياى طرفة عين، ولا أقل من ذلك، ونوّر قلبى

وقـــبرى، وأعذْنى من الشر كله، واجمع لى الخير كله يا أكرم من سُئِل، وأجود من أعطى، اللهم بنورك اهتدينا، وبفضلك استغنينا، وفى كنفك وإنعامك وعطائك وإحسانك أصبحنا وأمســـينا، أنت الأول فلا شيء قبلك، والآخر فلا شيء بعدك، والظاهر فلا شيء فوقك، والباطن فلا شيء دونك، نعوذ بك من الفلس والكسل، وعذاب القبر، وفتنة الغنى، وأسألك موجــبات رحمــتك، وعزائم مغفرتك، والغنيمة من كل برّ، والسلامة من كل إثم، والفوز بالجنة، والنجاة من النار، اللهم يا عالم الخفايات، ويا سامع الأصوات، ويا باعث الأموات، يـــا مجيب الدعوات، يا قاضى الحاجات، يا خالق الأرض والسماوات، أنت الله الذى لا إله إلا أنت، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الوهاب الذى لا يبخل، والحليم الذى لا يعجل، لا راد لأمـــرك، ولا معقـــب لحكمك، رب كل شيء، ومليك كل شيء، ومقدر كل شيء، أســـألك أن تـــرزقنى عـــلما نافعا، وعملا زكيا، وإيمانا خالصا، وهب لنا إنابة المخلصين، وخشوع المخبتين، وأعمال الصالحين، ويقين الصادقين، وسعادة المتقين، ودرجات الفائزين، يا أفضل من قُصِد، وأكرم من سُئِل، لا مهدى إلا من هديت، ولا ضالّ إلا من أضللت، ولا غـــنى إلا من أغنيت، ولا فقير إلا من أفقرت، ولا معصوم إلا من عصمت، ولا مستور إلا من سترت، أسألك أن تهب لنا جزيل عطائك والسعادة بلقائك، والمزيد من نعمك وآلائك، وأن تجعـــل لنا نورا فى حياتنا، ونورا عند قبضنا، ونورا فى قبورنا، ونورا عند سؤالنا، ونورا عـــند حشرنا، ونورا بين أيدينا على الصراط، ونورا نتوسل به إليك، ونورا نفوز به لديك، اللهم اجعل لى نورا فى قلبى، ونورا من أمامى، ونورا من خلفى، ونورا عن يمينى، ونورا عن شمالى، ونورا من فوقى، ونورا من تحتى، ونورا فى سمعى، ونورا فى بصرى، ونورا فى شعرى، ونـــورا فى بشرى، ونورا فى لحمى، ونورا فى دمى، ونورا فى عظامى، اللهم أعظم لى نورا، وأعطنى نورا، واجعل لى نورا، فإنا ببابك واقفون، وبنوالك معترفون، وللقائك راجون.

• الـــلهم إنا نسألك قلوبا أوّاهة مخبتة منيبة فى سبيلك، اللهم إنا نسألك عزائم مغفرتك، ومنجيات أمرك، والسلامة من كل إثم، والغنيمة من كل بر، والفوز بالجنة، والـــنجاة من النار، اللهم افتح مسامع قلبى لذكرك، وارزقنى طاعتك وطاعة رسولك، وعملا بكتابك، اللهم اغننى بالعلم، وزينّى بالحلم، وأكرمنى بالتقوى، واغننى بالعافية، الـــلهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ودعـــاء لا يُسمع، ونفس لا تشبع، ومـــن الجوع فإنـــه بئس الضجيع، ومـــن الخيانة لأنها بئست البطانة، ومـــن

الكسل والبخل والجبن، ومن الهرم وأن أُرد إلى أرذل العمر، ومن فتنة الدجال، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، اللهم لك الحمد شكرا، ولك المَنّ فضلاً، اللهم انفعنى بما علمتنى، وعلمنى ما ينفعنى، وزدنى علما، والحمد لله على كل حال، وأعوذ بالله من حال أهل النار، اللهم إنى أسألك إيمانا يباشر قلبى، ويقينا صادقا، حتى أعلم أنه ليصيبنى إلا ما كُتِب لى، ورضِّنى من المعيشة بما قسمت لى، وأسألك خشيتك فى الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الإخلاص فى الرضا والغضب، وأسألك القصد فى الفقر والغنى، ونعيما لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بالقضاء، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك، فى غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، ومرافقة نبيك فى الفردوس الأعلى، اللهم زيِّنّا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين.

● اللهم إنى أسألك الفوز عند القضاء، ونزل الشهداء، وعيشة السعداء، والنصر على الأعداء، اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر، وعزيمة الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وحسن عبادتك، وأسألك لسانا صادقا، وقلبا سليما، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأسألك من خير ما تعلم، وأستغفرك مما تعلم، إنك أنت علاّم الغيوب، اللهم يا ذا الحول الشديد، والأمر الرشيد، أسألك الأمن يوم الوعيد، والجنة يوم الخلود، مع المقربين الشهود، الرُكّع السجود، الموفين بالعهود، إنك رحيم ودود، وإنك تفعل ما تريد.

● اللهم اجعلنا هداة مهتدين، غير ضالين ولا مضلين، سلما لأوليائك، وعدوا لأعدائك، نحب بحبك من أحبك، ونعادى بعداوتك من خالفك، اللهم هذا الدعاء وعليك الإجابة، وهذا الجهد وعليك التكلان، اللهم احفظنى بالإسلام على كل حال، ولا تشمت بى عدوا ولا حاسدا، اللهم إنى أنزل بك حاجتى، وإن قصر رأيى، وضعف عملى، وافتقرت إلى رحمتك، فأسألك يا قاضى الأمور، ويا شافى الصدور، كما تجيز بين البحور، أن تجيرنى من عذاب السعير، ومن دعوة الثبور، ومن فتنة القبور، اللهم ما قصر عنه رأيى، ولم تبلغه نيّتى، ولم تبلغه مسألتى من خير وعدته أحداً من خلقك، أو خير أنت معطيه أحدا من عبادك، فإنى أرغب إليك فيه، وأسألك من رحمتك يا رب العالمين، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادى لما أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطى لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مبعد لما قربت، اللهم ابسط علينا من بركاتك، ورحمتك وفضلك،

ورزقك، اللهم إنى أسألك النعيم المقيم الذى لا يحول ولا يزول، اللهم إنى أسألك النعيم يوم الغلبة، والأمن يوم الخوف.

• اللهم إنا نعوذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعت منا، اللهم حَبِّب إلينا الإيمان، وزيِّنه فى قلوبنا، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم احينا مسلمين، وتوفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين.

• اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين، إلى من تكلنى، إلى عدو يتجهمنى، أم إلى قريب ملكته أمرى، إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى، غير أن عافيتك أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الكريم الذى أضاءت له السماوات والأرض، وأشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يحل على غضبك، أو يترل على سخطك، ولك العُتْبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك.

• اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصى ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما يهون علينا مصائب الدنيا، ومتّعنا بأسماعنا وأبصارنا، وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا فى ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا، ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا، اللهم اجعلنى أخشاك حتى كأنى أراك، وأسعدنى بتقواك، ولا تشقنى بمعصيتك، وخر لى فى قضائك، وبارك لى فى قدرك حتى لا أحب تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجلت، واجعل غناى فى نفسى.

• اللهم ارزقنى عينين هطّالتين، تشفيان القلب بذروف الدموع من خشيتك، قبل أن تكون الدموع والأضراس جمرا.

• اللهم إنى أسألك من الخير كله عاجله وآجله، ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم، اللهم إنى أسألك من خير ما سألك عبدك ونبيك سيدنا محمد (ﷺ)، وأعوذ بك من شر ما استعاذ منه عبدك ونبيك سيدنا محمد (ﷺ). اللهم إنى أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل، وأسألك أن تجعل كل قضاء قضيته لى خيرا. اللهم ارزقنى حبك وحب من ينفعنى حبه عندك، اللهم وما

رزقتنى مما أحب فاجعله قوة لى فيما تحب، اللهم وما زويت عنى مما أحب، فاجعله فراغا لى فيما تحب. اللهم اجعل حبك أحب الأشياء إلى، واجعل خشيتك أخوف الأشياء عندى، واقطع عنى حاجات الدنيا بالشوق إلى لقائك، وإذا أقررت أعين أهل الدنيا من دنياهم، فأقرر عينى من عبادتك.

• اللهم ألبس وجوهنا منك الحياء، واملأ قلوبنا بك فرحا، وأسكن فى نفوسنا من عظمتك، وذلل جوارحنا لخدمتك، وأجعلك أحب إلينا مما سواك، واجعلنا أخشى لك مما سواك. سبحان من تعطَّف بالعز وقال به، سبحان الذى لبس المجد وتكرم به، سبحان الذى لا ينبغى التسبيح إلا له، سبحان ذى الفضل والنعم، سبحان ذى المجد والكرم، سبحان ذى الجلال والإكرام، اللهم قنِّعْنى بما رزقتنى، واسترنى وعافنى أبدا ما أبقيتنى، واغفر لى وارحمنى إذا توفيتنى، اللهم لا تفتنى فى طلب ما لم تقدر لى، وما قدرته على فاجعله ميسرا سهلا، اللهم كافئ عنى والدىّ، وكل من له نعمة علىّ خير مكافأتك، اللهم فرغنى لما خلقتنى له، ولا تشغلنى بما تكلفت لى به، ولا تعذبنى وإنى أستغفرك، ولا تحرمنى وإنى أسألك، اللهم عظِّم شأنك فى نفسى، وألهمنى طاعتك، والعمل بما يرضيك، والتجنب لما يسخطك، يا أرحم الراحمين.

• اللهم إنى اسألك الراحة بعد الموت، والعفو عند الحساب، اللهم إنى أعوذ بك من غضبك وسوء عقابك وشر عبادك، وشر الشياطين وشركهم. اللهم اجعلنى من أعظم عبادك عندك نصيبا، فى كل خير تقسمه الغداة، ونورا تهدى به، ورحمة تنشرها، ورزقا تبسطه، وضرا تكشفه، وبلاءاً ترفعه، وفتنة تصرفها.

• اللهم إنى أعوذ بك أن أفتقر فى غناك، أو أضل فى هداك، أو أذل فى عزك، أو أُضطَّهد والأمر إليك، اللهم إنى أسألك تعجيل عافيتك، وصبرا على بليتك، وخروجا من الدنيا إلى رحمتك، اللهم ارحم غربتنا فى الدنيا، ومصرعنا عند الموت، ووحشتنا فى القبر، ومقامنا بين يديك، اللهم اثبتنا على نهج الاستقامة، وأعذنا فى الدنيا من موجبات الندامة، يوم القيامة، وخفِّف عنّا ثقل الأوزار، وارزقنا عيشة الأبرار، واكفنا واصرف عنّا شر الأشرار، واعتق رقابنا ورقاب آبائنا وأمهاتنا وأخواتنا وإخواننا من النار، برحمتك يا عزيز يا غفار، يا كريم يا ستار، يا حليم يا جبار، يا الله برحمتك يا أرحم الراحمين، ويا أول الأولين، ويا آخر الآخرين، ويا ذا القوة المتين، ويا راحم المساكين، ويا أرحم الراحمين، لا إله إلا أنت سبحانك، إنى كنت من الظالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

حلقات الذكر المحرفة [٢٥]

السؤال: أكتب إليكم هذه الرسالة لأعرض عليكم شيئا أحزننى كثيرا، ولا أعلم الحكم الشرعى فيه، وذلك أننى علمت أن بعض أصدقائى منضمون لجماعة تسمى الطريقة البرهاتية، وذهبت معهم ذات يوم إلى المسجد الذى يجتمعون فيه لأعرف منهجهم.

وعلمت أنهم يقيمون حلقات الذكر يوم الخميس من كل أسبوع، حيث قالوا لى إنهم يذكرون الله ذكرا شرعيا. وبدأ الذكر فإذا بالحاضرين يذكرون بعض أسماء الله الحسنى وبعضهم يردد بعض العبارات غير المفهومة، وبعد ذلك وجدت الحاضرين يتمايلون بعنف وشدة، ثم أخذوا يرقصون ويقفزون على أطراف أرجلهم إلى أعلى وأسفل.

وبعد أن انتهت تلك «الحضرة» سألت أحد مشايخهم عن هذا الذى يفعلونه وهل فى ذكر الله رقص وتصفيق وقفز؟ فرد على قائلا إن هناك حديثا لرسول الله (ﷺ) يبيح ما يحدث، ونص الحديث كما أخبرنى هو: «دخل بعض الصحابة على رسول الله (ﷺ) فوجدوه يرقص حتى كادت البردة الشريفة أن تقع من على كتفيه، فسأل أحد الصحابة: أتنهانا عن الرقص يا رسول الله وأنت ترقص؟ فرد عليه الرسول (ﷺ) وقال: الكيّس الفطِن إذا ذكر حبيبه رقص».

لقد كتبت لكم رسالتى هذه لثقتى الكبيرة بكم داعيا الله تعالى أن يوفقكم فى الرد عليها.

الإجابة: يا أخ علاء: الدين يؤخذ من الكتاب والسنة، وكل ما يتعارض مع الكتاب والسنة فهو باطل وضلال، وعقائد الصوفية وأذكارهم كلها ضلال فى ضلال- كل الطرق الصوفية بما فيها الطريقة البرهاتية. وأحب أن تعلم ما يأتي:

١- الحديث الذى ذكره لك أن رسول الله (ﷺ) كان يرقص كذب وسفالة واجتراء وافتراء على رسول الله (ﷺ) وهو الذى يقول: «من كذب على الله متعمدا فليتبوأ مقعده من النار».

---

(٢٥) م - ت العدد (٣/١٤٠٠) هـ وكتابنا (بدع الصوفية والموالد).

٢- كل آيات القرآن الكريم التى وردت بها مادة «ذكر»هى (٢٦٧) آية، قرأناها وفهمناها فوجدنا أن الذكر فى القرآن لا يخرج عن هذه المعانى:

(أ) القرآن ذكر كما قال فى قولــه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَــا الذِّكْــرَ وَإِنَّــا لَــه لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر ٩].

(ب) الصلاة ذكر كما قال فى قولــه تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِى لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُــمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة٩].

(ت) من الذكر أيضا أن تفكر فى ملكوت الله سبحانه فيزداد إيمانك كما فى قولــه تعــالى: ﴿إِنَّ فِــى خَلْقِ السماوات وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَــارِ لآيَاتٍ لأُولِى الأَلْــبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السماوات وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْــتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَــكَ فَقِنَــا عَــذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران١٩٠].

٣- أمــا بالنســبة للسنة المطهرة فقد وردت عن رسول الله (ﷺ) بعض أنواع الذكر:

(أ) عــبارات لهــا معنى مثل: لا إله إلا الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، الحمد لله، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، إنا لله وإنا إليه راجعون. إلخ. ولم يؤثر عنــه (ﷺ) أنــه كان يذكر الله باسم مفرد من أسمائه كأن يقول مثلا: يا لطيف يا لطيف.. كما يفعل المتصوفة، فهذا باطل وابتداع فى الدين.

(ب) هــناك أذكار معينة كان رسول الله (ﷺ) يقولــها فى مناسبات معينة. إذا لــبس ثوبا جديدا قال دعاءا خاصا. وإذا ركب الدابة قال دعاءا خاصا.. وهكذا إذا أراد أن يــنام، وإذا نظر فى المرآة، وإذا استيقظ من نومه.. وفى كل حالاته (ﷺ) لــه مثل هذه الأذكار.

٤- أما الذكر بطرق الرقص والقفز فهذا ليس من فعل رسول الله (ﷺ)، وإنما هو ابتداع المتصوفة، ويعتبر إساءة إلى الإسلام.

وقد ذكر القرطبى فى تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) أن الإمام أبا بكر الطرطوشى «رحمــه الله» سُئل عن مذهب الصوفية وما يفعلونه من الرقص فأجاب قائلا: «مذهب الصــوفية بطالــة وجهالــة وضــلالة، ومــا الإســلام إلا كــتاب الله وســنة

رســـول الله (ﷺ)، وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامرى، لما اتخذ لهــم عجـــلاً جسدا لـــه خوار، قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون، فهو دين الكفار وعــباد العجل... إلى أن قال فى نهاية فتواه: ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم هذه الحلقات)).

فتاوى أئمة المسلمين [٢٦]

١- ما قولكم فى ذكر غالب فقراء هذا الزمان حيث افترقوا فرقاً.

فمنهم من يقول: لا إيلها إيلا الله بإشباع إله فتولدت عنها ياء، ومد فصارت على صياغة المثنى، وإشباع همزة إلا فتولدت عنها ياء، وإثبات ألفها مع شدة صوت غليظ.

ومنهم من يقول: لا إيلها إلا الله بتفخيم أداة النفى، مع إخراجها من أقصى الحلق والغلظ وإبدال همزة إله ياء وإشباع هائه فتولدت عنها ألف، وقصر لفظ الجلالة جداً عـــن المـــد الطبيعى مع قوة صوت منكر و (خروشة) من الجوف كصوت الناهق من الحيوانات ويسمونه تدويكاً. ويزجرون أتباعهم إذا ذكروا بالاسم خالصاً كما جاء به القرآن ونطق به النبى (ﷺ) وأصحابه وأئمة المسلمين. ويوبخونهم على ذلك. ويقولون لهم: أخرجوا الدوك من جوفكم بقوة وغلظ صوت لتستنير قلوبكم. وربما طردوا من لم يوافقهم على هذا الصنيع من مجلسهم ويقولون له: أتلفت علينا المجلس أو نحو ذلك من الأقوال القبيحة.

ومـــنهم من يقول: لا إلها بالوقف على إله بصيغة التثنية. ثم يبتدئون بإلا الله. وتارة يقفـــون عـــلى إلـــه بالسكون بدون ألف. ويبتدئون بإلا الله مع صوت تمجه الأسماع والطباع السليمة.

وتـــارة يقولـــون: لـــوم لوم إلا الله بتفخيم اللام وضمها مع الفظاظة الشديدة، والإشباع. فتولدت عنها واو وإبدال الألف ميماً ساكنة، وقصر لفظ الجلالة جدا عن المد الطبيعى. وربما أسرعوا فلا تسمع لهم إلا أصوات كأصوات (زوم) النابحين عـــلى الجيفة إلى غير ذلك من الحالات التى شاعت مشاهدتها منهم فى غالب الجهات. وتارة يذكرون بلفظ الجلالة وحـــده. فمنهم مـــن يقول: آلله آلله بمد الهمزة، مـــع التفخيم

(٢٦) فتاوى أئمة المسلمين... وكتابنا بدع الصوفية والموالد.

الغليظ كصوت من فى حلقة حجر وقصر لفظ الجلالة نحو ما مر مع السكون. وتارة يقولون: الله بالسكون مع القصر على نمط ما تقدم. وقد يسرعون فيقولون: هل هل بهاء مضمومة ولام غليظة مثقلة. وتارة يقولون آله آله بهمزة ممدودة ولام قوية الغلظ وهاء ساكنة إلى غير ذلك من الأصوات الساذجة كما هو مشاهد منهم. ومنهم من يقول: آح آح بهمزة مفتوحة وحاء ساكنة.

ومنهم من يقول: الله حى، يقصر لفظ الجلالة مع سكون الهاء ومد حى نحو العشر حركات، مع صوت هائل كصوت من يعالج إخراج حصاة من صدره. وتارة ألله ألله بهمزة مضمومة شديدة الغلظ، مائلة إلى الهاء وقصر الجلالة وضم لامها مع سكون هائها وغلظ الصوت كصوت الواشق (الكلب) العقور المقيم على الرمة إذا رأى غيره من خلفه قادما عليه. ويعرف ذلك بالذكر البيومى كما هو معلوم مشاهد. وليس الوصف كالعيان. وإذا قيل لهم: هذا مخالف لما نطق به المصطفى (ﷺ) وأصحابه وأئمة المسلمين يقولون: طريقتنا تجز ذلك وقد تلقيناه عن أشياخنا هكذا، وهم لا يفعلون إلا ما كان موافقا للشريعة المحمدية. «أيدل»على صحة هذا الفعل الذى يسمونه ذكرا «كتاب»أو سنة أو إجماع فيثابون عليه أم هذه خرافات وبدع محرمة شنيعة خارجة عن الكتاب والسنة وإجماع المسلمين؟ فلا ثواب لهم فيها. بل عليهم العقاب فى الدنيا والآخرة، ويؤدبون على ذلك أدبا شديدا حيث حرفوا أسماء الله تعالى بنطقهم بها على خلاف ما نطق بها الرسول (ﷺ) وأصحابه والسلف الصالح. وعليه فهل يحرم سماعه لأن السامع كالناطق؟ وهل يجب على من رآهم يفعلون ذلك أن يمنعهم عنه ويزجرهم مع التشنيع والإساءة إذا كان يقدر على ذلك ويثاب حيث أزال منكرا من القول وزورا؟ وهل يكون آثما من عظمهم ووافقهم على هذه البدعة الشنيعة؟ فيعاقب حيث رضى بالمحرم فهو كالفاعل له. وإذا قلتم بحرمة هذه الأذكار وحرمة سماعها، وإثابة من أهان أهلها وحقرهم لأجلها، وإثم من وافقهم عليها، فما كيفية الذكر الشرعى لا إله إلا الله وبالله وغير ذلك من أسماء الله تعالى المتداولة التى نطق بها النبى (ﷺ) والخلفاء الراشدون من بعده والأئمة المجتهدون الذى يجب على كل مسلم ومسلمة إذا أراد الذكر أن ينطق به سواء كان بكريا أم حنفيا أم رفاعيا أم شاذليا أم قادريا أم برهاميا أو بيوميا أم أحمديا أم حبيبيا أم عفيفيا أم غير ذلك من الفروع والطرق؟ ومن يخالفه لا ثواب له أصلا بل عليه العقاب ويجب على ولاة الأمر من الحكام ومشايخ السجيد ومن له قدرة أن يهينوه ويمنعوه من ذلك الذكر المخالف

للشريعة المحمدية ولو بالضرب المؤلم إذا لم يحصل منه الامتثال والرجوع عن هذه البدع المحرمة إلا بذلك؟ بينوا لنا ما يتعلق بهذا السؤال على أتم وأوضح الأقوال. دام نفعكم للأنام.

(فأجاب) إمام الأنام شيخ الإسلام بما نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم. والحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الذاكرين. وعلى آله وصحبه الذين هم لأنعمه من الشاكرين.

أما بعد: فاعلم أيها السائل أرشدنى الله وإياك إلى الصواب وحشرنا فى زمرة حزبه الذاكرين الأحباب فاعلم أن ذكر الله تعالى الوارد فضله فى الكتاب العزيز والسنة المقدسة هو المتلقى من رسول الله (ﷺ) بالطرق المتواترة والآحاد الصحيحة. ومن المعلوم أنه عليه الصلاة والسلام أفصح العرب وأبلغهم، وأصحابه الآخذون عنه هم من الفصاحة والبلاغة بالمكان الأعلى واللسان الأغلب. والقرآن العزيز والسنة المطهرة، إنما أخذا عنه على الحال الواصل إلينا بطريق التواتر أو الآحاد الصحيحة من المد أو القصر والتفخيم أو الترقيق والإضغام أو الفك ونحو ذلك. وإن أسماء الله تعالى توقيفية على الصحيح: ومقابلة إطلاق ما دل على كمال ولم يكن موهما. إذا تقرر ذلك فالذكر — أى اللفظ الدال على ذات الله تعالى أو صفته - إما من القرآن أو السنة. وحالهما ما علمت. وإما من غيرهما، ولا تصح إرادته. فتعين الأول. فمن الكتاب مثل قوله عز شأنه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: ١٩]. ومن السنة مثل قوله (ﷺ): «أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله». (٢٧)

---

(٢٧) هذا بعض حديث أخرجه مالك عن طلحة بن عبيد الله بن كريز مرسلا أفضل الدعاء دعاء يوم عرفه وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى لاإله إلا الله وحده لاشريك له (انظر رقم (٤٥٦ ص١٥٣ ج١) كشف الخفاء). وعن جابر مرفوعا: أفضل الذكرلاإله إلا الله. وأفضل الدعاء الحمد لله أخرجه ابن ماجة وابن حبان والنسائى والترمذى وحسان والحاكم وقال صحيح. وأقره الذهبى. (انظر رقم ١٢٥٣ ص٣٣ ج٢ فيض القدير). وكان التهليل أفضل الذكر لأن فيه إثبات الألوهية ونفيها عما عداه، وليس هذا فى غيره من الأذكار، ولأن للتهليل تأثيرا فى تطهير الباطن عن الأوصاف الذميمة التى هى معبودات فى الظاهر﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ=

ومثل: الله ربى. ولا شك أنها مأخوذة عنه (ﷺ) على ما يعلمه العلماء والقراء من مد لا وتخفيف همزتها وقصر الهمزة ومد لا كذلك وقصر الهاء واتصالها بأداة الاستثناء واتصال أداة الاستثناء باللفظ الأعظم وترقيق اللام مع حذف الهمزة من الله ومع تفخيم اللام منه ومع المد وقصر الهاء أو الوقف عليها. فإذا ابتدئ باللفظ الأعظم حققت الهمزة مع الكيفيات المتقدمة. وكذلك جميع الأسماء إنما تعد ذكرا إذا ذكرت على الوجه الوارد عن الشارع (ﷺ) من نحو مد الرحمن أو الرحيم، أو قصر نحو الحى وهكذا. هذا ما تقتضيه اللغة العربية التى هو (ﷺ) ناطق بأفصحها. وكل ما خالف ذلك مما ذكرته فى السؤال وما لم تذكره، ما أنزل الله به من سلطان. بل مما اخترعه الشيطان ولقنه لأتباعه أهل الطغيان. وليس من الذكر فى شيء. بل هو النكر والخسران. وهو حرام قطعا. لما فيه من تقطيع أسماء الله تعالى وتحريفها واللعب بها وتسميته تعالى بما لم يرد فى كتاب ولا سنة ولا إجماع، ولم يدل على تعظيم. ولا يكون ذلك عن استخفاف. وقد ورد عنه (ﷺ): «أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب

=تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ [الفرقان٤٣]. فيفيد نفى عموم الألوهية بقوله: «لا إله» ويثبت الواحد بقوله: «إلا الله». ويعود الذكر من ظاهر لسانه إلى باطن قلبه فيتمكن ويستولى على جوارحه، ويجد حلاوة هذا من ذاق. وكان «الحمد لله» أفضل الدعاء لأن الدعاء عبارة عن ذكر الله وأن تطلب منه الحاجة والحمد يشملها، فإن الحامد لله إنما يحمده على نعمه، والحمد لله على النعم طلب المزيد. وفى الحديث القدسى: إن الله يقول: من شغله قراءة القرآن وذكرى عن مساءلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين. أخرجه الدارمى والترمذى وقال: حسن غريب، والبيهقى فى الشعب عن أبى سعيد (انظر ص٣٥ الإتحافات السنية فى الأحاديث القدسية). وعن ابن عمرو بن العاص مرفوعا: الحمد رأس الشكر. ما شكر الله عبدلايحمده. أخرجه البيهقى وعبد الرزاق فى الجامع والديلمى فى مسند الفردوس بسند رجاله ثقات (انظر رقم ٣٨٣٥ ص٤١٨ ج٣ فيض القدير) فنبه به على وجه تسمية الحمد دعاء. وهو كونه محصلا لمقصود الدعاء فأطلق عليه دعاء مجازا لذلك. فإن حقيقة الدعاء طلب الإنعام. والشكر كفيل بحصول الإنعام للوعد الصادق بقوله: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم٧]. وتمامه بصحيفة (٢٤ ج٢) فيض القدير.

الله تعالى، وإن أفضل الهدى هدى محمد (ﷺ) وشر الأمور محدثاها. وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار»[٢٨]

وورد أيضاً: «من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ» [٢٩] وحينئذ لا يجب إنكاره وتغييره باليد لمن قدر. فإن لم يقدر فباللسان. فإن لم يقدر فبالقلب. ولا يجوز حضور مجالسهم ولا الاستماع لهم. لأهم فى معصية يستحقون عليها التعزير. وموافقتهم والراضى بأفعالهم شريك لهم فى سخط الله وغضبه، نعوذ بالله من ذلك. وأما الذكر الشرعى فقد تقدم بيانه وأزيدك نورا على نور.

قال المحقق الأمير فى رسالته نتائج الفكر فى آداب الذكر: إن المد فى كلمة لا -وهى أداة النفى التى بعدها همزة إله - لا يجوز فى الأفصح نقصه عن ثلاث حركات. وتجوز الزيادة إلى ست حركات، هذا ما تواتر واعلم أن جميع كلمة التوحيد مرققة فلا يفخم منها إلا لفظ الجلالة.

قال: ونهى العلماء عن السكتة على لا إله، لما فيه من إيهام التعطيل، بل يصله بالاستثناء والإثبات بقوله: - إلا الله - بسرعة، خلافاً لما سمعته من بعض هؤلاء الذين ينتسبون إلى الفقراء الصوفية، وما هم منهم. ولكنهم قوم لا يفقهون وليحذر مما يقع لبعضهم من تفخيم أداة النفى، وربما مال بها إلى جهة الشفتين، فتصير كالواو، أو إلى جهة وسط اللسان وما فوقه، فتصير كالياء، أو يبدل همزة إله ياء أو يشبع الهمزة فيتولد منها ياء، أو يزيد فى ألف إله على المد الطبيعى. أو يسكت هناك سكتة لطيفة أو يشبع همزة إلا، فيتولد منها ياء، أو يثبت ألفها فإنه لحن بل يجب حذفها لالتقاء الساكنين، وهؤلاء الجهلة يثنونها ويمدونها ويتفننون فى مدها. وبعضهم يمد هاء إله، ويولد من إشباعها ألفا.

وسمعت بعضهم يثبت همزة ألله ويمدها فتصير كالاستفهام. وكل هذا مخالف لما نطق به رسول الله (ﷺ)، وأمر به. وتارة يزعمون أنهم انجذبوا فيقولون بعض حروف

---

(٢٨) أخرجه أحمد ومسلم والنسائى وابن ماجة عن جابر (انظر رقم ١٦٠٤ ص١٧١ ج٢ فيض القدير).

(٢٩) تقدم رقم (٢١).

هذه الكلمة ويحرفونها. وربما لم تسمع إلا أصوات ساذجة أو شيئاً يشبه نهيق الحمار. أو هدير الطائر. ويرحم الله الأخضرى حيث قال فى منظومته فيهم:

وينبحون النبح الكلاب   طريقهم ليست على الصواب
وليس فيهم من فتى مطيع   فلعنة الله على الجميع

نعم، المأخوذ عن حسه الغائب عن نفسه كل ما جرى على لسانه لا لوم فيه إنما كلامنا فى الذين يتعمدون ذلك، وهم باختيارهم لم يخرجوا عن حد التكليف فهؤلاء يخشى عليهم –من تقطيع أسماء الله وتحريف أذكاره - إنهم يذكرونه وهى تلعنهم على حد ما ورد: رب تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه[٣٠].

والله (سبحانه وتعالى) أعلى وأعلم. وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه اهـ. جواب شيخ الإسلام. ووافقه عموم العلماء.

٢- ما تقول العلماء الأعلام هل ورد فى الكتاب أو فى السنة أن لفظ إه بكسر الهمزة أو فتحها اسم من أسماء الله تعالى يجوز الذكر به؟ وهل ورد إثبات ألف تشبه ألف المثنى فى هاء إله من لا إله إلا الله؟ فيجوز الذكر بإثبات تلك الألف فيه. أفيدونا بالجواب ولكم من الله الثواب.

---

(٣٠) ذكره الغزالى فى الإحياء من قول أنس. (انظر ص١٩٥ ج١) الإحياء (ذم تلاوة الغافلين). وقال بعض العلماء فى بيان معناه - إن العبد ليتلو القرآن فيلعن نفسه وهولايعلم، يقول: ألا لعنة الله على الظالمين، وهو ظالم نفسه. ويقول: ألا لعنة الله على الكاذبين، وهو منهم. (وقد كتب) فى هذا حضرة الأستاذ الشيخ حسنين مخلوف مفتى الديار المصرية قال: ومما يجب التنبيه إليه أن كثيراً من حلقات الأذكار الحالية يقترن بها بدع ومحرمات. فمن تحريف فى أسماء الله تعالى، إلى التزام هيئات بشعة وحركات مستهجنة، إلى أعمال جاهلية وشعوذة شيطانية لايقرها الشرع ولا يعرفها الدين الخالص. ومن واجب مشيخة الطرق الصوفية أن ترشد الذاكرين، وتعلم الجاهلين، وتضرب على أيدى المشعوذين، حتى يبدو الإسلام فى نقائه وجماله وكماله، ويعرف الناس كافة أنه برىء من هذه البدع والخرافات والشعوذة والمنكرات، ويميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض، فيركمه جميعا فيجعله فى جهنم أولائك هم الخاسرون. عند ذلك تؤدى الطرق الصوفية رسالتها للمريدين، وتكون خير معوان على نشر الدين، وتهذيب نفوس السالكين. والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم. (انظر ص١٧٠ فتاوى شرعية).

فأجاب العلامة الشيخ حسن العدوى الحمزاوى بما نصه:

الحمد لله وحده. والصلاة والسلام على من لا نبى بعده. كلمة التوحيد إثباتاً ونفياً من القرآن. وتغيير أى لفظ منه ضلال مبين. فزيادة الألف فى الهاء من الضلال والبدع المحرمة باتفاق أهل السنة. كما نص على ذلك قطب الواصلين الإمام الشعرانى فى كتابه (السنفحات القدسية)، وخاتمة المحققين الإمام الأمير فى (آداب الذكر). والذكر بغير الجلالة والاسم الشريف وباقى أسماء الله الحسنى لا يجوز. والله أعلم.

٣- وأجاب عنه العلامة الشيخ محمد البسيونى البيبانى بما نصه: الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله سيدنا محمد وآله وصحبه ومن والاه. اسم الله تعالى يجل عن أن ينطق به إلا على أجمل الوجوه[٣١]، لا بإه ولا بأه ولا بأه (بكسر الهمزة أو فتحه أو ضمها)، فيجب أن ينطق بالكلمة المشرفة كما نطق بها من قال: أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله. فما كان على خلاف هذا فمردود مقبح صاحبه مطرود محرف للكلم عن مواضعه موقع له غير مواقعه مخالف لما نطق به رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»وأمر به. كما يقع الآن من ناس كثيرين. يزعمون أنهم انجذبوا. فيأكلون بعض حروف هذه الكلمة ويحرفونها. وربما لم يسمع لهم إلا أصوات ساذجة أو شيء يشبه نهيق الحمير أو هدير الطائر. ويرحم الله الأخضرى حيث يقول فيهم بعد عدة أبيات من منظومته:

وينبحون النبح الكلاب ... طريقهم ليست على الصواب
وليس فيهم من فتى مطيع ... فلعنة الله على الجميع

نقله عن العلامة الأمير فى رسالته المسماة بـ (نتائج الفكر فى آداب الذكر)، ثم قال: نعم المأخوذ عن حسه الغائب عن نفسه، كل ما جرى على لسانه لا لوم فيه. إنما كلامنا فى هؤلاء الذين يتعمدون ذلك وهم باختيارهم لم يخرجوا عن حد التكليف، وتطرأ لهم مواجيد نفسانية يتخيلونها وإرادات رحمانية. كلا والله، ما كل وجد بمحمود، إلا إذا ورد على طريق الشرع المحمود. بخسو أنفسهم فى نطقهم بهذه الكلمة التى توضع فى بطاقة صغيرة بوم القيامة فى الميزان فترجح على سجلات كثيرة من

---

(٣١) جل الشيء يجل بالكسر: عظم فهو جليل.

السيئات. كل سجل منها مد البصر، كما جاء فى الحديث[٣٢]، فيا ليت شعرى كيف تـــوزن لهم؟ بل يخشى من تقطيع أسماء الله تعالى وتحريف أذكاره، أنهم يذكرونها وهى تلعنهم كما ذكروا فى التحذير من ترك التجويد «رب تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه»[٣٣] إلى أن قال: فإن قالوا: نحن نتشبه بمن نقل عنه التواجد والطرب من السادات. قلنا: ما صـــدر عنهم إما فى حالة أخرجتهم عن التكليف، أو من باب زلة العالم التى لا يؤاخذ بها، لأن المجتهد مأجور أصاب أم أخطأ. لكن لا يُقتَدَى به فيها، لأن لـــه فى اجتهاده نية تخصصه وحالة تخلصه وما بالهم لم يتشبهوا بهم فى مبادئ سلوكهم ومجاهداتهم، بل تجاوزوا حدود نهاياتهم وتزببوا قبل أن يتحصرموا، ويحقرون غيرهم ويصيحون ويبكون ويحسبون أنهم على شيء، ألا إنهم هم الكاذبون. هلا سلكوا طريق القوم حتى يصيروا مثل ما صاروا بعد أن ساروا، بل عكسوا القضية فعظمت عليهم البلية اهـــ.

وقـــال سيدى عبد الوهاب الشعرانى فى (النفحات القدسية): وليحذر الذاكر من الـــلحن فى لا إله إلا الله، إلى أن قال: ويتجنب مد حرف الهاء من إله، لأنه يتولد منه ألـــف وذلك تحريف للقرآن، اهـــ. وبالجملة والتفصيل والحق الذى ليس على سواه تعديل، فالأمر كما قيل:

ونهج سبيلى واضح لمن اهتدى ولكنها الأهواء عمت فأعمتِ

---

(٣٢) روى عـــبد الله بن عمرو أن النبى (ﷺ) قال: إن الله يستخلص رجلاً من أمتى على رؤوس الخلائـــق يوم القيامة، فينشر عليه تسعا وتسعين سجلاً، كل سجل مثل مد البصر. ثم يقول: أتنكر مـــن هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتى الحافظون؟ فيقول:لايا رب. فيقول: أفلك عذر؟ فيقول:لايا رب. فـــيقول الله تعالى: بلا إن لك عندنا حسنة، فإنهلاظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها «أشهد أن لاإلـــه إلا الله، وأشـــهد أن محمدا عبده ورسوله». فيقول: أحضر وزنك. فيقول: يا رب ما هذه الـــبطاقة مـــع هذه السجلات؟ فقال: فإنك لاتُظلم. فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة، فطاشـــت الســـجلات وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء. أخرجه الترمذى، وحسنه ابن ماجة وابن حبان فى صحيحه والبيهقى والحاكم. وقال: صحيح على شرط مسلم. (انظر ص٢٤٠ ج٢) (الترغيب فى قول لاإله إلا الله وما جاء فى فضلها).

(٣٣) الفتاوى للشيخ محمود شلتوت.

فالحق فى غاية الظهور: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾[النور٤٠].
رزقنا الله والمسلمين الاستقامة.

٤- وأجاب عنه العلامة الشيخ أحمد الأجهورى الشافعى بقوله: الحمد لله وحده. لم يرد علينا شيء من الكتاب ولا من السنة دالة على أن أه مفتوحة أو مكسورة من أسمائه تعالى، فإثبات كونها منها من الشبه التى يلقيها الشيطان، وإثبات جواز الذكر بها أشد قبحاً ولا يجوز إثبات ألف فى هاء إله من لا إله إلا الله غيرها، ولا يجوز الذكر به كما نص عليه السنوسى فى شرحه على السنوسية المعروفة، وهذا حكم جلى لا خفاء فيه، فمن خالف فيه فلا عبرة بوعوعته. والله أعلم.

٥- وأجاب عنه العلامة الشيخ محمد أبو النجا الشرقاوى بقوله: الحمد لله وحده. لن نعرف أن هناك اسما من أسماء الله تعالى يقال له إه بكسر الهمزة وفتحها. والدعاوى التى تكون مثل هذه من الضلال المبين ما لم تثبت، وكذلك إلحاق ألف فى هاء إله من لا إله إلا الله، هو مخالف لما هو معروف من الكتاب والسنة، والله أعلم.

٦ – وأجاب عنه العلامة الشيخ حسن المرصفى بقوله: الحمد لله وحده. لم يرد فى الكتاب، ولا فى السنة، أن لفظ إه بقصر الهمزة مع فتحها أو كسرها من أسماء الله تعالى. وأما آه بمد الهمزة فمن أسماء الأفعال بمعنى أتوجع. فلا يجوز بكل منهما الذكر. فالذكر بغير أسماء الله الواردة حرام لا يجوز الذكر بها. فمن ذكر الله بغير اسم من أسمائه تعالى فهو ضال مضل، كما هو مبين عند علماء الإسلام. والله أعلم. وأما إثبات ألف فى هاء فى لا من لا إله إلا الله، فهو لحن لا يجوز النطق به، لا فى الذكر ولا فى غيره. والله تعالى أعلى وأعلم.

٧ – وأجاب عنه كل من الشيخين الجليلين حسن داود العدوى المالكى، وإسماعيل الحامدى المالكى بما نصه: الحمد لله وحده. والصلاة والسلام على من لا نبى بعده: لم يعلم أن إه وأه من أسماء الله تعالى، لكون أسمائه معلومة فى السنة، وإلحاق ألف فى هاء إله تبديل لكلمة التوحيد المذكورة فى قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ﴾ [محمد ١٩] وحينئذ فالذكر بما ذكر حرام لعدم وروده بتلك الكيفية فى السنة ولا عن أهل الطريق الذين هم قدوة فى ذلك. والله أعلم.

٨ – وأجاب عنه العلامة الشيخ أحمد عمر النشوى الشافعى بقوله: الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا رسول الله (أما بعد) فإنه لم يرد علينا فى كتاب

ولا سنة ولا أثر كون هذه الكلمة التى هى أه بفتح الهمزة أو كسرها اسماً من أسماء الله تعالى التوقيفية. فإثبات كونها منها نزعة شيطانية. وأقبح من ذلك إثبات ألف فى هاء إله من لا إله إلا الله. ومرتكب هذا ضال مضل. وليس ينجو بفضله تعالى إلا من اتبع الكتاب والسنة ولقى الله بقلب سليم.

٩ - وأجاب عنه العلامة الشيخ سليمان النجار السندهورى المالكى بقوله: الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله: كل طريقة تخالف الشريعة فهى ضلالة وبدعة. وذكر أهل هذه الطرق حرام، حيث لم يوافق الكتاب والسنة، بل هو كفر إذا استحلوه من غير وجه شرعى، وإنما هذا من استحواذ الشيطان عليهم، ومخالطة مجالسهم لتزيين ما هم عليه: من تغيير أسماء الله التوقيفية، وإدخالهم فيها ما ليس منها من لفظ إه بالكسر أو الفتح، وإدخال ألف فى هاء إله من الكلمة المشرفة، فترى مجالسهم مجالس الشياطين. وترى منهم من يتمايل على الآخر. ومنهم من يرقص كما يرقص الخيلاء وأهل الأهواء، ويزعمون أنها طريقة أهل الوجد من السلف مع أن المريد فى ابتداء أمره لا يعرف الوجد أصلاً، فضلاً عن كونه لا يعرف شروط الذكر ولا آدابه التى نص عليها مشايخ الطريق، كالأستاذ البكرى سيد الخلوتية بمصر وغيرها، والأستاذ الشعرانى وغيرهما، ولو ذكروا الله بالوارد لعُصموا من تلاعب الشيطان بهم حتى ادعوا الولاية الكبرى والقطبانية العظمى. وأكلوا الدنيا بالدين، ورتبوا على الناس عوائد يأخذونها منهم، ومن لا يعطيهم أوقفوه وهجروه وخاصموه وأمروا تلامذتهم باعتزاله، حتى يبذل لهم العادة ويرجع كما كان، فأين هذا من طريق الله الموافق للشريعة السمحاء، وبالجملة، فأفعالهم خارجة عن الشرع جملة وتفصيلا، فضلا عن كونهم لا يعرفون ما يتعلق بالديانة ولا العبادة ﴿وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف ١٠٢]. والله الموفق.

١٠- هذه صورة الفتوى التى أصدرتها مشيخة الجامع الأزهر الشريف لإذاعتها بين الجمهور إرشاداً للأمة:

(بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، أما بعد. فإنكم تسألون عما يفعله الآن بعض أهل الطرق من أبناء هذا العصر من اجتماعهم صباح مساء، يرددون لفظ «أه أه» يعتقدونه اسماً من أسماء الله، ويقولون إنهم بذلك يذكرون الله سبحانه ويسمون ذلك اسم الصدر).

والجواب: إن هذا اللفظ المسؤول عنه «أه»بفتح الهمزة وسكون الهاء ليس من الكلمات العربـية فى شيء، بل هو لفظ مهمل لا معنى لـه مطلقاً. وإن كان بالمد فهو إنما يدل فى اللغـة العربية على معنى التوجـع، وليس من أسماء الله الحسـنى التى أمرنا الله أن ندعوه بها.

بقولـه: ﴿وَلِلَّهِ الأسْمَـاءُ الْحُسْنَـى فَادْعُـوهُ بِهَا﴾ [الأعراف ١٨٠].

و قولـه: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾. [الإسراء ١١٠].

وقد أجمع العلماء على أن أسماء الله تعالى صفات توقيفية. ولا يجوز لنا إطلاق اسم عليه تعالى أو صفة لم يكن ورد بها الشرع، كما أنهم أجمعوا على أنه لا يجوز لنا التعبد بشـيء لم يـرد الشرع بجواز التعبد به. ومعلوم أنه (ﷺ) لم يخرج من هذه الدار حتى أكمل الله لنا على يديه الديـن، وأتم لنا النعم كما قال تعـالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُـمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْـلامَ دِينًا ﴾ [المائدة ٣].

وفى الصـحيحين عن عائشة عن النبى (ﷺ) أنه قال: «من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ»[٣٤] وفى لفظ: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردّ»[٣٥].

وفى صـحيح مسلم عن جابر أن رسول الله (ﷺ) أنه كان يقول فى خطبته: «أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وإن أفضل الهدى هدى محمد (ﷺ)، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار»[٣٦].

«ومـن تأمل» قولـه تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف ١٨٠]. وتدبر: هذا الوعيد الشديد اقشعر جسمه أن يذكر الله أو أن يدعوه بعد ذلك بغير أسمائه التى سمى بها نفسه، وأذن لنا فى تسميته بها. والإلحاد فى الأسماء هنا على ثلاثة معانى: الخروج بها عما وضعت لـه من المعنى الشرعى، تحريفها عـن لفظها الوارد شرعا، وإدخال ما ليس منها فيها، كموضوع السؤال. وكما نقل المفسرون هنا عن علماء اللغة أن الملحد هو العادل عن الحق والمدخل فيه ما ليس منه. فثبـت بذلـك بطلان عمـل هؤلاء القوم الذيـن انتشروا فى المدن والقرى يجمعون

---

(٣٤) متفق عليه.

(٣٥) رواه مسلم.

(٣٦) رواه مسلم.

الناس ويعقدون المجالس على ذلك، ويتخذون ذلك ورداً موقوتاً زاعمين أنهم يتقربون بذلك إلى الله. وفى ذلك إضلال للعامة ونشر لسنة سيئة فيهم، لأنه تعبد بما لم يتعبدنا الله، وتسمية لله بغير أسمائه. نعوذ بالله من فعل ذلك، أو الإعانة عليه، أو السكوت عنه. ومهما قال زعماء تلك البدعة من قولهم: إنهم وجدوا مشايخهم كذلك، فليس فى ذلك برهان لهم فى الدنيا، ولا مخلص لهم عند الله يوم القيامة من عذابه. كيف وقد قال العلماء الصوفية أنفسهم: كل ما لم يستند إلى الكتاب والسنة فهو باطل. وقالوا: إذا لم يستند كشف الولى إلى الكتاب والسنة فهو كشف شيطانى، لأن الولى غير معصوم. وورد مثل هذا القول أيضا عن أبى الحسن الشاذلى (ﷺ)، وأجمعوا على أنه لا يجوز العمل بالكشف ولا الإلهام والمشاهدة إلا بعد عرضه على الكتاب والسنة، وما يقولونه أيضا من الاستدلال على بدعتهم هذه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة١١٤] فليس من الاستدلال فى شيء. بل هو بقول الجاهلين أشبه لأن الآية ليس معناها أنه كان يذكر الله بلفظ «آه» كما يفعلون، بل معناها كما قال المفسرون: أنه كان مشفقاً رحيماً، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل اهـ.

الصوفية يحرفون أسماء الله الحسنى

الذكر بكلمة «أه» (٣٧)

وهـــذا سؤال يطلب فيه صاحبه بيان المعنى المقصود من ذكر الله الذى طلبه القرآن وحببه وامتدح أهله. ﴿يَـا أَيُّهَــا الَّذينَ آمَنُــوا اذْكُــرُوا اللَّهَ ذِكْرًا﴾ [الأحزاب ٤١]، ﴿وَلَذِكْرُ اللَّه أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت ٤٥].

﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَات أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾

[الأحــزاب ٣٥]. وهل منه هذا اللون الذى نراه ونسمعه من بعض المنتسبين إلى طوائف الصوفية فى الموالد والمجتمعات التى تعرف عندهم باسم الحضرات، وهل يصح الذكر بكلمة «أه»أو بكلمة «لا إيلاه إيلا اللاه»؟

والجــواب: أن الأصــل فى ذكــر الله هو استحضار عظمته وامتلاء القلب بجلاله وجماله، وطريقة النظر والتفكير فى بديع الصنع المحكم، وآثار القدرة الباهرة، والحكمة الــبالغة، والســلطان النافذ، وهو بهذا المعنى أثر الإيمان الحق، وأساس المراقبة الصادقة، والباعــث على كل خير، ويقابله الغفلة عن تلك العظمة؛ والغفلة عن تلك العظمة أثر لضعف الإيمان، وسبيل للرين على القلوب.

وكــثيراً مــا يطلق الذكر على التعبير اللسانى عن تلك العظمة باسم من أسماء الله الحسنى، التى سمى الله بها نفسه فى كتابه، أو سماه بها رسوله. وهذا هو ما يعرفه الناس الــيوم مــن كلمة: «ذكر الله»، ولكن هذا الذكر اللسانى لا يحصل صاحبه على حظ الذاكرين عند الله إلا إذا كان ترجمة معبرة عن الذكر القلبى، وفى غير ذلك يكون حجة عــلى صاحبه، وذنباً يحاسب عليه، وأشد منه فى المؤاخذة به هذا اللون الذى نراه فى الموالــد والمجتمعات المعروفة باسم (الحضرات)، وإن من يسمعه ويرى القائمين به لا يــتردد فى أنــه نوع من الهزل والتمثيل الصاخب، والصياح المنكر الذى لا يمكن أن يكون معبراً عن خاصة ذكر الله فى قلوب المؤمنــين:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُــونَ﴾ [الأنفال٢].

﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد ٢٨].

---

(٣٧) الفتاوى للشيخ محمود شلتوت وكتابنا (بدع الصوفية والكرامات).

أما الذكر بكلمة: ((أه)) - بفتح الهمزة وسكون الهاء - فهى لفظ مهمل ليس له معنى فى اللغة، وليس قطعاً من أسماء الله الحسنى التى وردت فى الكتاب، أو صح ورودها عن الرسول عليه السلام. وذكر الله عبادة، ولا يصح لنا أن نعبده إلا بما أذن لنا أن نعبده به، وإذن الذكر بها كالذكر بالأسماء المحرفة، والمد المغير للحروف والكلمات؛ فكلاهما ذكر فاسد، وذكر حرام. وأخشى أن يكون المتمسكون بألوان هذا الذكر من الذين أمرنا الله بتركهم والإعراض عنهم: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف ١٨٠].

ألا وإن تسمية الله بغير ما لم يسمِ به نفسه، والتحريف فى ما سمى به نفسه، لمن أظهر صور الإلحاد فى أسمائه.

هذا وأرجو أن يهتم العلماء من رجال الصوفية بهذا الجانب، وأن يعملوا على منع الذكر بالأسماء المخترعة أو المحرفة، وأن يطهروا مجتمعات الذكر من صور المهازل الكثيرة التى نراها فى الموالد والحضرات، حتى تكون صورة صحيحة لجمال الإسلام وروعة العبادة، وسبيلاً لقبول الذكر، ورضى الله والإقامة عليه.

وبعد: فحكم الموالد والحضرات من عادات سيئة، وبدع منكرة لا يرضى بها الله، ولا يطمئن إليها المؤمنون! والخير كل الخير أن يتحرى المؤمن فى عبادته كلها ما رسم الله لعباده وبينه رسوله، ودرج عليه المسلمون الأولون. انتهى.

الأوراد البدعية ومنافاتها للإسلام (٣٨)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد: فقد كتب إلينا بعض الإخوة الفضلاء أنه يوجد فى بلادهم أُناس متمسكون بأوراد ما أنزل الله بها من سلطان، منها ما هو بدعى ومنها ما هو شركى وينسبون ذلك إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب (رضي الله عنه)، وغيره. ويقرءون تلك الأوراد فى مجالس الذكر أو فى المساجد بعد صلاة المغرب، زاعمين أنها قربى إلى الله، كقولهم: بحق الله رجال لله أعينونا بعون الله وكونوا عوننا لله، وكقولهم: يا أقطاب ويا أوتاد ويا أسياد أجيبوا يا ذوى الإمداد فينا واشفعوا لله هذا عبدكم واقف وعلى بابكم عاكف، ومن تقصيره خائف، أغثنا يا رسول الله، وما

---

(٣٨) الهدى النبوى / العدد رمضان وشوال ١٤٠٦ هـ. وكتابنا بدع الصوفية والكرامات.

لى غيركم أذهب ومنك يحصل المطلب، وأنتم خير أهل الله، بحمزة سيد الشهداء، ومن منكم لنا مدداً، أغثنا يا رسول الله، وكقولهم: اللهم صلِّ على من جعلته نبياً، لانشقاق أسرارك الجبروتية، وانفلاق لأنوارك الرحمانية، فصار نائباً عن الحضرة الربانية، وخليفة أسرارك الذاتية، ورعيتكم فى بيان ما هو بدعة، وما هو شرك، وهل تصح الصلاة خلف الإمام الذى يدعو بهذا الدعاء كل ذلك كان معلوماً.

الجواب: والحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبى بعده، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد: فاعلم –وفقك الله - أن الله – سبحانه - إنما خلق الخلق وأرسل الرسل عليهم الصلاة والسلام ليعبد وحده، لا شريك له دون كل ما سواه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإنْسَ إلا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات٥٦].

والعبادة هى طاعته سبحانه وطاعة رسوله محمد (ﷺ)، بفعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهى الله عنه ورسوله، عن إيمان بالله ورسوله، وإخلاص لله فى العمل مع غاية الحب لله وكمال الذل وحده كما قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إلا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء٢٣] أى أمر وأوصى بأن يعبد وحده، وقال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّه رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة] أبان سبحانه بهذه الآيات أنه هو المستحق لأن يعبد وحده ويستعان به وحده، وقال عز وجل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَه الدِّينَ (٢) أَلا لِلَّه الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر٣] وقال سبحانه: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَه الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر١٤] وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّه فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّه أَحَدًا﴾ [الجن١٨] والآيات فى هذا المعنى كثيرة، وكلها تدل على وجوب إفراد الله بالعبادة، ومعلوم أن الدعاء بأنواعه من العبادة، فلا يجوز لأحد من الناس أن يدعو إلا ربه، ولا يستعين ولا يستغيث إلا به، عملاً بهذه الآيات الكريمة، وما جاء فى معناها.

وهذا فيما عدا الأمور العادية والأسباب الحسية التى يقدر عليها المخلوق الحى الحاضر فإن تلك ليست من العبادة بل يجوز بالنص والإجماع أن يستعين الإنسان بالإنسان الحى القادر فى الأمور العادية التى يقدر عليها. فى دفع شر ولده، أو خادمه أو كلبه، وما أشبه ذلك، وكأن يستعين الإنسان بالإنسان الحى الحاضر القادر، أو

الغائب بواسطة الأسباب الحسية كالمكاتبة ونحوها فى بناء بيته أو إصلاح سيارته أو ما أشبه ذلك، ومن هذا الباب قول الله عز وجل فى قصة موسى «عليه الصلاة والسلام»:

﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذى مِنْ شِيعَتِه عَلَى الَّذى مِنْ عَدُوِّه﴾ [القصص ١٥]، ومن ذلك استغاثة الإنسان بأصحابه فى الجهاد والحرب ونحو ذلك، فأما الاستغاثة بالأموات والجن والملائكة والأشجار والأحجار فذلك من الشرك الأكبر، وهو من جنس عمل المشركين الأولين مع آلهتهم كالعزى واللات، وغيرهما، وهكذا الاستغاثة والاستعانة بمن يعتقد فيهم الولاية من الأحياء فيما لا يقدر عليه إلا الله كشفاء المرضى وهداية القلوب ودخول الجنة والنجاة من النار وأشباه ذلك، والآيات السابقات وما جاء فى معناها من الآيات والأحاديث كلها تدل على وجوب توجيه القلوب إلى الله فى جميع الأمور وإخلاص العبادة له وحده، لأن العباد خلقوا لذلك وبه أمروا كما سبق فى الآيات، وكما فى قوله سبحانه : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِه شَيْئًا﴾ [النساء٣٦] و قوله سبحانه : ﴿وَمَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة٥] وقول النبى (ﷺ) فى حديث مُعَاذ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ كُنْتُ رِدْفَ النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ فَقَالَ يَا مُعَاذُ هَلْ تَدْرِى حَقَّ اللَّه عَلَى عِبَادِه وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّه قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلا يُشْرِكُوا بِه شَيْئًا وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّه أَنْ لا يُعَذِّبَ مَنْ لا يُشْرِكُ بِه شَيْئًا فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّه أَفَلا أُبَشِّرُ بِه النَّاسَ قَالَ لا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا»متفق على صحته. و قوله (ﷺ) فى حديث ابن مسعود (رضي الله عنه): قال: قال رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ كَلِمَةً وَقُلْتُ أُخْرَى مَنْ مَاتَ يَجْعَلُ لِلَّه نِدًّا أُدْخِلَ النَّارَ وَقُلْتُ أُخْرَى مَنْ مَاتَ لا يَجْعَلُ لِلَّه نِدًّا أُدْخِلَ الْجَنَّةَ». رواه البخارى. وفى الصحيحين من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ لِمُعَاذ بْنِ جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ إِنَّكَ سَتَأْتِى قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه».

وفى رواية للبخارى: «فادعوهم إلى أن يوحدوا الله». وفى صحيح مسلم عن أبى مَالِك الأَشْجَعِى عَنْ أَبِيه أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقُولُ لِقَوْمٍ مَنْ وَحَّدَ اللَّهَ تَعَالَى وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِه حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ». والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة، وهذا التوجيه هو أصل دين الإسلام، وهو أساس الملة، وهو رأس الأمر وهو أهم الفرائض، وهو الحكمة فى خلق الثقلين، والحكمة فى إرسال الرسل جميعاً، «عليهم الصلاة والسلام» كما تقدمت الآيات الدالة على ذلك،

ومنها قولـــه سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُون﴾ [الذاريات٥٦] ومن الأدلة عـــلى ذلك أيضاً قولـــه عز وجل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل ٣٦].

و قولــــه ســبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْــبُدُونِ﴾ [الأنبياء ٢٥] وقال عز وجل عن نوح وهود وصالح وشعيب ((عليهم الصلاة والسلام))إنهم قالوا لقومهم:

﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غيره﴾ [هود ٨٤].

وهذه دعوة الرسل جمعياً كما دلت على ذلك الآيتان السابقتان، وقد اعترف أعداء الرسل بأن الرسل أمروهم بإفراد الله بالعبادة، وخلع الآلهة المعبودة من دونه، كما قال عـــز وجل فى قصة عاد إنهم قالوا لهود ((عليه السلام)): ﴿قَالُوا أجئتنا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَـــذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آباؤُنَا﴾ [الأعراف٧٠] فقال سبحانه وتعالى عن قريش لما دعاهم نبيـــنا محمد (ﷺ) إلى إفراد الله بالعبادة وترك ما يعبدون من دونه من الملائكة والأولياء والأصـــنام والأشجار وغير ذلك: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص٥]، وقـــال عنهم سبحانه فى سورة الصافات: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلا اللَّـــهُ يَسْـــتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أئنا لتاركو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ [الصافات٣٦] والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة، ومما ذكرناه من الآيات والأحاديث يتضح لك - وفقـــنى الله وإياك للفقه فى الدين والبصيرة بحق رب العالمين - أن هذه الأدعية وأنواع الاســـتغاثة التى بينتها فى سؤالك كلها من أنواع الشرك الأكبر، لأنها عبادة لغير الله، وطلب أمور لا يقدر عليها سواه من الأموات والغائبين، وذلك أقبح من شرك الأولين لأن الأولـــين إنما يشركون فى حال الرخاء وأما فى حال الشدائد فيخلصون لله العبادة لأنهم يعلمون أنه سبحانه هو القادر على تخليصهم من الشدة دون غيره كما قال تعالى فى كتابه المبين عن أولئك المشركين: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِى الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَـــه الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت ٦٥].

وقـــال سبحانه وتعـــالى يخاطبهم فى آية أخـــرى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ضَلَّ مَـــنْ تَـــدْعُونَ إِلا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَـــى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا﴾

[الإسـراء٦٧]، فإن قال قائل: من هؤلاء المشركين المتأخرين: إننا لا نقصد أن أولئك يفيدون بأنفسهم ويشفون مرضانا بأنفسهم أو ينفعون بأنفسهم أو يضرون بأنفسهم، وإنما نقصد شفاعتهم إلى الله فى ذلك؟

فالجواب أن يقال لهم: إن هذا هو مقصد الكفار الأولين ومرادهم، وليس مرادهم أن آلهتهم تخلق أو ترزق أو تنفع أو تضر بنفسها، فإن ذلك يبطله ما ذكره الله عنهم فى القـرآن، وأنهم أرادوا شفاعتهم وجاههم وتقريبهم إلى الله زلفى، كما قال - سبحانه وتعـالى - فى سـورة يونس عليه الصلاة والسـلام: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس١٨].

فـرد الله عليهم بقولـه سبحانه : ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِى السماوات وَلا فِى الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعـالَى عَمَّا يُشْرِكـُونَ﴾ [يونس١٨].

فأبـان سبحانه أنه لا يعلم فى السماوات ولا فى الأرض شفيعاً عنده على الوجه الذى يقصده المشركون، وما لا يعلم الله وجوده فلا وجود لـه، لأنه سبحانه لا يخفى علـيه شيء.. وقال تعالى فى سورة الزمر: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ(١)إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا له الدِّينَ(٢) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[الزمر٣]، فأبان سبحانه أن العبادة لـه وحـده وأنه يجب على العبـاد إخلاصهـما لـه جل وعـلا لأن أمـره النبـى (ﷺ) بإخلاص العبادة لـه أمر الجميع... ومعنى الدين هنا هـو عـبادة. والعبادة هى طاعته وطاعة رسوله (ﷺ) كما سلف ويدخل فيها الدعاء والاستغاثة والخوف والرجاء والذبح والنذر كما يدخل فيها الصلاة والصوم وغير ذلك مما أمر الله به ورسوله. ثم قال عز وجل بعد ذلك: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر٣] أى يقولون ما نعبدهـم إلا ليقربونا إلى الله فـرد علـيـه بقولـه سبحانه: ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر٣].

فأوضـح سبحانه فى هذه الآيات الكريمة أن الكفار ما عبدوا الأولياء من دونه إلا لـيقربوهم إلى الله زلفـى. وهذا هو مقصد الكفار قديماً وحديثاً وقد أبطل الله ذلك بقولـــه: ﴿يَحْكُـمُ بَيْـنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّـارٌ﴾ [الزمر٣]، فأوضح سبحانه كذبهم فى زعمهم أن آلهتهم تقربهم إلى الله زلفى وكفرهم بما صرفوا لها من العبادة وبذلك يعلم كل من له أدنى تمييز أن الكفار الأولين

إنمـا كـان كفـرهم باتخاذهم الأنبياء والأولياء والأشجار والأحجار وغير ذلك من المخلوقـات شـفعاء بينهم وبين الله، واعتقدوا أنهم يقضون حوائجهم من دون إذنه سـبحانه ولا رضـاه كمـا تشفع الوزراء عند الملوك فقاسوه عز وجل على الملوك والـزعماء وقـالوا: كمـا أنه من لـه حاجة إلى الملك والزعيم يتشفع إليه بخواصه ووزرائه فهكذا نحن نقترب إلى الله بعبادة أنبيائه وأوليائه وهذا من أبطل الباطل لأن الله سبحانه وتعالى لا شبيه لـه ولا يقاس بخلقه ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه فى الشفاعة إلا لأهل التوحيد وهو سبحانه وتعالى على كل شئ قدير وبكل شئ عليم وهو أرحم الـراحمين لا يخشى أحد ولا يخافه لأنه سبحانه هو القاهر فوق عباده والمتصرف فيهم كـيف يشاء بخلاف الملوك والزعماء فإنهم ما يقدرون على شئ ولا يعلمون كل شئ فلذلـك يحـتاجون إلى من يعينهم على ما قد يعجزون عنه من وزرائهم وخواصهم وجـنودهم. كما يحتاجون إلى تبليغهم حاجات من لا يعلمون حاجته فيحتاجون إلى من يستعطفهم ويسترضيهم من وزائرهم وخواصهم، أما الرب عز وجل فهو سبحانه غـنى عـن جميع خلقه وهو أرحم بهم من أمهاتهم وهو الحكم العدل يضع الأشياء فى موضـعها عـلى مقتضـى حكمته وعلمه وقدرته فلا يجوز أن يقاس بخلقه بوجه من الوجوه ولهذا أوضح سبحانه فى كتابه أن المشركين أقروا بأنه الخالق الرزاق المدبر وأنه هو الذى يجيب المضطر ويكشف السوء ويحيى ويميت إلى غير ذلك من أفعاله سبحانه إنمـا الخصـومة بين المشركين وبين الرسل فى إخلاص العبادة لله وحده كما قال عز وجل: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السماوات وَالأرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُـولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت ٦١].

وقـال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأبْصَارَ وَمَنْ يُخْـرِجُ الْحَى مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَى وَمَنْ يُدَبِّرُ الأمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَـتَّقُونَ﴾ [يونس٣١]، والآيات فى هذه المعنى كثير وسبق ذكر الآيات الدالة على أن التراع بـين الرسل وبين الأمم إنما هو فى إخلاص العبادة لله وحده كقولـه سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل٣٦].

ومـا جاء فى معناه من الآيات. وبين سبحانه فى مواضع كثيرة من كتابه الكريم شـأن الشفاعة فقال تـعالى فى سورة البقرة: ﴿مَـنْ ذَا الَّذى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلا بإذْنه﴾ [الـبقرة٢٥٥] وقـال فى سـورة النجم: ﴿وَكَمْ مِـنْ مَلَكٍ فِى السماوات لا تُغْنِى شَـفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إلا مِـنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم٢٦] وقال فى

سورة الأنبياء فى وصف الملائكة: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء٢٨].

وأخبر عز وجل أنه لا يرضى من عباده الكفر وإنما يرضى منهم الشكر وتوحيده والعمل بطاعته فقال تعالى فى سورة الزمر: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِى عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[الزمر٧]. وروى البخارى فى صحيحه عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّه مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَة قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ((لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لا يَسْأَلُنِى عَنْ هَذَا الْحَدِيث أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيث أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِى يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِه)).

وفى الصحيح عن أنس رضى الله عنه عن النبى (ﷺ) أنه قال: ((لكل نبى دعوة مستجابة فتعجل كل نبى دعوته وأنا اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة فهى نائلة إن شاء الله من مات من أمتى لا يشرك بالله شيئا))، والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة. وجميع ما ذكرنا من الآيات والأحاديث كلها تدل على أن العبادة حق الله وحده وانه لا يجوز صرف شئ منها لغير الله لا للأنبياء و لغيرهم، وأن الشفاعة ملك لله عز وجل كمال قال سبحانه: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر٤٤].

ولا يستحقها أحد إلا بعد إذنه للشافع - ورضاه عن المشفوع فيه - وهو سبحانه لا يرضى إلا التوحيد كما سبق.

أما المشركون فلا حظ لهم فى الشفاعة كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر٤٨] والظلم عند الإطلاق هو الشرك كما قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة٢٥٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان١٣].

أما ما ذكرته فى السؤال من قول بعض الصوفية فى المساجد وغيرها: اللهم صلِّ على من جعلته سبباً لانشقاق أسرارك الجبروتية وانفلاقاً لأنوارك الرحمانية فصار نائباً عن الحضرة الربانية وخليقة أسرارك الذاتية... إلخ.

الجواب: أن يقال إن هذا الكلام وأشباهه من جملة التكلف والتنطع الذى حذر منه نبينا محمد (ﷺ) فيما رواه مسلم فى الصحيح عن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) قال: قال

رسول الله (ﷺ): «هلك المتنطعون»قالها ثلاثاً. قال الإمام الخطابى - رحمه الله -: المتنطع: المتعمق فى الشيء، المتكلف البحث عنه على مذاهب أهل الكلام الداخلين فيما لا يعنيهم، الخائضين فيما لا تبلغه عقولهم.

وقال أبو السعادات ابن الأثير: هم المتعمقون المغالون فى الكلام، المتكلمون بأقصى حلوقهم، مأخوذ من النطع، وهو الغار الأعلى من الفم، ثم استعمل فى كل متعمق قولاً وفعلاً.

وبما ذكره هذان الإمامان من أئمة اللغة يتضح لك ولكل من له أدنى بصيرة أن هذه الكيفية فى الصلاة والسلام على نبينا رسول الله (ﷺ) من جملة التكلف والتنطع المنهى عنه، والمشروع للمسلم فى هذا الباب أن يتحرى الكيفية الثابتة عن رسول الله (ﷺ) فى صفة الصلاة والسلام عليه وفى ذلك غنى عن غيره. ومن ذلك ما رواه البخارى ومسلم فى الصحيحين واللفظ للبخارى عن كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ فَقَالَ: «أَلا أُهْدِى لَكَ هَدِيَّةً إِنَّ النَّبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ خَرَجَ عَلَيْنَا فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّه قَدْ عَلِمْنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ عَلَيْكَ فَكَيْفَ نُصَلِّى عَلَيْكَ قَالَ فَقُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَعَلَى آلِ مُحَمَّد كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّد وَعَلَى آلِ مُحَمَّد كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ».

وفى الصحيحين عَنْ أَبِى مَسْعُود الأَنْصَارِى أَنَّهُ قَالَ: «أَتَانَا رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ فِى مَجْلِسِ سَعْد بْنِ عُبَادَةَ فَقَالَ لَه بَشِيرُ بْنُ سَعْد أَمَرَنَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ نُصَلِّى عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّه فَكَيْفَ نُصَلِّ عَلَيْكَ فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ حَتَّى تَمَنَّيْنَا أَنَّهُ لَمْ يَسْأَلْهُ ثُمَّ قَالَ قُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَعَلَى آلِ مُحَمَّد كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّد وَعَلَى آلِ مُحَمَّد كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ فِى الْعَالَمِينَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ وَالسَّلامُ كَمَا عَلِمْتُمْ».

فهذه الألفاظ وأشباهها وغيرها مما ثبت عن النبى (ﷺ) هى التى ينبغى للمسلم أن يستعملها فى صلاته وسلامه على رسول الله (ﷺ) لأن الرسول (ﷺ) هو أعلم الناس بما يليق بأن يستعمل فى حقه، كما أنه هو أعلم الناس بما ينبغى أن يستعمل فى حق ربه من الألفاظ، أما الألفاظ المتكلفة والمحدثة والألفاظ المحتملة لمعنى غير صحيح كالألفاظ التى ذكرت فى السؤال فإنه لا ينبغى استعمالها لما فيها من التكلف ولكونها قد تفسر بمعان باطلة مع كونها مخالفة للألفاظ التى اختارها رسول الله (ﷺ) وأرشد

إليها أمته، وهو أعلم الخلق وأنصحهم وأبعدهم عن التكلف «عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام» وأرجو أن يكون فيما ذكرناه من الأدلة فى بيان حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك والفرق بين ما كان عليه المشركون الأولون والمشركون المتأخرون فى هذا الباب.

وفى بيان كيفية الصلاة المشروعة على رسول الله (ﷺ) كفاية ومقنع لطالب الحق. أما من لا رغبة له فى معرفة الحق فهذا تابع لهواه وقد قال عز وجل:

﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص ٥٠].

فبين سبحانه فى هذه الآية الكريمة أن الناس بالنسبة إلى ما بعث الله به نبيه محمداً (ﷺ) من الهدى ودين الحق قسمان أحدهما مستجيب لله ولرسوله، والثانى تابع لهواه وأخبر سبحانه أنه لا أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله، فنسأل الله عز وجل العافية من اتباع الهوى كما نسأله - سبحانه - أن يجعلنا وإياكم وسائر إخواننا من المستجيبين لله ولرسوله (ﷺ)، والمعظِّمين لشرعه والمحذرين من كل ما يخالف شرعه من البدع والأهواء، إنه جواد كريم، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد، وآله وأصحابه، واتباعه بإحسان إلى يوم الدين. انتهى.

فتوى مجلة التوحيد(٣٩)

ويسألنا كثير من القراء... بقولهم: يقوم بعض الناس بإقامة حلقات (يسمونها ذكراً) بالرقص والتمايل يميناً وشمالاً، ويسمونها حضرة على نظام الطرق الصوفية، ويسأل القراء عن موقف الإسلام من هذه الحلقات التى يسمونها ذكراً؟

الجواب: ذكر الله تعالى وردت كيفيته فى القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الأعراف ٢٠٥]. ومن البدع التى لا تقبل فعلهم ما يلى:

(أ) حلقة مستديرة يقف فى وسطها شيخهم ويصفق لهم بتنظيم الرقصة، مصحوبة بقولهم: «الله الله الله»، أو قولهم: «حى حى حى». وهكذا، ويجب أن يكون ذكر الله سراً كما جاء فى الآية.

---

(٣٩) العدد رقم (١٠) لسنة ١٤٠٧ هـ وكتابنا (بدع الصوفية والموالد).

(ب) يجب أن يذكر الله تعالى بجملة تامة مفهومة، مثل: «الله أكبر، سبحان الله، لا حول ولا قوة إلا بالله».

(ت) ورد فى السنة عدم الجهر فى المساجد، ولو بقراءة القرآن لقوله (ﷺ): ﴿ أَمَا إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ فِى الصَّلَاةِ فَإِنَّهُ يُنَاجِى رَبَّهُ فَلْيَعْلَمْ أَحَدُكُمْ مَا يُنَاجِى رَبَّهُ وَلَا يَجْهَرْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ بِالْقِرَاءَةِ فِى الصَّلَاةِ﴾ رواه أبو داود(٤٠).

(د) ما يدعيه الصوفية من تفسير قوله (ﷺ): «ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يذكرون الله.. « الحديث القصد منه مدارسة القرآن لما ورد فى صحيح البخارى: «عن أَبِى هُرَيْرَةَ وَأَبِى سَعِيد الْخُدْرِى أَنَّهُمَا شَهِدَا عَلَى النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ لا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلا حَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ».

فالصلاة فى المسجد ذكر، والأذان ذكر(٤١)، والقرآن ذكر(٤٢)، ولكن الصوفية يحرفون الكلمة، ويفسرون الذكر على أهوائهم من التمايل والرقص(٤٣)، وغيره، وهذا كله من البدع التى حرمها الله تعالى فى العبادة فكل بدعة فى الدين ضلالة، وكل ضلالة فى النار، والله أعلم. انتهى.

قلت: هذا هو الصواب، ومن أراد المزيد فعليه بكتاب (الإبداع) وكتاب (الفتاوى) للشيخ شلتوت، و (الدين الخالص) و (تفسير الإمام القرطبى) لسورة طه.

---

(٤٠) وجاء ذلك فى كتاب (الإبداع) واللواء الإسلامى، العدد رقم (٤٦)، وكتابنا (القبر) باب «ورد المحاسبة»وكتاب (الدين الخالص) و(الفتاوى الأمينية) و(فتاوى الشيخ شلتوت) و(فقه السنة).

(٤١) الأذان داخل المسجد بدعة، والصحيح أن يكون الأذان خارج المسجد، أو فوق سطحه، هذه هى السنة الصحيحة فى الأذان.

(٤٢) بشرط ألا يشوش على متعبد أو مذاكر أو نائم.

(٤٣) هذا من فعل أصحاب السامرى كما سبق.

فتوى الشيخ الحوامدى[٤٤]

واجتماع الصوفية للذكر - الرقص - بعد الجمعة بالشخير والنخير والإلحاد فى أسماء الله الكبير منكر وضلال فظيع شنيع، والستائر للمنابر بدعة. والأيتام والأرامل أحق بثمنها، ولكن المشروع مر على النفوس بخلاف ما تهوى الأنفس، فإنه لذيذ، ولكن عاقبته أمر من الصبر، وأحرّ من الجمر، والتمسك بالخطيب إذا نزل من على المنبر بدعة، يجب عليه هو أن يزجرهم، وينهاهم عنها، والشحاذة فى المسجد يوم الجمعة وغيرها مذمومة، والتشويش وكذا بيع الماء والحلوى والروائح و قولهم يوم الجمعة بعد الجمعة. يتقبل الله منا ومنكم، وارد إلا أنه فيه نهشلا الكذاب. انتهى.

فتوى للمؤلف[٤٥]

السؤال: ما حكم الإسلام فى المداحين بالتواشيح مع استعمال الموسيقى والطبل والزمر، وذكرهم الله - الله - الله تقليداً للصوفية على نغمات الموسيقى؟

الإجابة: كل ذلك حرام وقد بلغ الاستهزاء بلفظ الجلالة «الله» له قداسته وتعظيمه وتكبيره ويقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال٢]. أى خافت وخشعت واضطربت، فهذا الذى يصنعونه على نغمات الموسيقى بنفقات باهظة على حساب الإذاعة والتلفاز - سخرية باسم الله الأعظم. ولسوف يعلمون من الذكر الباطل أن يقف شيخ صوفى[٤٦] يتوسط دراويشه[٤٧] الجهلة، ثم يميلون يميناً وشمالاً ويقولون إنهم يذكرون الله، كلا فإن ذكر الله ليس بالتمايل والرقص والتواجد ولا بالأناشيد الباطلة بل يجب أن يكون الذكر كما قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف٢٠٥].

فالذكر المبتدع بدعة وضلالة، والله أعلم.

---

(٤٤) كتاب (السنن والمبتدعات) - للحوامدى، وكتابنا (بدع الصوفية والموالد).

(٤٥) جاء لنا ذلك بمجلة (أضواء الإسلام) عدد المحرم (١٤٠٨) هـ. وكتابنا (بدع الصوفية والموالد).

(٤٦)لايوجد فى قاموس اللغة العربية هذه الكلمة.

(٤٧) كلمة درويش أى أن هذا الإنسان أبله عبيط قذر.

ليس فى الإسلام رقص ولا تمايل ولا نهيق

حول حلقات العلم وطريقة الذكر الشرعى الصحيح التقينا بفضيلة الشيخ على أحمد عبد المتعال ووجهنا لفضيلته هذا السؤال[٤٨]:

ما هى طريقة الذكر الشرعى الصحيح وهل يبيح الإسلام الرقص والتصفيق فى حلقات الذكر وخصوصاً فى أيام الموالد؟

قال فضيلته: الذكر الشرعى الصحيح يكون بذكر أسماء الله الحسنى «ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها» ويكون ذلك الذكر بصوت منخفض لا يحدث تشويشاً على أحد بحيث لا تقلق مريضاً أو ترهق طالباً يتذكر دروسه وذلك لقوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف٥٥].

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف٢٠٥].

وهناك أنواع من الذكر فالقرآن مثلاً ذكر لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر٩].

وخطبة الجمعة هى أيضاً ذكر لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِى لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾ [الجمعة٩].

هذا هو الذكر الذى ورثناه عن نبينا الكريم ونادينا بآدابه واغترفنا من عباب علمه.

أما الرقص والتصفيق والتمايل فلا يبيحه الإسلام: عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «التَّسْبِيحُ لِلرِّجَالِ وَالتَّصْفِيقُ لِلنِّسَاءِ». ونستشهد فى هذا المقام بالأستاذ الجليل فضيلة الشيخ على محفوظ عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف سابقاً يقول الأستاذ فى كتابه (الإبداع فى مدار الابتداع) المقرر على قسم الوعظ والخطابة بالأزهر الشريف فى ص (٣٢٢) أما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامرى لما اتخذ لهم عجلاً جسداً له خوار قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون فهذا الرقص والتواجد هو لعباد العجل والتصفيق حالة الذكر فإنه خفة ورعونة مشابهة لرعونة الإناث لا يفعله إلا أرعن (أبله) أو متصنع جاهل يدل على جهالة فاعله أن الشريعة لم ترد به لا فى كتاب ولا سنة ولا فعل ذلك أحد من الأنبياء

---

(٤٨) جريدة الحياة الأسبوعية العدد ٤٨ يوم ٨ يناير ١٩٨٤م ٤ ربيع آخر (١٤٠٤) هـ. وكتابنا (بدع الصوفية والموالد).

ولا معتبر من أتباع الأنبياء إنما يفعله السفهاء (المعتوهون) الذين التبست عليهم الحقائق بالأهواء وهكذا تبدو لنا الحقيقة واضحة وضوح الشمس.

فما يفعله بعض المسلمين فى الموالد ليس من الإسلام فى شئ من نصب السرادقات وتقديم الخدمات ورفع الرايات والإمساك بالدفوف والمزامير وذبح الولائم زاعمين أنهم يتقربون به إلى الله تعالى، إلى هؤلاء نقول أما كان أولى أن نضع أموال المسلمين فى الجمعيات الخيرية التى قامت للدعوة إلى الله وهداية الناس أو نساهم بجزء منها فى معونة الوعّاظ الذين تصدوا إلى نشر العلم والفضيلة ومحاربة البدع والرذيلة؟ أما كان أولى إعانة منكوب أو إسعاف مصاب أو نفتح ملجأً لليتامى والفقراء؟ وعلى هؤلاء أيضاً يقول ابن القيِّم الجوزية فى كتابه (إغاثة اللهفان) ص (٢٤٣):

تلى الكتاب فاطرقوا لا خيفةً	لكنه إطلاق ساه لاهى
وأتى الغناء فالحمير تناهقوا	والله ما رقصوا لأجّل اللهِ
دفٌّ ومزمار ونغمة شادية	فمتى رأيت عبادة بملاهِى

وأخيراً نسأل الله أن يهدينا إلى الحق وينصر الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها، اللهم آمين. الصحفى/ عماد جمعة إمام.

مملكة الدراويش بخير[٤٩]

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وبعد...

فكثيراً ما كتبنا عن الموالد التى تقام باسم الإسلام، وهو منها براء، ولن يصيبنا الملل ولا اليأس لكثرة ما قدمنا من أدلة عن عدم شرعية هذه الاحتفالات التى تنسب زوراً وبهتاناً إلى الإسلام... تلك الاحتفالات التى ضيعت معالم التوحيد الخالص، حتى اختلطت الأمور فى مفاهيم أكثر المسلمين، فإذا الذين يحتفلون بالموالد يعتبرونها تقرباً إلى الله عز وجل، بينما رسول الله (ﷺ) ما ترك أمراً يقربنا إلى الله إلا وأمرنا به. وهو لم يأمرنا بالموالد، ولم يحتفل بها، كما لم يثبت عن أصحابه «رضوان الله تعالى عنهم» ولا عن التابعين ولا من جاء بعدهم من خير القرون أنهم احتفلوا بمولد من الموالد، بل الثابت أن مصر لم تعرف هذه الاحتفالات إلا فى منتصف القرن الرابع الهجرى فى عصر الدولة الفاطمية التى أحدثت فى دين الله ما أحدثت وغيرت،

---

(٤٩) العدد رقم (٣-٤٠٤١) هـ، مجلة التوحيد. وكتابنا (بدع الصوفية والموالد).

وبدلـــت حـــتى قامـــت فى مصـــر مملكة الدراويش التى اطمأنت إليها بريطانيا وقت استعمارها لمصر، حيث كان السفير البريطانى يبرق لدولته بأخبار الموالد والدروشة فى مصـــر أولاً بـــأول باعتبارها الرأى الآخر فى مواجهة القوى الوطنية التى تطالب بإنهاء الاحـــتلال. وكـــأن الســـفير يقول للحكام الإنجليز: اطمئنوا ولا تخافوا شيئاً فمملكة الدراويش بخير.

وإلى الـــيوم ما زالت مملكة الدراويش ومشجعى الموالد بخير، ولعل علماء المسلمين هم الذين يتحملون وزر ذلك عند الله لسكوتهم عن بيان الحق، فضلاً عن هؤلاء الذين يشـــاركون فى الموالـــد ويشـــجعون على إقامتها من المتصوفة أو من هيئات المنتفعين بصناديق النذور.

أضـــف إلى ذلك ما يقدم من مغيرات العامة ليشاركوا فى حضور احتفالات مملكة الدراويـــش بهـــذه الموالد. من ذلك مشاركة المسؤولين وبعض أجهزة الدولة فى هذه المراسم حتى تأخذ شكلاً رسمياً.

وأضرب لذلك مثلاً بما حدث فى مولد سيدهم البدوى فى طنطا الذى كانت ليلته الختامـــية مساء (٢١ المحرم ١٤٠٤ هـــ الموافق ٢٧ أكتوبر ١٩٨٣ مـــ) ونهار اليوم الـــتالى، حيث سار الموكب «التاريخى» للخليفة وطاف بأنحاء المدينة تتقدمه موسيقات وقـــوات الشرطة والخيالة، وذلك بالطبع يضفى على الموكب صفة رسمية أمام المليون مشاهد فى هذا المولد،...

وبعـــد ذلـــك بأيـــام، فى (٥ صفر ١٤٠٤ هـــ الموافق ١٠ نوفمبر ١٩٨٣ مـــ) احتفلـــت مدينة دسوق بمولد سيدهم الدسوقى حيث حضر الاحتفال فضيلة الدكتور وكـــيل وزارة الأوقاف وفضيلة الدكتور أمين عام مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، وعدد كبير من العلماء، ومحافظ كفر الشيخ ورجال الطرق الصوفية، حيث استمرت الاحتفالات التى حضرها مليونان من الناس أسبوعاً كاملاً.

ونحن لا ندرى الفرق الكبير بين الدسوقى والبدوى الذى جعل عدد المشاركين فى مولـــد الدسوقى مليونين من الناس، بينما شارك فى مولد البدوى مليون واحد فقط، ولسنا نحن الذين قمنا بهذا الإحصاء، بل نشر فى جرائدنا اليومية.

ومشاركة المسؤولين من العلماء وأجهزة الدولة فى هذه الموالد يعطيها صفة رسمية، والصبغة الشرعية فى نظر العامة، وإن كنا نرى أن هذه المشاركة عمل سياسى لاسترضاء الجماهير ومجاملتهم.

وهذه الموالد - كما يعلم الجميع - لا تخلو من المساخر، والرذائل وانتهاك حرمات الله حتى أصبحت كلمة (مولد) فى عرف الجميع تعنى الفوضى والفساد.

ثم يـأتى مع صدور هذا العدد من المجلة موعد الاحتفال - غير المشروع - بمولد رسول الله الذى تستعد له بعض الجهات الرسمية، وعلى رأسها الإذاعة.

وقـد جـاء فى هـذا الخبر الذى نشر قبل موعد الاحتفال بأربعين يوماً ما يلى: ((تتضـمن الاحتفالات نقل حفل يقام فى رحاب سيدى أحمد البدوى بطنطا، يتضمن إنشاداً ومدائح وأغنيات دينية تشارك فيها ياسمين الخيام...))

وخلاصة القول:

١- لم يثبـت عن رسول الله (ﷺ) أنه أقام حضرة بالمفهوم الصوفى، ولا ذكر الله تعـالى بالأسـلوب الصوفى، حيث يختار اسماً معيناً أو مجموعة أسماء ويرتب لنفسه أو لأحد من أصحابه ورداً يكرره يومياً، كما لم يثبت عن أحد من الصحابة والتابعين أنه فعل ذلك، والراجح أن الحضرة بشكلها الأولى لم تعقد فى التاريخ الإسلامى قبل قرونه الخيرية الثلاثة الأولى.

وقـد ناقشـنا مرة ثانية خطورة ذكر الله تعالى بأسماء لم يأذن بها الله، ولا عرفها رسـول الله (ﷺ) ما بالك إذا كانت بلغة أخرى، والمعروف عن أسرارها كما يزعم المـروجون لها. إنها تقوى العلاقة مع الجن. وتعين على القيام بأعمال هى إلى السحر أقرب[٥٠].

٢ - ثم تناولـنا قضية هامة تبرز لكل من اضطلع على أوراد الصوفية، وعرضنا ما اشتملت عليه من عدوان وطلب جاه الحروف، وشن الحروب بين المريدين وبين كل ما يخالفهم بصورة تخرج الهدف من الدعاء عن المراد منه.

---

(٥٠) ومـن أراد المـزيد من المعلومات عن الذكر بالأسماء السريانية فليرجع إلى الكتاب الثانى من هذه السلسلة: الباب الثانى الفصل الثانى ص (٦١: ٩٥).

كما أوضحنا أدب النبى (ﷺ) فى الدعاء، واخترنا نماذج من أدعية النبى (ﷺ) والصـــحابة والتابعين «رضوان الله عليهم أجمعين»، ونحن بالطبع لا نريد من تقديم هذا الـــنموذج أن يتخذه بعض الناس ورداً لهم، وإنما أردنا أن يتـــذوق الناس أسلـــوب النـــبى (ﷺ) فى الدعاء حتى يعرضوا عن أدعية الأدعياء الذين حرموا أنفسهم وأتباعهم من الارتواء من حياض دعاء الحبيب (ﷺ).

الفصل الثانى

أسماء الله الحسنى

الأسماء: جمع اسم وهو ما دل على مسمى. وأسماء الله هى الكلمات التى سمى بها نفسه وأخبر ببعضها عباده ليدعوا بها.

ومن أسمائه تعالى أسماء مشتقة مثل الرحمن والرحيم والخالق والرازق. ومنها مصادر مثل الرب والسلام.

والحسنى الدالة على أحسن المعانى وأكمل الصفات مع تحقق وجودها؛ وثبوت الاتصاف بها على أتم الوجوه.

وتوضيح ذلك إنك قد تصادف من يسمى صالحاً أو سعيداً أو محسناً.

فهذه الأسماء دالة على معان حسنة وصفات جميلة، ولكن المسلمين بها قد يكونون مجردين من هذه المعانى، إخلاءاً من تلك الصفات.

ولكن الله تقدست أسماؤه متصف حقيقة بكل المعانى والصفات التى دلت عليه أسماؤه الحسنى وهى ثابتة له على أكمل وجه.

وأسماؤه تعالى كثيرة منها ما أنزله فى كتبه وعلمه رسله وأنبياءه ومنها ما استأثر بعلمه، لأن عقول البشر أعجز من أن تدرك معناه أو تحيط بمكنون أسرارها.

يدل على هذا ما رواه أَبُو سَلَمَةَ الْجُهَنِى عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قال: قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلا حَزَنٌ فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنِّى عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ نَاصِيَتِى بِيَدِكَ مَاضٍ فِى حُكْمُكَ عَدْلٌ فِى قَضَاؤُكَ أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِى كِتَابِكَ أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِى عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِى وَنُورَ صَدْرِى وَجِلاءَ حُزْنِى وَذَهَابَ هَمِّى إِلا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا قَالَ فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلا نَتَعَلَّمُهَا فَقَالَ بَلَى يَنْبَغِى لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا».

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ».

وقد حرصت على إحصائها مستنبطة من القرآن الكريم واضعاً نصب عينى ألا أحصى إلا ما كان أسماء صريحة و لم أحص ما يمكن اشتقاقه من مصادر الأفعال التى أسندها الله تعالى إلى نفسه.

ولســـت أخفـــى على القرآن الكريم أن هناك سرداً لتسع وتسعين أسماً يزعم بعـــض العلماء إنها مرفوعة، ولكن المحققين يرون غير ذلك، وقد أسفر البحث عن أن مـــنها نحو السبعين مما جاء فى القرآن الكريم أما الباقى فمأخوذ من السنة أو مشتق من الأفعال التى جاءت فى القرآن مسندة إليه سبحانه.

وهـــا أنذا أورد عليك تسعة وتسعين اسما استطعت أن أنتزعها من القرآن الكريم، مشيرا إلى السور التى جاءت بها. ولست أقطع أنها هى التسعة والتسعون اسماً التى هى مـــراد رســـول الله (ﷺ) ففى القرآن الكريم أسماء أخرى جاء بعضها مضافا وبعضها شـــبيهاً بالمضـــاف. ولعـــل فى هذا الإبهام سراً سيكشفه الموفقون، وحكمه سيعرفها الباحثون.

أما هذه الأسماء فهـــى:

فى ســـورة الفاتحة: الله. الرب. الرحمن. الرحيم. الملك – وفى سورة البقرة: المحيط. القديـــر. العليم. الحكيم. التواب. البارئ. البصير. الواسع. السميع. العزيز. الرؤوف. الشـــاكر. الإله. الواحد. الغفور. القريب. الحليم الحى. القيوم. العليم. العظيم. الغنى. الولى. الحميد. الخبير. المولى – وفى سورة آل عمران: الوهاب. الناصر. الجامع – وفى ســـورة النســـاء: الرقيب الحسيب. الشهيد. الكبير. النصير. الوكيل. المقيت. العفو. البديع – وفى الأنعام: القاهر. اللطيف. الحاسب. القادر. الحكم. وفى الأعراف: الفاتح – وفى الأنفـــال: القوى – وفى هود: الحفيظ. المجيب. المجيد. الودود – وفى يوسف: المســـتعان. القهـــار. الغالـــب – وفى الرعد: المتعالى. الوالى – وفى الحجر: الحافظ. الوارث. الخلاق – وفى الكهف: المقتدر – وفى مريم: الحفى – وفى طه: الغفار. الملك. الحـــق – وفى الحـــج: الهادى – وفى النور: المبين. النور – وفى النمل: الكريم – وفى الـــروم: المحيـــى – وفى ســـبأ: الفتاح. وفى فاطر: فاطر. الشكور – وفى الزمر العالم. الكـــافى. وفى غافر: الخالق – وفى الدخان: المنتقم – وفى الذاريات: الرزاق. المتين – وفى الطـــور: الـــبر – وفى النجم: الملك – وفى الرحمن: ذو الجلال والإكرام – وفى الحديد: الأول. الآخر. الظاهر الباطن – وفى الحشر: القدوس. السلام. المؤمن. المهيمن الجـــبار المتكبر المصور. وفى الأعلى: الأعلى: – وفى العلق: الأكرم – وفى الاخلاص الأحد، الصمد.

وإليك سردها ليسهل عليك حفظها:

الله لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، الخالق البارئ المصور، الغفار القهار الوهاب، الرزاق الفتاح العليم، القاهر الغالب الحاسب، الشاكر الفاطر السميع البصير، الحكم الإله اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور، العلى الكبير الحفيظ المقيت الحسيب القدير، الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الفاتح الشهيد الحق الوكيل القوى. المتين، الولى الحميد، المحى المليك، العالم الكافى المستعان، الحى القيوم، القادر المقتدر القريب المحيط، الأول الآخر الظاهر الباطن، الولى المتعالى، البر التواب، المنتقم العفو الرؤوف، مالك الملك ذو الجلال والإكرام الجامع الغنى، النور الهادى المبين الخلاق البديع المولى الأكرم النصير الرب الوارث الأعلى الناصر الواحد الأحد الصمد الذى لم يلد و لم يكن له كفواً أحد.

هذه تسعة وتسعون اسماً من أسماء ذى الجلال والإكرام تقدست أسماؤه وعظمت آلاؤه؛ وقد جاء بعضها مكرراً فى السورة الواحدة من القرآن الكريم أو فى عدة من السور. وهناك عدة من الأسماء الحسنى جاءت فى القرآن الكريم وأكثرها على صيغة اسم الفاعل وهى تشير إلى إسناد الأفعال التى تدل عليها إلى رب العزة جل شأنه، مثل فالق؛ فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَى مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَى ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ [الأنعام٩٥].

وفى قوله تعالى: ﴿ فَالِقُ الآصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام٩٦].

ومثل مخرج فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَى مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَى ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ [الأنعام٩٥].

وقوله تعالى: ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة٦٤].

ومثل موهن، فى قوله تعالى: ﴿ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾ [الأنفال١٨]. ومثل متم، فى قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [الصف٨].

ومثل آخذ، فى قوله تعالى: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّه رَبِّى وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إلا هُوَ آخذٌ بنَاصيَتِهَا إنَّ رَبِّى عَلَى صرَاط مُسْتَقيم﴾ [هود٥٦].

ومثل غالب، فى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذى اشْتَرَاهُ منْ مصْرَ لامْرَأَته أَكْرِمى مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفعَنَا أَوْ نَتَّخذَهُ وَلَدًا وَكَذَلكَ مَكَّنَّا ليُوسُفَ فى الأَرْضِ وَلنُعَلِّمَهُ منْ تَأْوِيلِ الأَحَاديث وَاللَّهُ غَالبٌ عَلَى أَمْرِه وَلَكنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف٢١].

ومثل عالم، فى قوله تعالى: ﴿ وَلسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصفَةً تَجْرى بِأَمْرِه إِلَى الأَرْضِ الَّتى بَارَكْنَا فيهَا وَكُنَّا بكُلِّ شَيْءٍ عَالمينَ ﴾ [الأنبياء٨١]. وقوله (عالم الغيب والشهادة) و قوله (إن الله عالم غيب السماوات والأرض) ومثل علام، فى قوله تعالى: (إنك أنت علام الغيوب) ومثل شاهد، فى قوله (وكنا لحكمهم شاهدين) و (وكنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه) ومثل قائم، فى قوله (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط) و قوله (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) ومثل مبتل، فى قوله (وإن كنا لمبتلين) ومثل كاتب؛ فى قوله (و إنا له كاتبون) ومثل مرسل، فى قوله (وكنا مرسلين) ومثل منذر فى قوله (إنا كنا منذرين) ومثل مهلك، فى قوله (وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون).

ومثل غافر فى قوله (غافر الذنب) ومثل قابل، فى قوله تعالى: (وقابل التوب) ومثل مبرم فى قوله تعالى (أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون) ومثل زارع فى قوله تعالى: (أفرأيتم ما تحرثون. أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) ومثل مترل فى قوله تعالى: (أفرأيتم الماء الذى تشربون. أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المترلون) ومثل منشئ، فى قوله (أفرأيتم النار التى تورون. أأنتم أنشأتم شجرهما أم نحن المنشئون) ومثل مسيطر الذى يؤخذ بمفهوم المقابلة من قوله تعالى: (أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون) ومثل حسب فى قوله تعالى: (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ومثل بالغ فى قوله: (إن الله بالغ أمره) ومثل كاشف فى قوله (إن كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون) ومثل موسع فى قوله (والسماء بنيناها بأيدينا وإنا لموسعون) ومثل ما جاء فى قوله: (والأرض فرشناها فنعم الماهدون) ومثل جاعل؛ فى قوله تعالى: (جاعل الملائكة رسلاً. أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع، يزيد فى الخلق ما يشاء) ومثل فعال فى قوله (فعال لما يريد).

وجاء فى القرآن الكريم من الأسماء الحسنى أيضاً: ذو انتقام؛ ذو العرش؛ ذو الفضل العظيم، ذو المعارج، ذو الطول، ذو القوة، ذو مغفرة وذو عقاب أليم.

وجاء فيه منها أيضاً: شديد المحال، شديد العذاب، شديد العقاب، سريع الحساب، خير الوارثين، خير الماكرين، خير الحاكمين، خير الناصرين، خير الرازقين؛ خير الراحمين، خير المنزلين، خير الفاتحين، خير الغافرين، وخير وأبقى، أرحم الراحمين، أحكم الحاكمين؛ أسرع الحاسبين، أحسن الخالقين، أسرع مكراً؛ ورفيع الدرجات.

وتدبر قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى السماوات وَمَا فِى الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَة إلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَة إلا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة٧].

ومما جاء فى السنة المطهرة من الأسماء الحسنى غير ما سبق: مقلب القلوب، فقد روى البخارى قَال: «كَثِيرًا مِمَّا كَانَ النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْلِفُ لا وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ».

وجميل: فقد روى مسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى (ﷺ) قال «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر»فقال رجل إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة. قال «إن الله جميل يحب الجمال: الكبر بطر الحق وغمط الناس».

وسبوح قدوس: فقد روى مسلم من حديث عائشة رضى الله عنها أن رسول الله كان يقول فى ركوعه وسجوده «سبوح قدوس رب الملائكة والروح».

ومصرف القلوب: فقد روى مسلم من حديث أَبِى عَبْد الرَّحْمَنِ الْحُبُلِى أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ اللَّه بْنَ عَمْرِو بْن الْعَاصِ يَقُولُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ يَقُولُ «إِنَّ قُلُوبَ بَنِى آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْب وَاحد يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ».

والمقدم والمؤخر: فقد روى البخارى ومسلم عن ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ كَانَ النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ إِذَا قَامَ منَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ قَالَ اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السماوات والأرض وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَكَ الْحَمْدُ لَكَ مُلْكُ السماوات والأرض وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السماوات والأرض وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ مَلِكُ

السماوات والأرض وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ وَوَعْدُكَ الْحَقُّ وَلقَاؤُكَ حَقٌّ وَقَوْلُكَ حَقٌّ وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ حَقٌّ اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبكَ آمَنْتُ وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ وَبكَ خَاصَمْتُ وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ فَاغْفِرْ لِى مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ أَوْ لا إِلَهَ غَيْرُكَ».

و (وتر): فقد روى البخارى من حديث أَبى هُرَيْرَةَ رِوَايَةً قَالَ: «لِلَّه تسْعَةٌ وَتسْعُونَ اسْمًا مِائَةٌ إِلا وَاحدًا لا يَحْفَظُهَا أَحَدٌ إِلا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَهُوَ وَتْرٌ يُحِبُّ الْوَتْرَ».

هذا وإنى لأرجو أن تكون التسعة والتسعون اسماً التى ورد ذكرها فى الحديث الشريف والتى من أحصاها دخل الجنة، بين هذه الأسماء التى جلوتها عليك فإذا أحصيتها جميعاً كنت قد أحصيت من بينها التسعة والتسعين اسماً التى ذكرت فى الخبر بغير تعيين. فإذا قدرت هذه الأسماء وفهمت معانيها وتأملت مظاهرها فى الوجود وعرفت ربك بها وعبدته بمقتضاها كنت خليقاً أن تكون من أهل الجنة.

وقد آن الأوان أن نشرع فى شرح هذه الأسماء الحسنى وتوضيح معانيها وتقريبها للأذهان. فأرعنى سمعك وفهمك وما توفيقى إلا بالله.

الله جل جلاله

﴿اللهُ الَّذى رَفَعَ السماوات بغَيْرِ عَمَد تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لأجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذى مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد٣].

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ(٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد٩].

﴿وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِى الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص ٧٠].

﴿ اللَّهُ الَّذى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم٤٠].

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر٦٢].

وبعد: فلو بذل العلماء والكتاب والمفكرون أقصى ما يملكون من قوة وجهد لكى يدلـوك عـلى مدلول هذا اللفظ الجليل ما استطاعوا أن يأتوا بمثل ما فى هذه الآيات البينات وإن كان بعضهم لبعض ظهيراً.

تدبـر الآيـات السابقة تكشف لك عن بعض آياته فى الآفاق، وفى الأنفس. وقد أودع رب العزة غرائز البشر استعداداً خاصاً للاعتقاد بوجوده، وهو ما أشار تعالى إليه بقولـه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف١٧٢].

من أجل ذلك لا نجد إنساناً لا يشعر شعوراً قلبياً باطنياً بوجود قوة غيبية تتصرف فى الكـون وتسـير العالم وتدبر أمره. فالمؤمن الموحد يسمى هذه القوة (الله) والملحد يسميها الطبيعة أو الدهر. والجاهل ينسب بعض التصرف للأولياء أو الجن.

ولو عقد الملحد، ولو علم الجاهل لأيقنوا جميعاً أن الأمر كله الله، فهو وحده مدبر الكون، وإليه ترجع الأمور. ألا لـه الخلق والأمر؛ تبارك الله رب العالمين. ولقد كان الجاهلـيون فى جاهليـتهم يقرون هذه الحقيقة، ويعترفون بها؛ والقرآن الكريم أعدل شاهد.

قـال تعـالى مخاطباً نبيه (ﷺ): ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ [يونس٣١].

فقـد كـانوا بشهادة هذه الآية - يقرون بأن الله هو الخالق الرازق المحيى المميت، ولكـنهم ضـلوا باعـتقادهم أن هناك آلهة أخرى تشفع عنده؛ أو تقرب إليه زلفى: فخرجوا من حظيرة التوحيد إلى أوحال الشرك فباؤا بالخسران المبين.

ولا يكون العبد مسلماً إلا إذا شهد أن الله لا إله إلا الله. أى نفى الألوهية عن كل كـائن فى الوجود سواه جل شأنه؛ ولم ير فى هذا العالم شيئاً جديراً بأن يعبد إلا الله ومخ العبادة الدعاء. فإذا دعا الإنسان غير الله أو فزع فى شدته إلى غير الله، معتقداً أن لذلك المدعو المفزوع إليه قوة غيبية بها يسمع الداعى ويستجيب له ويدفع عنه، لم يكن بذلـك مسـلماً، لأن فعله خالف قولـه، ولم تكن شهادته إذعاناً فى الجنان بل نطقاً باللسـان، إذ معـنى أشهد: أعلم وأبين؛ والعلم هو الإدراك الجازم المطابق للواقع عن

دليل، فالذى يشهد أن لا إله إلا الله يدرك إدراكاً جازماً يستطيع أن يقيم الدليل على صحته، وذلك هو الواقع الذى قامت عليه الأدلة العقلية الصحيحة؛ فمن زعم أنه يعتقد أن لا إله إلا الله ثم دعا غيره، وفزع إلى سواه لم يكن اعتقاده صحيحاً فبطلت شهادته.

لقد كان العرب على الرغم من شركهم إذا حزبهم أمر أو نزلت بهم شدة فزعوا إلى الله وحده وضرعوا إليه ونسوا ما كانوا يشركون. وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَى مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَى وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ [الإسراء٦٧].

تلك كانت حال المشركين إذا انتابتهم الشدة، أو نزل بهم المكروه نسوا آلهتهم الباطلة وفزعوا إلى الله مولاهم الحق.

وإنك تشعر بالحسرة تحز فى قلبك لو نظرت إلى ما عليه جهلة المسلمين فى هذه العصور، فلا يكاد أحدهم يحس شدة تنزل به أو مكروهاً يغشاه حتى يهتف باسم شيخ أو ولى معتقداً أنه يسرع بإنقاذه أو إسعافه فيرتطم بذلك فى شرك هو شر من شرك الجاهلية الأولى.

وبعد فهذا اللفظ الجليل (الله) علم على الله الذات الأقدس الواجب الوجود الخليق بكل حمد؛ وقد اختلف اللغويون فى اشتقاقه اختلافاً كثيراً، وذكر الفيروزآبادى أنهم اختلفوا فيه على عشرين قولا. ورأى أن أصح الأقوال أنه علمٌ غير مشتق، وأن أصله إلاه كفعال بمعنى مألوه أى معبود.

هذا وهو يدل على الذات الأقدس بغير مراعاة صفة خاصة، ولكنه مع هذا يشير إلى صفات الكمال جميعاً. وعندى أنه هو الاسم الأعظم الذى حار الناس فى الاهتداء إليه والوقوف عليه. إذ كل اسم من أسمائه الحسنى يدل على معنى خاص من معانى جلاله. أما هذا اللفظ فإنه يدل عليها جميعاً.

وقد حفظ الله هذا اللفظ الجليل عن إطلاقه على غيره تعالى فلم يطلقه الجاهليون على معبوداتهم الباطلة. ولكنهم أطلقوه على ربهم الحق سبحانه.

الرحمن .. الرحيم

اسمان من أسماء الله الحسنى اشتقاقهما من الرحمن، والرحمة فى متعارف الناس شعور وجدانى باطنى ينشأ فى قلب الإنسان من إدراك ما يصيب غيره من مكروه.

وهو شعور بألم شفاؤه فى أمرين: سكب الدموع إن كان المكروه مما لا يمكن دفعه والمبادرة إلى دفعه إن كان ممكنا.

والرحمة موضعها القلب. دليل هذا ما رواه البخارى من حديث أسامة بن زيد رضى الله عنهما قال: «أَرْسَلَت ابْنَةُ النَّبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ إِلَيْه إِنَّ ابْنًا لى قُبضَ فَأْتنَا فَأَرْسَلَ يُقْرِئُ السَّلَامَ وَيَقُولُ إِنَّ للَّه مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى وَكُلٌّ عنْدَهُ بأَجَلٍ مُسَمًّى فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسبْ فَأَرْسَلَتْ إِلَيْه تُقْسمُ عَلَيْه لَيَأْتيَنَّهَا فَقَامَ وَمَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَأُبَى بْنُ كَعْب وَزَيْدُ بْنُ ثَابت وَرجَالٌ فَرُفعَ إِلَى رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ الصَّبى وَنَفْسُهُ تَتَقَعْقَعُ قَالَ حَسبْتُهُ أَنَّهُ قَالَ كَأَنَّهَا شَنٌّ فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ فَقَالَ سَعْدٌ يَا رَسُولَ اللَّه مَا هَذَا فَقَالَ هَذه رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فى قُلُوب عبَاده وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ منْ عبَاده الرُّحَمَاءَ».

وما رواه من حديث عائشة رضى الله عنها قالت: جاء أعرابى إلى النبى (ﷺ) فقال: تقبلون الصبيان؟ فما نقبلهم. فقال النبى (ﷺ): أو أملك لك أن أنزع الله الرحمة من قلبك؟.

هذه رحمة المخلوق، وهو كما رأيت: رقة وتعطف. وأما الخالق جل شأنه فهو منزه عن الجارحة والانفعال، فرحمته إنعام وإفضال وإحسان. وقد فسر الرحمن بأنه المنعم بجلائل النعم كنعمة السمع أو نعمة البصر مثلاً. وفسر الرحيم بأنه المنعم بدقائق النعم كحدة السمع أو حدة البصر مثلا.

وهذا تفسير تحكمى لا يستند إلى نص من اللغة ولا من الكتاب ولا من السنة. وإذا استفتينا قواعد اللغة فى تفسير هذين الاسمين الجليلين رأينا صيغة فعلان تدل على الامتلاء من الشيء بغير ان ينتقل اثر ذلك الشىء إلى غير الموصول به كشبعان مثلا فإنه وصف يدل على امتلاء المعدة بالطعام بغير أن ينتقل اثر هذا الشبع إلى غير الشبعان.

وعلى هذا فاسمه تعالى الرحمن يدل على الاتصاف بكثرة الرحمة بغير نظر إلى تعلقها بمرحوم، فهو صفة الذات.

وأما الرحيم فيدل على كثرة من تناله الرحمة من خالقه فهو بدليل أنك تقول: الله رحيم بعباده أى أن رحمته تنال عباده، ولا تقول رحمن بعباده. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلائكَتُهُ ليُخْرجَكُمْ منَ الظُّلُمَات إِلَى النُّور وَكَانَ بالْمُؤْمنينَ رَحيمًا﴾

[الأحـــزاب٤٣]. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِى وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِـــيمٌ﴾ [التوبة١١٧]. فكان الرحمن الوصف و الرحيم الفعل. فالأول دال عـــلى أن الرحمة صفته تعالى؛ والثانى دال على أنه تعالى يرحم خلقه برحمته، فلا يمكن الاســـتغناء بأحد الاسمين عن الآخر، وليس الثانى توكيداً للأول لأن لكل منهما معنى خالصاً.

وممـــا هـــو جدير بالالتفات أن اسمه تعالى الرحمن كثر وروده فى سور خاصة من القرآن الكريم، فقد ذكر فى سورة مريم خمس عشرة مرة؛ وفى سورة طه أربع مرات، وفى ســـورة الأنبياء أربع مرات، وفى سورة الفرقان خمس مرات، وفى سورة الزخرف سبع مرات؛ وكلها سور مكية.

ومن المبشرات أن اسمه تعالى (الرحيم) ذكر مقارناً لاسمه الغفور ثلاثا وسبعين مرة، وورد مـــع اسمـــه تعالى التواب تسع مرات، ومع اسمه الرءوف ثمانى مرات، ومع اسمه الرحمن أربع مرات (غير ما فى البسملة) ومع اسمه الودود مرة، ومع اسمه البر مرة، ومع اسمه الرب مرة.

هـــذا ومظاهر رحمة الله تعالى كثيرة ليس فى الوسع إحصاؤها، ولكنا نورد منها ما يكون قرة للعين وطمأنينة للقلب وشفاء لما فى الصدور وبشرى للمؤمنين. قال تعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الرَّحْمَانُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة١٦٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ السماوات والأرض وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَـــا وَبَـــثَّ فِـــيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة١٦٤].

بـــدأ تعالى فأخبر عن نفسه فى الآية الأولى بالوحدانية والرحمة ليبين للناس أن إلههم واحـــد وهو وحده الرحمن الرحيم، فلا ينبغى أن يشركوا معه غيره إذ لا يتصف بهذه الـــرحمة الواسعة أحد سواه، فكيف يعرض الناس عن أسباب رحمته اعتماداً على رحمة ســـواه ممن يظنون أنه مقربون عنه، أو حرصاً على عرض زائل من أعراض هذه الحياة الدنيا، وأى رحمة أوسع من رحمة الله؟ وأى موجود أرحم من الله فنلتمس رحمته؟.

لقد خسر الذين أعرضوا عن رحمة الله وراحوا يتلمسون فى الظلمات رحمة المخلوقين العاجزين الذين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً.

روى البخارى من حديث عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِى اللَّهُ عَنْهُ «قَدِمَ عَلَى النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبْى فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْى قَدْ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقى إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فى السَّبْى أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ فَقَالَ لَنَا النَّبِى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِى النَّارِ قُلْنَا لا وَهِى تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لا تَطْرَحَهُ فَقَالَ لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا».

وإذا كانت الرحمة فى قلوب الناس والحيوان والطير منذ خلق الله الخلق إلى أن يرث الأرض ومن عليها - جزءاً من مائة جزء من الرحمة العامة، رحمة الرحمن الرحيم الذى وسعت رحمته كل شئ، فكيف يعرض العقلاء عن الرحمة المطلقة الشاملة الواسعة وينحطون إلى طلب الرحمة ممن هم فى أشد الحاجة إليها؟

روى البخارى من حديث أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ «جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْء فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا وَأَنْزَلَ فِى الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ حَتَّى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ».

وإذا كانت الرحمة التى قسمت بين الخلق من أولهم إلى آخرهم من إنسان وحيوان وطير: جزءاً من مائة جزء، فما نسبة الرحمة التى فى قلب فرد واحد من تلك الخلائق بالقياس إلى الرحمة العامة التى وسعت كل شئ؟.

وذكر تعالى فى الآية الثانية بعض مظاهر هذه الرحمة؛ على سنة القرآن من ذكر الشئ ودليله ليقتنع أولو الألباب.

فأول ما ذكره تعالى من مظاهر رحمته: خلق السماوات والأرض.

أجل! هذا النظام المحكم الدقيق من أروع مظاهر الرحمة الإلهية. انظر إلى هذه الأجرام التى بثها فى آفاق السماء بنظام وإحكام وجعلها متماسكة أشد التمسك لا يخرج شئ منها عن المدار الذى وضعه الله فيها، إذ لو خرج شئ منها عن مداره لاصطدم بغيره، فحدثت الطامة الكبرى، وهلك هذا العالم وما فيه.

أليس هذا من أروع مظاهر هذه الرحمة الإلهية التى ليس لها حد ولا نهاية؟.

وفى خلق الأرض آيات بينات تشهد بسعة هذه الرحمة التى وسعت كل شئ، فلقد أرساها الرحمن الرحيم بالجبال؛ وجعلها لها أوتاداً حتى لا تميد بسكانها رحمة منه وفضلاً، وزودها بكل ما تقوم عليه حياة من استخلفهم فيها.

وفى اخــتلاف الليل والنهار من مظاهر الرحمة مالا يأتى على بيانه الوصف، ففى تعاقــب اللــيل والنهار وحلول كل منهما محل الآخر ما يعين الكائنات الحية على أن تــراوح بين نومها ويقظتها؛ وعملها وراحتها. ولو كان الليل سرمداً والنهار سرمداً لقضت برودة الليل الدائم وحرارة النهار الدائم على حياة الأحياء.

قــال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾[القصص٧٢].

وفى الفلك وسيرها على الماء تحمله من الناس والأنعام والمتاجر: آية بينة على الرحمة الإلهــية الــتى ينعم بها بنو الإنسان ولكنهم عن سرها غافلون. هذه الجوارى فى البحر كالأعلام جعل لها الرحمن الرحيم مدبر الكائنات قانوناً خاصاً تجرى بمقتضاه ولو ألقى أصــغر دســار من دسرها فى الماء لغاص فيه واستقر فى أعماقه، ولكن رحمة الرحمن الرحــيم جعلــتها مــن ضخامتها وامتداد أقطارها تمخر العباب، لتيسر للناس سبل تواصلهم وانتقالهم من بلد إلى بلد ومن قطر إلى قطر؛ ومن قارة إلى أخرى أليس ذلك من أبهر آيات الرحمن الإلهية!.

ثم تدبــر هذا النظام العجيب الذى نظم حركة الماء؛ فقد جل شأنه وبهرت قدرته ووســعت رحمته أنه لا حياة للأرض وساكنيها إلا بالماء فجعل معظم سطحها مغموراً بــه، وجعلــه ملحاً أجاجاً حتى لا يأسن ولا ينتن، فيقضى فساده على حياة الأحياء، ولكن الماء الملح لا يسقى زرعاً ولا يروى ظمأ، فكيف ينتفع به؟.

ســلط أشــعة الشمس على هذه اللجج الواسعة التى تغمر جل الأرض فمحيت، وبخــرت وتصــاعد بخارها إلى الأعالى، وصار سحابا مسخراً بين السماء والأرض؛ فأرسل إليه الريح تزجيه وتركمه وتسوقه إلى الأرض الجزر فيهطل مطراً غزيراً تحيا به الأرض بعد موتها، وبه تجرى الأنهار ويخضر الزرع وتنبت الأشجار.

ومن مظاهر الرحمة الإلهية هذه الدواب التى بثها فى الأرض لمنفعة الإنسان. وقد قال تعــالى مشــيراً إلى هذا الإكرام: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُــمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِــعُ وَمِنْهَا

تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالغيه إِلا بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل٨].

هـذا وما من شئ فى الوجود إلا هو مغمور برحمة الله حتى الكفار أنفسهم، فهم يغدون ويروحون فى رحمة الله، وفى كل لمحة تفيض عليهم رحمات إلهية، فهم يستمتعون بالحياة والصحة والعافية والقوة والجمال، والمال والبنين، ويتنسمون الهواء ويشربون الماء، وغير ذلك من ألوان النعيم الذى يفيضه الله عليهم من رحمته العامة أما رحمته الخاصة واقفة على المؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف١٥٦].

الآن وقد عرف القارئ الكريم نفحات من رحمة الله التى لا يأتى عليها وصف الواصف ولا بيان المبين؛ أرى لزاماً على أن أقول:

أيليق بالمؤمن أن يترك الرحمن الرحيم الذى وسعت رحمته كل شئ، ثم يفزع إلى مخلوق عاجز ضعيف هو مغمور برحمة الله؛ يلتمس منه حاجته أو يستعين على بلوغ أرب أو يستدفع به مكروهاً؟

أين أنتم من قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء٥٧].

سيقولون: إننا لا نسألهم حاجاتنا ولكننا نتخذهم وسائل إلى الله ليتسبب لنا. قل إن رحمة الله ذاتية وهو ليس فى حاجة إلى من يستثير رحمته؛ وهو لا يفعل أفعاله الحكيمة إلا بمقتضى حكمته البالغة. ألم يقل لكم رسول الله (ﷺ) «إن الله أرحم بعباده من الأم بولدها» ؟ فأنى تصرفون وكيف تحكمون؟

وما لكم لا تتوسلون إلى الله برحمته كما توسل الأنبياء وأتباع الأنبياء الذين نبأنا الله من أخبارهم. هذا سليمان بن داود على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام يقول فى دعائه كما حكى الله تعالى عنه: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل١٩].

وتدبـــر قولـــه تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّه فَعَلَيْه تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْـــتُمْ مُسْلِمِـــينَ فَقَالُوا عَلَى اللَّه تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[يونس٨٦].

هــذا والسعيد من تعرض لنفحات هذه الرحمة القدسية واغترف من معينها بصالح العمـــل فقد قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلا تُفْسِـــدُوا فِـــي الأَرْضِ بَعْـــدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّه قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف٥٦] نسأل الله أن يجعلنا أهلاً لرحمته إنه ذو الفضل العظيم.

الملك

اشـــتقاقه من الملك وهو التصرف فى الجمهور بالأمر والنهى. والملك نوعان: ملك فعـــلى وهـــو التولى بالفعل قولـــه تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل٣٤].

وملك استعدادى لتولى الملك والقدرة عليه، ومنه قولـــه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِه يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّه عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة٢٠].

أى جعل فيكم استعداداً للملك بحيث لو توليتم لكنتم أولى كفاية وحسن تصرف. وليس المراد أنه جعلهم جميعاً ملوكاً بالفعل إذ ذلك ينافى الحكمة والواقع.

وقـــيل: إن الملـــك اسم لكل من يملك السياسة: إما فى نفسه وذلك بالتمكن من زمامها وكبح جماحها، وصرفها عن هواها؛ وإما فى غير سواء عليه أتولى أم لم يتول. وهـــذه المعـــانى لا توائم الخالق سبحانه، ولكنها تشير إلى ما ينبغى أن يفهم من هذا الاسم الأحسن. فالمعنى المناسب لملك الملك سبحانه فوق هذه المعانى جميعاً.

فمعنى الملك بالنسبة إلى الله تعالى هو المتصرف بالغيب فى السماوات والأرض وما فـــيهن؛ ومدبـــر أمر الدنيا والآخرة على مقتضى العلم والحكمة تدبيراً بغير نهاية ولا اســـتعداد أمـــر. فلا يملك التصرف بالغيب فى الكون إلا الله وحده. فإذا لقيت انساناً ينسب التصرف بالغيب إلى غير مالك الملك فاعلم أنه من المشركين الذين يجعلون مع الله إلهـــاً آخر. فمن الشرك الظاهر أن يدعو إنسان أحد الموتى وهو يعتقد أنه يسمعه ويستجيب له، ويدفع عنه الضر ويجلب إليه الخير؛ إذ لا يملك ذلك إلا الله وحده.

ومن الشرك الواضح أن يعتقد إنسان إن الأولياء يجتمعون ليلاً فى بعض الأضرحة وعلى رأسهم السيدة زينب أو غيرها ويدبرون أمر هذا العالم، فيولون من يولون ويعزلون من يعزلون، فإذا انشقا عمود الصباح نفذا ما دبروا.

إذا كان مشركو الجاهلية يعتقدون أن تدبير الأمر إلى الله وحده أفليس من أقبح السفه أن يعتقد مثل هذه الخرافة من ينتسبون إلى الإسلام؟

وهذا كتاب الله تعالى تتعلق آياته بالحق. قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَى مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَى وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس٣٢].

وتدبير أمر الآخرة إلى الله وحده؛ فمن أعتقد أن شيخه يخرج مريديه من الجحيم فهو مشرك، لأنه عزا إلى المخلوق ما لا يكون إلا للخالق سبحانه؛ وإذ كان مالك الملك سبحانه قد نفى عن أحب الرسل إليه وأكرمهم عليه أن ينقذ من فى النار، أفيليق أن تنسب ذلك إلى مخلوق أقل ما يقال فيه: أنه ليس بمعصوم؛ وإننا لا ندرى ما يفعل به. قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِى النَّارِ﴾ [الزمر١٩]. فربنا سبحانه هو المَلِك الحق، لأن سلطانه أحاط بكل شئ وشمل كل شئ، ولم يخرج عنه شئ، ولأن ملكه لا ينتهى إلى حد، ولأن جميع تصرفاته حكيمة لا يتطرق إليها فساد، ولأنه لا يستمد الأمر والسلطان من غيره؛ بل له مقاليد السماوات والأرض؛ بيده ملكوت كل شئ، وإن من شئ إلا عنده خزائنه؛ وما ينزله إلا بقدر معلوم.

أما ملوك الأرض فملكهم ظل زائل؛ وعارية مستردة، وهم مهددون بزواله، أو بزوالهم عنه، وهم فى قبضة الملك سبحانه إن شاء أعطاهم وإن شاء حرمهم، لا معقب لحكمه. قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران٢٦].

ومهما تتسع أملاكهم الزائلة فلن تتجاوز رقعة الأرض وأين الأرض من هذا العالم الفساح الذى لا تأتى العقول على حدوده، ولا تصل المدارك إلى غاياته؟

يقــول الله تعالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِى السماوات وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِى الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس١٠١].

وأريد أن أجلو على القارئ الكريم صفحة من صفحات هذا الملكوت لتتجلى لــه ناحية من نواحى هذا الملك الفسيح الذى تضل فى اتساع مداه الظنون.

هــذه الأرض التى نعيش عليها جزء من ألف ألف وثلثمائة ألف جزء من الشمس أى لــو أن الشــمس قسمت إلى أجزاء صغيرة كل جزء منها قدر الأرض لنشأ منها أرضون بالقدر الذى ذكرنا.

والمســافة التى بيننا وبين الشمس تقدر بثلاثة وتسعين ألف ألف ميل، ويصل إلينا ضــوؤها فى ثمانى دقائق وربع دقيقة؛ فإذا علمت أن سرعة الضوء١٨٦٠٠٠ ميل فى الثانــية فعلــك تستطيع أن تحسب المسافة بيننا وبين مجموعة نجمية يصل ضوؤها إلى الأرض فى ٣٣٠٠٠ســنة، وأن تحسب المسافة التى بيننا وبين بعض السدائم أو الجزر الكونية التى يصل إلينا نورها فى ٩٠٠٠٠٠سنة.

أرســل رائــد الفكر فى هذه الأبعاد السحيقة لتستطيع أن تدرك مدى أبعاد أقليم واحد من أقاليم هذه المملكة الإلهية، ليقل طمعك فى المخلوق ويعظم رجاؤك فى مالك الملك ذى العزة والجلال.

ومهمــا يمــتد الزمان بملوك الأرض فلن يتجاوز ملكهم قرناً من الزمان؛ وأين هذا الملــك المحدود من ملك لا أول لــه ولا آخر، لا بدء لــه ولا نهاية، يجمع بين أزل الزمان وأبده، بل يسبق الأزل، ويبقى بعد الأبد، وستتقلص خلال هذه الممالك ويبقى الملك لله وحده.

قــال تعالى: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذ للَّه يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذينَ آمَنُوا وَعَملُوا الصَّالحَات فى جَنَّات النَّعيم(٥٦)وَالَّذينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بآيَاتنَا فَأُولَئكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهينٌ﴾[الحج٥٧].

وقــال تعالى: ﴿رَفيعُ الدَّرَجَات ذُو الْعَرْشِ يُلْقى الرُّوحَ منْ أَمْره عَلَى مَنْ يَشَاءُ منْ عــبَاده ليُــنْذرَ يَوْمَ التَّلاق (١٥) يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّه منْهُمْ شَيْءٌ لمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ للَّه الْوَاحد الْقَهَّارِ﴾ [غافر١٦].

وقــال: ﴿وَهُــوَ الَّذى خَلَقَ السماوات وَالأَرْضَ بالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قولــــه الْحَــقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام٧٣].

تعالى الله الملك الحق ورغماً لمعاصى قوم يتركونه إلى مخلوق حقير لا يملك مثقال ذرة فى السماوات والأرض يفزعون إليه فى الملمات؛ ويضرعون إليه فى قضاء الحاجات وهم عن ملك ربهم الواسع العظيم معرضون.

إذا فتح ملك من ملوك الأرض أبواب قصره لشعبه ثم أمر منادياً ينادى فى الناس: إن أبواب قصرى مفتوحة على مصارعها؛ لا يرد عنها طالب حاجة، فمن كانت له حاجة فليرفعها إلى فأنى زعيم بقضائها، أفليس من الخرق وسفاهة العقل أن يرفع أحد الرعية حاجته إلى السوقة وينصرف عن الملك وأبوابه منه قريبة.

ألا يرى الملك أن الذى يفعل ذلك مكذب له أو منكر لفضله؟ ثم ألا يكون موضع سخطه ونقمته؟

فكيف بملك الملوك الذى بيده خزائن السماوات والأرض. ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم؟

فليعتبر أولئك الغافلون الذين تقصر همتهم عن طرق أبواب الملك الحق، وينزلون حاجاتهم بواد غير ذى زرع.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَه مُلْكُ السماوات وَالأَرْضِ يُحْيِى وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِى وَلا نَصِير﴾ [التوبة١١٦].

وقال تعالى: ﴿أَلا إِنَّ لِلَّه مَنْ فِى السماوات وَمَنْ فِى الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس٦٦].

وقال تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَه الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِه مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِير (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر١٤].

فتبارك الذى بيده الملك وهو على كل شئ قدير.

عجباً للذين تعدوا أعينهم عن خزائن الملك الكريم الوهاب ثم يعمدون إلى المخلوقين الذين أحضرت أنفسهم الشح يسألونهم مالا يملكون والله تعالى يقول:

﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾ [الإسراء١٠٠].

فلم تسأل الإنسان الكز الشحيح القتور، وتغفل عن ربك الملك الكريم الوهاب الـــذى لو وقف الخلق جميعاً إنسهم وجنهم، أولهم وآخرهم فى صعيد واحد ثم سألوه فأعطى كلاً منهم سؤله ما نقص من ملكه إلا ما ينقص من البحر إذا همس فيه المحيط.

ألا قليلاً من التبصر أيها الناس تقفوا على الحق وتهتدوا إليه!!.

ومـــا قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون.

القـــدوس

«القـــدس» جبل عظيم بنجد. و«قدس» الأبيض والأسود: جبلان و«القداس» شئ كالجمـــان من الفضة. والحجر ينصب على مصب الماء فى الحوض، والمنيع الضخم من الشرف؛ و«القديس» الدر.

إذا تأملت هذه المادة فى معانيها المختلفة وجدتها تدل على العلو والعظمة والطهارة والشـــرف وسمـــو المنزلة: فالجبل العظيم ينحدر عليه السيل فيغسله ويطهره، والشيء الـــذى كالجمان من الفضة أبيض لامع صقيل، والحجر الذى ينصب على مصب الماء فى الحـــوض لا يزال نقياً نظيفا طاهراً بدوام انسكاب الماء عليه، والدر شئ لامع رفيع القدر.. ومن هذه المعانى الحسية أخذت المعانى المعنوية وهى الشرف والرفعة والطهر.

فالقدس والقدس: الطهارة والبراءة من العيوب. والتقديس: التطهير. ومنه الحديث الشريف «لا قدست أمة لا يؤخذ لضعيفها من قويها» أى لا طهرت والأرض المقدسة أى المطهرة، وسمى جبريل روح القدس؛ لأنه ينزل بالقدس من الله تعالى. أى ما يطهر الـــنفوس مـــن القـــرآن والحكمة والتوفيق الإلهى. وحظيرة القدس هى الجنة لأنها دار المطهرين.

وتدبرك لهذه المعانى جميعاً يقرب إلى ذهنك معنى اسم الله تعالى «القدوس».

فالقدوس اسم من أسمائه تعالى الحسنى؛ لا يطلق على غيره حقيقة ولا مجازاً. ومعناه الطاهـــر المبرأ من جميع النقائص، المنزه عن جميع الشوائب والعيوب، وصيغته من أبنية المبالغة؛ ومن أذكاره (ﷺ) «سبوح قدوس رب الملائكة والروح» تنزه ربنا سبحانه عن كل نقص ذاتا وصفات وأفعالا.

فذاته الأقدس مبرأ مما يعترى المخلوقين من شوائب النقص جميعاً؛ فلا يلحقه موت ولا فناء؛ ولا تعب ولا إعياء؛ ولا سنة ولا نوم ولا إغماء، كما، أنه متره عن مشابهة المخلوقين.. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السماوات وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّة أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق ١٠٠].

﴿فَاطِرُ السماوات وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى١١].

وصفاته العلا وأفعاله الحكمية مبرأ من كل نقص كذلك، فعلمه محيط بكل شيء وقدرته لا يعجزها شئ، وإرادته لا مسيطر عليها ولا رقيب، ومشيئته نافذة فى ملكوته.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى الأَرْضِ وَلا فِى السَّمَاءِ (٥) هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران ٦].

وقال: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ (١٩) وَاللَّهُ يَقْضِى بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر٢٠].

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد٤١].

وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام١١٥]. ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم٦٤].

وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون١١٥].

والإيمان بقدوسيته تعالى يقتضينا أن ندعوه وحده؛ لأنه ليس فى حاجة إلى مساعد ولا معين. وأن لا نتوسل إلية بذوات المخلوقين، لأن إرادته نافذة لا ترد؛ ومشيئته ماضية لا تصد، وليس كالملوك والكبراء الذين تعبث نساؤهم وحظاياهم وحجابهم وبطانتهم بإرادتهم، فيترلوهم على حكمهم ويصدوهم عما يريدون؛ ويحملوهم على ما لا يريدون. تعالى ربنا عن كل هذا، بل هو الملك القدوس المتره عن جميع العيوب، فلا يتقرب إليه إلا بطاعته، ولا يتوسل إليه إلا بعبادته، وفى الحديث القدسى عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِى وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَى عَبْدِى بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَى مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ

عَبْدِى يَتَقَرَّبُ إِلَى بالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِه وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِه وَيَدَهُ الَّتِى يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِى يَمْشِى بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِى لأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِن اسْتَعَاذَنِى لأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِى عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ».

فلنؤمن بقدوسية الله ولنعبده بما يوائم هذه القدسية ليستجيب لنا إذا دعوناه، ويرحمنا إذا استرحمناه، ويعيننا إذا استعناه، ويغثنا إذا استغثناه.

وليس معنى هذا: أنه يغير إرادته أو يبدل كلمته من أجلنا ولكن معناه أن جعل لهذا العالم نواميس وربط أسبابها بمسبباتها، ومقدماتها بنتائجها. فإذا أخذنا بالأسباب أنتجت حتماً مسبباتها، وإذا أخذنا بالمقدمات ظفرنا بالنتائج، فمن زرع حصد، ومن جد وجد. قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى٣٠]. وقال ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى٢٠].

وقال: ﴿مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد١١].

وقال: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السماوات وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِى اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِىَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر٣٨].

لقد أنكر قدوسية الله من ظن أن الوسطاء والشفعاء يغيرون إرادة الله ويحملونه على أن يفعل ما لا يريد أن يفعل، أو على أن يمتنع عن فعل ما كان يريد أن يفعل كما يدل عليه ضربهم الأمثال لله فى ذلك بالعظماء والمقربين لديه - تعالى الله عن ذلك علواً كبير. قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السماوات وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر٤٤].

وقال: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِى السماوات لا تُغْنِى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم٢٦].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِىَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة٢٥٤].

ســبحانك يـــا ملـــك يا قدوس، ما قدرك حق قدرك، ولا عرف حقيقة أسمائك وصـــفاتك مـــن ظن بك ظن السوء، وزعم أنك تغير وتبدل حسب مشيئة الناس لا حسب مشيئتك، وطوع إرادة الخلق لا تنفيذاً لإرادتك؛ وإنك تقضى فى خلقك بأهواء الشفعاء والموتى لا بعلمك وحكمتك.

وممـــا ينافى الإيمان بقدسية الله تعالى: الابتداع فى دين الله؛ لأن المبتدع يقول بلسان حالـــه - إن لم يقـــل بلســـان مقاله: إن الله أنزل دينا ناقصاً وهاأنذا بذكائى وعلمى أكملـــه، وشرع شرعا يعزوه الكمال وأنا برأيى الثاقب أتمه.. وحاش لله أن يكون دينه ناقصـــا أو شـــرعه غير واف بحاجة الأنام وهو القائل: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّـبُعُ إِلا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَـئِسَ الَّذِيـــنَ كَفَـــرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْـــتُ عَلَـــيْكُمْ نِعْمَـــتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة٣].

وقد بين (ﷺ) أتم بيان، عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قال: قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا».

فماذا أبقى الله ورسوله من التشريع الحكيم والبيان التام لهؤلاء المفتونين المبتدعين؟.

نسأل الله لنا السلامة، ولهم الهداية والتوفيق.

الســـلام

تطلق العرب كلمة السلام على عدة معان: منها الاسم من التسليم؛ الذى هو تحية المؤمنين، فإذا لقى المؤمن أخاه فقال له: السلام عليكم. قيل إنه قرأ عليه السلام، وهو تحـــية مباركة طيبة. قيل إن معناها: سلمت منى فاجعلنى أسلم منك. وقيل إن معناها اســـم الله علـــيك، وذلك أن اسم الله تعالى يذكر على الأعمال توقعاً لاجتماع معانى الخير فيها، وانتفاء عوارض الفساد عنها. وقيل إن معناها: أعيذك بالله وأحصنك به من كل ما يسوء ويؤلم. وقيل: إن معناه أدعو لك بالأمان من كل ما يؤذى.

وهو تحية المؤمنين كذلك فى دار السلام.

قـــال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب٤٤].

وقال تعالى: ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ [يس٥٨].

وتلك التحية من الله تعالى، وقد تكون من الملائكة للمؤمنين عند دخول الجنة.

كما قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر٧٣].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل٢٨].

كما تكون فى كل وقت يدخلون عليهم فيه، قال تعالى: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد٢٤].

وتكون من بعض المؤمنين لبعض دلالة على توادهم وتحابهم وسلامة صدورهم من الغل. قال تعالى: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلا سَلامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم٦٢].

ومن هذه المعانى: أنها نوع من الشجر؛ ومما يتندر به جفاء الأعراب - مما يناسب هذا المعنى - أن رجلا قال لأعرابي: السلام عليكم. فقال الأعرابي: الجثجات عليك. فقال الرجل: ما هكذا يكون الرد. قال هما شجران مران، أنت جعلت على واحداً منهما، وأنا جعلت عليك الآخر.. ويطلقونها كذلك على الاستسلام، وعلى البراءة من العيوب والسلامة من الآفات.

فبأى هذه المعانى يفسر الاسم الكريم؟

أمثل ما يفسر به الاسم الكريم أنه مأخوذ من المعنى الأخير وهو البراءة من العيوب؛ والسلامة من النقص.

وهو فى الأصل مصدر سلم يسلم سلامة وسلاما، أى خلا من العيوب والنقائص؛ سمى الله به نفسه مبالغة فى كمال تنزيهه وسلامته من العيوب والنقائص والآفات التى تلحق الخلق ولكنها لا تليق برب العالمين.

وقد جاء هذا الاسم الكريم فى آخر سورة الحشر فى قوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِى لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر٢٣].

وجاء فى السنة المطهرة كذلك؛ فقد روى البخارى من حديث عبد الله بن مسعود قال «كنا إذا كنا مع النبى (ﷺ) فى الصلاة قلنا: السلام على الله من عباده، السلام

على فلان وفلان. فقال النبى (ﷺ) لا تقول السلام على الله، فإن الله هو السلام، ولكن قولوا: التحيات لله والصلوات والطيبات؛ السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته؛ السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإنكم إذا قلتموها أصابت كل عبد صالح فى السماء والأرض، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله».

وكان (ﷺ) إذا سلم من صلاته استغفر ثلاثا ثم قال «اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام»وكان (ﷺ) إذا شاهد البيت الحرام يقول «اللهم أنت السلام ومنك السلام، أحينا ربنا بالسلام».

فالله سبحانه وتعالى هو السلام، أى الذى لا تلحقه العيوب ولا النقائص ولا الآفات، ولا يلم به موت ولا فناء، ولا مرض ولا فتور، ولا غفلة ولا سهو، ولا نسيان، ولا يصيب صفة من صفاته نقص ولا عيب. فعلمه لا يحجب دونه شئ؛ وسمعه لا يغيب عنه مسموع، وبصره لا يغيب عنه مبصر؛ وغناه لا يمسه فقر، وعزته لا تصيبها ذلة، ولا يغلب على أمره، أو يصرف عن شئ يريده.

وقد ألحد فى أسماء الله، وأنكر اسمه تعالى «السلام»من زعم أن الله تعالى يغير مشيئته ويبدل كلمته من أجل مخلوق يتوسل بذاته إليه أو يقسم به عليه، أو يستشفع به إليه، فهو سبحانه السلام الذى تتره عن نقص العبث واللعب، لا مبدل لكلماته ولا معقب لأمره، ولا كاشف لضر أراده إلا هو، ولا راد لفضله.

يا عجباً لهؤلاء الناس! لا أدرى كيف يفكرون، ولا كيف يحكمون؟ كيف يظنون بربهم ظن السوء فيشبهونه بامرأة حمقاه تنقض غزلها من بعد قوة أنكاثاً، أو برئيس أخرق لا يعمل ما تقتضيه الحكمة والرشد، بل ما يتطلبه الوسطاء والشفعاء.

يا قوم أين عزب عنكم الرشد؟ تعيبون هذا على المخلوق وترضونه للخالق.

اذكروا يا قوم أن نظام هذا العالم المحكم العجيب مظاهر لأسمائه تعالى وصفاته، أليس هذا العالم الذى سلم من العبث والخلل فى نظامه وحركته وقوانين أرضه وسمائه مظهراً لاسمه تعالى السلام؟

تدبر نظام الشمس والقمر فى شروقهما وغروبهما، وتدبر نظام الأفلاك والنجوم والكواكب، وتدبر نظام الرياح والأمطار والنبات، وغير ذلك من آيات الله فى الآفاق تدرك أن كل ذلك برئ من الخلل، إنما هى مظاهر لاسمه تعالى السلام.

هذا ومن الجائز أن تجعل المصدر بمعنى اسم الفاعل، فالله سبحانه هو السلام، أى المسلم، أى الذى يملك أن يهب السلامة والنجاة لمن شاء من عباده.

ولعل فى قولــه (ﷺ) (اللهم أنت السلام ومنك السلام) ما يؤيد هذا الرأى. أى أن السلامة لا تكون إلا منك، فمن كان يرجوا السلامة من الآفات والنجاة من البلاء فلا ينبغى أن يفزع إلا إلى رب السلام سبحانه.

وتفســير السلام بهذا المعنى أيضاً يدفع فى صدور هؤلاء الذين يستغفرون غير ربهم ويلتمسون من المخلوقين النجدة والمعاونة، والله يقول لنبيه الذى هو أفضل خلقه:

﴿قُـلْ لا أَمْلـكُ لِنَفْسـى نَفْعًا وَلا ضَرًّا إلا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْـتَكْثَرْتُ مِـنَ الْخَـيْرِ وَمَا مَسَّنِى السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُـونَ﴾ [الأعراف١٨٨].

فمـن طلـب السلامة والنجاة فليطلبها من الله السلام بالإيمان فقد قال تعالى فى كتابه الكريم: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَالَّذِيـنَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّـا عَلَيْنَـا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس١٠٣].

قـال أحـد المخذولين فى مجلس حافل: سقطت ذات مرة فى بئر، وأشرفت على الغـرق، وسـرت أبحث عن مرقاة أرتقى عليها فلا أهتدى، فلما ضقت بالأمر ذرعاً ويئست من النجاة، هتفت من أعماق صدري: يا سيدى يا بدوى، فلم أكد أفرغ من الـنطق بهذا الهتاف حتى كانت يدى فى المرقاة. فلن أنس فضل السيد البدوى على ما دمت حياً!!.

ألا تعجـبون لهذا المخذول الذى يعتقد أن البدوى سمع نداءه ثم جاءه، ووضع يده فى المرقاة وسلمه من الغرق! وإذا لم يكن هذا شركاً فما عسى الشرك أن يكون؟

ومـن بواعث الأسى أن هذه العقيدة تكاد تكون عقيدة السواد الأعظم من عامة المصريين الذين يشركون هذا البدوى فى جواميسهم وأبقارهم وكباشهم وعجولهم، بل وفى أموالهم وأبنائهم، فلولا أنهم يعتقدون أنه يقدر على نفعهم وضرهم ما بذلوا لـه من ذات أيديهم ما بذلوا. وأرى أنه لا سلامة لهذا الشعب الجاهل من هذا الشر إلا أن يسـلط معول الهدم على هذا الوثن وأمثاله كما سلط رسول الله المعاول على اللات والعزى وغيرهما حتى جعل هياكلها أنقاضاً، وأراح منها الأرض وأهلها.

اللهم أنت السلام ومنك السلام، فسلمنا من شطط العقول وزلل الإفهام.

المؤمن

((المؤمن)) اسم الفاعل، من آمن يؤمن فهو مؤمن. إذا صدق تصديق وثوق واطمئنان قال تعالى فيما حكاه عن إخوة يوسف عليه السلام: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف١٧].

أى ما أنت بمصدق لنا ولا واثق من قوله ولا مطمئن له وقال تعالى:

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس٨٣].

أى فما صدق مطمئنا واثقاً.

وعلى هذا يمكن أن يفسر اسمه تعالى (المؤمن) بالصدق.

فالله تعالى مؤمن أى مصدق لنفسه، أى دافع أولى الألباب إلى التصديق بوجوده ووحدانيته بما أودع غرائز البشر من الاستعداد للاعتراف بوجوده، والإقرار بربوبيته، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف١٧٢].

وإنما تظهر آثار هذه الغريزة واضحة أشد الوضوح، جلية أبين الجلاء، إذا حزب الإنسان أمر من الأمور الحازبة التى تجعله يعترف بعجزه ويقر بضعفه، ويشهد بحاجته إلى قوة يفزع إليها لكشف ضره وتفريج كربه؛ حتى أكثر الناس إلحاداً وأشدهم إغراقاً فى الجحود، وإسرافاً فى الإنكار. يبرز الضعف ما استقر فى أعماق نفسه من آثار هذه الغريزة التى أودعه الله إياها، فنجده إذا تحرجت الأمور واشتدت الكروب واستحكمت حلقات اليأس: يضرع إلى الله تعالى فى كشف الضر وتفريج الكروب.

ولقد نبأنا الله من أخبار المشركين الذين كانوا إذا مسهم الضر نسوا ما كانوا به مشركين وفزعوا إلى الله رب العالمين، ودعوه مخلصين له الدين، قال تعالى:

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء٦٧].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِى الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت٦٥].

وقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّه أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّه تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْه إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام٤١].

وهو تعالى مصدق لنفسه كذلك بما أقام من الآيات فى الأنفس والآفاق، وما نصب من الدلائل والشواهد التى لو تدبرها الغافلون لصدقوا بأن لهذا الوجود خالقا حكيماً دبر هذا الكون على أتم نظام وأبلغ إحكام.

وهو سبحانه «المؤمن»أى المصدق لنفسه بما ضرب من الأمثال لإثبات وحدانيته هذه الأمثال التى تدبرها المدبرون لشفت صدورهم؛ وأزاحت عللهم، وأقنعتهم بأن ربهم واحد لا شريك له؛ فآمنوا بوحدانيته إيمانا تطمئن به القلوب، وتثلج به الصدور قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فيه شُرَكَاءُ مُتَشَاكسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ للَّه بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر٢٩].

وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً منْ أَنْفُسكُمْ هَلْ لَكُمْ منْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ منْ شُرَكَاءَ فى مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فيه سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَات لقَوْمٍ يَعْقلُونَ﴾ [الروم٢٨].

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَمْلُوكًا لا يَقْدرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ منَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ منْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ للَّه بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل٧٥]

وقال تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ للَّه وَسَلامٌ عَلَى عبَاده الَّذينَ اصْطَفَى ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض وَأَنْزَلَ لَكُمْ منَ السَّمَاء مَاءً فَأَنْبَتْنَا به حَدَائقَ ذَاتَ بَهْجَة مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئلَهٌ مَعَ اللَّه بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسى وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجزًا أَئلَهٌ مَعَ اللَّه بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يُجيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَئلَهٌ مَعَ اللَّه قليلاً مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّنْ يَهْديكُمْ فى ظُلُمَات الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَى رَحْمَته أَئلَهٌ مَعَ اللَّه تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَئلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادقِينَ﴾ [النمل٦٤].

فهـذه الآيات القرآنية التى تفتح العيون وتنبه الأذهان إلى الآيات الكونية التى يراها فى الآفـاق والأنفـس - يصدق الله تعالى نفسه - أى يجعل الذين ينظرون إليها نظر تفكر وتدبر لا يجدون بداً من التصديق بعظمة هذا الخالق وفضله ووحدانيته بما يجدون فى أنفسهم من العلم الضرورى الناشئ من التدبر.

وهو تعالى «المؤمن»أى المصدق لنفسه فى أخباره بالبعث والنشور بما وجه الأذهان إليه من الأدلة المقنعة والحجج القاطعة التى لا يرتاب فى صدقها إلا مدخول قال تعالى: ﴿وَضَـرَبَ لَـنَا مَثَلاً وَنَسِى خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِى الْعِظَامَ وَهِى رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَـأَهَا أَوَّلَ مَرَّة وَهُوَ بِكُلِّ خَلْق عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْـتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السماوات والأرض بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَـى وَهُـوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَـهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[يس٨٣].

فهو تبارك اسمه «المؤمن» أى الباعث إلى الإيمان بوجوده ووحدانيته وأخباره الغيبية بما أقام من أسباب الإيمان وما أوجد من بواعثه.

وهـو تعـالى جـده «المؤمن» أى المصدق لرسله أجرى على أيديهم من الخوارق والآيات التى تقوم مقام قولـه تعالى: صدق عبدى فى كل ما يبلغ عنى. وهذه الآيات الـتى أجريـتها على يديه دليل صدقه؛ إذ لو كان كاذبا ما أيدته بهذه المعجزات التى ليست فى وسع بشر.

وقد قص الله تعالى علينا في القرآن الكريم أنباء بعض الآيات التى صدق بها رسله؛ فقـال تعالى فى شأن صالح عليه السلام: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَة إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَـوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَـوْمٍ عَظِيـمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْـبَحُوا نَـادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) [الشعراء١٥٨] وقال تعالى فى شأن شعيب إِذْ قَالَ لَهُـمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّى لَكُمْ رَسُـولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِى إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِى الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ (١٨٤) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِـنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلا

بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[الشعراء١٩٠].

وقال تعالى فى شأن موسى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السماوات والأرض بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ [الإسراء١٠٣].

وقال تعالى فى شأن آية خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص٥١].

فرسول الله (ﷺ) لم يكن بجانب الطور يوم اصطفى الله موسى على الناس برسالاته وبكلامه، وما كان مقيما فى أهل مدين يشاهد ما كان بينهم وبين شعيب ولكن الله تعالى صدقه بأخباره بهذه الغيوب أى أيده بآية تحمل الناس على تصديقه والإيمان برسالته.

فهذه الشواهد تثبت أن الله تعالى بصدق رسله أى يشهد لهم بالصدق بما يجريه على أيديهم من الخوارق و الآيات التى لا قبل لأحد من الخلق بأن يأتى بمثلها.

فهو تعالى المؤمن أى المصدق لرسله والمؤيد لهم. بالمعجزات تصديقا لهم ليؤمن الناس برسالتهم ويصدقوهم.

وكذلك هو المؤمن أى المصدق عباده المؤمنين يوم القيامة إذا سئلت الأمم عن تبليغ رسلهم: قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِى كُنْتَ عَلَيْهَا إِلا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة١٤٣].

هذا ويحتمل أن يكون المؤمن بمعنى واهب الأمن والطمأنينة؛ ومذهب الخوف.

وآمن أولياءه عذابه كما قال:

﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس٦٢].

وآمن خلقه أن تتحول سنته أو تتبدل كلمته ﴿اسْتِكْبَارًا فِى الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلا سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ [فاطر٤٣].

فنواميس هذا العالم ثابتة لا يعتريها تغير، وقوانين هذا الوجود مستقرة لا يمسها تحول؛ فالمقدمات الصحيحة تقضى إلى نتائجها، والأسباب الصحيحة تنتج مسبباتها.

وقال ولينصرن الله من ينصره. وآمنهم أن يجعل للكافرين عليهم سبيلا فقال ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا. وآمنهم من عذاب النار فقال إن الذين سبقت لهم منا الحسنى؛ أولئك عنها مبعدون. لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون. ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء١٠٣].

وقد آمن المؤمنين أن يضيع أجورهم فقال: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا. وقد آمن التائبين أن ينالهم بعذاب فقال: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام٥٤].

إذا تدبرت ما تلوت عليك من هذه الآيات البينات - تبين لك أن تفسير اسمه تعالى المؤمن بهذا المعنى تفسير صحيح لا غبار عليه.

وتبين لك أيضاً أنه لا عمل للوسطاء الذين يتوسل الجاهلون بأشخاصهم إلى ربهم، فقد آمن سبحانه عباده ولم يحوجهم إلى من يلتمس لهم منه الأمان؛ وإنما يحتاج

الناس إلى من يلتمس لهم الأمان إذا كانوا أمام سلطان جائر أو ملك ظالم. أما ربك فهو الغفور الرحيم.

اللهم إنا نعوذ بك من الضلال بعد الهدى؛ ومن السفه بعد الرشد.

المهيمن

ذكرت هذه الكلمة الطيبة فى القرآن الكريم مرتين: جاءت مرة اسماً لله تعالى فى قوله جل شأنه: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذى لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر٢٣].

وجاءت أخرى صفة للكتاب العزيز فى قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِى مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة٤٨].

وقد اختلف القدامى من علماء اللغة فى تفسيرها. فقال فريق: معناها الرقيب الحافظ. فالكتاب الكريم رقيب على الكتب السماوية يرد ما حرف من كلمها إلى مواضعه، ويحفظ ما تضمنت من حقائق الدين وأصوله أن يعبث به العابثون طوعا للأهواء؛ ويشهد لها بالصحة؛ ويقرر أصول شرائعها، وما يتأيد من فروعها.

والله تعالى مهيمن على هذا العالم أى رقيب على أعمال العباد يحاسبهم بها، وحافظ على كل نفس كما قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾[الطارق٤]. كما أنه حافظ لنظام العالم البديع أن يتسرب إليه خلل أو يمسه فساد.

وقال فريق: إن معناها «الشاهد» فالكتاب العزيز شاهد على الكتب السماوية بأنها حق، والله تعالى شاهد لنفسه بالوحدانية؛ كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[آل عمران ١٨]. وهو كذلك على كل شئ شهيد.

واستدل هؤلاء بقول عمر رضى الله عنه فى بعض خطبه: أنى متكلم بكلمات فهيمنوا عليهن أى اشهدوا. ويقول العباس:

حتى احتوى بيتك المهيمن من خندف علياه تحتها النطق

أى بيتك الشاهد بشرفك.

وقـــال بعضهم فى تفسير اسم الله ((المهيمن)): هو القائم على خلقه؛ واستدلوا بقول الشاعر:

ألا إن خيـــر الناس بعد نبيـــه   مهيمنه التاليه فى العرف والمنكـــر

أى أن خـــير الناس فى هذه الأمة بعد رسول الله (ﷺ) هو القائم على الناس بالأمر والنهى، وهو الخليفة الأول أبو بكر الصديق الذى تلا رسول الله (ﷺ).

فـــالله سبحانه مهيمن أى قائم على أمور الخلق وعلى رعاية هذا العالم وحفظه له. وأرى أن كـــل فـــريق من هؤلاء العلماء نظر إلى الكلمة من جهة واحدة من جهاتها جمـــيعاً، ولو نظروا إليها من جهاتنا لفسروها بمعناها الكامل الشامل الذى يبين حقيقة المراد منها كل البيان.

ولإصـــابة هـــذا الهـــدف يجب أن نرجع إلى معناها المادى الذى هو الأصل الذى أخذت منه سائر المعانى.

فأصـــل هذه الكلمة من هيمن الطائر إذا رفرف على فراخه. وعلينا أن نقف قليلا عند هذا المعنى لندرك معنى رفرفة الطائر على فراخه؛ فالطائر الذى يرفرف على فراخه يحوطهـــا ويرعاها ويعنى بها، ويحافظ عليها، ويحرسها من عدوها، ويدفع عنها جوارح الطير وكواسر الوحش، ويذود عنها الأذى، ويمنعها أن تخرج من عشاشها إلى مواطن الهلكـــة، ويكفل لها أرزاقها. وعلى ضوء هذا المعنى نستطيع أن ندرك معنى اسمه تعالى المهيمن. فهو الذى يقوم على خلقه ويرعاهم ويحفظهم ويرسم لهم الحدود التى تكون ســـلامتهم فى الوقوف عندها، وهلا كهم فى تعديها؛ وذلك بانزال الشرائع التى تهدى إلى ما فيه سعادتهم. وهو الذى يتكفل بأرزاقهم، ويراقبهم، ويحكم فى أمرهم.

وعليك أن تتصور هذه المعانى على أتم وجوهها، وأكمل صورها، بمعنى أن ما عند الله منها ليس كمثله شئ مما عند المخلوقين.

ولأبســـط لك بعض هذه المعانى شيئا من البسط يكون رائداً يقفوه الفكر منتجعاً سائرها لتزداد بربك إيماناً وبهيمنته يقينا.

المهـــيمن هـــو الـــذى يقوم برعاية خلقه وحفظهم إلى أجل مسمى. ينام الإنسان والحيوان والطير مـــلء جفونهم غافلين عـــن أنفسهم، وربهم يـــرعاهم ويحرك أعضاء التنفس، ويبعث القلب علـــى أن ينبض نبضات متناسقة، يبعث بـــه الدم فى الشرايين

لـــيغذو الجســـم، وفى الأوردة ليعود إلى القلب ويخرج منه إلى الرئتين ليصلح منه ما يفســـد؛ وينقى ما تلوث، وينبه الغدد المفرزة لتجدد بعصارتها اللازمة لحياة الجسم أو نمـــوه، أو هضـــم غذائه أو القيام بوظائفه الحيوية على مقتضى نواميس دقيقة وقوانين محكمة؛ وضعها المهيمن العزيز وهو الذى يقوم على خلق الأجنة فى بطون أمهاتها خلقاً مـــن بعد خلق فى ظلمات ثلاث. يحيل التراب غذاء والغذاء دماً، والدم نطفة والنطفة علقة، والعلقة مضغة والمضغة عظاماً؛ ثم يكسو العظام لحما ثم ينشئه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين.

وهـــو الذى يكفل للأحياء أرزاقهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ إِلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود٦].

وهو العليم بأحوالهم فى سرهم وعلنهم، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، ثم يحكم فى أمرهم بمقتضى علمه ورحمته، ألا لـــه الحكم وهو أسرع الحاسبين.

هذا ومن مظاهر هيمنته تعالى على خلقه أنه لم يترك عباده سدى و لم يدعهم هملا، بـــل وضـــع لهم الشرائع التى تنظم سلوكهم، وترسم لهم الحدود التى لا ينبغى لهم أن يـــتجاوزوها فى أعمالهم ومعاملاتهم، وبين لهم مسايرهم إن أحسنوا؛ وعاقبة أمرهم إن أســـاءوا. وقد استأثر الله بهذا التشريع و لم يجعله لأحد من خلقه مهما ترسخ قدمه فى الدين، ومهما علا كعبه فى التقوى، وجعل المرسلين مبشرين ومنذرين، وليس لهم من أمـــر التشريع إلا التبليغ كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلا الْبَلاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى٤٨].

فما عليهم إلا أن يبلغوا ما أنزل إليهم من ربهم، وأن يبينوا لهم ما خفى عليهم أمره بالسنة العملية كما قال تعالى مخاطبا نبيه الكريم: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل٤٤].

فـــلا يملـــك أحد من الخلق أن يحلل أو يحرم. فإذا ادعى مدع لنفسه حق التحليل والـــتحريم فقـــد أعظم الفرية على الله، ونازعه رداء الهيمنة على الخلق، وإن استجاب أحد لهذا المدعى كان من المشركين.

روى الترمذى وابن المنذر وابن أبى حاتم وبن مردويه والبيهقى وغيرهم عن عدى ابن حاتم قال أتيت النبى (ﷺ) وهو يقرأ فى سورة التوبة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْـــنُ

اللَّه وَقَالَت النَّصَارَى الْمَسيحُ ابْنُ اللَّه ذَلكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّه وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّه بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة٣١].

وقال الرازى نقلا عن شيخه قال: شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء قرأت عليهم آيات كثيرة من كتاب الله تعالى فى بعض المسائل، وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات، فلم يقبلوا تلك الآيات، ولم يلتفتوا إليها، وبقوا ينظرون إلى كالمتعجبين وكأنهم يقولون: كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات مع أن الرواية عن سلفنا وردت على خلافها؟ ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء سارياً فى عروق الأكثرين من أهل الدنيا.

وقال السيد حسن صديق فى تفسيره (فتح البيان فى مقاصد القرآن) ما نصه: «وفى هذه الآية ما يزجر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد عن التقليد فى دين الله، وإيثار ما يقوله الأسلاف على ما فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة، فإن طاعة المتمذهب لمن يقتدى بقوله ويستن بسنته من علماء هذه الأمة مع مخالفته لما جاءت به النصوص، وقلمت به حجج الله وبراهينه، ونطقت به كتبه وأنبياؤه: هو اتخاذ اليهود والنصارى للأحبار والرهبان أربابا من دون الله. للقطع بأنهم لم يعبدوهم، بل أطاعوهم وحرموا ما حرموا، وحللوا ما حللوا، وهذا صنع المقلدين من هذه الأمة وهو أشبه به من هذا. وقد بين رسول الله (ﷺ) شريعة الله حق البيان، ولم يدع شيئا يقرب من الجنة ويباعد عن النار إلا أمر ربه؛ ولم يدع شيئا يقرب من النار ويبعد عن الجنة إلا نهى عنه، وقد أكمل الله تعالى دينه، وما كان ربك نسيا.

فإذا تدبر الناس معنى هذا الاسم العظيم ارتدعوا عن البدع ومحدثات الأمور ولم يتعدوا حدود الله، واعتقدوا كرسول الله (ﷺ) أن كل محدثه فى دين الله بدعة؛ وأن كل بدعة ضلالة، ولم يتركوا قول الله وقول الرسول لقول أحد من الناس أو رأيه مهما يكن علمه وصلاحه وتقواه.

المبتدع ملحد فى أسماء الله تعالى، منكر لهيمنة الله على عباده، مدع مشاركة الله فى معنى هذا الاسم الجليل.

وإذا ثبت أن هذا الاسم يتضمن معنى الرعاية والحفظ بطل ما يزعمه المبطلون من جواز التوسل إلى الله بذوات المخلوق المخلوقين ؛ إ ذ ماذا عسى أن يجدي التوسل بذات المخلوقين وقد تكفل المهيمن سبحانه بكل ما فيه العبد ورعايته من تلقاء نفسه؛ وبطبيعة رحمته الواسعة وفضله العظيم.

ربمـــا يعترض بعض المخذولين بالدعاء فيقول: وما ثمرة الدعاء إذا كان المهيمن قد كفل حفظ العبد ورعايته؟

والجواب أن الدعاء فى ذاته عبادة يرجي ثوابها، بل هو مخ العبادة ولبابها، وصفوتها، فـــإذا أيقن العبد أن لـــه رباً مهيمناً سميعاً قريباً، يجيب الدعاء واسع العطاء، ولجأ إلى ســـاحة فضله العظيم، وحظيرة رحمته الواسعة: كان ذلك من العبد إيماناً وعبادة يثاب عليها، وسببا لوصول فضل الله إليه، فقد جعل الله طاعته سببا فى الفوز برحمته فى الدنيا والآخرة. ولم يجعل الوسطاء سبباً فى ذلك؛ ولا جعل التوسل بذوات المخلوقين طريقا للفـــوز بما عنده. وقل لمن ادعوا غير ذلك ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل٦٤].

هذا. ولما كانت هيمنة الله على عباده ولوازمها ذاتية لزم أن يكون الدعاء بما يوائم سنة الله فى خلقه. انظر إلى دعاء الملائكة واستغفارهم المؤمنين تجده يؤيد ما قررنا قال تعـــالى فى ســـورة غافـــر: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر٧].

وتدبـــر دعاءهم لذوى قرابة المؤمنين: لم يقولوا أدخلهم جنات عدن التى وعدتهم وأدخـــل معهم أولى قرباهم مهما تكن أحوالهم فهم أعلم بالله من أن يطلبوا منه مالا يوائم سننه وما يخالف وعده. بل قالوا: ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم.

هذا. وفيما قدمنا ما يكفى لتمهيد السبيل أمام من يريد أن يتدبر مظاهر هذا الاسم الجلـــيل ليدرك معانيه ويفهم مراميه. ويضرع إليه مخلصاً ويهتف باسم المهيمن قائلا فى ضراعة وخيفة. (اللهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين).

العزيـــز

اشتقاق هذا الاسم الأحسن من العزة، وهى فى الأصل القوة والشدة والغلبة.

قـــال الراغب: العزة حال مانعة للإنسان من أن يغلب، من قولهم. أرض عزاز، أى صـــلبة.. والعزيز الذى يقَهر ولا يقُهر. فالعزيز على هذا معناه القوى القادر الذى لا يغلـــبه غالـــب و لا يفوته هارب. وإذا تتبعنا الآيات الكريمة التى جاء فيها هذا الاسم الجليل ألفيناها جميعاً تشير إلى هذا المعنى.

ولأفسر لك بعض الآيات التى جاء فيها ذكر هذا الاسم لتجعلها نبراسا تستضئ بدوره وأنت تتدبر سائر الآيات التى تتضمنه.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة٧١].

بدأ سبحانه فأمر المؤمنين بالدخول فى السلم كافة، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان الذى يأمر بالفحشاء والمنكر، ويدعو إلى التنازع والتفرق، وهما داعية الفشل، وبين لهم أنه عدوهم البين العداوة، ثم بين لهم أنهم إن عصوا أمره سبحانه وأطاعوا وسوسة الشيطان بعد أن تبين لهم الهدى؛ ووضحت أمامهم الحجة، فإن الله قادر على أن يعاقبهم بما كسبت أيديهم، وأن أحداً لن يستطيع أن يفلت من عقوبته، أو يهرب من ملكوته. وقرن تعالى العزة بالحكمة فى قوله (عزيز حكيم) ليبين لهم أنه سبحانه لا يأخذهم اعتسافاً وظلماً، بل إنما يعاقبهم بذنوبهم وخطيئتهم، لأنه حكيم يضع الأشياء فى مواضعها فلا يعاقب. إلا من يستحق العقوبة ولا ينتقم إلا ممن يستوجب الانتقام.

وقال تعالى: ﴿فِى الدُّنْيَا وَالأخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة٢٢٠].

بين سبحانه أن فى إصلاح شئون اليتامى خيرا لهم وللمصلح لأنه إن عنى بتهذيب أخلاقهم وتقويم طباعهم، وتثقيف عقولهم وتطهير أرواحهم، وتلقينهم العقائد السليمة والعبادات الصحيحة، وتقوية أبدانهم، وإصلاح أموالهم، وتعليم ما ينفعهم فى معادهم ومعاشهم، أصبحوا أعضاء عاملين ينفعون أمتهم ووطنهم، وجنى هو ثمرة ذلك فى الدنيا، ونال مثوبته فى الآخرة. وبين تعالى أن الإصلاح إنما يتم بالمخالطة والمعاشرة حتى يستفيدوا من القدوة الصالحة وحتى تظهر للمصلح أخطاؤهم، فيعمل على إصلاحها. ثم بين تعالى أنه لا ينبغى الترفع عن مخالطتهم لأنهم إخوان فى الدين.

ثم أشار تعالى إلى أن رعاية اليتامى ينبغى أن تكون شكراً لله، لأنه أنعم على الذين يقومون عليهم بالإبقاء على حياتهم، ومتع أبناؤهم برعايتهم، وهيأ لهؤلاء الآباء فى صغرهم من عنى بأمرهم، ولو شاء الله تعالى لأعنتهم وأذاقهم ألوان الحرمان والهوان.

وبعد ذلك كله بين أنه عزيز حكيم أى لو شاء ذلك لم يستطيع أحد أن يحول دونـــه ولـــو اجتمعت قوى السماوات والأرض ومن فيهن، وهو تعالى مع هذه العزة حكيم، لا تصدر أفعاله إلا عن حكمة بالغة.

هـــذا ولأذكـــر لـــك بعض مظاهر هذه العزة الإلهية؛ لتعتز بربك، وتتوكل عليه، وتنصرف بكل جوارحك عما سواه.

فمـــن مظاهر العزة الإلهية إحياء الموتى لينال كل واحد جزاءه يوم القيامة، وليعلم الذين كانوا يغترون بغيره أنهم كانوا فى ضلال مبين ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْـــيِى الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُـــرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة٢٦٠].

ومـــنها تصوير الأجنة فى بطون أمهاتها ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِـــلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِى أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة٢٢٨].

ومنها الإيحاء إلى الرسول (ﷺ) بأخبار الماضين لتكون موعظة للحاضرين ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[آل عمران٦٢].

ومنها إرسال الرسل لتثقيف البشر وقطع حجة الناس ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء١٦٥].

ومنها شرح العقوبات والحدود للتنكيل بالعصـــاة والأثمـــة والمجرمـــين قال تعالى ﴿وَالسَّـــارِقُ وَالسَّـــارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة٣٨].

ومنها تقليب الليل والنهار، وفلق الإصباح، وتسيير الشمس والقمر والنجوم بأدق حســـاب وأضبط نظام ﴿فَالِقُ الآصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَـــرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيـــرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيـــمِ﴾ [الأنعام٩٦].

ولـــو أن الناس قدروا عزة الله ما لجأ لاجئ إلى غيره ولا دعا داع سواه؛ ولا قصر مقصر فى عبادته.

ومن مظاهر عزته تعالى أنه منفرد فى ملكه وملكوته، ليس له شريك يشاركه فى أمره ونهيه أو خلقه ورزقه، أو محوه وإثباته: ﴿قُلْ أَرُونِى الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سبأ٢٧].

ومنها أن جميع قوى السماوات والأرض جنود مسخرة لتنفيذ إرادته، خاضعة لعزته ﴿هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السماوات وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح٤].

ومنها أنه خلق الموت هادم اللذات ومفرق الجمعات الذى لا يستطيع أن ينجو منه ملك ولا سلطان. ولا جرم أن خلق الموت من أروع مظاهر العزة الإلهية ﴿الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك٢].

هذا: ولو رحت أعدد مظاهر العزة الإلهية ما اتسعت لها الصحف؛ ولضاقت عنها القراطيس؛ وفيما قدمت ما يكفى المتدبر الأريب؛ فليكن منوالا ينسج عليه، ومنهاجا يسلكه.

سبحانك يارب العزة. لا يستطيع عبادك الضعفاء أن يحصوا مظاهر عزتك ولا روائع حكمتك.

عزة فى حكمة. عزة فى علم. عزة فى قوة. عزة فى رحمة ومغفرة.

هذا والعزة لله وحده؛ فلا عزيز بالحق غيره سبحانه، يعز من يشاء؛ ولا يعز إلا أحبابه الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والصالحين.

﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون٨].

فمن اعتز بغيره ذل ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر١٠].

﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء١٣٩].

فلا ينبغى لمؤمن أن يذل لمخلوق مهما تكن الظروف والأحوال، أو تنزل به الأهوال، بل عليه أن يصون عزة الإيمان أن تلحقها ذلة؛ ويربأ بها أن تمسها مهانة.

وخليق بالمؤمن الذى يحترم دينه ونفسه أن لا يظهر الذلة والضراعة لغير ربه العزيز الجبار المتكبر.

ولكن المسلمين بعد أن فرطوا فى جنب الله؛ وقصروا فى ذات دينهم؛ أخذوا يظهرون الذلة والضراعة للأحياء والأموات.

وإنك لتشعر بالألم يحز فى نفسك، والحسرة تعتلج فى قلبك، حين ترى رجلا موسوما بالعلم قائما على قبر من القبور خاشعاً خاضعا، تبدو عليه الذلة، وتلوح عليه المسكنة؛ يسأل الرفات الرميم أن يقضى له الحاجات، أو يجلب له الخيرات، أو يدفع عنه المضرات. ذلك هو الشرك الذى أذهب عنا العزة، وجلب علينا الذلة، وجعل لأعداء الإسلام السبيل على المسلمين: يتحكمون فى أمورهم. ويستبدون فى مصائرهم، ويقضون فى شئونهم وهم غائبون.

والمتدبر لقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذينَ آمَنُوا منْكُمْ وَعَملُوا الصَّالحَات لَيَسْتَخْلفَنَّهُمْ فى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذينَ منْ قَبْلهمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دينَهُمُ الَّذى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ منْ بَعْد خَوْفهمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنى لا يُشْرِكُونَ بى شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلكَ فَأُولَئكَ هُمُ الْفَاسقُونَ﴾ [النور٥٥].

يعلم علم اليقين أن الإخلاص لله تعالى وإفراده بالعبادة والضراعة سبب فى الاستخلاف فى الأرض، وتمكين الدين الرضى وتبديل الأمن بعد الخوف، والتمتع بنعمة الحرية والاستقلال، ولكن أين المتدبرون؟

نسأل الله أن يلهم الأمة الإسلامية أن تنتفع بكتابها الكريم؛ حتى يعود إليها مجدها القديم.

الجبار

جاءت هذه الكلمة فى القرآن الكريم اسماً لله تعالى من الأسماء الحسنى، فى هذه الآية الجامعة من سورة الحشر، وهى قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذى لا إِلَهَ إلا هُوَ الْمَلكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمنُ الْمُهَيْمنُ الْعَزيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّه عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر٢٣].

جاءت وصفاً للكافر المقتضى عليه بالخيبة فى هذه الآية الكريمة من سورة إبراهيم، وهى قوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنيدٍ﴾ [إبراهيم١٥].

وجاءت وصفا لمكان الأرض المقدسة التى أمر موسى قومه أن يدخلوها فأبوا - فى هذه الآية الكريمة من سورة المائدة وهى قوله تعالى:

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة٢٢].

وجاءت وصفا منفياً عن النبى (ﷺ) فى هذه الآية الكريمة من سورة (ق) وهى قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾[ق ٤٥].

وجاءت وصفاً منفياً عن المسيح صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى:

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم٣٢].

وجاءت وصفاً منفياً عن يحيى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم١٤].

فما معناها إذاً فى هذه المواضع المختلفة؟

جاء فى معاجم اللغة: الجبار كل عات؛ وقلب لا تدخله الرحمة. والجبر خلاف الكسر، والإصلاح بضرب من القهر أو الإصلاح المجرد، وجبر الفقير أحسن إليه، وأغناه بعد فقر؛ وجبره على الأمر أكرهه.

فالجبار العنيد الذى قضى الله عليه بالخيبة هو العاتى المتكبر الظالم العسوف الذى لا تجد الرحمة إلى قلبه سبيلا، والذى لا يبالى ما صنع بالناس ولا ما أوقع بهم؛ ولا ما استلب من أموالهم، ولا ما فتك بأرواحهم؛ ولا ما سفك من دمائهم، ولا ما عبث بأعراضهم ولا ما أفسد من أخلاقهم، ولا ما أفاد من استغلالهم لمصلحته الخاصة، ومنشأ هذا الجبروت فيه أن فيه ناحية نقص يحرص على أن يجبرها، ولذلك لا تكاد تصادف جباراً عاتياً إلا وفيه نقيصة جاءته من قبل أصله ونسبه، أو من تشويه خلقه، أو من قسوة الظروف عليه فى فاتحة حياته، والأمثلة على ذلك أوضح من أن تذكر؛ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار.

و أما سكان الأرض المقدسة الذين وصفهم قوم موسى بأنهم قوم جبارون، فيحتمل أن يكون المعنى المراد من هذا الذى أوضحنا فى معنى الجبار العنيد، ويحتمل أن يكون ولعله أوفى إلى الحق والصواب - بمعنى الأقوياء الأشداء الطوال الأجسام من

قولهم: نخلة جبارة إذا كانت طويلة. لأن قوم موسى آنسوا من جانبهم قوة وبطشا وقدرة على الفتك بهم، فتهيبوا أن يقاتلوهم.

وأما قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق٤٥]. فمعناها لست مسلطا عليهم ترغمهم على ما لا يحبون. كقوله تعالى: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾ [الغاشية٢٢].

وكقوله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة ٢٥٦].

وأما ما جاء منفياً عن يحيى والمسيح عليهما السلام فمعناه أنهما ليسا متعاليين عن قبول الحق والإيمان.

وأما اسمه تعالى (الجبار) فمن الجائز أن يكون اشتقاقه من الجبر بمعنى الإصلاح والإحسان، لأنه تعالى يجبر الناس بفائض نعمه. ويؤيده ما جاء من الدعوات على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم (واجبرني واهدني) أي أغنني، وهو مأخوذ من قولهم: جبر الله مصيبته أي رد عليه ما ذهب منه وعوضه، وأصله من جبر الكسر، وكذلك ماجاء في دعاء علي: يا جابر كل كسير. ويا مسهل كل عسير.

ويكون المعنى على هذا إنه الذي يفيض نعمته على خلقه، ويبسط عليه رحمته فيجبر كسرهم، ويسد عوزهم، ويغني تفاقرهم، ويأسو جراحهم ويمنع دموعهم، ويتولاهم بالرحمة فيلم شعثهم، ويجمع ماتفرق من شملهم.

ولكن يلوح لي أن الأحسن أن يكون اشتقاقه من الجبر بمعنى الإكراه على الأمر واللغة لا تأبى ذلك فقد جاء في القاموس المحيط وغيره من المعاجم التي يعتد بها: جبره على إكراهه عليه كأجبره. ويؤيده أن هذا الاسم الكريم جاء في الآية الجامعة التي صدرنا بها هذا البحث بين اسمين آخرين يدلان على العزة والكبرياء، فقد سبقه اسمه تعالى العزيز؛ وتلاه اسمه تعالى المتكبر.

فالمناسب أن يكون اسمه تعالى الجبار بمعنى يناسب هذين الاسمين الكريمين. والله تعالى يجبر الناس أي يقهرهم على ما يريدون بمقتضى حكمته: فقد أجبر الناس على أشياء لا انفكاك لهم منها ولا خلاص من ربقتها فالأسود والأسمر لا يستطيعان أن يتخلصا من ألوانهما. وذو الأنف الأفطس والشعر الجعد لا يمكن أن يستبدل بخلقه خلقا آخر. والطويل لا يملك أن يقصر. والقصير ليس في طوقه أن يطول – فقد أجبر

كل من هؤلاء على الحال التى لازمته إجباراً لا يستطيع منها خلاصاً. وذلك لحكمة يعلمها الجبار سبحانه، وسر لا تنفذ عقولنا القاصرة إلى أعماق كنهه.

وكذلك أكره سبحانه الخلق على الموت عند حلول الأجل المسمى، وعلى المرض عند التعرض لأسبابه، وعلى البعث إذا نفخ فى الصور. ولو اجتمع الخلق كلهم وكان بعضهم لبعض ظهيرا، على أن يخلصوا مما قضاه الله عند تحقق أسبابه وموجباته، لم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا.

هذا ولا يسبقن إلى ذهن القارئ الكريم أن الله تعالى يجبر الناس على المعاصى والطاعات كما يتوهم كثير من المخذولين الذين لا ينظرون إلى أمر الله ونهيه، ويستزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا فيتورطون فى الخطايا ثم يحملون الأقدار تبعة ذنوبهم وآثامهم إذ لو كان الأمر كما يزعمون لكان من العبث والزور أن نمتدح الأنقياء والصالحين، أو نذم الأشقياء والمجرمين، ولبطل الثواب والعقاب، وكان إرسال الرسل وإنزال الكتب عبثا وكان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من لغو القول وكان الوعد والوعيد ملهاة لاه. تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وبعد. فربك الجبار ذو التصرف المطلق ليس لأحد كائنا من كان عليه من سلطان، بل له السلطان التام على جميع الأنام وجميع تصرفاته بمقتضى العلم الكامل والحكمة البالغة فلا يسأل عما يفعل، وهو يحكم لا معقب لحكمه، يخلق ما يشاء و يختار، لا يبدل القول لديه وما هو بظلام للعبيد.

ولعل هؤلاء الغافلين الذين يدعون غير الله من الأولياء والصالحين من الأحياء والميتين لو تدبروا معنى هذا الاسم الجليل لكشفت الغشاوة عن أبصارهم وعن قلوبهم، وعلموا أنه لا إله إلا الله العزيز الجبار المتكبر، فوقفوا عند الحد وأدركوا سلطان ربهم فى ملكوته، وعرفوا مدى رحمته وعزته وجبروته، فلم تتطلع أنظارهم إلى غيره، و لم تتلفت قلوبهم إلى سواه، و لم يلتمسوا من مخلوق نقض ما أبرم الله، ولا إلغاء ما قضاه، ولا إفساد مادبره، ولا تغيير ما أحكمه.

سبحانك ربى ما قدرك عبادك حق قدرك إذ ولوا وجوههم شطر المخلوقين العاجزين الفانين، وغفلوا عن سطوتك وقدرتك، وجبروتك ورحمتك، ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً وإذاً لآتاهم الله أجراً عظيما، ولهداهم صراطا مستقيما.

المتكبر

وصف الله تعالى نفسه بالتكبر والكبرياء فى القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِى لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِى السماوات والأرض وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجاثية٣٧].

وذم فريقا من خلقه بالكبر والتكبر والاستكبار؛ فقال تعالى فى شأن الشيطان فى سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة٣٤].

وقال تعالى فى قوم نوح من سورة نوح: ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح٧].

وقال تعالى فى شأن قوم هود فى سورة فصلت: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا في الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ(١٥)فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ﴾ [فصلت١٦].

وقال تعالى فى شأن الوليد بن المغيرة فى سورة المدثر: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر٢٥].

وقال تعالى فى شأن الكافرين عامة من سورة الأعراف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف٤٠].

فما معنى هذه الصفة بالإضافة إلى الله تعالى، وما معناها بالإضافة إلى خلقه.

يجدر بنا أن نرجع إلى معاجم اللغة لنستشيرها؛ وعلى ضوء ما نقتبس من نورها نفسر هذا الاسم الكريم من أسماء الله تعالى، وهذه الصفة من صفات المخلوقين.

فإذا استشرنا مفردات الراغب، ونهاية ابن الأثير و أساس البلاغة للمزمخشرى، استطعنا أن تجىء الثمرات الطيبة بين يدى القارئ الكريم.

أما بالنسبة إلى الخلق فإن الكبر والتكبر والاستكبار ألفاظ تتقارب معانيها، وتجتمع عند حال واحدة وهى إعجاب الإنسان بنفسه إعجاباً يدفعه إلى أن يرى نفسه أكبر

من غيره، فيبطر الحق ويغمط الناس، ويظهر من نفسه ما ليس له، وكل من تلوث من البشر بهذه الرذيلة فقد اتبع خطوات الشيطان المريد عليه لعنة الله إلى يوم الدين. فقد أمره الله بالسجود لآدم حين سواه ونفخ فيه من روحه؛ فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس، فقد اعترته الحمية، وغلبته الشقوة، وتعزز بخلقة النار، واستهان بخلقة الصلصال، فكان بتكبره أسبق الخلق إلى المعصية؛ وكانت معصيته رأس المعاصى وأصلها، إذ ما صرف البشر عن قبول هداية الأنبياء والمرسلين إلا استكبارهم وقولهم ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [إبراهيم١٠].

وبذلك ولو أعنتهم عن سبيل الحق، وتنكبوا فى مزالق الكفر والفسوق والعصيان، وجعلوا أسوهم السيئة إبليس عليه اللعنة.

وكذلك ما صرف الناس عن إصلاح المصلحين، وهداية المرشدين من أتباع الأنبياء والمرسلين إلا هذه النقيصة التى يخيل لأصحابها أنهم خير من المصلح وأرشد من المرشد، فلا يتبعون إرشاده ولا يقبلون هدايته؛فيضلون عن سواء السبيل.

وشر التكبر: التكبر على الله تعالى بالامتناع عن قول الحق أو الإقرار به؛وعدم الإذعان له بالطاعات وأداء العبادات.

وإنما ينشأ الكبر عند الإنسان من شعوره بنقص فى نفسه يعتريه فى أصله أو فى خلقه أو فى ملكاته، فيحرص على أن يستر هذا العيب بالظهور فى مظهر الكامل الذى لا عيب فيه، والذى لا يلحقه صغار، وقد ينشأ من فساد ملكة الحكم على الأشياء، كأن يرى الإنسان نفسه قوياً فيسبق إلى وهمه أنه ليس فى الوجود من هو أقوى منه، أو غنياً فيحسب أن الدنيا خلت ممن هو أغنى منه أو على شئ من العلم فيخيل إليه أن جنبات الأرض لم تنطو على من هو أعلم منه، وأن معارف الأولين والآخرين انتهت إليه، فيسوقه ذلك الغرور إلى الكبر كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت١٥].

فدل ذلك على أن اغترارهم بالقوة هو الذى هوى بهم إلى الدرك الأسفل.

وعندى أن باعث الكبر فى الناس ضعف الإدراك وفساد الوزن لحقائق الأشياء، إذ الأريب الحصيف لا يبطر الحق، ولا يغمط الناس، ولا يلتمس ما ليس لـــه، ولا يدعى ما ليس فيه، لأنه يعلم أن مدعى الكمال منقوص.

هـــذا. وأمـــا تكـــبر الله تعالى فمعناه التعالى عن صفات المخلوقين، والتسامى عن نقائصـــهم، والـــتنزه عن معايبهم، فالله تعالى متكبر أى متعال تنزه عن شوائب النقص جمـــيعاً فـــلا يلحقه عدم ولا فناء، وهو أزلى لم يسبق وجوده الكامل عدم، و لم يتلق وجوده من غيره، وهو منزه عن مشابهة الحوادث ليس كمثله شئ.

وهـــو تعالى قائم بنفسه غير مفتقر إلى ما يمسكه أو يحمله أو يسنده أو يمنحه شيئاً من صفات كماله، وبه قامت السماوات والأرض ومن فيهن وما فيهن؛ وهو منزه عن نقيصـــة الشريك، وتأثير المؤثر؛ فلا تبديل لكلماته ولا معقب لحكمه، ولا يخفى عليه شـــئ فى الأرض ولا فى الســـماء، إرادتـــه نافذة فوق كل إرادة، وسلطانه فوق كل سلطان، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

إن نظرة تأمل صادقه فيما يوحيه هذا الاسم الجليل من المعانى والأسرار لتقفك على أن الذين يدعون غير الله ويستعينون سواه، ما قدروه حق قدره ولا فقهوا معانى أسمائه، بل سقطوا فى حضيض الإلحاد وهم لا يشعرون.

هـــؤلاء الذين يصور لهم الوهم الخاطئ والجهل الأثيم أن الأولياء يقربونهم إلى الله زلفى - لو تدبروا معنى هذا الاسم الجليل وحده لوقفوا عند قدرهم وعلموا أن سلطان الله قاهر، وأنه تعالى غالب على أمره، وأنه المتكبر الذى لا يسمح لكائن أياً ما يكن أن يحـــد من سلطانه، أو يهيمن على إرادته، أو يبدل مشيئته، أو يعقب على حكمه، أو يحول سننه ونواميسه.

هذا ولا ينبغى أن يشككك ذلك فى فائدة الدعاء أو ثمراته، فإن الدعاء عبادة خالصة لما فيه من إبداء كامل الخضوع والضراعة لعزته تعالى وكبريائه. وقد وعد الله تعالى بأنه يســـتجيب دعـــاء الداعـــين بقولـــه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر ٦٠].

وقولـــــه: ﴿وَإِذَا سَـــأَلَكَ عِـــبَادى عَنّى فَإِنّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة١٨٦].

وأما الحجة الداحضة التى يحتج بها المخذولون إذ يقولون: إنا عصاة مذنبون؛ والأولياء صالحون مقربون، أنفاسهم طاهرة وأسرارهم حاضرة، فهم خليقون بالاستجابة إذا دعوا لنا. أما هذه الحجة فقد أدحضها الله تعالى إذ يقول: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء١١٠].

فهل قعد بهم العجز والضعف والخور، وفتور الهمة والاستخذاء أمام الشيطان وإغرائه أن يعجزوا حتى عن التوبة والإنابة والاستغفار والاستقامة إلى الله، اعتماداً على شفاعة الشافعين، وتقريب المقربين، وكيف غفلوا عن قول الله الكبير المتعال:

﴿ألا للَّه الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِه أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّه زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيه يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر٣].

وقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة٥].

وقوله تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر١٤].

وما الإخلاص إلا أن تسلم وجهك لله وحده وأن تحول قلبك عمن سواه.

الخالق

لعل الرجوع إلى المعاجم اللغوية ينير لنا الطريق الذى يبلغنا المعنى الدقيق لهذا الاسم من أسماء الله الحسنى، فلنرجع إليها لنرى ما تقول:

الفيروزآبادى: الخلق والتقدير، والخالق المبدع للأشياء، المخترع لها على غير مثال وخلق الأديم قدره وحرزه، أو قدره قبل أن يقطعه فإذا قطعه قيل فراه.

الأساس: خلق الخراز الأديم، والخياط الثوب، قدره قبل القطع، واخلق لى هذا الثوب. ومن المجاز: خلق الله الخلق أوجده على تقدير أوجبته الحكمة.

الراغب: الخلق التقدير المستقيم، ويستعمل فى إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِه خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى٢٩].

أى أبدعهما بدليل ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة١١٧].

ويستعمل فى إيجاد الشيء من الشيء قال تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ

مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر٦].

﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [النحل٤].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون١٢].

﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ [الرحمن١٥].

وليس الخلق الذى هو الإبداع إلا لله تعالى، ولهذا قال فى الفصل بينه وبين غيره ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل١٧].

وأما الذى يكون بالتحويل فقد جعله الله لغيره فى بعض الأمر.

قال: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ وَكَهْلا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِى إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة١١٠].

والخلق لا يستعمل فى الناس إلا على وجهين: أحدهما فى معنى التقدير كقول الشاعر:

ولأنت تفرى ما خلقت   وبعض القوم يخلق ثم لا يفرى

والثانى الكذب ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت١٧].

من هذه النصوص نرى أن كلمة اللغويين أجمعت على أن الخلق هو التقدير، ومعنى التقدير: العلم بالقدر المناسب من المادة لصنع الشيء المراد صنعه، فالصائغ مثلا يخلق الذهب أى يعرف القدر اللازم منه لصنع حلية من الحلى. والخياط يخلق النسيج أى يعرف القدر اللازم منه لصنع أجزاء الثوب المختلفة ويقطعه ويخيطه على ما قدر.

ولكن هذا الفعل إذا أسند إلى الله تعالى كان له معنى أجل و أسمى من هذا المعنى، فمع ما فيه من معنى التقدير الدقيق: فيه معنى الاختراع والإبداع على غير مثال سابق؛

ولا محاكاة. فالله خلق هذا العالم أى قدر المادة اللازمة لخلقه ثم أوجدها من العدم بأمره الكونى ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس٨٢].

ثم خلق كل شئ من المادة التى قدر أن يخلقه منها، بغير أن يكون مقتدياً بأحد فى خلقه، ولا ناسجاً على منوال أحد؛ بل أبدع هذا العالم سماءه وأرضه، وشمسه وقمره، وأنسه وجنه وملكه، وجميع عناصره على غير مثال سبق به؛ كما يدل على أنه سبحانه صنع كل كائن من هذه الكائنات من عدة عناصر بسيطة وقدر ما يلزم من هذه العناصر البسيطة لإيجاده.

علم الربوبية

و هذا الاسم الجليل عنوان الربوبية، وبه كان الله رب كل شئ ومليكه؛ وبه استحق من الخلق أن يسبحوا بحمده، ومن العالمين أن يعبدوه وحده، وأن لا يشركوا بعبادته أحداً وهو ما خلق الثقلين إلا لعبادته. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات٥٦].

فخليق بمن خلق للعبادة ألا يضيع هذه الكرامة التى أكرمه بها ربه وخالقه ومليكه.

والقرآن الكريم مع هذا الاسم الجليل منطق رائع، واستدلال عجب، فاستمع إلى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة٢١].

فأرشد سبحانه إلى أنه مستحق للعبادة، لأنه هو الخالق الذى أفاض على الناس نعمة الوجود والحياة بعد أن أتى عليهم حين من الدهر لم يكونوا شيئاً مذكوراً، فهو الذى خلقهم وخلق آباءهم الأولين، فهم خلقاء بأن يعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئاً ولو أشرك آباؤهم من قبل؛ لأنه منحهم عقولاً يفكرون بها فلا يجدر بهم أن يعطلوها ويفكروا بعقول أسلافهم؛ إذ ليس من الرشد ولا من الحكمة أن يلغوا عقولهم ويكفروا بنعمة الله عليهم ويقولوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون.

وقال تعالى فى سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء١].

فبين بهذه الآيات الكريمة أن الناس جديرون أن يتقوا ربهم لأنه هو الذى خلقهم، والخالق جدير بأن يتقى، ثم بين لهم سراً من أسرار الخلق ليقفهم على ناحية من

نواحـــى قدرته وعلمه وحكمته، فكشف لهم أنه خلق أول الأمر نفساً واحدة، ومن هـــذه الـــنفس خلق زوجها بطريقة لا نفقه كنهها، ولا ندرى حقيقتها، ومن هذين الزوجين خلق بطريقة التوالد رجالا كثيرا ونساء.

وقال تعـــالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام١٠٢].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر٣].

فكـــل هذه الآيات تنادى بوجوب عبادته وذكر نعمه، لأنه الخالق الذى لا خالق سواه. والرازق الذى لا رازق غيره، فليس فى الوجود من يستحق العبادة إلا هو.

مادة الخلق

وقـــد بين سبحانه مادة الخلق فى آيات كثيرة من القرآن الكريم ليكشف للناس من أسرار قدرته وعلمه ليزدادوا به إيمانا وله تسليما، فقال ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام٢].

فبين بهذه الآية أن المادة التى خلق منها الإنسان هى الطين، وكلنا يعلم أن الطين هو أديم الأرض، أفلـــيس الإنسان المخلوق من أديم الأرض خليقاً بأن يعرف نعمة الله إذ جعلـــه بشراً سوياً، ومنحه من المواهب والمدارك والملكات والحواس والمشاعر والذكاء ما استطاع به أن يسخر العناصر ويذلل قوى الماء والهواء، ويكشف عن سر الكهرباء.

وقـــال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر٢٦]. والصلصـــال هـــو الطين الحر خلط بالرمل، أو الطين ما لم يجعل خزفا. والحمأ الطين الأسود المنتن. والمسنون النتن.

وقـــال تعـــالى: ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى(٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَـــاتٍ لأُولِى النُّهَى(٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه٥٥].

فدل بذلك على أن الإنسان مخلوق من الأرض أى من الطين والحمأ المسنون.

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج٥].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون١٤].

وقال تعالى: ﴿الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ(٧)ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ(٨)ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة٩].

تدبر هذه الآيات البينات تلح لك أنوار من المعرفة تكشف لك جانباً من أسرار الخليقة لتزداد بقدرة الله إيمانا ولحكمته إذعاناً.

فقد بين لك كيف تدرج فى الخلق بعلمه وحكمته وقدرته، فكان أصل الخلق من الطين، ثم لما أوجد الإنسان الأول خلق منه زوجا له، ومن هذين الزوجين جعل الخلق يتخذ سبلا أخرى، إذ جعله من ماء دافق يخرج من أصلاب ذكران هذا الجنس، ويستقر فى أرحام إناثه فيلقح مبيضاها، فتحيا ثم تتطور فتصير علقة فمضغة فعظاما، ثم تكسى العظام لحما، ثم تصير خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين.

هذا ونستطيع أن نقول: إن الإنسان لا يزال يخلق من الطين حتى بعد وجود جنسه على الأرض، وكثرة ما بث منه من الرجال والنساء فإن هذا الماء المهين الذى يفرز من كل من الذكر والأنثى، والبيضة التى تخرج من مبيض الأنثى أصلها من الدم؛ والدم أصله الغذاء، والغذاء إما من الحيوان أو النبات أو الجماد، والجماد من الأرض، والنبات تكون من أديم الأرض وطينها، والحيوان تكون لحمه كذلك من الغذاء الذى تقدم وصفه. فالإنسان لا يزال يخلق من الطين بقدرته تعالى، ومن فكر فى آيات الله ودلائل قدرته ازداد إيمانا وتسليما.

عـــود على بـــدء

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِه أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِـــرُونَ﴾ [الروم٢٠].

وقـــال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلا بِعِلْمِه وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِه إِلا فِى كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر١١].

وهنا يذكر تعالى أن أصل الخلق التراب، ولا تنافى بين هذا وما تقدم، فلا جرم أن التراب هو أحد عنصرى الطين، فما الطين إلا تراب بلله الماء، وقد ذكر العنصر الآخر فى قولـــــه: ﴿وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان٥٤].

وقـــد أخبرنا سبحانه أنه خلق جميع الكائنات الحية من الماء فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَـــرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَىٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء٣٠].

وقال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِى عَلَى بَطْنِه وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِى عَلَـــى رِجْلَـــيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِى عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور٤٥].

أنواع الخلق وأسرار الحـــق

وقـــد بين لنا تعالى فى القرآن أنواع خلقه لنعرف فضله ونعمته، ونزداد إقبال عليه؛ وانصرافاً عن غيره، ونعلم أنه الواحد القهار؛ فلا نعبد سواه ولا ندعو غيره.

قـــال تعـــالى: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة٢٩].

وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّه الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام١].

بـــين تعـــالى فى هذه الآية أن الكافرين الذين لا يصطنعون العقل: يعدلون بالخالق المخلوق، ويعبدونه من دون الله، ويتوجهون إليه بالدعاء. ألا ساء ما يحكمون.

وقـــد بين سبحانه لهؤلاء الذين غلبت عليهم الجهالة، والحرص على محاكاة الآباء والأجداد، والسير فى سبيلهم الجائرة، أن ربهم الحق جدير بعبادتهم ودعائهم، هو الخالق الـــــذى خلق الأرواح كلها، وأوجد كـــــل موجود فى الأرض والسماء، فقـــال:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السماوات وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف٥٤].

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِى الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة٢٦٠].

وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السماوات وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِى السماوات وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس٦].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السماوات وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [هود٧].

وقال تعالى:﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السماوات وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[إبراهيم٣].

وجميع هذه الآيات وما فى معناها غنية بسهولتها ووضوحها عن التفسير، ولا يحتاج منك إلا قليل من التدبر لتزداد تبصرة وذكرى.

الاستدلال بالخلق على نفى الربوبية عن غير الخالق

أقام الله سبحانه الدليل بالخلق على أنه وحده رب العالمين، وأن ما سواه ليسوا أربابا ًلأنهم لا يخلقون. وإنك لتجد فى القرآن الكريم آيات بينات بسطت هذا المعنى فى وضوح وجلاء، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [يونس٣٤].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السماوات وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى

الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل٢٠].

فهذه الآيات البينات التى تسمع الصم، وتهدى العمى، وترد الى الحق من كان فى ضلال مبين: لو أنهم أصغوا إليها، وتدبروها، ونظروا فيها نظر من يريد الوصول الى الحق والتحرر من أسر الهوى ورق الشهوات، والجمود على عقائد الآباء والأجداد هذه الآيات وما فى معناها كفيله بأن تقنع كل ذى عقل بأن الذى لا يخلق لا يكون رباً و لا إلهاً، وإذا لا يصح أن يدعى ولا يعبد، ولا أن يستغاث، ولا أن يستعان، ولا أن ينذر له، ولا أن يضرع إليه، لأنه عاجز قليل الحول والطول، لا يملك لنفسه - فضلاً عن غيره - نفعاً ولا ضراً.

فمتى يرجع المسلمون عن غيهم ويقدرون خالقهم حق قدره، فلا يدعون غيره ولا يستعينون سواه؟

الاستدلال بالخلق على البعث

لما دعا الخالق سبحانه الناس الى الإيمان بالبعث ليستعدوا لليوم الآخر، ويخشوا الحساب، ويتأهبوا للقاء ربهم، فيعملوا لذلك اليوم العصيب ويتزودوا من الصالحات، ويكف بعضهم أذاه عن بعض - أراد سبحانه أن يقيم لهم الدليل على أن هذا البعث أمر لا ريب فيه، وهو واقع ماله من دافع فاستدل سبحانه بقدرته على الخلق على قدرته على البعث، وبين لهم أن الذى يستطيع أن يخلق أول مرة قادر على أن يعيد الخلق الذى بدأه، وأن الذى قدر على الإيجاد قادر على الإعادة. ها أنذا أورد عليك الأدلة اليقينية والبراهين القاطعة من كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس ٧٨].

فكل من تدبر آيات الله البينات وفى معناها كثير وكان ممن أتوا نصيباً من عقل وحظاً من فهم، اقتنع اقتناعاً لا يمازجه شك ولا يخالطه ريب، بأن الخلق العظيم الذى

بـدأ الخلـق قادر على أن يعيده، وأن الساعة آتية لاريب فيها. وأن الله يبعث من فى القبور.

الاستدلال بالخلق على العلم

إذا نظـرت أدنى نظـرة إلى أقل مخلوقات الله شأناً وأدقها حجماً، لمست أثر العلم الإلهى بارزاً فيها، فالذرة الحقيرة بل الجرثومة التى لا ندركها بالعين المجردة، قدر العليم الحكيم أعضاءها وأجزاءها والعناصر البسيطة التى تتألف منها، وأمدها بما يلزمها لحياتها مـن حواس ومشاعر وأجهزة وقوى تحار العقول فى إدراك كنهها. وتستطيع بعد هذا أن تـتدرج فى مشـاهدة الكائنات الحية لترى آثار علم الله فى خلقها حتى تصل إلى الإنسـان الذى هو أعجوبة الأعاجيب فى خلقه وتكوينه، ولا يتسع هذا الفصل لبسط آثار العلم الإلهى فى الإنسان الذى هو عالم فى نفسه.

اعتقاد الكفـار فى الخالـق

كان الكافرون الذين بعث فيهم رسول الله تعالى خالق كل شئ ولا ينكرون ذلك ولا يجحدونه بل يعترفون به، فلماذا اعتبروا كافرين؟

إنمـا اعتبروا كافرين لأنهم كانوا يشركون بالله ويدعون معه غيره من أوثانهم التى كانوا يسمونها آلهة ويزعمون أنها تقربهم إلى الله زلفى. والقرآن الكريم ينعى عليهم هذا الجهل والإعراض عن الحق والاستمساك بالأباطيل.

وبعـد: أفلـيس المؤمنون خلفاء أن يربئوا بأنفسهم عن عقائد الجاهلية، ويجردوا توحيد الله تعالى ويدعوه وحده لا شريك لـه، ويفردوه بالعبادة والدعاء؟

منـزه عن العبث فى خلقـه

وربـنا الخـلاق العليم لا يخلق شيئاً إلا لحكمة بالغة قد تغيب عن إفهامنا، وسر عجيـب قـد يعيينا إدراكه، فإن استطاع بعضنا أن يكشف الحجاب عن بعض هذه الأسـرار فغمـرته أنوارها، وبهره إشراقها، فليحمد الله على توفيقه، وليدمن النظر فى ملكوت السماوات والأرض، وليطالع آيات ربه فى الآفاق والأنفس، فإنه سيقف على عزيز ويزداد إيماناً ويقيناً بأن كل خلق خلقه الله لم يخلقه عبثاً، ولم يوجده باطلاً. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

الخلق برهان الوجـــود

أقام القرآن الكريم الدليل على وجود الخالق تعالى بمخلوقاته بطريقة سهله، يفهمها أضــعف الــناس إدراكاً وأبطؤهم فهماً، ولفت أنظار الناس الى ما يحيط بهم من آياته المــتجددة فى الآفــاق وفى أنفسهم، حتى إذا تدبروها ونظروا فيها بفكر حر لم يملكه الهوى، ولم يغلبه ما عليه الأجداد - هدهم إلى الإيمان بوجود الخالق سبحانه.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَى لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[النحل٧٠].

﴿وقالوا لَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾[المؤمنون١٧].

وقال تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَــهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر٦].

وقال تعالى: ﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَت (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[الغاشية٢٠].

هـــذه الآيات الكريمة تستدل بخلق الله تعالى على وجوده، وأنت ترى أن أقصر آية مــنها كافــية فى إقــناع كل ذى مسكة بوجوده تعالى، ولا جرم أن أسلوب القرآن وطــريقه فى الاستدلال على وجود الله بخلقه خير من طريق هذه الكتب التى وضعها الــناس، فكانــت صــارفة عــن طريق الحق والنور، ولو أن الناس التمسوا معارفهم وعلومهم من القرآن الكريم لكان ذلك أجدى وأهدى سبيلاً.

الخلق دليل القدرة والإرادة

الخلــق أصدق دليل على القدرة المطلقة والإرادة التامة، فلا يخلق إلاَّ القادر المريد الذى يفعل ما يشاء.

وقد سلك القرآن الكريم فى الاستدلال بالخلق على القدرة والإرادة: الطريق الذى سلكه فى الاستدلال على الوجود.

أراد تعــالى أن يثبت لزكريا صلى الله عليه وسلم قدرته على أن يمنحه غلاماً على شيخوخته وعقم امرأته فقال تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم٩].

وقال تعالى فى سورة الشورى: ﴿لِلَّه مُلْكُ السماوات والأرض يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى٤٩].

ما أوضح هذا الدليل، وما أصدق هذا البرهان.

تنوع الخلق

جلت قدرة الخلاق العليم الذى يخلق الشئ وضده: يخلق الظلمات والنور، والسم والترياق، والداء والدواء، والموت والحياة، والليل والنهار. و. و. وذلك من أدل الدلائل على علمه وقدرته وحكمته.

قال تعالى: (ومن كل شئ خلقنا زوجين) وقال: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن٢].

وقال: ﴿الَّذى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك٢]. ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النبأ٨].

فسبحان الذى بيده ملكوت كل شئ تعالت قدرته وبهرت آياته.

الخلق دليل التنزه عن الولد

لقد وضع الخلاق العليم ناموس التوالد لتبقى هذه الأنواع خالدة فى أبنائها الى الأجل الذى قدره سبحانه، وقد نفذ حكم هذا القانون فى الإنسان والحيوان، والطير والشجر وجميع أنواع الحشرات.

ولكى ينفذ هذا القانون وتتم كلمة الله تعالى فيه، أودع غرائز للبشر حرصاً على الولد وحباً له وعطفاً عليه واعتزازاً به، فصار الإنسان يعتز بالولد ليكون عوناً له على أعدائه وزينة لحياته الدنيا، وذخراً لشيخوخته إذا مسه الكبر، وخلفاً له إذا مات.

أما رب العالمين فهو الأول والآخر، وهو الغنى الحميد، وهو القوى العزيز، فما حاجته إلى الولد؟ وقد جعل سبحانه قدرته على الخلق برهاناً على تنزهه عن الولد فقال تعالى فى سورة الزخرف رداً على هؤلاء الذين يزعمون أن الملائكة بنات الله ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ [الزخرف١٦].

سنته تعالى فى الخلق

مضت سنته تعالى أن يخلق الكائنات الحية: صغيرة ضعيفة، ثم تنمو وتشتد حتى تبلغ أشدها وتستوى، ثم تعود إلى الضعف مرة أخرى إذا أدركتها الشيخوخة ثم

تموت. وقد قال تعالى فى توضيح هذه السنة: ﴿اللَّهُ الَّذى خَلَقَكُم مِنْ ضَعْف ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْد ضَعْف قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم٥٤].

خلق يقتضى الهداية

كلما خلق الله كائناً حياً هداه الى الوسائل التى تحفظ حياته إلى الأجل المسمى وألهمه الحرص على حفظ نوعه. ولما كان الإنسان مخلوقاً للحياتين هداه الى ما يكفل له السعادة فيها، ومنحه أنواعاً من الهدايات: هداية الفطرة، وهداية الحواس، وهداية العقل، وهداية الرسل وهداية الكتب. فمنهم من قبل هذه الهدايات، وسلك طريقاً فاهتدى وسعد فى الدنيا والآخرة. ومنهم من أعرض عنها واتبع سبل النواية فضل وشقى وكان من الخاسرين.

لوازم الخلق

علم الخلاق العليم أن الكائنات الحية لا تبقى ولا تنمو إلا بالغذاء. فخلق لها فى الأرض ما يكون قواماً لحياتها، وأنزل لها من السماء ماءً ليخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه فقال تعالى فى سورة البقرة: ﴿هُوَ الَّذى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة٢٩].

وقال تعالى فى سورة الفرقان: ﴿وَهُوَ الَّذى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَى رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان٤٨].

وماله منهم ظهير

خلق الله تعالى العالم وحده بقدرته، ولم يكن له معين ولا ظهير، ولم يحتج إلى مرشد ولا مشير، قال تعالى فى سورة الكهف: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف٥١].

الخالق ووحدة الوجود

كل ما أسلفت من الآيات الكريمة يقنع كل ذى عقل بأن لهذا العالم خالقاً حكيماً عليماً يعلم من خلق ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض، وأن هذا الخالق الحكيم خلق هذا العالم بجميع ما فيه، فكل ما ترى العين أو تلمس اليد، من خلق الله تعالى، فهو سبحانه غير خلقه، وخلقه غيره.

فهذا الاسم الجليل (الخالق) يدفع فى صدور المفتونين الذين يقولون بوحدة الوجود ويـزعمون أن ربهم هو كل هذا الوجود، وأنه ليس هناك خالق ولا مخلوق فالمخلوق عين الخالق والخالق عين المخلوق. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

البـارئ

قال الفيروزآبادى: برأ الله الخلق وبروءاً خلقهم.

وقـال ابـن الأثـير: البارئ هو الذى خلق الخلق لا عن مثال، ولهذه اللفظة من الاختصـاص بخلـق الحيوان ما ليس لها بغيره من المخلوقات، وقلما تستعمل فى غير الحـيوان، فيقال برأ الله النسمة، وخلق السماوات والأرض. وقال الزمخشرى: الذى خلق الخلق بريئا من التفاوت كما قال الله تعالى: ﴿الَّذى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَات طِبَاقًا مَا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُت فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ [الملك٣].

ومميزاً بعضه من بعض بالأشكال المختلفة والصور المتباينة.

ترى من ذلك أن كلمة اللغويين لم تجتمع على معنى واحد.

وعندى أن الذين رأوا فى البرء معنى أكثر من الخلق هم المصيبون لأن أسماء الله تعالى لـيس فيها اسمان مترادفان على معنى واحد بمعنى أنهما متساويان فى المعنى بحيث يدل أحدهما على ما يدل عليه الآخر: بل كل اسم من أسمائه تعالى يشير إلى معنى خاص لا تجده فى غيره من أسمائه الحسنى، وعلى هذا يكون اسمه تعالى البارئ يتضمن معنى زائداً عـلى معـنى الخالق. فمن: إن البارئ هو الذى خلق الخلق لا عن مثال فقد أتى بمعنى زائـد على مفهوم الخلق وهو عدم الإقتداء بسابق إذ لا خالق إلا الله ومن قال إن لهذه اللفظة من الاختصاص بخلق الحيوان ما ليس لها بغيره من المخلوقات نظر إلى سر الحياة فى الحـيوان وهـى أعجب ما فى الخلق وأدله على القدرة فكأنه يفسر البارئ بواهب الحياة وهو معنى زائد على الخلق.

ومن قال إن البارئ هو الذى خلق الخلق بريئاً من التفاوت ومميزاً بعضه من بعض بالأشـكال والصور أضاف لذلك معنى زائداً على الخلق وهو الإتقان التام فى كل ما خلـق بحيـث لا يتفاوت الخلق فى الإتقان، وإذا كانت اللغة تتسع لكل هذه المعانى وترحـب بها فلا علينا أن نفسر هذا الاسم الجليل بهذه المعانى كلها فنقول: إن البارئ هـو الـذى يهب الحياة للأحياء من الحيوان والنبات ويخلق جميع مخلوقاته متساوية فى الإتقـان والإحكام، وتوافر الحكم والأسرار؛ ليس بعضها أكثر من بعض بل هى بريئة

من التفاوت وإنما يمتاز بعضها عن بعض بالصور المختلفة والأشكال المتباينة فهو الخالق البارئ المصور سبحانه عما يشركون.

وقد ذكر هذا الاسم الجليل فى القرآن الكريم ثلاث مرات، مرتين فى الآية الرابعة والخمسين من سورة البقرة المدنية وهى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة٥٤].

ومرة فى الآية الرابعة والعشرين من سورة الحشر المدنية وهى قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر٢٤].

وذكر الفعل مرة واحدة فى الآية الثانية والعشرين من سورة الحديد المدنية وهى قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِى الأَرْضِ وَلا فِى أَنْفُسِكُمْ إِلا فِى كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد٢٢].

أما آية سورة البقرة فذكر هذا الاسم الجليل فيها من دلائل الإعجاز إذ ليس بين أسماء الله الحسنى أنسب منه للمعنى الذى أريد توضيحه فى الآية الكريمة فإن الله تعالى يذكر مقالة موسى لبنى إسرائيل الذين كفروا بنعمة الله الذى خلقهم فأحسن خلقهم، وصورهم فأحسن صورهم، وجعل فيهم الأنبياء، وجعلهم مستعدين للملك. ولكنهم لم يرعوا حقه، ولم يجردوا توحيده، بل فرطوا فى جنبه، واتخذوا من دونه عجلا جسداً له خوار عكفوا على عبادته وهم يعلمون أنه لا يرجع لهم قولا ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً.

تركوا عبادة الله الذى خلقهم فى أحسن تقويم، وعبدوا عجلا هو مثال البلادة والغباء، بل لم يعبدوا حيوانا حيا. إنما عبدوا صورة جامدة لا حس فيها ولا حركة ولا حياة.

فالبارئ سبحانه وهو يقص علينا هذه القصص ذكر هذا الاسم الجليل للإشارة إلى أن الإنسان الذى خلقه بارئه فسواه فعدله، لا يجدر به أن يسف إلى عبادة حيوان بليد غبى. فكيف إذا بلغ الإسفاف إلى عبادة صورة الحيوان وتمثاله فتغلغل فى الضلالة وضل عن سواء السبيل.

من أجل ذلك دعاهم موسى عليه السلام إلى التوبة والإنابة والرجوع إلى بارئهم الذى كفروا نعمته وجحدوا فضله وطلب إليهم أن يقتلوا أنفسهم لتتفرق أجزاء هذا الجسم الذى أحسن الله تنسيقه وأبدع نظامه فلم يعرفوا له الفضل فى ذلك، ولم يشكروا له هذه النعمة.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة٥٤].

نزلت هذه الآية الكريمة لتقص علينا شيئاً من أخبار بنى إسرائيل والله يقص علينا من أنباء الأمم، وينبئنا من أخبارهم ليكون لنا فى قصصهم عبرة وعظة فما نعى الله على بنى إسرائيل عبادة العجل ليبيح لغير هم أن يعبدوا ما شاءوا. فما كان الله ليبيح للناس أن يتركوا عبادة بارئهم الذى خلقهم فأحسن خلقهم ورزقهم من الطيبات ليعبدوا مخلوقاً مثلهم لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً.

فليذكر المؤمن اسم ربه البارئ، وليتصور كيف خلق الأحياء ومنحها الحياة، كيف خلق النبات جذوره وسوقه وأغصانه وأوراقه وأزهاره وثماره؟ كيف جعل كل حبة تمتص من التربة ما يكون غذاءها وقوام حياتها.

كيف أخرج من هذه التربة أزهاراً هى زينة الأرض وقرة العين وبهجة النظر. كيف أخرج منها ثمرات مختلفاً ألوانها.

كيف جعل النبتتين تنبتان فى مكان واحد وتسقيان بماء واحد وتتنفسان فى هواء واحد و إحداها تؤتى ثمرها لذيذاً شهياً. والأخرى تؤتيه مراً زعافاً؟

كيف جعل منه دهناً وصبغاً للآكلين؛ وفاكهة للطاعمين؛ و ألوانا للصابغين، ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً و رزقاً حسناً إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون.

ليذكر المؤمن اسم ربه البارئ وليتصور كيف خلق النحلة وألهمها أن تتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون؛ وأن تأكل من كل الثمرات فتسلك سبل ربها ذللا؛ وكيف يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس؛ وكيف تدبر مملكتها وتوزع العمل على بنات جنسها وكيف تصنع الشمع وتتخذ منه أشكالا هندسية دقيقة تدخر فيها شهدها.

وكـيف برأ النملة وألهمها أن تجمع فى الصيف قوتها وتدخره للشتاء وكيف تحتفظ به حـتى لا يفسـد، وكيف تتخذ لها قرية تأوى إليها مع بنات جنسها وكيف يتعاون أفـرادها على أقواتها وكيف أودعها الله قوة هائلة لا يقاس جسمها الضئيل إليها، ولو قيست قوة كل كائن حى إلى جسمه لكانت النملة أقوى من الإنسان أضعافاً مضاعفة لأن قوتها بالقياس إلى جسمها أكبر كثيراً جداً من قوة الإنسان بالقياس إلى جسمه.

ولا يتسـع المجـال هنا لذكر كل نوع من أنواع الحيوان التى لا يحسبها العدو لا يحصرها الحساب فلنجمل القول فيها إجمالا ليكون فيها ذكرى لمن كان لـه قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ليذكر المؤمن كيف تنوعت الخلائق التى برأها مدبر الكائنات من ذوات الشعر إلى ذوات الوبـر، ومـن ذوات الصوف إلى ذوات الريش، ومن الماشى على رجلين إلى الماشـى على أربع إلى الماشى على بطنه ومن ذوات الأفواه إلى ذوات المناقير والمناسر، ومن ذوات الأظلاف إلى ذوات المخالب والبراثن، ومن ذوات الأجسام الضخمة الهائلة الـتى هـى أضخم من الإنسان إلى الجراثيم الدقيقة التى لا تدركها العين المجردة، ومن الكائنات التى تعيش على الأرض إلى التى تعيش فى الماء أو فى طبقات الهواء، ومن التى أوتيـت مـيزة محاكاة الأصوات إلى التى منحت خاصية تقليد الحركات، ومن آكلة العشب إلى آكلة اللحم، ومن آكلة الحب والثمر إلى آكلة الدود والحشر.

ليـتفكر المؤمن كيف ألهم البارئ الحكيم دودة القز أن تغزل هذه الخيوط الحريرية الـتى صـنع منها الإنسان أروع ما تتزين به الغيد الحسان من ثميـن الحلل، وقشيب الثياب.

وكيف كانت دودة القطن مدمرة متلفة مفسدة تجلب الخسائر وتدير الدوائر.

هـذا ولا ينقضـى عجب المؤمن إذا تفكر فى الإنسان وكيف منح العقل والفكر والخيال والتصور وسائر القوى التى خصه الله بها وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا.

إذا تدبر المؤمن قول الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِى الأَرْضِ وَلا فِى أَنْفُسِكُمْ إِلا فِـى كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لِكَى لا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد٢٣].

أيقـن أنـه تعالى لا يبرأ الخلق إلا على مقتضى ما جرت به مشيئته وسبق به علمه الأزلى. فالبارئ سبحانه علم فى الأزل قبل أن يخلق السماوات والأرض وما بينهما ما

هو خالق من ذلك الحين إلى أن يرث الأرض ومن عليها ويطوى السماء كطى السجل للكتب.

علم سبحانه أنواع البرايا وأجناسها، وألوانها وأجراسها، ولحاتها وأنفاسها وحركاتها وسكناتها، وغدواتها وروحاتها، ومبتدأ خلقها ومصير أمرها وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين.

إذا ذكر المؤمن كل هذا صدق إيمانه ببارئه وصح إسلامه له وزاد إقباله عليه وتوجهه إليه، وثقته به وأيقن أنه وحده المعين والناصر والمغيث والرازق والضار والنافع فقطع كل سبب بينه وبين الخلق - إلا ما أمر الله به أن يوصل - وأخلص دينه لله.

وعبده وحده لا شريك له واعتقد أن الأمر منه وإليه وأنه له الخلق والأمر فلا تحزنه مصيبة ولا تبطره نعمة. وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون.

المصور

اسم فاعل من التصوير وهو عمل الصورة، وهو بالنسبة لبارئ الكائنات إعطاء كل شىء من المخلوقات صورة خاصة يتميز بها من غيره.

والصورة هى الشكل الذى يتميز به الشيء. وهى نوعان: حسية تدرك بالحواس ومعنوية تدرك بالعقل.

فالأولى يدركها العامة والخاصة. بل يدركها الإنسان وكثير من الحيوان كصورة الفرس والثور والمهر فكل إنسان يميز بعض هذه الكائنات من بعض بصورها. وبعض الحيوان يميزها كذلك، فنجد الحصان يألف الفرس لأنه يميزها من غيرها، وفصيل الناقة يميز أمه من غيرها فيلتمس ضرعها؛ والهرة تعرف صورة الفأر وتميزها من غيرها، والحيوان يميز النبات الذى هو غذاؤها وهكذا.

أما الصورة المعنوية فلا يدركها إلا الخاصة كالصورة التى اختص بها الإنسان من العقل والروية؛ وكالمعانى التى تختص بها بعض الكائنات كاختصاص الجمل مثلا بالصبر على الظمأ أياماً، وإلى هذين النوعين من الصور أشار المصور سبحانه بقوله

تعالى فى سورة آل عمران ﴿هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران٦].

فهو سبحانه يشير إلى قدرته على منح الصورتين الحسية والمعنوية جميعاً أى صورة الجسم وصورة النفس، كيف يمنح الجنين فى رحم أمه صورته الحسية التى سيكون عليها والتى يتميز بها من سواه وكيف تمنحه الصورة المعنوية فيجعله ذكياً أو غبياً، رشيداً أو سفيهاً خيراً أو شريراً عالماً أو جاهلاً؛ مؤمناً أو كافراً إلى غير ذلك من الصور المعنوية التى يمتاز بها الناس بعضهم من بعض.

ومما يتصل بالصورة الحسية لون البشرة والعينين والشعر؛ وملامح الوجه وسعة العينين أو ضيقهما، حورهما أو شهلتهما، ورقة الحاجبين أو كثافتهما، واتساع الجبين أو ضيقه، وصغر الأنف أو كبره، واستقامته أو فطسه؛ وغلظ الشفتين أو رقتهما، وفلج الأسنان أو التصاقها؛ إلى غير ذلك مما يطول به الكلام إذا استوعب وليس إلى استيعابه من سبيل ذلك إلى أن هناك مميزات تمتاز بها الصور ولا تجدد عبارة تعبر عنها فسبحان المصور القادر الذى أعطى كل مخلوق من مخلوقاته التى لا تحصى صوره خاصة يعرف بها وتعرف به ولا يخفى عليه من كل هذه الصور ولا من دقائق تفاصيلها شىء.

هذا ومما يتصل بالصورة المعنوية للإنسان رضا النفس، ودقة الحس. ورقة الشعور وحدة الذهن، وصفاء الطبع وأضداد هذه الصفات المعنوية التى يمتاز بها إنسان من إنسان ويعرف بها شخص من آخر.

هذا و لم أذكر من الإنسان إلا أبرز أعضائه الظاهرة، وخواصه الواضحة فكيف إذا ذكرت الأعضاء الباطنة من القلب والرئتين و القصبة الهوائية والحجاب الحاجز والمعدة والأمعاء والكبد والطحال والبنكرياس والكليتين والغدد الصماء وغير الصماء والشرايين والأوردة والمخ وغير ذلك من دقيق الأعضاء وجليلها وما هو خاص منها بالذكران وما هو خاص بالإناث وما هو مشترك بينهما. وكيف إذا ذكرت مختلف العواطف وألوان الأحاسيس والمشاعر ولكل من هذه المذكورات صورة خاصة جل مبدعها وتعالى مصورها.

وهو وحده المصور سبحانه فمهما تحاول أن يكون لك ولد على صورة خاصة أو هيئة تستحسنها، أو شكل تحبه فلست بمستطيع إلى ذلك سبيلا فهو يصور فى الرحم

كيف يشاء الناس، ويهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور، أو يزوجهم ذكراناً وإناثـاً ليس فى وسع امرئ أياً ما يكن علمه وفضله أن يجعل الذكر أنثى أو العكس؛ فذلك تصوير المصور الحكيم وحده.

ولا تظن أن التصوير ينتهى بخروج الجنين من ظلمة الرحم وتفتح عينيه لنور الحياة بـل لا يـزال المصور الحكيم يتابع تصويره حتى يفارق الحياة وتتفرق أجزاؤه فصورة الطفـل الولـيد غير صورة الفطيم وصورة الصبى المراهق غير صورة الشاب وصورة الشـاب غير صورة الكهل وغير صورة الشيخ الفانى، فسبحان المصور الذى لا يخفى عليه شىء.

ولقـد امـتن سـبحانه بهذه الصورة الجميلة التى ركبه فيها فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِيـنَ﴾ [الأعراف١١]. فبين سبحانه أنه قدر المادة اللازمة لتكوين الإنسان ثم صور هذه المادة فى الهيئة الخاصة والشكل الذى أراد أن يجعل عليه الإنسان.

وقال تعالى فى سورة التغابن: ﴿خَلَقَ السماوات والأرض بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [التغابن٣].

فـدل سـبحانه على أنه صور الإنسان فى أحسن صورة وأعدلها، ولم يجعله مكبا على وجهه كسائر الحيوان ولم يجعله ماشياً على أربع، ولو أنك استعرضت فى مخيلتك صور سائر الحيوان لوجدت صورة الإنسان أحسنها وأجملها وأعدلها.

ولـو منح الإنسان حرية الاختيار ما اختار إلا الصورة التى ركبه الله فيها، إذ ليس فـيها شـىء يستطيع الإنسان أن يقول فيه ليته لم يكن وليس ينقصها شىء يستطيع الإنسان أن يقول: ليته كان.

هذا وإذا نظرت إلى غير الإنسان من أنواع الحيوان والطير والحشر والدود والسمك وحيوان الماء التى لا يحصيها عد ولا يدركها حصر لراعك ما ترى من اختلاف الصور والأشـكال والهيئات، ولبهرك هذا التنوع العجيب والاختلاف الغريب الذى لا يقدر عليه إلا الخلاق العليم المصور الحكيم سبحانه.

ولو أنك نظرت إلى النبات والشجر ورأيت كيف صور ربك جذوعها وفروعها، وأوراقهـا وأزهارهـا وثمارهـا وحبها ونواها لهالك ما ترى من قدرة الخلاق العليم ولهتفت من أعماق صدرك قائلا لا إله إلا اله! الله أكبر، ولله الحمد.

أين أنت من آياته تعالى فى تصوير الكائنات الدقيقة التى لا تراها العين المجردة؟

فيم أنت من تصور هذه الجراثيم التى صورها الخالق الحكيم وجعل لكل منها صورة خاصة مميزة. كل نوع من أنواع الحمى تصوره جرثومة خاصة صورها المصور الحكيم وجعـــل لها صورة تميزها من غيرها، وقد وصف لنا العلماء الذين استطاعوا أن ينظروا إليها بمناظيرهم المعظمة ما هيأ لهم العلم وصفه من صورها؛ وإن كان قد خفى عليهم من صورها أكثر مما علموا.

ولا تـــنس القواقـــع والأصداف واللؤلؤ والمرجان والإسفنج وغيرها من مخلوقات الخلاق العليم التى امتاز كل منها بصورة تميزه عن غيره.

وإذا اجتليـــت طلعـــة الشمس فى النهار، ورأيت القمر بالليل. ثم نظرت إلى نجوم السمـــاء فى ليلة حالكة وحاولت أن تخلص منها ما يلوح لناظريك، فتبين لك العجز لأدهشك ما ترى من آثار قدرة المصور العظيم الذى أعطى كل كوكب صورته وكل نجم هيئته وشكله.

وإذا انتقلت من العالم المادى إلى العالم الروحى وأرسلت رائد الفكر إلى الكائنات الروحـــية، كالجن والشياطين التى لابد أن لكل منها صورة غيبية روحية يمتاز بها عن غـــيره من عالمه لراعتك قدرة المصور الحكيم سبحانه الذى جعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء.

لو أنك فكرت فى مخلوقات ربك التى عبر عنها بالكلمات فى قولـــه تعالى فى سورة لقمـــان: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِـــدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[لقمان٢٧]، لأشرق عليكَ فيض من نور المَعـــارف الإلهية يكشف لك جانباً من قدرة المصور الحكيم الذى ما قدره العباد حق قـــدره؛ ولقلت كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِى أَى صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾[الانفطار٨].

وهـــنا موضع العبرة: لم يبق موضع للشك فى أن الله وحده هو المصور لا يشاركه فى ذلك شىء فلنقف قليلاً للتأمل والذكرى.

مـــا بال كثير من نساء المسلمين يهتفن بأسماء أصحاب القبور، يرجون منهم هبة الذرية وينذرون لهم الذبائح، ويشدون إلى قبورهم الرحال وهن يعلمن أنهم لا يخلقون ولا يبرءون ولا يصورون. وأن الله وحده هو الخالق البارئ المصور.

وإذا كان الجهل هو الذى سول لهن ذلك فلم لا ينصح لهن الأزواج والآباء والإخوة وهم يعلمون أنهم مطالبون شرعاً بإرشادهن إلى طريق الحق.

وقد قال تعالى فى سورة التحريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم٦].

قد يعتذرن ويعتذر معهن أولياؤهن بأنهن يطلبن النسل من الله تعالى لا من أصحاب القبور، ويقعن فى نذرهن: يا سيدى فلان لئن يرزقنى الله غلاماً لأذبحن لك كبشاً، فهى تعتقد أن الله هو الذى يرزق الذرية.

ونقول فى الرد على هؤلاء: إذا كانت تعتقد أن الله هو الذى يرزقها الغلام، فما شأن سيدها فلان هذا؟.

وماذا يعمل حتى يستحق هذا الكبش؟ أهو الذى يخلق؟ أهو الذى يصور؟ أهو الذى يرزق؟ فبم يستحق هذا النذر إذن؟.

وهل نسيتم أن نداءها لسيدها فلان شرك. إذ فيه اعتقاد أنه يسمعها إذ تدعوه، ويستجيب دعاءها. وذلك من شؤون الله وحده فنسبته لغيره شرك وظلم عظيم.

وقد يقولون: أنه يدعو الله لها فيستجيب له. ونقول إن هذه دعوى بغير برهان فإنه الآن فى حال لا يقدر فيها على الدعاء فقد قال عليه الصلاة والسلام: إذا مات ابن آدم انقطع عمله.

ولا جرم أن فلان هذا من أبناء آدم. وقد مات فانقطع عمله. والدعاء من العمل وإذا كان العمل قد انقطع فقد انقطع الدعاء كذلك.

وإذ قد ثبت أنه لم يعمل شيئاً ليستحق به أن يذبح له هذا الكبش فلم تحرم هذا الكبش على نفسها وزوجها وأبنائها لتحله لبدن هذا الميت الذى لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً.

قد يقولون: إن النذر لله والثواب للشيخ. ونقول إن هذه ضلالة أخرى فبماذا يستحق هذا الثواب. وما الصلة التى يمت بها إليكم ليستوجب منكم أن تترلوا له عن

ثوابكـــم؟. وهل عملتم من الحسنات ما يغنيكم عن طلب المزيد حتى تتبرعوا بثوابكم لهذا الشيخ وهو فى اعتقادكم عظيم الحظ من الثواب. ومن أنبأكم أن الله قبل نذركم هــذا وأثــابكم علــيه فأنتم تتبرعون بثوابه. ومن أنبأكم أن الصك بهذا الثواب قابل للتحويل. ومن أنبأكم أن هذا الصك لـــه رصيد.

دعوا هذه الخزعبلات واتركوا هذه الخرافات واعلموا أن الله تعالى أغنى الأغنياء عن الشرك فمن عمل عملا أشرك فيه غيره تركه وشركه فمن كان مضطراً فليدع الله وهو جديـــر بأن يستجيب دعوته فقد قال وقولـــه الحق: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل٦٢].

كـــل اســـم مـــن أسمائه الحسنى كاف لو تدبره العقلاء لأن يهديهم إلى توحيده والانصـــراف عن سواه فتدبروا أسماءه الحسنى وأقبلوا على مولاكم، وادعوه مخلصين لـــه الدين يقبل عليكم بالرضا والقبول ويؤتكم من لدنه رحمة ويهيئ لكم من أمركم رشداً.

الـرزاق

فى القاموس المحيط: الرزاق ما ينتفع به كالمرتزق والمطـــر، ورزقه الله أوصـــل إليه رزقا.

وفى مفـــردات الراغب: الرزاق يقال للعطاء الجارى تارة، دنيويا كان أم أخرويا، وللنصـــيب تـــارة، ولما يصل إلى الجوف ويتغذى به تارة. والرازق يقال لخالق الرزق ومعطـــيه والمسبب لـــه وهو الله ويقال للإنسان الذى يكون سببا فى وصول الرزق. والرزاق لا يقال إلا لله تعالى.

وفى الـــنهاية لابـــن الأثـــير: الرزاق الذى خلق الأرزاق؛ وأعطى الخلائق أرزاقها وأوصلها إليهم والأرزاق نوعان: ظاهرة للأبدان كالأقوات، وباطنة للقلوب كالمعارف والعلوم. ا هـــ

هـــذا مـــا جاء فى هذه المعاجم، ونستطيع على ضوء هذه النصوص أن نفسر اسمه تعـــالى الرزاق: بأنه الذى يكثر من خلق أسباب الحياة المادية والمعنوية. وهبتها للأحياء وإيصالها إليهم.

وإذا أراد القـــارئ الكريم أن يلم على التحقيق بمعنى هذا الاسم الجليل فليرسل رائد الفكـــر والنظر إلى ملكوت السماوات والأرض ليرى صوت الأحياء على الأرض وفى

الماء والهواء ممن يمشى على بطنه ومن يمشى على رجلين، ومن يمشى على أربع وينظر كيف قدر الله أرزاق هذه الخلائق جميعاً، وكيف خلق هذه الأرزاق، وكيف سبب الأسباب ليوصلها إلى المرزوقين.

إن التفكير فى الأرزاق التى تصل الأحياء فى لحظة واحدة ليدهش العقول ويحير الألباب فكيف بما يصل منها فى يوم؛ وما يصل منها فى شهر، وما يصل منها فى سنة. وما يصل فى الآجال الطويلة. بل كيف بأرزاق الأحياء جميعاً منذ بث الله الخليقة على الأرض إلى أن يقوم الناس لرب العالمين. بل كيف بأرزاق أهل الجنة التى تجمع الأولين والآخرين الذين يأتيهم فيها رزقهم بكرة وعشيا.

سبحانه جعل لكل حى غذاء خاصا يوافقه ويقيم أود حياته، وجعل أعضاءه موائمة لهذا الغذاء لا تصلح لغيره. فانظر إلى ذات المخالب والمناسر من جوارح الطير كالنسر والباشق والصقر والباز، وإلى ذات المخالب والبراثن من كواسر الوحش التى تتغذى باللحوم، وإلى ذوات المناقير التى يتغذى بالحب، وإلى آكلات العشب والدود والحشر، وإلى طاعمات الفاكهة والثمر، وإلى هذه الطفيليات التى تتغذى بدماء ما تعيش على جسمه من الحيوان، وإلى الإنسان الذى يتغذى بالحيوان والنبات والمعدنيات، ثم انظر كيف نوع الله غذاء الإنسان وسخر له النحل تمنحه شرابا مختلفاً ألوانه، وكيف سخر له الأنعام تعطيه من بين فرث ودم لبنا خالصاً سائغاً للشاربين.

قال تعالى فى سورة النحل: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِى بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِى مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل٦٩].

وقد تفضل سبحانه فأوضح لنا بفضله ورحمته كفالته لأرزاق خلقه فقال تعالى فى سورة هود: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود٦].

الرزق علم الوحدانية

جعل الله تعالى رزقه لخلقه على كثرتهم وتنوعهم واختلاف ألوان أرزاقهم دليلا على وحدانيته ونفى الشريك عنه إذ لا رازق سواه. قال تعالى فى سورة يونس:

﴿قُـلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَى مِـنَ الْمَيِّـتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِـنَ الْحَى وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْـرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَـقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْـرَفُونَ﴾ [يونس ٣٢].

وقـال تعالى فى سورة الروم: ﴿اللَّهُ الَّذى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُـونَ﴾[الروم٤٠].

وقال تعالى فى سورة العنكبوت: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِيـنَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَـهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت١٧].

وقال تعالى فى سورة الذاريات: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُـوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِـينُ﴾[الذاريات٥٨].

وقال تعالى فى سورة الملك: ﴿الَّذى يَرْزُقُكُـمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِى عُتُوٍّ وَنُفُـورٍ﴾ [الملك٢١].

وما أنصع هذه الحجة! وما أسطع هذا البرهان، ولو أن الذين يحاولون أن يستدلوا على وحدانية الله تعالى من هؤلاء الذين كتبوا فى علم الكلام - لجئوا إلى القرآن الكريم وقبسـوا من أدلته وأفادوا من حججه إذاً لوضحت لهم السبيل، ووصلوا إلى الحق من أقرب طريق.

ولـو تدبر الذين يلتمسون الرزق من قبور الموتى هذه الآيات وأمثالها لقنوا الحياء وأنابوا إلى ربهم وأسلموا لـه، وعلموا أن الرزق بيده وحده فابتغوا عنده مخلصين لـه الدين، وأقلعوا عن الشرك الذى كانوا فيه متورطين.

بقـــدر

عـلم الـرزاق ذو القوة المتين أن الإنسان يطغى إذا استغنى، وأن الناس يبغون فى الأرض إذا بسـطت لهـم الأرزاق، فأنـزل الرزق بقدر، ووزعه على الناس بحكمة، وبسـطه لفـريق، وقـدره على آخر ليتم عمران هذه الدنيا بتمام التعاون بين الناس ووجود فقراء يعملون للأغنياء، وأغنياء يسخرون الفقراء، وأولى طول يؤتون الذين لا يجدون ما ينفقون، وأولى مسغبة يتقبلون صدقات الواجدين أولى السعة، وبذلك يكمل التواد والتراحم والتعاطف بين الناس فيتعارفون ويتعاونون على البر والتقوى قال تعالى

فى توضيح هذه السنن الحكمية، ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِى الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى٢٧].

وقـــال تعالى فى سورة العنكبوت: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَــهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [العنكبوت٦٢].

وقال تعالى فى سورة النحل: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِى الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّـــلُوا بِرَادِّى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [النحل٧١].

وقـــال تعـــالى فى سورة الزخرف: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَعِيشَـــتَهُمْ فِـــى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف٣٢].

سنن الرزاق فى الـــرزق

جعـــل الرزاق سبحانه للرزق أسباباً حسية وأسباباً معنوية. فمن الأسباب الحسية العمل والسعى وقد مضت سنته سبحانه أن يسعى الأحياء فى طلبه والتماس أسبابه قال تعـــالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِى الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَـــثِيرًا لَعَلَّكُـــمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة١٠] فقد أمر سبحانه أن ينتشر الناس فى الأرض ويبتغوا الرزق من وجوهه.

وقـــال: ﴿هُـــوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك١٥].

وقـــال عليه الصلاة والسلام (لو أنكم توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً) فدل على أن الطير لا يأتيها رزقها وهى جائمة فى أعشاشها ولكنها تغدو جياعاً وتبكر فى التماس رزقها متوكلة على الله الذى خلقها وكفـــل رزقها وهى لا تملك حرفة ولا صناعة ولا ضيعة ولا مزرعة، ثم تعود بعد هذا البحث وهى ممتلئة البطون شبعا.

تلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا.

ولا تســـتخفنك هـــذه الألفـــاظ الخداعة التى تسمعها من هؤلاء المتصوفة الذين يكســـلون ويأمرون الناس بالكسل والقعود عن الرزق لأنهم عالة متسكعون يعيشون علـــى عمـــل غيرهم كالطفيليات التى تعيش على دماء غيرها وليس لها من عمل إلا

الأذى و المضرة. ومع هذا فهم يضربون فى الأرض وينتقلون من بلد إلى بلد ومن بيت إلى بيــت ولو كانوا مؤمنين بما يقولون للزم كل منهم عقر داره وانتظر الرزق الذى يطلــبه كما يطلبه الأجل فإن قيل فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَــابٍ﴾ [آل عمران٣٧]. قلنا: صدق الله العظيم. ومن أدرى هذا الكسول القاعد أنــه من الذين يشاء الله أن يرزقهم وهم نائمون وكيف غفل هذا العاجز المتوانى عن سنة الله وحكمته.

وهل نسى أن الله تعالى لا يشاء ما ينافى حكمته أو ينقض سنته. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ومن الأسباب المعنوية التقوى. فالذين يتقون الله يهيئ لهم من أسباب الرزق أمور لا يقدرونها ولا تدخل فى حسابهم.

قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا(٢)وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق٣].

ولا تــنس أن من التقوى السعى فى طلب الرزق. ولعلك تذكر ذلك الرجل الذى حــدث الصــحابة عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا إنه ينفق جميع أوقاته فى عــبادة الله تعــالى فلما سألهم عمن ينفق عليه فقالوا كلنا ننفق عليه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلكم أعبد منه.

غــير أرزاق الدنيا ليست مقياساً للتقوى فقد ترى فى الدنيا كافراً ذا سعة ومؤمناً مقــدوراً عليه رزقه، وذلك بحسب ما يتخذ كل من الأسباب الجالبة للرزق والحكمة يستأثر بسرها العليم الخبير سبحانه.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُــرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُــونَ (٣٤) وَزُخْــرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِــينَ﴾ [الزخرف٣٥]..

حق الــرزاق

أما حق الرزاق على عباده المرزوقين فأن يقوموا بشكره على نعمه وأن يؤدوا حق رزقه. والشكر الحق للرزاق أن ينفقوا كل نوع من أنواع الرزق فيما رزق من أجله،

وبهـــذا يكونون شاكرين للرزاق جل شأنه مستوجبين المزيد من فضله. والشاكر بهذا المعنى قليل، ولذلك يقول الله تعالى: (وقليل من عبادى الشكور).

والله تعالى يأمر عباده المرزوقين أن يؤدوا حق رزقه، وأن يشكروا لـــه قال تعالى:

﴿يَـــا أَيُّهَـــا الَّذينَ آمَنُوا كُلُوا منْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا للَّه إنْ كُنْتُمْ إيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة١٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ منْ شَعَائر اللَّه لَكُمْ فيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّه عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا منْهَا وَأَطْعمُوا الْقَانعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الحج٣٦].

وقال تعالـــى: ﴿لَقَدْ كَانَ لسَبَإٍ فى مَسْكَنهمْ آيَةٌ جَنَّتَان عَنْ يَمينٍ وَشمَالٍ كُلُوا منْ رزْق رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غفُورٌ﴾ [سبأ١٥].

يرزق ولا يرزق

والله ســبحانه كفل الرزق لخلقه، و لم يخلقهم لحاجة إليهم، ولكنه خلقهم ليكونوا مظاهر لأسمائه الحسنى وصفاته العلا وليطهر أرواحهم بعبادته قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجنَّ وَالإنْسَ إلا ليَعْبُدُون(٥٦) مَا أُريدُ منْهُمْ منْ رزْقٍ وَمَا أُريدُ أَنْ يُطْعمُون(٥٧)إنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّة الْمَتينُ﴾ [الذاريات٥٨].

وقـــال تعـــالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصَّلاة وَاصْطَبرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقبَةُ للتَّقْوَى﴾ [طه١٣٢].

خصيم مبـــين

فضـــل الله تعـــالى بعض الناس على بعض فى الرزق وأمر الأغنياء وأولى الطول أن يعـــودوا بـــالعفو على الفقراء وأولى الخصاصة، ولكن فريقا مما يأكلون رزق الله ولا يؤتـــون حقه إذا سئلوا الفضل من أموالهم ملك الشح عليهم أمرهم، وأثار فى أنفسهم روح الخصـــومة، والجدل فقالوا: كيف نعطى من حرمه الله، وكيف نطعم من أجاعه الله؟ وقد نبأنا الله تعالى من أخبارهم فقال: ﴿وَإذَا قيلَ لَهُمْ أَنْفقُوا ممَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذيـــنَ كَفَرُوا للَّذينَ آمَنُوا أَنُطْعمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إنْ أَنْتُمْ إلَا فى ضَلالٍ مُبينٍ﴾ [يس٤٧].

وفى السماء رزقكـــم

والمطـــر أصـــل الأرزاق جميعاً فهو مادة الحياة التى تصحح الإنتفاع بجميع المواهب الإلهـــية التى يفيضها الرزاق الكريم على من يشاء من عباده قال تعالى: ﴿وَفِى السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات٢٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ(٣)وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِـــنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ(٤)وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[الجاثية٥].

الرزق الخالـــد

وخـــير الأرزاق وأسماهـــا، وأكثرها وأرقاها، و أسرفها وأبقاها؛ ما أعده الله تعالى لعباده الصالحين فى جنات النعيم من سدر مخضود، وطلح منضود؛ وظل ممدود، وماء مسكوب، وفاكهة كثيرة، لا مقطوعة ولا ممنوعة، وفرش مرفوعة، وأنهار من ماء غير آســـن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، وغير ذلك مما تشتهيه الأنفس؛ وتلذ الأعين، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة٢٥].

وقـــال تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف٥٠].

الشكر يزيد الرزق والكفر يمحقه

اقتضـــت سنة الله تعالى أن يكون الشكر وهو توجيه كل لون من ألوان الرزق إلى الجهة التى منح من احلها - سبباً فى المزيد من فضل الله؛ وأن يكون الكفر وهو عكسه ماحقـــاً للأرزاق قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم٧].

عند الرزاق تبتغى الأرزاق

إن المؤمن الذى أخلص لربه فى العبادة؛ وجرد توحيده؛ واعتقد اعتقاداً يملأ قلبه أن الأرزاق بيد الله وحده - لا يبتغى الرزق إلا عند الله تعالى.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت١٧].

وهذه دعوات الأنبياء قصها الله تعالى علينا لنقتدى بهداهم ولنعرف الفضل لأهله ولا نبتغى الرزق عند غير الرزاق الكريم سبحانه وقال تعالى فى سورة البقرة ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الأخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة١٢٦]. ونسأل الله الكريم الرزاق أن يرزقنا من خير الدنيا والآخرة ما تطيب به حياتنا وتصلح به آخرتنا إنه خير الرازقين.

الرزق ما ينتفع به، ويطلق تارة على العطاء الجارى سواء أكان فى الدنيا كأعطية الجند ومرتبات المستخدمين، وكالرزق الذى يجريه الله تعالى على سائر خلقه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود٦].

أم كان فى الآخرة كالرزق الذى يجريه الله سبحانه على المؤمنين فى دار النعيم، كما قال تعالى: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلا سَلامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم٦٢]. وتارة على النصيب كقولك: لما مات المورث أخذ كل من الورثة رزقه، أى حظه ونصيبه فى الميراث.

وكقوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلا وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة٢٣٣].

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف١٩].

ويطلق الرزق على المطر لأنه سببه، قال تعالى: ﴿وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[الجاثية]. وقال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[الذاريات٢٢].

ورزَقه الله تعالى، وصل إليه رزقاً، ويسند هذا الفعل إلى الرازق سبحانه باعتبار أن خالق الأرزاق ومسخرها ومعطيها الخلائق وموصلها إليهم، ويسند إلى الإنسان باعتبار أنه الله تعالى أجرى الرزق على يديه، قال تعالى: ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفًا﴾ [النساء٥]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفًا﴾ [النساء٨].

والرازق معطى الرزق، فيقال لرب العزة سبحانه، ويقال للإنسان، أما الرزاق فهو خالق الرزق ومعطيه والمسبب له، ولا يقال إلا لرب العزة، أهل الثناء والمجد ذو الجلال والإكرام.

الرزق أبرز سمات الربوبية

والرزق بعد الخلق أبرز سمات الربوبية، من أجل ذلك نجد القرآن الكريم حافلاً بالآيات التى تنادى بأن الله تعالى هو مترل الأرزاق وميسر اسبابها، ليخصه الناس بالعبادة ويفردوه بالدعاء، إذ لا يسوغ عقلاً أن يعبد الناس إلا من يملك رزقهم، قال تعالى: ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة٢٢].

ولا جرم أن إنزال الماء من السماء، وإخراج الثمرات من الأرض رزقاً للعباد، لا يقدر عليهما إلا الله، وبمقتضى ذلك يوجب العقل ألا يعبد إلا هو.

وقال سبحانه: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل٦٧].

وقال جل شأنه: ﴿وَكَأَيِّن مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت٦٠].

فدل سبحانه على أنه مسخر الأرزاق لجميع الأحياء، وعلى أن الأحياء لو تركت لنفسها و لم تشملها عناية الله بتسخير رزقها لهلكت جوعاً وظمأً ولكن الرزاق سبحانه يصل لها أرزاقها وهداها سبلها.

انظر كيف أرسل سبحانه الأرزاق إلى الأجنة فى ظلمات الأرحام بما أجراه فى شرايينها من دماء أمهاتها.

وانظر كيف جعل رزق الطفل الوليد فى ثدى أمه، وهداه إلى إرتضاعه لبناً خالصاً سائغاً، فيه غذاؤه، وبه حياته ونماؤه.

وانظر كيف هدى صغار الحيوان إلى إرتضاع أطباء أمهاتها لتحصل على رزقها الذى به تعيش وتحيا.

وانظر كيف جعل الرزق لفرخ الحمام فى حواصل والديه وسخرهما لزقزقته، وهداه إلى تناوله بمنقاره الصغير من بين مناقيرهما.

ومن المشاهد المؤثرة الباعثة إلى التوسم والتفكير أنى رأيت فرخ حمام ماتت أمه، سخر الله أباه لزقزقته، فكان يغنى غناء الأم، وكان الفرخ إذا أحس ألم الجوع جرى وراء أبيه محاولاً أن يضع منقاره بين شقى منقار أبيه، فسبحان الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى.

وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم٤٠]. فوجه المكلفين إلى التأمل واستعمال العقل ليهتدى إلى أنه لا خالق ولا رازق ولا محيى ولا مميت إلا الله، حتى إذا ثبت لديهم ذلك بالدليل العقلى، ودليل المشاهدة الحسى القطعى، اختصوه سبحانه بالعبادة، وانصرفوا عمن يزعمونهم شركاء لأنهم لا يملكون خلقاً ولا رزقاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً. قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر٣].

يخاطب سبحانه الجنس البشرى كله بأمره أن يذكر نعمة الله عليه فى خلقه ورزقه، ويدعوه إلى أن يفكر وينظر: هل فى الوجود خالق غير الله ييسر له رزقه من السماء بإنزال الغيث، ومن الأرض بإخراج النبات، فإذا نظر نظراً صحيحاً، وفكر تفكيراً سليماً، فلا جرم أن نظره وتفكيره سيدفعانه إلى أن يقر بهذه الحقيقة الأزلية الأبدية، وهى: أنه لا إله إلا الله، فكيف ينصرف الإنسان عن عبادته إلى عبادة المخلوقين الذين لا يملكون خلقاً ولا يستطيعون رزقاً.

وقال جل شأنه: ﴿اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر٦٤].

فدل سبحانه بذلك على أن أبرز سمات الربوبية بعد الخلق والتصوير تيسير الرزق للمخلوقين ليربيهم به و يحفظ حياتهم، وعلى أن الذى يفعل ذلك هو الرب الحق الجدير بعباده المخلوقين و دعائهم وأن الذى لا يفعله ليس من الربوبية فى ظل ولا فئ، ولا من الألوهية فى شئ.

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِى عُتُوٍّ وَنُفُور﴾ [الملك٢١]. فبين سبحانه انه لو أمسك رزقه عن خلقه لهلكوا، لأنهم لا يعيشون ولا يحيون إلا بما يسوقه إليهم من رزق، و انهم لا يجدون رازقاً سواه يدبر لهم أرزاقهم. ولكن المشركين لغفلتهم و جمودهم يلجون فى عتوهم، و يتمادون فى نفورهم، و لا يصيحون لداعى الحق، ولا يلبون دعوة الرشاد.

ماذا يكون شأن الأحياء لو حبس الرازق الغيث عن الأرض، فجفت أنهارها وغاضت عيونها، أو أمر الأرض فأمسكت ما تبعثه إلى النبات من ماء و غذاء فزوت رياضها وأصبح هشيماً تذروه الرياح؟.

و قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾[النحل٧٢].

فهو سبحانه، ينعى عليهم بأنهم يؤمنون بآلهة باطلة صنعوها بأيديهم أو خلقها الله كما خلقهم، وهى لا تملك لكم رزقاً ولا تستطيع ضراً ولا نفعاً، ويشركون بالله الذى هيأ لهم أسباب راحتهم ورزقهم من الطيبات.

وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَمْلُوكًا لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل٧٥].

أراد الله سبحانه أن يدعو الناس إلى عبادته وحده والى خلع الأنداد والشركاء، وأن يقنعهم بأن المخلوق الضعيف العاجز الفقير المحتاج لا يمكن أن يشبه الخالق القوى القادر الغنى الذى بيده ملكوت كل شئ،فضرب لهم مثلا من أنفسهم ليتذكروا ويعتبروا ويصلوا إلى الحقيقة التى لا تقبل الجدل، ولا تحتمل الهراء، وهى وحدانيته

تعالى - ضرب سبحانه المثل برجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شئ، والآخر قد رزقه الله رزقاً حسناً، فهو ينفق منه سراً وجهراً، هل يستوى هذان الرجلان؟

لا جرم أن أدنى تأمل فى هذا المثل يدفع إلى الإجابة بالنفى، وبأن الفقير المحدود لا يساوى الغنى المجدود، ونخرج عن هذا المثل بنتيجة صحيحه، وهى أنه إذا كان المخلوق الفقير لا يساوى المخلوق الغنى، فكيف يساوى الخالق الرازق الذى بيده ملكوت كل شئ ولكن أكثر الناس لا يعلمون، فيدفعهم جهلهم إلى دعاء المخلوق العاجز الذى صار رفاتاً سحيقاً وصعيداً جرزا.

وقال تبارك اسمه: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم٢٨].

أى إذا كان العبد لا يشارك سيده فى ملكه ولا يملك أن يحاسبه عليه فكيف يشارك المخلوقون ربهم الذى خلقهم ورزقهم، والذى لا يملك معه أحد مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض؟

وقصارى القول أن الإله الذى يرزق هو الجدير بالعبادة والدعاء، ودعاء غيره سفه وحمق وضلال مبين.

إنما يُعبد من يرزق

لا يستحق العبادة إلا من يملك الرزق خلقاً وإيجاداً وتقديراً وتيسيراً، فعبادة غير الرزاق سفاهة وضلالة.

كان العرب فى الجاهلية يعتقدون أن الله هو الذى يرزقهم من السماء والأرض، ولكن سفاهة السفهاء وجهل الجاهلين كانا يطوعان لهم أن يوجهوا ألواناً من العبادة إلى أسماء سموها هم وآباؤهم ما نزل الله بها من سلطان.

وقد أرشد الله تعالى ورسوله الكريم أن يسلك فى هدايتهم طريق الإقناع بالدليل العقلى والبرهان الحسى فأمره أن يسألهم عمن يرزقهم من السماوات والأرض وأخبره انهم سيقرون بأن الذى يملك الرزق هو الله ليرتب على هذا الإقرار هذه النتيجة المقنعة لأولى الأبصار وهى انهم ماداموا يعتقدون أن الرازق هو الله فيجب عقلاً أن يكون الله هو المعبود دون غيره لأنه هو الرب الحق.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُم مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخرِجُ الْحَى مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَى وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ [يونس٣١].

وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِى السَّمَوَاتِ وَلا فِى الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس١٨].

وقال جل شأنه: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت١٧].

وصفوة القول أن عبادة غير الرزاق سفه وحمق بل كفران وضلال بعيد.

يرزقكم ومن تعولون

جهلت طائفة من صعاليك العرب أسرار القدرة الإلهية فى تيسير الأرزاق، وحسبت أن الفقر من لوازم البنات اللاتى لا يشاركن فى الغارة، ولا يدفعن المغير. ولا يغتصبن الأموال من أصحابها بحد الصارم البتار. فكانوا يئدون البنات، ويغيبوهن فى ظلمات القبور وهن على قيد الحياة، دفعاً للفقر الذى يصحبهن كما يزعمون، فجاء القرآن الكريم ناهياً عن هذه الرذيلة الدامية ومخبراً أن الأرزاق بيد الخلاق سبحانه فكما أنه يرزق آباء البنات وأمهاتهن كذلك يرزقهن.

قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام١٥١].

أى لا تقتلوا أولادكم بسبب الفقر الحال بكم فإن الله الذى بيده خزائن السماوات والأرض ضمن لكم رزقكم الذى يصون حياتكم ورزقهم الذى يغذوهم وينسيهم ويجعلهم يبلغون مبلغ الرجال والنساء وقال تعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء٣١].

أى لا تقتلوا أولادكم خوفاً من الفقر فى المستقبل فإن الذى يرزق فى الحاضر هو الذى يرزق فى المستقبل، وأنهم سيصيرون رجالاً أقوياء أشداء يسعون فى سبيل

الحصول على الرزق، وسيرسل إليهم الله الأرزاق بسعيهم، وسيغدق عليهم من الخير ما يعودون به عليكم إذا بلغتم الكبر وعجزتم عن الكسب وقعدتم عن العمل.

ويبدو أنهم لم يكونوا يقتصرون على قتل البنات بل كانوا يقتلون الذكور بدليل الآية الكريمة إذ أستعمل فيها ضمير جمع المذكر.

افتراء فى تحريم الأرزاق

أباح الرزاق سبحانه لعباده أن يستمتعوا بطيبات ما رزقهم كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة١٧٢].

وقال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل١١٤].

أباح الله تعالى للإنسان أن يستمتع بالطيبات من الرزق ولم يحرم عليه من الحيوان والنبات إلا ما فيه مضرة بجسمه أو بعقله أو بدينه و عقيدته، و لكن فريقاً من السفهاء سول لهم الشيطان أن يحرموا على أنفسهم ما رزقهم الله، كان أول من ابتدع هذه البدعة الجاهلية وحمل وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة عمرو بن عامر الخزاعى فقد روى البخارى من حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: رأيت عمرو بن عامر الخزاعى يجر قصبه فى النار كان أول من سبب السوائب.

قال تعالى: ناعياً على هؤلاء المبتدعين بدعهم وضلالتهم: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِى لِلَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف٣٢].

وقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة١٠٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس٥٩].

ومن عجب أن الأمة التى انزل الله على نبيها هذا الكتاب الكريم المتضمن لهذه الآيات البينات وجعلها خير أمه أخرجت للناس - سلك كثير منها مسلك الجاهلية الأولى، واتبعوا سننها، فأصبحوا ينذرون الجداء والخراف والثيرة للطاغوت من البدوى والسوقى والقناوى وأمثالهم ويحرمونها على أنفسهم ويهلون بها لغير الله معتقدين أنهم

إن لم يفعلوا فتكت الطاغوت بأبنائهم أو بأنفسهم أو بأنعامهم، أو بزراعتهم أو بتجارتهم أو سلطت عليهم سيف الانتقام. وتلك هى عقيدة الجاهلية الأولى، وذلك هو دين المشركين، والإسلام الحق من هذا براء، والمسلمون الصادقون براء مما يدين به المشركون.

وقليل من الفكر يهدى إلى أن هذه الطواغيت التى يعبدونها من دون الله لم تنزل لهم ولا لأنعامهم الغيث من السماء، ولم تنبت لهم ولا لأنعامهم النبات من الأرض، ولكن الجهل والجمود والتعصب والعناد، والرين على القلوب، والختم على السماع والغشاوة على الأبصار. ومن لم يجعل الله نوراً فما له من نور.

ينزل الرزق بقدر

والرزاق سبحانه مع أن له خزائن السماوات والأرض. وبيده أسباب الرزق كلها لم يبسط الرزق لعباده جميعاً حتى لا يطغوا ولا يبغوا فى الأرض بغير الحق. ولكنه سبحانه أنزل بقدر وبسطه لفريق من عباده، وقدره على فريق لتتم أحكام النظام الذى قدره لتدبير أمر الحياة الإنسانية على هذه الأرض.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِى الأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى٢٧].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ٣٩].

وقال عز من قائل: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِى الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [النحل٧].

ضمن الرزاق رزق كل حى

وقد ضمن الرزاق سبحانه الرزق لكل كائن حى. فما شق فماً إلا أجرى له رزقاً، ولم يخلق مخلوق ليقضى عليه الموت جوعاً. وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ إِلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود٦].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [فصلت٩].

فقد بارك سبحانه فى الأرض وقدر فيها أقوات أهلها وأرزاقهم فكل كائن دبت الحياة فى جسمه واجد فى الأرض رزقه إذا سعى إليه وجد فى الحصول إليه.

وبذلـك تدرك ضلال أولئك الذين ينادون بتحديد النسل زاعمين أن موارد الرزق لا تتسع للناس إذا تضاعف عددهم، وذلك من فساد الاعتقاد فى علم الله تعالى وقدرته وحكمته، فإن الله تعالى حين خلق الأرض قدر فيها قوتاً لكل حى يدب على ظهرها، ولكـنه - جلت حكمته - وضع أسباباً تتوقف الأرزاق عليها، ووسائل تبتغى إليها. فمـن ابـتغى الوسيلة إلى الرزق ظفر بها ومن اتخذ الأسباب إلى القوت كان منه على طرف الثمام قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولا فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك١٥].

وقـال تعـالى: ﴿فَـإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِى الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة١٠].

فأنظـر كـيف قرن الأكل من رزق الله بالمشى فى مناكب الأرض. وكيف قرن الابـتغاء مـن فضله تعالى بالانتشار فيه. وها نحن الآن نرى بعض الأمم حين ضاقت غـلات الأرض الخصبة فى ممالكها عن أن تفى بحاجتها عمدت إلى الصحارى والجبال فأجرت الماء إليها واستنبتتها فجاءت بأطيب الثمرات وأجود الغلاة وزادت على حاجة أهـلها وصدق الله إذ يقول فى كتابه الكريم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة٢٧].

ولكـنه الكسـل، والركون إلى العجز وهما خليقان بأن يوصدا الأبواب ويقطعا الأسباب.

يـرزق بعضهـم من بعـض

اقتضـت حكمة الرازق أن يبسط الرزق لفريق من عباده، ويقدر على فريق ولكنه تعـالى طلب إلى من بسط لهم رزقهم ألا يضنوا على المحرومين، وأن ينفقوا مما رزقهم الله. وأن يمنحوا الفقراء والمساكين عفو أموالهم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِى يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة٢٥٤].

وقد أثنى سبحانه على من استجابوا وأنفقوا مما رزقهم الله فقال فى وصف المتقين: ﴿الَّذينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة٣].

وقـال تعـالى: ﴿إِنَّ الَّذينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ [البقرة٢٩].

كما وعد سبحانه المنفقين بأن يخلف عليهم ما أنفقوا فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ٣٩].

ونعى سبحانه مع الموسرين الأشحة الذين يبخلون برزق الله على المعسرين من عباده ويجادلون من ينبههم إلى فضيلة السخاء جدالاً يسجل عليهم رذيلة الشح ويسمهم بميسمه فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [يس٤٧].

أجل لو شاء ربنا لأطعم المحرومين والمقدورة عليهم أرزاقهم بل لو شاء لوضع غنى الأغنياء ويسار الموسرين فى أيدى الفقراء ولكنه تعالى لحكمة سامية حرم المحرومين أمر الواجدين بعونهم ليبلوهم أيهم يسارع فى طاعته. ويستجيب لأمره، وليوثق أواصر الود بين الأغنياء والفقراء. وليس من يدعو إلى الحق والخير والبذل فى سبيل الله هو الضال ولكن الضال البين الضلالة هو الذى لا يستجيب لمن يدعوه حياته وخيره وسعادته، ويعرض عن سبيل الفضيلة وينأى بجانبه.

جعل الله رزق المحروم حقاً فى مال الغنى حتى انه لم يبح لـه عند الاضطرار أكل الميتة مادام واجداً من حوله من لـه حق مطالبته فإن ضن عليه اعتبر من الفئة الباغية وأبيح لـه قتاله.

قال الإمام الجليل ابن حزم فى الجزء السادس من كتابه المحلى صفحة (١٥٩) ما يأتى بالحرف: (ولا يحل لمسلم أن يأكل ميتة أو لحم خنزير وهو يجد طعاماً فيه فضل عن صاحبه المسلم أو لذمى، لأن فرضاً على صاحب الطعام إطعام الجائع. فإذا كان ذلك فليس بمضطر إلى ميته ولا إلى لحم الخنزير، وله أن يقاتل عن ذلك، فإن قتل فعلى قاتله القود، وإن قتل المانع فإلى لعنة الله لأنه منع حق وهو طائفة باغية. قال تعالى: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغَى﴾ [الحجرات:٩] ومانع الحق باغ على أخيه الذى لـه الحق وبهذا قاتل أبو بكر الصديق رضى الله عنه مانعى الزكاة وبالله التوفيق).

يرزق من يشاء بغير حساب

والرزاق سبحانه يرزق من يشاء بغير حساب وقد جعل سبحانه التقوى من أسباب هذا الرزق فمن اتقى الله وسعى فى كسب الحلال، وزهد فى الحرام، هيأ الله تعالى من أسباب الرزق مالا ينتظر ولا يقدر.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق٢].

وقد يعتمد المؤمن على الرزاق سبحانه، وينهض بعمل من الأعمال العامة، يشعر بأنه من فروض الكفاية ويرى أن غيره لا يقوم به، يحس بأن العناية الإلهية كأنها ندبت له ويعتقد أنه ضرورى لازم لنفع المجتمع الإنسانى ولكنه لا يدر رزقاً على من يقصر همته عليه، ولا يجر نفعاً مادياً إليه فيسوق الله إليه الرزق لا يقدر ولا ينتظر.

لما حبست مريم المطهرة المصطفاة نفسها على خدمة المحراب، بعث الله تعالى إليها رزقاً حسنا على أيدى الكرام الأسخياء من عباده المؤمنين، بحيث كان محرابها لا يخلو من رزق الله. قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران٣٧].

وقد يقع مؤمن فى ضائقة شديدة، وتنقطع به الأسباب، ولا يجد عوناً من الناس فيدعو الله تعالى دعاء المضطر، فيلطف الله تعالى ويخرجه من هذه الضائقة. قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِى الْعَزِيزُ﴾ [الشورى١٩].

وقليل من التدبر يقنع أولى الألباب، أن الرزق بغير حساب، لا يكون لجميع الأحياء ولكن لمن يشاء الله تعالى أن يرزقهم، وهم الذين يعلم أن قوة إيمانهم وتقواهم تدفعهم إلى النهوض بصالحة تضفى ظلال نفعها على المؤمنين. ألم يعد الرزاق سبحانه المؤمنين أن يخلف عليهم ما أنفقوا فى سبيله بقوله الكريم: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ٣٩]. والاختلاف والإضعاف: من الأرزاق التى يسوقها الرزاق سبحانه إلى المؤمنين من حيث لا يحتسبون.

لقد أسكن إبراهيم عليه السلام من ذريته بواد غير ذى زرع عند بيته المحرم، وهو على يقين من أن الله تعالى لن يضيعهم، وأنه سيبعث إليهم أرزاقهم من حيث لا يحتسبون. على الرغم من إعواز الماء، وجدوبة المكان، وقد دعا عليه السلام الرزاق سبحانه وهو موقن بالإجابة، فقال ما حكى الله تعالى عنه: ﴿رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ

ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم٣٧].

وقد استجاب الله له، وفجر ينبوعاً من الصخر ليرتوى منه إسماعيل وأمه، ومن يرده من الظامئين، وقد رفع إبراهيم وإسماعيل عن كثب منه قواعد البيت الحرام الذى هوت إليه الأفئدة من كل فج عميق.

أرزاق معنوية

وكما أن الرزاق سبحانه يهب عباده أرزاقاً حسنة مادية، كذلك يهبهم أرزاقاً معنوية قد تكون من أسباب الأرزاق المادية، كالذكاء وحدة العقل وقوة الفكر وصحة الحكم وحسن الخلق، وقوة الإرادة، والصبر والمثابرة، والنفوذ الشخصى والجاه ورفعة المكانة والتوفيق للخيرات، والهداية إلى الصراط المستقيم، وعلى رأسها جميعاً النبوة والرسالة. وهى خير أرزاق الدنيا جميعاً.

قال تعالى مخاطباً نبيه الأمين الكريم: ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه١٣١].

يرزق ولا يرزق

والرزاق سبحانه ضمن أرزاق خلقه جميعاً ولا ينتظر رزقا من أحد. وما خلق الخلق ابتغاء أن يرزقوه، فهو سبحانه غنى عن العالمين، وإنما خلقهم ليرفع بعبادته أقدارهم. ويهيئهم بها لتبوء دار الكرامة.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ(٥٦)مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ(٥٧)إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ(٥٨)فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ(٥٩)فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الذاريات٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه١٣٢].

رزق الآخرة

وكما يرزق الرزاق سبحانه عباده فى الدنيا، كذلك يرزق المؤمنين فى الآخرة رزقا هو خير وأبقى من رزق الدنيا. ومهما تحاول أن تصور رزق الآخرة أو تصفه أو تقربه إلى الأذهان، فلست بمستطيع إلى ذلك سبيلا. ولن يستطيع أن يثبت رزق الآخرة إلا

مـــن رآه أو ذاقه أو شمه أو لمسه أو استمتع به، لأنه مما لم تر الأعين ولم تسمع الآذان، ولا خطر على القلوب. وللمؤمنين عند ربهم فى جنات النعيم، ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

ولا يسبقن إلى الأوهام أن رزق الآخرة كرزق الدنيا، يعتريه التحلل أو الفساد، أو يصيبه النقص أو النفاد، أو يجد المؤمنون مشقة فى الحصول عليه أو نصباً فى الظفر به: كلا بل هو ميسور لهم كلما أرادوا، دان منهم حيث كانوا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَاد﴾ [ص٥٤].

وقال جل شأنه: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَة آمنينَ﴾ [الدخان٥٥].

وقـــل عز من قائل: ﴿مَثَلُ الْجَنَّة الَّتى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّة للشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِى النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد١٥].

وكل هذا الرزق الكريم محرم على الكافرين، لا يذوقون طعمه ولا يجدون ريحه.

قال تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّة أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف٥٠].

نســـأل الله الـــرزاق ذو القوة المتين، أن يرزقنا فى الدنيا رزقا واسعاً حلالا، يصون كرامتـــنا ولا يطغيـــنا، ويوقر عزتنا ولا يردينا، ويكون سبباً للظفر بالرزق الكريم فى جنات النعيم آمين.

السميــع

الســـمع بالقـــياس إلى المخلوقـــين: حـــس الأذن، أو هو قوة فى الأذن تدرك بها الأصوات.

والأذن: عضو عجيب الخلقه دقيق التركيب، معقد أشد التعقيد، يتألف من أجزاء دقيقه، لها فى علم وظائف الأعضاء أسماء متنوعة، كالطبلة والدهليز، والقنوات نصف الهلالية، والعصب السمعى وغيرها.

وطـــبلة الأذن غشـــاء رقيق يستقبل ذبذبات الهواء، وينقلها فى سلسلة معقده من العظـــيمات الدقـــيقة التى تكبرها ثم تنقلها إلى التيه الذى ينتشر فيه العصب السمعى

وهذه السلسلة تتألف من نحو ٤٠٠٠ قوس دقيقة، هى الأوتار التى تعزف عليها مزيداً من التوضيح، فى كتب التشريح.

ويطلق السمع مجازاً على الطاعة والفهم. نقول: أرشدت المبتدعين إلى سبيل الحق، فلم يسمعوا. أى لم يطيعوا. ودعوهم إلى السنة فقالوا: سمعنا وعصينا أى فهمنا قولك، ولكنا خالفناه و لم نأتمر به.

ويطلق كذلك على تصور المعنى والتفكير فيه. كما قال تعالى فى شأن ذرء جهنم: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف١٧٩].

إذ ليس المراد أن آذانهم لا تحس الأصوات ولا تدرك الأجراس، ولكن المراد: أنهم لايتصورون ما يسمعون، ولا يفكرون فيه لينتفعوا به، فكأنهم لا يسمعون لفقدانهم فائدة السمع.

قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان٤٤].

أما السمع بالنسبه لرب العزة المتره عن الجوارح ومشابهة الخلق فمعناه: إحاطته تعالى بالأصوات مهما تكن مصادرها ومهما تكن أوصافها، وبالألفاظ ومدلولاتها، وبالكلمات ومعانيها، وبالحروف ومخارجها وصفاتها، من همس وجهر وشدة ورخاوة، واستعلاء، وانطباق وانفتاح، وإذلاق وإصمات، وتكرر وقلقله، ولين وانحراف ونقش واستطالة، وغير ذلك مما يعتور الحروف من صفات وأحوال. وبالجمل وما تعبر عنه من دعاء وابتهال، وتهليل وتسبيح، وحمد وشكر وثناء، وتنكير وتقديس، وتتريه وتوحيد، أو شرك وإلحاد وفسوق وكفر، أو حب وبغض، ورضا وسخط، وشعر ونثر، وقرآن وسجع وترسل، وخطب ورسائل، وسر وجهر.

ولايقف سمع الله عز وجل عند ما تنطق به الشفتان، أو يتحرك به اللسان، بل يتجاوز ذلك إلى الإحاطة بما تهتف به الضمائر، وما تتناجى به السرائر، وما يجول بالخواطر، وما يتمثل فى الأحلام، أو تدب به الأمانى، أو تصوره الأوهام.

أثبتت العلوم الطبيعية أن ذبذبات الأصوات تبلغ ٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠، ٣٠٠سلم (ثلاثمائة بليون سلم) يدرك سمع الإنسان منها ١١,٥ أحد عشر سلماً ونصف سلم من

أوسـطها، ولا يمـتد إدراكه إلى ما فوقها. ولا إلى ما تحتها لأنها تقع إما فوق مدى إدراكه وإما تحته فلا يبلغها سمعه.

أمـا ذو العـزة والجـبروت سبحانه فهو يسمع كل الذبذبات التى استطاع علم المخلوقين أن يكشفها والتى عجز سمعه عن بلوغها.

تفـتقر أسمـاع المخلوقين إلى مادة تنقل إليها الأصوات كالهواء أو الأثير. فإذا لم تسعهم هذه المادة حرموا سماع الأصوات ولو كان مصدرها على كثب منهم.

أما السميع العليم سبحانه فإن سمعه يتصل بالمسموعات، بغير وسيط ولا معين.

أسمـاع المخلوقـين ذات طاقة محدودة تختلف قوة وضعفاً باختلاف ما منحهم الله تعـالى، ولكـنها تقف عند حد خاص لا تتجاوزه ولا تعدوه، وأما سمع الله تعالى فلا يقـف عـند حـد، ولا يعتاص عليه مسموع، سواء أكان تحت أطباق الثرى، أم فى السـماوات العـلا. يستوى عنده سبحانه بعيد الأصوات وقريبها، وقويها وضئيلها، ورخيمها.

لا يسـمع المخلوقون إلا بحاسة محدودة القوى، ضعيفة الأثر، أما ربنا سبحانه فإنه يسـمع بغير حاسة ولا جارحة، ولا يعييه مسموع، ولا يعجزه صوت فى السماوات ولا فى الأرض. ولا فى أى عالم من العوالم التى لا يحيط بها علماً إلا الله السميع العليم.

لا يستطيع الإنسان أن يسمع متكلمين فى وقت واحد سماع تدبر وتفهم. إذ يشغله تدبر كلام أحدهما وفهمه عن فهم كلام الآخر وتدبره. أما رب العزة سبحانه وتعالى فلو تكلم من فى السماوات والأرض كلهم جميعاً فى وقت واحد لأحاط علماً بكل ما يقولـون، ووسع سمعه كل ما يقولون، ووسع سمعه كل ما به ينطقون. لا يشغله سماع كـلام أحدهم عن سماع حديث غيره، ولا تفوته من كلام أحدهم لفظة ولا حرف، ولا نأمـه ولا نـبرة، ولا يشغله زجل الملائكة عن عزيف الجن، ولا هدير الموج عن حفـيف الشجر، ولا زفيف الريح عن وقع المطر ولا دبيب النمل عن زحف الحشر، ولاحس نمو النبات عن همس تفتح الزهر، ولا تكسر الأمواج عن جريان النهر.

ألم يبلغ سمعك صوت خذروف الصبى حين يديره حول نفسه بطريقته الخاصة وهو يـلهو ويلعب؟ ألم تسمع أزيز الطائرة وهى تحلق فى أجواء الفضاء ذاهبة كل مذهب؟ إن لحركات الكواكب والنجوم فى جو السماوات العلا لدويا هائلا يصم الأسماع. لو

قـــدر لآذانـــنا أن تسمعه لكان دونه كل دوى، ولفنى فى ضجيجه كل ضجيج، ولما اســـتطعنا أن نسمع ما دونه من الأصوات، ولكن رحمة الله بنا حالت دون سماعنا إياه بتغييب الوسيط الذى ينقله إلى أسماعنا. أما رب العزة السميع العليم فيسمع كل صوت وإن خفت وكل صيحة وإن علت، سواء عليه النجوى والضجيج، والهمس والعجيج. « الســـميع » صـــيغة مـــبالغة تدل فى العربية على الكثرة، وباعتباره اسماً لرب العزة ســـبحانه: يـــدل على كثرة السمع فى ذاته أى على قوة السمع، بحيث لا يفلت منه مسموع وتدل كذلك على كثرة أنواع ما يسمع، بحيث يسمع مالا يتسنى لغيره تعالى أن يسمعه.

وقـــد ورد هذا الاسم العظيم فى القرآن الكريم مقارنا لاسمه تعالى « العليم » تسعا وعشـــرين مـــرة. ومقارنـــا لاسمه تعالى البصير سبع مرات، للإشعار بأن السمع علم بالمســـموعات والبصـــر علم بالبصريات؛ يدل على هذا أن الله تعالى ذكر النجوى - وهى الحديث الخفى - بسبيل الإخبار عن علمه بما فى السماوات والأرض فقال تعالى: ﴿أَلَـمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى السماوات وَمَا فِى الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إلا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة٧].

فهـــو ســـبحانه رابعهم وسادسهم ومعهم بعلمه وسمعه لا يغيب عن سمعه همس النجوى، ولا يخفى عليه تخافت المسارة.

وقد عبر سبحانه عن السمع بالعلم فى بعض المواضع من القرآن.

فقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه٧]. جل شأنه ربنا ســـبحانه؛ أسمـــع به وأبصر! وقد أخبرنا سبحانه أنه يسمع شكوى الشاكى ومجادلة المجـــادل مـــا أسر وناجى، فقال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِى إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة١].

وأخبر أنه يسمع ما يلقيه الكفرة على عواهنه من منكر القول وزوره بغير تبصر ولا تدبر فقد قال تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[آل عمران١٨١].

أمـــا حظ العباد من هذا الاسم الكريم: فهو أنهم إذا صح إيمانهم به قنوا الحياء، فلم ينطقوا بالسوء من القول، ليقينهم أن الله يسمع ويحصى ما يقولون، ولعلمهم أن الله لا يحب الجهر بالقول من السوء إلا من ظلم.

إذا صـــح إيمان العبد بهذا الاسم الكريم لم يحدث نفسه بشر؛ لأن كل شر يقترف يســبقه حديث نفسى، يوسوس به الهوى؛ ويغرى به الشيطان، ويمهد لوقوع الجريمة والله يسمع حديث النفس، كما يسمع حديث اللسان.

إذا صـــح إيمـــان العبد بهذا الاسم من أسمائه تعالى الحسنى اجتنب كواذب الإيمان، ليقيـــنه أن الله تعـــالى يسمع عبده وهو يقسم باسمه حانثاً متعمداً غير مبال ولا حافل بعظمة الله، وجلالته، وقدرته وشديد بطشه وانتقامه.

إذا صدق إيمان العبد بهذا الاسم الكريم ذكر ربه فى نفسه تضرعاً وخفية، لعلمه أنه لا يدعو أصم ولا غائباً، وإنما يدعو سميعاً قريباً.

إذا صدق إيمان الناس بهذا الاسم العظيم ما رأينا هذه الحلقات التى يقوم فيها جماعة من المفتونين تهتز قاماتهم كاهتزاز الأغصان اللدنة تحت العواصف الثائرة، ينبحون كما تنـــبح الضـــوارى، أو يخورون خوار الثيران، حتى إذا أدركهم النصب والإعياء فحوا كفحـــيح الأفاعى، وهم يزعمون أنهم بهذر الممرورين يذكرون رب العالمين، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

لـــو صدق إيمان الناس بهذا الاسم العظيم ما سمعت هؤلاء الذين يقفون على قبور الموتى مناجين هاتفين، ويغفلون عن دعاء السميع العليم.

يا عجباً لغفلة الإنسان! يترك السميع العليم الذى يعلم السر وأخفى، وينادى من لا يستجيب لـــه إلى يوم القيامة، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّـــهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ(٥)وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَـــانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ(٦)وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأحقاف٧].

البصير

يطلق البصر فى اللغة على ثلاثة معان:

الأول: الجارحة الناظرة وهى العين. كقوله تعالى: (وما أمرنا إلا كلمح البصر) أى بالعين.

الثانى: حس العين وقوة الإدراك التى وضعت فيها.

الثالث: الفطنة وقوة القلب المدركة التى يقال لها البصيرة.

وسنشــرح هــذه المعــانى الثلاثة لنعلم هل يصح إسناد شىء منها إلى رب العزة سبحانه.

فالعين كرة تتألف من ثلاثة أغشية بعضها وراء بعض وهى:

الصلبة أو بياض العين، والعينية والشبكية.

الصــلبة غشــاء أبــيض كثيف سميك، به من الخلف ثقب يسمح بمرور العصب البصــرى إلى الدفاع، وجزؤه الأمامى شف يسمى القرنية الشفة والعينية طبقة سوداء تخترقها الأوعية الدموية التى تغذو مقلة العين، وجزؤها الأمامى الذى يرى وراء القرنية الشــفة يســمى القزحية وتختلف ألوان القزحية باختلاف الأفراد فتكون فى بعضهم سوداء، وفى بعضهم زرقاء ...

ومنها تستمد العيون أوصافها فيقال: عين سوداء، وعين زرقاء، وعين عسلية الخ. وفى وسط القرنية ثقب يسمى: الحدقة يسمح بدخول الأشعة الضوئية فى داخل العين.

وتتســع الحدقة، وتضيق طوعاً لمقدار الضوء الذى يمر بها، فتضيق إذا دخل الضوء لــتدخل منه بقدر، وتتسع إذا قل. ومن أجل ذلك إذا كان الإنسان فى ضياء شديد ثم دخل فجأة مكاناً مظلماً فإنه لا يكاد يرى شيئاً، ثم تأخذ الأشياء فى الظهور قليلاً قليلاً كلما اتسعت الحدقة وسمحت بدخول قدر كاف من الضوء.

ووراء القزحــية عضو لــه شكل العدسة يسمى العدسة البلورية يقسم مقلة العين مــن الداخــل إلى قسمين غير متساويين: أمامى وخلفى، فالأمامى وهو الصغير مملوء سائلا رقيق القوام شفاف يسمى الرطوبة المائية، والخلفى وهو الكبير مملوء سائلا غليظ القوام شفافا أيضاً ويسمى الرطوبة الزجاجية.

والشبكية وهى الطبقة الأخيرة تتكون من تفرعات العصب البصرى وهى الجزء المحس من العين.

فإذا صرفنا البصر تلقاء شئ من الأشياء فإن أشعة الضوء الواقعة على هذا الشيء تنعكس عنه إلى العين وتخترق القرنية الشفة، وتجتاز الحدقة، وتمر بالرطوبة المائية، والعدسة البلورية والرطوبة الزجاجية ثم تلقى على الشبكة صورة الشىء الذى وقعت عليه العين، فتنقلها الأعصاب للدماغ الذى هو المركز العام للحس.

ولا يستمر أثر الصورة على الشبكية طويلا، بل يزول بزوال الشىء الذى أحدثه، ولكنه لا يزول سريعا. يدلك على ذلك أنك إذا أشعلت عود ثقاب ثم أدرته أمامك بسرعة فإنك ترى دائرة تتحرك، ولا ترى نقطاً متعاقبة.

ومن الناس من يرى الأشياء القريبة، ولا يرى البعيدة ويسمى قصير النظر ويستعين على إصلاح نظره بمنظار ذى عدسة مقعرة. ومنهم من يرى الأشياء البعيدة. ولا يرى القريبة ويسمى طويل النظر، ويستعين على إصلاح بصره بمنظار ذى عدسة محدبة.

ومن الناس من لا يستطيع تمييز بعض الألوان من بعض بوضوح. وتسمى هذه العاهة عمى الألوان. كما أن منهم من يرى الشيء شيئين، وذلك لخلل فى إحدى العينين يجعل الصورة التى تلقيها على الشبكية تقع بعيداً عن الصورة التى تلقيها العين الأخرى، فلا تنطبق عليها.

وللعيون محاجر وأجفان وأهداب وحواجب تحميها وتحفظها مما يؤذيها وفوق مقلة العين غدة تفرز الدموع التى تغسلها وتسهل انزلاقها ويكثر إفراز الدموع إذا دخل العين جسم غريب، وعند الانفعالات الشديدة وتجرى العيون فى القنوات الدمعية إلى الحفر الأنفية، وإذا كثرت انحدرت من الآماق على الخد.

هذه عين المخلوق:

وقد أخبر ربنا سبحانه بأن له عيناً ، فقال تعالى مخاطباً لموسى عليه السلام:

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه٣٩].

وأخبر أن له أعيناً فقال جل شأنه: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ(١٣)تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ(١٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ(١٥)فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦)وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر١٧].

وقال تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [هود٣٧].

قيل لربنا سبحانه عين أو أعين كأعيننا تتألف من الأجزاء التى وصفت لك وتعتريها الآفات التى تعترى عيون المخلوقين، فيقصر نظرها تارة، ويطول أخرى، أو ترى الشيء شيئين، أو يختلط عليها الألوان؛ أو تزدحم فيها صور المرئيات حتى يراها على غير حقيقتها.

حاش لربنا سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

فإذا أضاف ذو العزة والجلال سبحانه إلى نفسه عيناً أو أعينا وجب علينا أن نثبت لجلاله ما أثبت لنفسه بغير تشبيه ولا تمثيل، ولا تأويل ولا تعطيل، وأن نعتقد أن عينه سبحانه ليست حاسة ولا جارحة ولا عضواً ولا جزءا، ولا مؤلفة من أجزاء ولا تعتريها الآفات والأمراض التى تعترى عيون المخلوقين، بل هى صفة من صفاته تعالى لا يدرك كنهها، ولا يقف على حقيقتها غيره سبحانه، تصدر عنها العناية والرعاية، والحفظ ليس كمثله شئ، وهو السميع البصير.

أما البصر بمعنى حس العين، وقوة الإدراك التى ركبت فيها فهو كذلك محال على رب العزة ذى الجلال والإكرام سبحانه، وإذا استحالت عليه الجارحة، استحال حسها كذلك ولله المثل الأعلى فى السماوات والأرض.

فالبصر فى حقه سبحانه صفة تنكشف بها الأشياء كلها ظاهرها وخافيها فى كمال نعوتها، وتمام أوصافها، وجميع هيئاتها وألوانها، وأشكالها، وأبعادها بغير جارحة، ولا إضطراب حاسة، ولا معونة ضوء، ولا إرتداد صورة، ولا انفعال عصب، ولا تلقى دماغ، ولا شئ مما يحدث فى أبصار المخلوقين.

يرى الأجنة فى بطون أمهاتها، ويرى اضطرابها واختلاف حركاتها. لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، تستوى عنده المسافات والأبعاد: يرى ما تحت الثرى كما يرى ما فى طباق السماوات العلا؛ ليست سماء بأقرب إلى بصره من سماء، بل جميع ما تحت العرش سواء، ليست رؤيته للطود

العظيم مغمورا بضياء الشمس فى وضح النهار بأيسر من رؤيته لما فى أعماق البحر فى ظلمات ليل السرار كل ذرة فى الوجود شاهدة بأن ربنا سبحانه بصير بالعباد، ولولا أنه تعالى بصير ما خلق الأجنة فى بطون أمهاتها خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث، ولا كون حيوان الماء فى أعماق الماء على ما فيه من غرائب الخلق؛ وعجائب التكوين، وبدائع التصوير، وروائع التلوين.

كل ذرة فى الوجود، وكل خلية فى إنسان أو حيوان أو نبات، وكل نواة فى خلية، وكل كهرب يسير حول نواة - مظهر من مظاهر اسمه تعالى البصير؛ فالبصر توضع كل ذرة من هذه الذرات فى موضعها التى لا تصلح إلا له، ولا يصلح إلا لها وبالبصر تستقر كل خلية فى مستقرها الذى لا يستقيم إلا بوضعها فيه، سبحان ربنا! أسمع به وأبصر. مالهم من دونه من ولى. ولا يشرك فى حكمه أحداً.

شكا موسى وهرون إلى ربهما خوفهما من بطش فرعون بهما، وعدوانه عليهما ﴿قالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى(٤٥)قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى(٤٦)فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ [طه٤٧].

فأدخل الطمأنينة إلى أنفسهما، ورد الأمن إلى قلوبهما حين أخبرهما أنه يسمع قول فرعون، ويرى فعله، ويدفع عنهما طغيانه.

جاء هذا الاسم الجليل فى القرآن الكريم مقارنا لاسمه تعالى السميع فى بعض المواضع فدل ذلك على اشتقاقه من البصر الذى يكشف الأشياء وأشكالها وألوانها وهيئاتها لا من البصر الذى بمعنى البصيرة. وتعالى جد ربنا أخبر عباده بأسمائه وصفاته ليعرفوه بها، فيقدروه حق قدره، ويخافوا مقامه، ويعبدوه كأنهم يروه حين يوقنون أنه يراهم، ويدرك أبصارهم وبصائرهم، يبلو أعمالهم، وسرائرهم، لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع البصير.

إذا آمن العبد بأن ربه يراه وهو فى بيته أو فى حقله أو فى مصنعه أو فى حانوته أو فى سوقه أو فى ظلمات مخدعه - قنى الحياء. واستحيا أن يرى ربه متلبسا بما حرم عليه منتهكا للحرمات التى نهاه عن انتهاكها، متعديا الحدود التى حرم عليه تعديها، مقترفا الآثام التى حذره اقترافها.

وبعـــد. أفـــيرى الأولياء الذين يسألهم الغافلون شفاء مرضاهم، مكامن الداء فى الأجسام فيطبوا لـــه؟.

أيبصـــرون مسرى الجراثيم فى الشرايين وتكاثرها فى الدماء فيسلطوا عليها موجات مـــن أشعة قدرهم فتهلكها؟ وتنجى المريض من فتكاها، أيبصرونهم وهم قائمون على قبورهم فى خشوع المتبتل، وخضوع الخائف وإكسار الذليل يترلون حاجاهم بواديهم الجديب، وينادونهم، ولا من مجيب؟

ســبحانك! هــل يستوى الأعمى والبصير، أم هل تستوى الظلمات والنور إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور.

الحكم .. الحكيم .. أحكم الحاكمين

وضعت الألفاظ فى اللغة للدلالة على المحسات قبل الدلالة على المعقولات.

فوضع الفعل (عقل) مثلا للدلالة على عقل البعير أى شد وظيفة إلى ذراعه لمنعه من التفلـــت والشرود، قبل أن يوضع للدلالة على عقل العلوم والمعارف أى إمساكها فى الذهـــن ومـــنعها من التفرق. تشبيها بعقل البعير، ووضع الفعل (حكم) أو (أحكم) للدلالة على وضع الحكمة - بفتح الحاء - للجام الفرس، لمنعه من الجماح قبل وضعه للدلالة على الحكم بضم الحاء وضبط الأمور.

وكذلك وضعت الألفاظ للدلالة على المعانى المعروفة بين الناس قبل وضعها للمعانى الخاصـــة بالحكيم العليم سبحانه. فلما أراد رب العزة تبارك اسمه أن يخبر الناس بأسمائه وصفاته خاطبهم باللغة التى يفهمونها، وإن كانت المعانى الخاصة به سبحانه لا تستطيع لغـــات البشـــر كافة أن تعبر عنها تعبيراً يجلى كامل حقيقتها؛ إذ ليس فى وسع أذهان البشر أن تدرك كنهها. أو تحيط بغيبها.

الحكم - بضم الحاء - فى الأصل معناه المنع من أجل الإصلاح، مأخوذ من حكمة الدابـــة التى تذللها لراكبها وتمنعها من الشموس. تقول: أحكمت الشىء إذا ما أتقنت صنعه منعته مما يعيبه، وجعلته صالحا لما يراد به.

ومـــنه قولـــه تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هـــود١]. أى أتقنـــت كل الإتقان، ومنعت مما يعيبها، مما ينافى الفصاحة والبلاغة، أنزلـــت للإعجـــاز، والهداية والإرشاد، وإقامة الحجة، والدلالة على أنها تتريـــل من حكيم حميد.

واسمه تعالى « الحكيم « يكون بمعنى الحاكم الذى يحكم الناس ويمنعهم من الفساد، لأنه تعالى أنزل شرائع بها يحكم الناس ويمنع عدوان بعضهم على بعض، وأرسل الأنبياء لينفذوا هذه الشرائع، وإذا نفذت هذه الشرائع وخضع الناس لأحكامها امتنعت المفاسد والشرور، وصلحت الأمور، وضبطت شرة الأنفس، وسلم الناس من الخضوع لسلطانها ونزواتها، وخضعوا لحكم الله وحده، فسعدوا فى ظلال حكم الله أحكم الحاكمين، وصينت الحقوق، وحقنت الدماء، وقدست الحرمات، وسلمت الأعراض والأموال وقبضت الألسنة والأيدى على السوء، وصار الناس فى حكم الحكيم إخوانا.

وإما أن يكون بمعنى الحاكم الذى يقضى بين الناس، ويعطى كل ذى حق حقه، فانه سبحانه قد حكم بين الناس فى الدنيا. وأوضح فى كتبه المنزلة حق كل ذى حق، وأمر عباده إذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل، وأن يؤدوا الأمانات إلى أهلها. وبين حقوق المجاهدين فى الأنفال والمغانم، وحق كل وارث فى تركة الموروث، وحقوق الوالد على الولد، وحقوق الزوجين بعضهما على بعض، وحقوق الراعى والرعية على بعضهما، وأمر نبيه الكريم أن ينفذ أحكامه فقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء١٠٥].

وسيحكم بين الناس فى الآخرة، ويعطى كل امرئ ما يستحق، ويقضى بالجنة ونعيمها للمؤمنين الذين أخلصوا له دينهم، وبالنار وما فيها من عذاب على المشركين الظالمين الظانين بالله ظن السوء ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِى النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ [غافر٤٧].

وإما أن يكون بمعنى المحكم الذى أتقن صنعه. ومنعه ما يعيبه، وجعله صالحاً لما يراد به، فربنا سبحانه أحسن كل شئ خلقه، وأتقن كل شئ صنعه، وأوجد كل شئ على أدق نظام وأحكم إتقان، خلق فسوى، وقدر فهدى، وخلق الإنسان فى أحسن تقويم، خلق سبع سموات طباقاً ما ترى فى خلقه من تفاوت. فأرجع البصر، هل ترى من فطور؟ ثم أرجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير. زين السماء الدنيا بمصابيح، وجعلها رجوماً للشياطين، وأنبت من الأرض نباتاً يسقى بماء واحد، ويحيط به جواً واحد، وتغذوه تربة واحدة، ولكن منه الحلو اللذيذ السائغ، والمر الكريه الذى تتقزز منه النفوس. خلق من الماء كل شئ حى، ونوع الأحياء المتفقه فى أصلها أنواعاً لا يدركها حصر، ولا يحصيها عدد، وفى كل موضع إصبع من السماء والأرض

آية بينة شاهدة بأنه متقن لما صنعه، إتقاناً لا يبلغه أمهر المهرة، ولا أحذق الحاذقين، وحسبك آية أنه خلق الإنسان الذى ألهمه اختراع القاطرة، وابتكار الباخرة، وابتداع الطائرة، وصنع الغائصة، وعلمه البرق والمسرة، والحاكى والواحى، وتفجير الذرة، وغير ذلك من روائع الإبداع وعجائب الاختراعات، فسبحان ربنا، إنه هو الحكيم العليم.

وإما أن يكون بمعنى ذى الحكمة الذى يعلمه وحكمته بوضع الأشياء فى مواضعها، فقد وضع الحكيم العليم سبحانه كل شئ فى الموضع الذى لا يصلح إلا له، ولا يليق إلا به، ولو اجتمع علماء الدين وأطباؤها، وفلاسفتها ومهندسوها والحذاق من صناعها، والمهرة من أرباب الفنون على أن يضعوا شيئاً مما وضع الحكيم العليم سبحانه فى مكان خير من مكانه لضل سعيهم، وباءوا بصفة المغبون، وكانوا من الخاسرين.

فكر فى خلقك! هل تجد لعضو من أعضائك مكاناً خير من المكان الذى وضعه فيه أحسن الخالقين؟ وضع للحيوان فى البحر من الأعضاء ما يوائمه، وحيوان البر ما يناسبه، ولطير الهواء ما يلزمه، ولحشر الأرض ما تتم به حياته.

وليس فى الإمكان إحصاء مظاهر الحكمة فيما خلق الله، وإنما هى لفتة توجهك إلى اجتلاء روائعها فى السماء والأرض وما خلق الله من شئ.

وإما أن يكون من حكم على الشئ بأنه كذا أو ليس كذا، ولا يستطيع أحد أن يحكم على الأشياء بخواصها ومميزاتها، ومنافعها ومضارها، إلا رب العزة تعالى جده، لأنه وحده العليم بظواهرها وبواطنها ومزاياها ومثالبها، لأنه خالقها العليم بأسرارها الخبير بخفاياها، فحكمه عليها أصدق الحكم ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك١٤].

استمع إلى أحكامه الصادقة فى قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة٢١٩].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ

أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة٢٢١].

وقوله تعالى: ﴿وَلا تُؤْمِنُوا إِلا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران٧٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران١٩].

ذلك حكم الله الصادق الحق الصحيح المبرأ من كل خطأ، المتره عن كل شوب، هذا وقد ذكر هذا الاسم من أسماءه تعالى الحسنى فى القرآن الكريم فى ثمانية وثمانين موضع، منها ثلاثة وثلاثون جاء فيها مقارناً باسمه تعالى (العليم)، سابقاً له فى سبعة وعشرين منها، وتالياً له فى ستة.

وجاء فى ثمانية وأربعين موضعاً مقارناً لاسمه تعالى (العزيز) وسابقاً له فيها جميعاً. وجاء فى ثلاثة مواضع قبل اسمه تعالى الخبير، وورد مسبوقاً مرة باسمه تعالى (التواب) ومرة باسمه تعالى (العلى) ومرة باسمه تعالى (الواسع) وذكر مرة سابقاً لاسمه تعالى (الحميد).

والمتتبع لهذه المواضع، والمقدر للآيات الكريمة التى جاء فيها ذلك الاسم الكريم يدرك أنه حين يقارن اسمه تعالى (العليم) يكون معناه صاحب الحكمة التى تضع الأمور فى مواضعها. اذكر على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة٣١].

فهذا يدل على أن العليم الحكيم سبحانه لعلمه وحكمته يضع الأمور فى مواضعها أو يمنح خلقه من العلم ما يصلح له وما تمس إليه حاجتهم. فآدم وذريته محتاجون إلى مزاولة الفنون والصناعات ووضع فيهم من العلم ما يوائم حياتهم، والملائكة لا يحتاجون إلى شئ من ذلك فلم يأتهم علمه. سبحانه هو العليم الحكيم. وإذا تدبرت سائر الآيات. وغصت على حقائقها، وحاولت الوقوف على أسرارها وجدتها كذلك. فسبحان من أنزله كتاباً عربياً، وحكماً عربياً و فيه آيات لأولى الألباب.

وحين يقارن اسمه تعالى (العزيز) يشير إلى الحكم والسلطان والتصرف المطلق الذى لا حد له.

وأورد على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة١٢٩].

فهو يشير إلى أنه تعالى هو الحاكم المطلق الذى يتصرف فى ملكوته كيف يشاء ويحكم عباده كيف يريد، فيبعث إليهم النبيين الذين يعلموهم الشرائع ويحكموهم بها وينفذون فيهم أحكامه سبحانه، فما أبلغ كتابه! وما أروع بيانه!

وإذا تدبرت المواضع الأخرى سطع عليك منها نور يكشف لك حقائقها ويزيل الحجب عن أسرارها، فتعلم منها ما لم تكن تعلم.

هذا والمتدبر للمعانى المختلفة لهذا اللفظ لا يجدها على أتمها وأكملها، إلا إذا كان اسماً لرب العزة أحكم الحاكمين سبحانه. وهى فى غير اسمه تعالى منقوصه، بل هى ظلال ناصلة، وأخيلة زائلة، بالقياس إلى الحقائق العالية المتجلية فى صفاته سبحانه.

فمن غبن الرأى، وسفه النفس أن تلتمس الحكم أو الحكمة عند غير خير الحاكمين. ومن ترك حكم الله، وأبتغى حكم الطاغوت فقد ضل سواء السبيل.

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلا عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام١٦٤].

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة٥٠].

فلا حكم أحسن من حكم الله، ولا قضاء أعدل من قضائه.

إليه فليحتكم المحتكمون، وبقضائه فليرض المؤمنون!

وأما اسمه تعالى (الحكم) فهو بمعنى الحاكم، وهو أحد معانى الحكيم التى سبق الكلام فيها، غير أن بين الحاكم والحكم فرقاً من جهة موضوع الحكم فالحاكم يحكم ولو كره المحكومون، ولكن الحكم يحتكم إليه المختصمون عن رضا وطواعية، والمؤمنون يحتكمون إلى ربهم فيما شجر بينهم، ويردون الخلاف بينهم إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ويرضون بما يحكمان به لأنه حكم الله الذى لا يخفى عليه مقاطع الحق. قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى١٠].

أما نبذ كتاب الله وسنة الرسول وراء الظهور والاحتكام إلى الشيوخ، وأهواء الكــبراء، والكتب المصنفة، والقوانين الموضوعة التى وضعها غير المعصومين فليس من سمــات المؤمــنين. بل هو من الاحتكام إلى الطاغوت وقد أوجب الله تعالى الكفر به. ليتحقق الفلاح والسعادة والأمن.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا أَطيعُوا اللَّهَ وَأَطيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الأمْرِ منْكُمْ فَإنْ تَنَازَعْــتُمْ فِى شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء٥٩].

وممــا تذهب لــه نفوس المؤمنين حسرات أن من المسلمين من لا يزالون يحتكمون إلى العظــم الرميم، والرفات السحيق والأحداث الدارسة بعد أن سطع ضياء الحق فى كل مكان ووصلت صيحات المصلحين إلى جميع الآذان.

يختلف خصمان فى أمر من الأمور، فلا يحتكمان إلى المحاكم لإعواز الإثبات وخشية أن يضيع حقها شهداء الزور - كما يزعمون، ولا يرضى أحدهما من صاحبه أن يقسم لــه بالله تعالى، لأن الله - فى اعتقاده - حليم لا يعجل بالعقوبة ويأبى إلا أن يسوقه إلى طــاغوت مــن هذه الطواغيت المنصوبة على قبور الذاهبين لأنه - فيما يزعم - أسرع عقاباً، وأشد بطشاً وانتقاماً.

قــد يقــول قــائل: تتجنى على المسلمين، وإنما يفعل ذلك الجاهلات من النساء، والجــاهلون مــن الرجال. ولو أن القائل سلك خطة الإنصاف لعلم أن النساء نصف الأمــة وأن عــدد الرجال من الرجال يربو على ثلاثة أرباعهم ولسلم بأن الوثنية قد عــادت جذعه، وأصبح سلطانها قوياً على نفوس السواد الأعظم من المسلمين ﴿أَفَغَيْرَ اللَّــهِ أَبْــتَغِى حَكَمًــا وَهُوَ الَّذى أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلا وَالَّذينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام١١٤].

بل وليعلم أن غير هؤلاء وأولئك من الرجال والنساء مما يزعم نفسه فاهماً ومتديناً ديــن الحــق - هم كهؤلاء الذين يحسبهم جاهلين، لأنه عن عملهم وضلالهم راض، وعلى المنكرين عليهم يغضب، ولدعاة الهدى لهم يحارب، فماذا بعد هذا.

لــو آمن المسلمون بأن ربهم خير الحاكمين، وأحكم الحاكمين، لأنه وحده علام الغــيوب، المطلــع على الضمائر، العليم بالسرائر، الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصــدور، الذى لا يخدعه سحر البيان، ولا تصرفه عن القضاء بالحق ذلاقة اللسان -

ولــو آمــن المسلمون بكل هذا ما ابتغوا غير الله حكماً ولا رضوا بحكم أحد سواه، ولتركوا الرفات السحيق فى أرمامه، والعظام النخرة فى أجداثها، والكتب الصفراء فى مخابـئها، وبـين أيدى عبادها، وقوانين الناس الذين لا يؤمنون بالله ولا بشريعة الله. ولرجعوا إلى أحكم الحاكمين يتعلمون الحكمة من كتابه وسنة رسوله ويحتكمون إليها فيما شجر بينهم. إذاً لسعدوا فى الدنيا، وفازوا فى الآخرة فوزاً عظيماً وصدق ربنا إذ يقــول: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور٤٧]. صدق الله العظيم.

الإلــه

ليس من شك فى أن أول دين دانه البشر، كان وحياً أوحاه الخالق سبحانه إلى آدم أبى البشر عليه السلام، ثم تلقاه عنه أولاده وحفدته ومن بعدهم.

لم يصــل إلينا شىء مفصل من شريعة آدم، ولكننا نعلم مما أنبأنا به الله فى القرآن الكريم، أن الله أمره أن يسكن هو وزوجه الجنة ونهاهما أن يقربا الشجرة، وحذرهما من كيد الشيطان ﴿فَدَلاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَـيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف٢٢]. ونعلم أنهما أجابا قائلين: ﴿قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف٢٣].

ونعــلم أن رب العزة بعد ذلك قال لهما: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاى فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى﴾ [طه١٢٣].

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[طه١٢٤].

ولا يخامرنا شك فى أن من أخص قواعد هذه الشريعة توحيد الله تعالى، والاستقامة على الفضيلة والإيمان بالدار الآخرة.

ولا تساورنا خلجة من الريب فى أن الله تعالى علمهما فيما علمهما من الأسماء أن لــه تعالى اسماً يدعوانه به إذا هما دعواه أو ابتهلا إليه أو حمداه.

ومــن المؤكد أن هذا الاسم فى لغتهما التى كانا يتخذانها فى التخاطب والتعبير مما أكــنا فى أنفســهما يرادف فى لغتنا كلمة (الإله) لأن هذه الكلمة تدل على الألوهية

المجردة التى لا تصاحبها معان أخرى ﴿قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف٢٣].

هـــبط آدم وزوجه من الجنة، وكثر أبناؤهما وأحفادهما، وتفرقوا فى الأرض شعوبا وقبائل، واختلفت ألسنتهم وألوانهم، واحتوت كل لغة من لغاتهم على الكلمة المرادفة لكلمة ((إلـــه)).

والنسيان سريع إلى ذاكرة الإنسان، كما نسى أبوه آدم، فما أسرع ما ينسى، وما أسرع ما يستحوذ عليه جهل عميق، والجهل يبعث الخوف والفزع دائماً ، وما أسرع ما يخوفه الشيطان من قوى الطبيعة المروعة، وظواهر الوجود المفزعة التى لا يعرف لها سبباً.

والـــتى بثها الله فى الوجود فتنة وابتلاء للإنسان، كما قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِـــالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّـــبِعْ أَهْوَاءَهُـــمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِى مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِـــيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة٤٨]. والإيمان بوجود إله أمر مركوز فى طبائع البشر.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَـــا أَشْـــرَكَ آبَاؤُنَـــا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُـــونَ﴾ [الأعراف١٧٣].

فصـــار كـــلما روعـــه أمر أو أفزعه، و لم يعرف سبب ما فيه من بواعث الروعة والإفزاع سماه – بلغته – إلهاً، ثم قرب إليه ليستدفع ضره، ويستجلب خيره.

ولمح فى بعض الأشخاص قوة غير مألوفة، أو ذكاء خارقا، أو نفوذاً شخصياً فظن أن بهـــم قـــوة غيبية إلهية بزوا بها من سواهم، فعبدهم فى حياتهم، وأقام لهم التماثيل وعبدها بعد مماتهم.

ثم كانت الأمة العربية، وكان اللسان العربى، وكانت كلمة (إله) الدالة على المعبود الحق. ومس الأمة العربية جناح من الجهالة، فأشركت وأطلقت كلمة (إله) على كل مـــا أخـــافها وأفزعها، أو أدهشها وروعها، أو آنست مـــن جانبه قدرة على مالا

يقدر عليه سوادها الأعظم. ثم استعملتها استعمال النكرات لتدل على كل شىء يخشى ضره الخفى، أو يرجى نفعه الغيبى، وإن كانت فى الأصل أعرف المعارف، لأنها كانت لا تدل إلا على واحد لا شريك لــه.

ثم أرادت أن تمــيز الإله الحق الذى تعتقد أنه فى السماء، وأنه كبير الآلهة المسيطرة عــلى آلهــة الأرض فسمته (الله) بعد إضافة آل العهدية وحذف الهمزة تخفيفاً وأصبح لفــظ (الله) عندهم علم على الذات الواجب الوجود الخالق الرازق الذى يملك السمع والأبصار، ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويدبر الأمر، وأبقت كلمة إله لتدل عليه تعالى وعلى غيره مما يعبدون.

ومــا جرى فى الأمة العربية جرى فى غيرها من الأمم فى مشارق الأرض ومغاربها بغير اختلاف إلا فى اللفظ اللغوى الذى تسمى به الإله، وفى الشئ الذى اتخذ إلهاً.

ثم وضــعت كل أمه لآلهتها أسماء أخرى ميزت بها بعضها عن بعض، وكثرت آلهة المصــريين، وتعــددت آلهــة اليونان والرومان، واختلفت آلهة الفرس والهند والصين، وتنوعــت آلهــة العرب، وجرت على الألسنة فى هاتيك الديار هذه الأسماء: اللات، والعــزى، ومــناة، وهبل، وذو الخلصة، وبوذا وبرهما، وأهرمن وأفروديت وأبللون، وزفــس، وايــزيس وهوارس وأيزيريس وبتاح ورع وهاتور وأنويس، وغير ذلك من الأسماء التى سماها الجاهليون هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان.

والله تعــالى لا يــترك الناس سدى، ولا يدعهم هملا، بل يبعث إليهم من حين إلى حــين رسلا مبشرين ومنذرين، يدعوهم إلى عبادة الله الحق، ونبذ الآلهة الباطلة، وقد حدثنا القرآن المبين ببعض ما قالت الرسل لأممهم:

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّــى قَرِيــبٌ مُجِيــبٌ﴾ [هود٦١].

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَــلالٍ مُبِيــنٍ﴾ [الأنعام٧٤].

﴿قَــالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى الْحَيَاة أَنْ تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِــفًا لَنُحَرِّقَنَّــهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِى الْيَــمِّ نَسْــفاً﴾ [طه٩٧].

وكان بعض الأمة يستجيب لدعوة الرسول وبعضها يعرض، وقد مضت سنة الله إن كل أمة عتت عن أمر ربها ورسله يهلكها، إما بتسليط عذاب يبيدها، وإما بأمة أقوى منها تذهب بحريتها واستقلالها وتفنيها فيها.

وقد أخبرنا الله تعالى فى القرآن الكريم ببعض ما قالت الأمم المستجيبة لرسلها وما قالت الأمم العانية.

فما قالت الأمم التى استجابت لدعوة الحق:

﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السماوات والأرض لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف١٤].

﴿وَمَا لِى لا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس٢٢].

ومما أجاب به الجامدون المعاندون:

﴿ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح٢٣].

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء٦٨].

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِى آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود٥٣].

﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فى الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِى نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾[الأعراف١٢٧].

ثم كانت الرسالة الكبرى التى حطمت الأصنام تحطيما، وسحقت الأوثان سحقا، جاء الإسلام لينهض بالإنسانية من كبوتها، ويقيلها من عثرتها، ويسمو بها إلى أوج الكمال العقلى والعقدى، وأناف بها على بقاع تشرف منه على بطلان ما كانت تعتقد، وفساد ما كانت تدين، وعلمها أن هذا العالم بسمائه وأرضه، وسهوله وجباله، ووهاده ونجاده، وعامره وغامره، وشمسه وقمره، ونجومه وأفلاكه، وسلمه وحربه، وحبه وبغضه، وجماله وقبحه، وخصبه وجدبه، ليس له إلا إله واحد هو المتصرف وحده فى جميع شئونه وأطواره، فثل عروش آلهة الشمس والقمر والنجوم، ورض صوالجة آلهة الحب والبغض، والسلم والحرب، وداس تيجان آلهة البحار والأنهار والغيوم والأمطار.

أمر ألا توجه العبادة إلا إلى الله الواحد القهار. وأخبر أن كل شيء سواه سمى إلهاً فهــو باطل، وإطلاق هذا الاسم على غير الله تعالى، شرك ينحدر بالإنسانية من أفقها السامى إلى الحضيض الأوهد ويجعلها كالأنعام بل أضل سبيلا.

وإلــيك بعــض مــا جاء فى القرآن الكريم رداً على هؤلاء الذين يؤلهون الأباطيل ويتخذون آلهة دون الله.

﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَى الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لــه مَا فِى السماوات وَمَا فــى الأَرْضِ مَــنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِه يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحــيطُونَ بِشَــيْءٍ مِنْ عِلْمِه إِلا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السماوات والأرض وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِى الْعَظِيم﴾ [البقرة٢٥٥].

﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيم﴾ [البقرة١٦٣].

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَى أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة١٠٨].

﴿قُــلْ أَى شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِى إِلَى هَذَا الْقُرْآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِه وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّه آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام١٩].

﴿شَــهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران١٨].

﴿ذَلِكُــمُ اللَّــهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام١٠٢].

﴿وَمَــا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُــدُون﴾ [الأنبياء٢٥].

﴿وَاتَّخَــذُوا مِنْ دُونِه آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُوراً﴾ [الفرقان٣].

﴿قُــلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَى أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّه فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّه أَحَداً﴾[الكهف١١٠].

﴿وَاسْــأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف٤٥].

﴿مَـا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَد وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَه إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَه بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَـانَ اللَّه عَمَّا يَصفُـونَ﴾ [المؤمنون٩١].

﴿وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّه إِلَهًا آخَرَ إِنِّى لَكُمْ منْهُ نَذيرٌ مُبينٌ﴾ [الذاريات٥١].

﴿لَـوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّه رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُـونَ﴾ [الأنبياء٢٢].

﴿أَم اتَّخَـذُوا منْ دُونه آلهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذكْرُ مَنْ مَعِى وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء٢٤].

ونفى سبحانه الألوهية عن الملائكة المقربين فقال تعالى:

﴿وَمَـنْ يَقُلْ منْهُمْ إِنِّى إِلَهٌ مِنْ دُونِه فَذَلِكَ نَجْزِيه جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء٢٩].

وحدثنا سبحانه فى كتابه الحق عما لقى به مشركـو العرب محمداً (ﷺ)، وما لقى منهم من خصومة ولدد من أجل تعلقهم بآلهتهم، فقال تعالى: ﴿وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص٦].

وقـال تعـالى: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِى يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [الأنبياء٣٦].

هـذا وأظنك بعد استيعاب ما عرضته عليك فى حاجة إلى أن أورد عليك ما قاله أسـاطين اللغة فى اشتقاق هذا الاسم الكريم الذى كان خاصا برب العزة، وقد أطلقه الجاهلون على غيره سفها بغير علم، فضلوا وما كانوا مهتدين.

اختلف أعلام اللغة فى اشتقاق هذا الاسم الجليل، ولكل وجهة دفعته الى أن يقول ما قال.

فقـال فـريق: إن اشتقاق هذا الاسم من إله يأله أى عبد فالإله بمعنى المعبود ومنه قولـه تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَـاءِ إِلَهٌ وَفِى الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِـيمُ الْعَلِيـمُ﴾ [الزخرف٨٤]. أى هو المعبود فى السماء والأرض.

ولعـل هذا القول أقرب الأقوال الى الصواب، وأدناها من الحق، وأحقها بالقبول، ومنه شعار الإسلام لا اله إلا الله، أى لا مستحق للعبادة إلا الله.

وقـيل: إن اشـتقاقه من إله يأله إذا تحير، لأن العبد إذا تفكر فى صفاته تحير فيها، ولذلك ورد: تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا.

والحق إن الناس لو صرفوا همهم الى التفكير فى آلاء الله وفيما خلق الله فى السماء والأرض، وتصوروا عظم هذا العالم، وتنوع أصناف الخلق، وكثرة عدده لأخذهم الحيرة، وملكت الدهشة قلوبهم وأفكارهم، وما أله الناس بعض المخلوقين إلا لأنهم وجدوا فيهم ناحية من النواحى راعتهم وأدهشتهم فتحيروا فى أصلها وجهلوا سرها فألهوا صاحبها.

وقيل: إن أصله ولاء فقلبت الواو همزه لأن كل مخلوق واله نحوه إما بالتسخير فقط كالجماد والنبات والحيوان والكفار وإما بالتسخير والإرادة كالملائكة ومؤمنى الإنس والجن. ومن هنا قال بعض الحكماء: الله محبوب الأشياء جميعاً! وقد دل عليه قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السماوات السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء٤٤].

وقوله تعالى: ﴿تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِى السماوات وَمَنْ فِى الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج١٨].

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِى السماوات والأرض طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد١٥].

وقيل من أَلِهَ إليه أى فزع ولاذ. أو من أَلَهَهُ أى أجاره وأمنه.

وقيل: من لاه يلوه إذا احتجب. لأن الله تعالى: لا تدركه الأبصار وهو المشار إليه بقوله تعالى: وهو الظاهر والباطن.

وقيل غير ذلك، فرأينا الاقتصار على أهم الأقوال وأدناها إلى الصواب. وكان حقه ألا يجمع ولكن فساد الاعتقاد سول للأمم أن يجمعوه لاعتقادهم أن هناك آلهة أخرى.

ومضى العرب فى جاهليتهم على ذلك حتى جاء فى لغتهم مجموعاً كما جاء فى اللغات الأخرى.

ثبت إذاً من كل ما تقدم انه لا اله إلا الله. وأن كلمة اله لا يصح أن يسمى بها إلا الله وحده. وإطلاقها على غيره كفر وجهل وضلال وإسفاف. وإهدار لكرامة الإنسان وإلغاء لعقله.

- فما معنى هذا الاسم الجليل بعد كل ما ذكر؟

معناه ذو القوة الغيبية التى وراء الأسباب الطبيعية، والتى بها يملك النفع والضرر، والتى من اجلها يعبده العباد ويدعونه خوفاً وطمعاً، لأن قدرته تدهشهم وتحير عقولهم، وتدفعهم إلى أن يفزعوا إليه إن مسهم مكروه ليدفعه عنهم، والى أن يضرعوا إليه إن فاهم خير ليرده إليهم.

وإنما وصلنا إلى هذا المعنى بالجمع بين النصوص التى سبق إيرادها لأن كلا منها جدير بالاعتبار.

هذا. وأظنك بعد الوقوف على المعنى الجامع الدقيق لهذه الكلمة وعلى تطورها ونشأتها توافقنى على أن الإنسان الذى يعتقد فى أى مخلوق أن له قوة غيبيه يسمع بها الداعى من مكان بعيد، أو يعلم أنه حاجة إلى عونه وإمداده فيناديه ويناجيه ويضرع إليه، أو يعلم أنه فى حاجه إلى عونه وإمداده فيناديه ويناجيه ويضرع إليه، ويفزع إلى عونه، ويرجو خيره، ويخشى ضره.

الذى يعتقد ذلك مشركاً شركاً يخرجه عن الملة الحنيف السمحة المبنية على التوحيد الخالص، لأن الأوصاف المذكورة لا تكون إلا للإله الواحد وهو الله رب العالمين.

- ولعلك بعد ذلك تدرك السر فى أن الشارع الحكيم جعل شعار الاسلام هذه الكلمه الطيبه: لا اله الا الله.

ذلك بان شرك المشركين قاطبة ما نشأ إلا من اتخاذهم آلهة مع الله أو من دون الله يخلعون عليهم الأوصاف السابقة الخاصة برب العزة سبحانه.

ومهما تكن الأسماء التى يطلقونها على الأشياء المتخذة مادام الاعتقاد فيها أنها تملك القوى الغيبية من العلم والقدرة والعون والنجدة والضر والنفع بغير الأسباب الطبيعية الممنوحة لسائر البشر فان اتخاذها و الالتجاء إليها ودعاءها والنذر لها شرك صراح فالعبرة للمقاصد والمعانى لا للألفاظ والمبانى.

ولو أتيح لك أن ترى منظرا مما سجلته يد التاريخ القديم على الأحجار والصخور والمقابر والمعابد يصور ما كان يفعله المصريون وغيرهم فى أيام جاهليتهم أمام آلهتهم لم تدرك أى فرق بينه وبين ما يفعله المسلمون الآن أمام أوليائهم إلا فرقا واحداً هو أن آلهة القدامى كانت متقنه الصنع، جيدة النحت، فيها براعة الرسم ودقة التصوير. أما

أولـــياء الحاضر الذين يعتقد فيهم أحبابهم ما كان يعتقد القدامى فى آلهتهم فان تماثيلهم خاليه من أثر للفن، ومن دقة التصوير وبراعة الصناعة.

- ولاشـــك فى أن الذى يعلم علم اليقين أنه لا اله إلا الله، وأن إلهه واحد فلا اله إلا هـــو لا يجعل فى قلبه مكاناً لغيره تعالى، ولا يسمح لمشاعره وعواطفه أن تتجه بأى لـــون مـــن ألوان العبادة أو الاستعانة أو الخوف أو الرجاء إلى غير إلهه الحق ذى العزة والجلال.

إن الإســـلام مـــبنى عـــلى توحيد الألوهية، لأن المشركين كانوا يعتقدون فى رب الأربـــاب ولكنهم يعتقدون فى آلهة أخرى، فجعل الإسلام شعاره (لا اله إلا الله) هذه الكـــلمة الطيـــبة المشـــعرة بنفى كل شئ يتوهم فيه أية صفة من الصفات التى استأثر بالاتصاف بها إله الخلق الذى ليس كمثله شئ.

هذا ولو أطلقت للقلم العنان لم يقف عند حد، لأن الكلام فى هذا الاسم الجليل لا تستوعبه هذه الصفحات القليلة التى خصصتها (الهدى النبوى) لهذا الحديث.

وأرانى قد جرت على حق غيرى من كتاب هذه المجلة فأستميحهم عفواً. وأستميح القراء صفحاً عن التقصير فى إيفاء هذا الاسم الجليل حقه فى البحث، وفى النفس معان تزدحم على القلم، ولا سبيل الى الإفصاح عنها. وأسأل إله الناس أن يوفقنا لأداء حق هذا الاسم بإخلاص العمل، وصدق النية والله ولى التوفيق.

اللطيـف

قال الفيروزآبادى فى القاموس المحيط: لطف كعنصر لطفاً رفق ودنا، ولطف الله لك أوصل إليك مراده بلطف. واللطيف البر بعباده، المحسن الى خلقه بإيصال المنافع إليهم برفق ولطف. أو العالم بخفايا الأمور ودقائقها واللطف من الله تعالى التوفيق...

وقـــال صـــاحب الأساس: شئ لطيف ليس بجاف، ولطفت بفلان رفقت به، وأنا الطـــف به إذا أريته مودةً ولطفاً فى المعاملة، ولطيف بهذا الأمر رفيق بمداراته، وألطفه بكذا أتحفه به وبره وأهدى إليه.

وقـــال الراغب: اللطيف إذا وصف به الجسم فضد الجثل وهو الثقيل. يقال: شعر جثل أى كثير. ويعبر باللطافة واللطف عن الحركة الخفيفة وعن تعاطى الأمور الدقيقة.

وقـــد يعبر باللطائف عما لا تدركه الحاسة. ويصح أن يكون وصف الله تعالى به عـــلى هـــذا الوجـــه، وأن يكون لمعرفته بدقائق الأمور، وأن يكون لرفقه بالعباد فى

هدايتهم. قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف١٠٠].

أى يحسن الاستخراج تنبيهاً على ما أوصل إليه يوسف حين ألقاه إخوته فى الجب...

وقال ابن الأثير: فى أسمائه تعالى اللطيف وهو الذى اجتمع له الرفق فى العقل، والعلم بدقائق المصالح، وإيصالها إلى من قدرها له من خلقه. يقال: لطف به وله (بالفتح) يلطف لطفاً إذا رفق...

تتلخص أقوال هؤلاء الأعلام من أئمة اللغة فى أن اللطيف أربعة معان:

أولها - الذى يوصل المراد بلطف ورفق.

الثانى - الرفيق بالعباد، البر بهم، المحسن اليهم.

الثالث - العالم بخفايا الأمور ودقائقها.

الرابع - الذى لا يرى.

وكل هذه المعانى يصح أن يكون مراداً بهذا الاسم الأحسن.

فإذا أردنا المعنى الأول وهو الذى يوصل المراد بلطف وجدنا له من الأمثلة فيما يحيط بها من دلائل لطفه تعالى مالا يدركه العد، ولا يقع تحت حصر.

فكم من مرة احسنا فى أنفسنا، وشاهدنا فيمن حولنا أن الله تعالى يمضى فينا إرادته، وينفذ مشيئته من حيث لا نقدر ولا نحتسب، فقد تصح إرادة العبد على النهوض بعمل من الأعمال، ويعد له عدته، ويهيئ له من أسباب تمامه مالا يشك معه فى انه ظافر بما أمل، مدرك لما قصد، ولكن سرعان ما يبدل الله إرادة العبد، ويحول بينه وبين قلبه، ويصرفه بلطف عن تنفيذ ما كان يريد تنفيذه لتنفيذ إرادة اللطيف الخبير الذى يريد لعباده اليسر ولا يريد بهم العسر. فالله تعالى قد يصرف إرادة العبد عن شئ يرتجيه وقد يكون شراً له إلى شئ يكرهه وقد يكون خيراً له، ويوصل إليه الخير الذى يريده له بلطفه ورفقه من حيث لا يدرى.

أراد بعضهم أن يسافر ذات لأمر ذى بال، فأعد للسفر عدته، وجهز حقائب سفره واستوى على العربة التى توصله الى المحطة. ولكن حدث فى الطريق ما عوقه

القطـــار، فغضب أشد الغضب، وضاقت عليه الأرض بما رحبت. ولما علم أن القطار الذى فاته قد احترق أدرك لطف الله تعالى فى تعويقه، وأيقن أن اللطيف الخبير سبحانه لم يحل بينه وبين إدراك القطار إلا لأنه أراد أن يبقى على حياته إلى أجل مسمى.

فانظـــر كيف كان الله تعالى لطيفاً بعبده إذ وصل إليه الخير الذى كان يريده لـــه بلطف من حيث لا يشعر!

هـــل يملك هذا النوع من اللطف أحد إلا اللطيف الخبير سبحانه الذى يوصل الى عبده لطفه من حيث لا يدرى ولا يحتسب؟

هـــل يملك هذا النوع من اللطف الأولياء الذين فتن الناس بعبادتهم، والتوسل بهم، والاستعانة بأسرارهم، والاستعانة بطول باعهم. وهم لا يملكون شيئاً ويضرعون الى الله أن يلطـــف بهـــم أن كـــانوا أحياء يرزقون يملكون الضراعة والابتهال أما الموتى فقد تقطعت بهم الأسباب وانقطع ما كانوا يعملون.

أمـــا لـــو كـــانوا يملكون ذلك اللطف لدفعوا عن أنفسهم ما أصابهم من مكروه، ولدرءوا عن أنفسهم الموت أو ما دون الموت من الأحداث التى أصابتهم من حيث لا يملكون لها دفعاً.

لقد اغتيل عمر وعثمان وعلى، وقتل الحسين بن على، فما استطاع أحد منهم أن يلطف بنفسه، ويدرأ عنها هذا المصاب الجلل وما استطاع أحد من أحبابهم الأولياء أن يردوا عنهم سهام القدر.

إذاً فهـــذا اللطف من خصائص رب العزة سبحانه لا يلتمس عند سواه ولا يطلب من غيره. وأخيب الناس سهماً، من طلب اللطف من غير مولاه، أو استعان فى الظفر بـــالخير ودفع الشر بسوى اللطيف الخبير الذى بيده الملك، وله الخلق والأمر سبحانه وتعالى عما يصفون.

وإذا أردنا المعنى الثانى وهو الرفيق بالعباد، البر بهم، المحسن إليهم، وجدنا آيات هذا اللطـــف تتجلى فى كل مكان وتظهر فى كل قيد شعرة فى الإنسان وفى كل قيد إصبع فى السماء والأرض.

ألـــيس من آيات الرفق بالعباد والبر بهم والإحسان إليهم أن خلق لهم ما فى الأرض جميعاً، ولم يجعل الإنسان خليفة فى الأرض إلا بعد أن أعد له فيها كل ما يقوم بحياته،

وجعل له ولذريته فيها معايش يستجدون منها أرزاقهم، ويستعينون بها على حفظ ذواتهم وبقاء حياتهم الى الأجل المكتوب.

أليس من لطف الله تعالى بعباده أن خلق لهم الأنعام ليكون لهم فيها دفء ومنافع و طعام وشراب، ولتحمل أثقالهم الى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، وأنزل لهم من السماء ماء لهم منه شراب ومنه شجر فيه يسيمون، ينبت لهم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات، وسخر لهم البحر ليأكلوا منه لحماً طرياً، ويستخرجوا منه حلية يلبسونها، وتمخر فيه الفلك مشحونة بالمنافع والخيرات؟

أليس من لطف الله تعالى بعباده أن رزق الأجنة فى بطون أمهاتها، ونقلها فى أطوارها ثم أخرجها الى فسحة الحياة بلطف مع ضيق المخارج، وحرج المسالك، ثم هيأ لها من رحمة الأمهات ما يحوطها بالبر ويدرأ عنها كل ضير؟

أليس من لطف الله اللطيف الخبير سبحانه أن يسر لكل كائن حى رزقه، وهيأه للسعى إليه، ومكنه من الحصول عليه، فهذه الطيور تغدو خماصاً وتروح بطاناً، وليس لها زرع ولا ضرع، ولا مهنة ولا حرفة، وإنما هو لطف اللطيف سبحانه أعد لها أسباب العيش، وهيأ لها مواد الحياة. فطير السماء، وسمك الماء، ووحش الفلاة، وحشر الأرض أعدت لها أرزاقها قبل أن تدب الحياة أبدانها ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام٣٨].

ومن آيات لطف الله بعباده أن جعل لهم السمع والبصر والأفئدة ليستعينوا بها فى تدبير أمورهم وجلب أرزاقهم، ودفع ما يؤذيهم، ولو خلقهم عمياً وبكماً وصماً ما وجدوا الى الحياة سبيلا، ولتعرضوا فى كل نفس الى خطر الهلاك، فسبحان اللطيف الخبير الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى. ولم يدع شيئاً مما تدب فيه الحياة مهما يكن إلا لطف به، ومنحه من المشاعر والحواس والأعضاء ما يحفظ عليه الحياة.

أليس من أوضح الآيات الدالة على لطف الله أن جعل للإنسان بعد أن يسر له رزقه - أسنانا وأنيابا وأضراسا تقطع غذاءه وتمزقه وتمضغه، ولعابا ييسر هذا المضغ وبلعوما ينقل الغذاء من الفم الى المرئ الذى يوصله الى المعدة التى تهضمه بعصارتها المتنوعة، وجعل له أمعاء دقاقاً يصل فيها الطعام الى منتهى هضمه ويصير مادة قابلة لأن تمتصها الأوعية الدموية التى توصلها الى الكبد لتنقيها مما بها من المواد المؤذية، وتمنحها ما

ينقصــها مــن العناصر وتختزن الزائد على حاجة الجسم منها، وجعل الدم يخرج من الكـبد إلى الرئـتين حيث يتلقى من هواء الشهيق الحرارة والنقاء، ثم يمضى قدماً الى القلـب حيث يدفعه بنبضاته فى مختلف الشرايين التى توصله الى مختلف أعضاء الجسم وخلايــاه فيســتحيل الى سمــع وبصر وشم وذوق ولمس وقوة وفهم وتخيل وذكر، وعواطــف ومشــاعر وأحاسيس. ثم جعل لــه وسائل لإخراج العناصر الفاسدة من الغازات والسوائل والجوامد حتى لا تعرض الجسم للخطر الذى يحرمه الحياة.

ولعلك تتصور حال الإنسان لو وجد الغذاء بين يديه ثم لم تكن لــه أجهزة الهضم والتمثيل و الإخراج فسبحان ربنا انه لطيف خبير!

هذا و لم أذكر من آيات لطف الله فى خلق الإنسان إلا أبرزها وأوضحها ولو رحت أعدد كل ما أعرف من آيات لطفه تعالى فى خلق الإنسان – على ما أنا عليه من جهل بالتشـريح – لضاقت صفحات الهدى النبوى الغراء فكيف لو عرض لها عالم وظائف الأعضاء بوسعها شرحاً وبياناً وتوضيحاً وفيما ذكرت على قلته غنية للمتوسمين.

ومــن آيــات لطفه تعالى بعباده انه لم يأخذهم على غرة، بل أنزل إليهم الكتب. وأرســل الرسل ليبصرهم بسبيل الرشد، ويهديهم الى صراط الحق ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الشورى٣٨].

ومــن شواهد لطفه انه عهد الى أزواج النبى (ﷺ) أن يعلمن نساء المؤمنين أحكام الديــن وأن يــبلغن ما يتلى فى بيوتهن من آيات الله والحكمة قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب٣٤].

هــذا والذى شرحت لك إنما هو صور من اللطف العام الذى يتولى الله به الأحياء عامةً والإنسان خاصةً. وهناك لطف خاص تولى به بعض المخلصين من عباده.

فمــن ذلــك لطفه بيوسف عليه السلام حين هيأ لــه من انتشله من الجب، ومن أوصــله الى بيت عزيز مصر يجد فيه طعاماً وشراباً وكساءً تليق بمن كان فى مثل حاله عليه السلام، ولطف به حين هيأ لـــه من يدافع عنه من أهل امرأة العزيز حين رمته بما رمته به ولطف به حين أخرجه من السجن وجاء بأهله من البدو بعد أن نزغ الشيطان بيـــنه وبين إخوته. ولطف به حين آتاه من الملك وعلمه من تأويل الأحاديث. وذلك

حيث يقول رب العزة سبحانه: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف ١٠٠].

ولطف بيونس عليه السلام حين نجاه من الغم وأخرجه من بطن الحوت وأنبت عليه شجرة من يقطين.

ولطف بنوح والمؤمنين حين أمره أن يصنع الفلك لينجيه من الغرق حين طغى الماء و لم يبق للنجاة موضع.

ولطف بإبراهيم حين ائتمر به قومه ليحرقوه فقال تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء٦٩].

ولطف بأيوب حين شكا إليه الضر فكشف ما به من ضر وآتاه أهله ومثلهم معهم رحمة منه وذكرى للعابدين.

الى غير ذلك من آيات لطفه الخاص بعباده المخلصين، التى تلوح لك واضحة جلية إذا أنت تلوت كتاب الله وحاولت أن تجتليها من بين سطوره النيرة.

وهذا النوع من لطف الله تعالى ليس لكائن فى الوجود غيره سبحانه، وقد جلوت عليك أسماء بعض الأنبياء الذين كانوا موضع لطفه تعالى. أفتظن بعد هذا أن الأولياء الذين فتن بهم الناس يملكون هذا اللطف أو يستطيعون أن يتولوا به أحداً من هؤلاء المفتونين بعبادتهم الذين يهتفون بأسمائهم فى القومة والقعدة والحركة والسكون؟

سبحانك ربى ما قدرك عبادك حق قدرك إذا هتفوا بأسماء خلقك والتمسوا عونهم فى الشدائد، وهم أعجز من أن يدفعوا عن أنفسهم شوكة قدرت أن تصيب بعض أناملهم، أو ذبابة تقذف جرثومة الرمد فى أعينهم، أو جرثومة الحمى فى طعامهم أو شرابهم.

وإذا أردنا المعنى الثالث وهو العالم بخفايا الأمور ودقائقها فى العالم كله بسمائه وأرضه وطيره ونباته، وسائله وجامده صفحات شاهدة بلطفه، فكلها من خلقه، ومن ثمرات علمه ولطفه، ولا جرم انه يعلم بواطنها وخفاياها، ودقائق تركيبها، وأسرار عناصرها.

ألم يعلم أسرار الأثير الذى ملأ به طباق العالم وجعله سارياً فى كل حمم، مالئاً لكل فراغ وإن كان العلماء لم يقفوا على هذه الأسرار إلا فى آخر الزمان: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر٢١].

ألم يعلم أسرار الذرة، وخفايا عناصرها، ونسب تركيبها، وعدد ما فى كل ذرة من (بروتونات وإلكترونات)؟

ألم يجعل عناصر ذرات المادة الواحدة تتشابه فى عدد (بروتوناتها) و (الكتروناتها) ويجعل العناصر تتنوع وتختلف! لاختلافها فى تركيب ذراتها.

وقد هدى الإنسان أخيرا لحكمة يعلمها، وسر قد يخفى الى وسائل تحطيم الذرة، وتسخير القوى المدخورة فى كيانها فسبحان من أعطى كل شئ خلقه ثم هدى.

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى الأَرْضِ وَلا فِى السَّمَاءِ﴾ [آل عمران٥].

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ﴾ [غافر١٩].

وبعد فهذا لطف اللطيف الخبير سبحانه فماذا يملك منه الأولياء؟ ماذا يعلمون من خفيات الأمور، وهى لله وحده؟

ماذا يعلمون من دقائق الأشياء وحقائق الوجود ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُور﴾ [لقمان١٩].

﴿يَا بُنَى إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى السماوات أَوْ فِى الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان١٦].

اللهم يا لطيف أسألك اللطف بعبادك، وتوفيقهم بلطفك الى معرفة الحق فى أمر عقائدهم حتى يعلموا أنه لا اله إلا الله وأن الغيب لك لا يعلمه نبى مرسل ولا ملك مقرب. فكيف بمن يجهلون عالم الشهادة؟ فكيف بمن يجهلون أنفسهم؟

اللهم إنك أنت وحدك اللطيف الخبير.

وإذا أردنا المعنى الأخير. وهو الذى لا يرى. والأمر أوضح من أن يحتاج الى برهان. فما زالت عيون البشر طامحة الى أن تجتلى سبحات وجهه الكريم، ولكنها لا تزال تنقلب الى أهلها خاشعة حسرى، فلا تزال الحجب حجب الأنوار دون وجهه

الكــريم مسدلة، وكيف يحيط الفانى بالباقى أو يدرك المخلوق حقيقة الخالق، أو يصل البصر المحدود الى واهب الأبصار.

لقــد قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة٥٥].

وطمحت نفس موسى الى اجتلاء الأنوار الإلهيه فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَــهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِى وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَــهُ فَسَوْفَ تَرَانِى فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف١٤٣].

وقد سئل أكرم الخلق صلى الله عليه وسلم: هل رأيت ربك؟

فقال: نور! أنى أراه وحجابه النور؟

وســأل مسروق عائشة رضى الله عنهما: هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد وقف شعرى مما قلت: أين أنت من ثلاث: من حدثكهن فقد كذب؟ من حدثك أن محمداً رأى ربــه فقد كذب ثم قرأت: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام١٠٣].

﴿وَمَــا كَــانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى٥١].

ومــن حدثك أنه يعلم ما فى غد فقد كذب ثم قرأت: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان٣٤].

ومن حدثك انه كتم فقد كذب ثم قرأت: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّــكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة٦٧].(رواه البخارى).

وأنت خبير بأن كل هذا فى الدنيا، وأما الآخرة فلها نظام غير هذا النظام .

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ(٢٢)إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة٢٣].

والآن وقد تبين لك أن هذه المعانى جميعها صحيحه، ويصح إطلاقها على رب العزة اللطــيف الخبير سبحانه فلا مانع فيما أرى من تضمين هذا اللفظ الكريم جميع المعانى الــتى جلوتهــا علــيك. وإذا ذكــرت ربك باسمه (اللطيف) فلا عليك أن تستحضر

هذه المعانى جميعا ليذكرك ربك بفضله ولطفه، وإحسانه وبره، ويلطف بك فى إيصال مراده من الخير إليك من حيث لا تشعر ولا تحتسب.

اللهم يا لطيف يا من لطفت بالأجنة فى بطون أمهاتها، ألطف بنا لطفاً تسعدنا فى دنيانا به للسعادة فى أخرانا. إنك لطيف خبير.

الخبير

الخبير: اسم من الأسماء الحسنى التى يدعى بها رب العزة سبحانه.

وللوقوف على حقيقة معناه ينبغى أن نلم بالمعاجم التى عرضت لتفسير هذه المادة. ففى النهاية لابن الأثير الخبير العالم بما كان وبما يكون، وخبرت الأمر عرفته على حقيقته.

وفى مفردات الراغب: الخبرة والعلم ببواطن الأمور، وفى القاموس المحيط الخبير: العالم بالأخبار: والعالم بالله تعالى. وقد ذكر هذا الاسم الجليل فى القرآن الكريم ٤٣ مره جاء فى ٣٧ منها مجرداً من (ال) وفى الباقى محلى بها وورد فى ٢٦ منها غير مقرون بغير من الأسماء الحسنى وفى٤ أخرى مقروناً باسمه تعالى (الحكيم) وفى ٥ مقرونا باسمه (اللطيف) وفى ٤ مقروناً باسمه تعالى (البصير) والذى يمكن استنباطه من نصوص المعاجم التى سبق الإيماء إليها أن معناه العليم ببواطن الأمور وحقائقها ما كان منها وما يكون، وما هو كائن، المحيط بأخبارها وأسرارها.

ومن لطفه تعالى بعباده ورحمته بهم أن أخبرهم أنه خبير بأعمالهم أى عليم ببواطنها، وبالنيات التى حركتها والمقاصد التى دفعت إليها ليصححوا أعمالهم ويجعلوا النوايا التى تصاحبها مرضية له تعالى، إن من الناس من لهم أعمال ظاهرها حسن مستقيم وباطنها قبيح بشع معوج، كالمنافقين والمرائين، وبائعى القرب والعبادات وأولئك الذين يصطنعون الحيل الشيطانية التى يسمونها - كذباً وزوراً - بالحيل الشرعية ليتوسلوا بها إلى إضاعة حق الله تعالى، أو اقتراف ما حرم، فأخبرهم سبحانه وتعالى أن من أخص صفات الألوهية: العلم بالنوايا والخبرة ببواطن الأمور حتى إذا أراد الشيطان أن يخدعهم عن أنفسهم، ويخيل إليهم أن الله لا يعلم كثيراً مما يعملون أو لا يدرى حقيقة ما يفعلون، استطاعوا أن يكونوا بنجوة من كيده وخداعه، وبمأمن من شراكه وأحابيله، وقد جلى لهم سبحانه حقيقة الأمر ليقنوا الحياء، ويجعلوا بواطن أمورهم مطابقة لظواهرها، ويربئوا بأنفسهم عن النفاق والرياء، ولا يحاولوا أن يخدعوا

ربهم وهو العليم بما تخفى صدورهم، ويجعلوا عبادتهم خالصه لـه وحده، لا يشاركه فـيها رغبة فى كسب مال، أو حرص على اقتناء عرض من أعراض الحياة الدنيا، فإن فعلوا ذلك فقد وقوا أنفسهم العقوبة التى ينال الله تعالى بها من يتلونون بشيء من تلك الرذائل الممقوتة.

وهـذا يفسـر لنا السر فى أن رب العزة سبحانه كلما نبه الناس فى آية من آيات القـرآن إلى وجوب عمل من الأعمال التى قد تكون فى الخفاء أو تحتاج إلى الإخلاص وتطهير النية، ذيل هذه الآية الكريمة بمثل قوله تعالى: (والله بما تعملون خبير) وقولـه (وكان الله بما تعملون خبيراً) وقولـه (إن الله كان عليما خبيراً).

وقولـه: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَى نَجْوَاكُمْ صَدَقَات فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَـيْكُمْ فَأَقِـيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المجادلة١٣].

قال تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَات فَنعمَّا هى وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة٢٧١].

قـال تعالى: ﴿وَالَّذينَ يُتَوَفَّوْنَ منْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهر وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِى أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوف وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة٢٣٤].

قـال تعالى: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذينَ يَبْخَلُونَ بمَا آتَاهُمْ اللَّهُ منْ فَضْله هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُـوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخلُوا به يَوْمَ الْقيَامَة وَللَّه ميرَاثُ السَّمَاوَات وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران١٨٠].

وقـال تعـالى: ﴿يَاأَيُّهَـا الَّذينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامينَ بالْقسْط شُهَدَاءَ للَّه وَلَوْ عَلَى أَنفُسكُمْ أَوْ الْوَالدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنيًّا أَوْ فَقيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبيرًا﴾ [النساء١٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلا تُنْفقُوا فِى سَبيلِ اللَّه وَللَّه ميرَاثُ السَّمَاوَات وَالأَرْضِ لا يَسْـتَوِى مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْح وَقَاتَلَ أُوْلَئكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنْ الَّذينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد١٠].

وإذا كـان الإنسـان لم يـؤت إلا قليلاً من العلم إذا أتقن صناعة من الصناعات اسـتطاع بالنظرة العابرة أن يميز الخبيث من الطيب، فاستطاع الحاذق أن يميز الذهب

الإبريز من الزائف. فكيف برب العزة الذى خلق الإنسان وخلق لـــه العقل الذى يدبر بـــه؛ والذهن الذى يجيله، والفكر الذى يهتدى به إلى غاياته، فلا جرم أنه العليم الخبير الذى يميز الأعمال بعضها من بعض، وإن تشابهت فى الظواهر. وتماثلت فى رأى العين، ويمـــيز الأقوال، وإن توافقت فى أجراسها واتحدت فى معانيها، وتشاركت فى وقعها فى الآذان؟.

يقف ألوف الألوف من المصلين فى كل وقت من أوقات الصلوات الخمس للصلاة، فينظر سبحانه إلى قلوبهم جميعاً كأنها قلب رجل واحد، ولا يخفى عليه ما يجول فى كل قلـــب، وما يهجس به كل خاطر، وما توسوس به كل نفس، يجازى كل مصل على قـــدر إخلاصه وقربه وإقباله على ربه، وخشوعه بين يديه وتبتله إليه فصلوات المصلين تكـــاد تكون متماثلة فى مظهرها الخارجى وحركاتها الظاهرة أما فى روحها، وصورها الباطنة فهى مختلفة أشد الاختلاف، متباينة أعظم التباين ولا يقدر هذا الاختلاف ولا يميز هذا التباين إلا العليم الخبير سبحانه.

وخـــير عـــلاج لمن يؤانس من جانب نفسه أعراض هذه الأمراض النفسية الخبيثة أمـــراض النفاق والرياء والاحتيال والشرك – أن يذكر اسمه تعالى: الخبير ويحمل معناه نصب عينيه، ومشهد قلبه، وأن يثابر مع ذلك، ما وسعته المثابرة، فإن فعل كان خليقاً أن تصـــح نفسه، ويبرأ قلبه وتزايله هذه العلل القاتلة للضمير، المميتة للوجدان، المحبطة للأعمال.

لا يـــزال الإنســـان مـــنذ فطـــره بارئ النسم يبحث عن خواص ما يحيط به من الكائـــنات، ولا يزال كل جيل يضيف ثمرات بحثه إلى معارف الجيل الذى سبقه ومع هـــذا لم يصل إلى معرفة أقل القليل من هذه الخواص، ولكن الخبير سبحانه محيط بهذه الخواص والمزايا جميعاً منذ أنشأ هذه الكائنات، ومن قبل أ ينشئها لأنه يراها على علم وخـــبرة، لتكون موضعا لهذه المزايا. ومستقرا لهذه الخواص يجلى هذه الخواص لوقتها، ويهـــدى الإنسان لكشفها فى الوقت الذى قدره بحكمته فسبحان العليم الخبير الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

فهـــو ســـبحانه خبير بخواص الذرة وإمكان تحطيمها وتفجيرها، وما يتمخض عن ذلك من قوى مدمرة، أو نافعة، هو خبير بذلك من قبل أن يخلق السماوات والأرض، و هـــو خبير بالوقت الذى قدر أن يمنح البشر فيه العلم بذلك فلما جاء الوقت المحدد

ووافى الأجل المسمى هدى البشر إلى هذا السر، الذى ظل مطويا طوال هذه الأجيال ليترتب على كشفه ما قضى الله أزلاً أن يترتب عليه فى آخر الزمان.

وكان سبحانه خبيرا بأسرار الكهرباء والمغناطيسية من قبل أن يخلق الزمان والمكان، ولما أراد أن يغير وجه العالم كشف الحجاب عن هذه الخفايا، وأماط اللثام عن تلك الأسرار، ليظهر سيطرة الإنسان على ما حوله من الكائنات وليهيئ له وسائل للعيش خير من وسائل أسلافه، وليحقق ناموس الترقى الذى أخضع له سائر الموجودات.

وكان سبحانه خبيرا بطرق الوقاية والمناعة من الأمراض من قبل أن يخلق الجراثيم الفتاكة التى تفتك ببنى الإنسان، وتخلى منهم رقاعاً واسعة من الأرض، ليفيض الخير، وتزيد ثمرات الأرض على حاجة الناس، ليحرقوا العفو منها قربانا لله. فلما أراد العليم سبحانه أن يخرج الإنسان من حياة الدعة و الخمول إلى حياة الجد والكفاح والتنافس وتنازع البقاء هداه إلى الوسائل التى يتغلب بها على الرصد، ويقضى على الوباء، ويفتك بالجراثيم ليزدحم الناس على رقعة الأرض ويعمل كل منهم أن يكسب مادة عيشه بين هذه الجموع المتنافسة بعد أن كان وادعاً يأتيه رزقه رغداً من كل مكان.

وهو سبحانه خبير بأسرار الأصوات وأمواجها وترددها قبل أن يهدى الإنسان إلى تسجيلها على أقراص من الشمع تدور تحت إبرة تتصل بجهاز خاص فينبعث الصوت، كما انبعث من صاحبه يوم تسجيله، وهو خبير بأسرار الأمواج الضوئية وإمكان تحويلها إلى أمواج صوتية على شريط الخيالة فتسمع أصوات المتكلمين حتى بعد أن يرتحلوا من هذا العالم الفانى إلى العالم الباقى. وإنما هدى الناس إلى معرفة ذلك فى الأجل الذى اقتضت فيه حكمته أن يزيل الأستار عن هذه الأسرار.

وهو خبير بأسرار الإشعاع والأشعة والعجائب التى تحدثها فى هذا الوجود فالراديو وأسراره، والرادار وعجائبه؛ والتليفزيون وروائعه وغيرها من روائع الاختراع، وبدائع الابتكار مما كان الله به عليما خبيرا قبل أن يذرأ الأشعة، ويخرجها إلى هذا الوجود، ولكنه ادخر كشف أسرارها وهداية الإنسان إلى مزاياها إلى الأجل الذى قدره فى الأزل السحيق.

والإنسان مستمتع بحواس وأعضاء تؤدى وظائف، وتحقق منافع وأغراضاً، فهو ينتفع بهذه الوظائف، ولكنه لا يدرى كيف تؤدى؟لا يدرى كيف يسمع ولا كيف

يبصر، ولا كيف يدرك الروائح والملامس والطعوم؟ولكن الله خبير بكل ذلك لأنه هو الذى خلق المشاعر وأودعها مزاياها وضمنها أسرارها الخفية التى لا يدركها إلا هو.

وكرات دموية حمر وبيض، وغدد صم وإفرازات منوعة ما لو منحه الإنسان فضل تـأمل لملكـه العجب، واستحوذت عليه الدهشة. وأخذ عن نفسه وحسه، لروعة ما يدرك من آثار قدرة العليم الخبير.

ومن الأمراض ما لا يزال نطس الأطباء وحذاقهم عاجزين عن علاجها والطب لها، ولكن اللطيف الخبير سبحانه محيط بأسرار دوائها من قبل أن تسن الحمأة التى فطر منها الشر؟وسـيلهم الأطباء أو غير الأطباء كشف هذه الأسرار يوم تقتضى حكمته العالية إبرازها للوجود.

وكم فى الطبيعة من أسرار لا يزال البشر يجهلونها، ولكن الله تعالى خبير بها، محيط بدقائقها وروائعها، وسيجليها لوقتها يوم تقضى الحكمة بتجليتها ليمكن الإنسان من السـيطرة على قوى الطبيعة جميعاً، ويسخر لـه ما شاء تسخيره من أسرار الوجود، ويحقق قولـه تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُـمْ قَـادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس٢٤].

وهـو سبحانه الخبير بطبائع الأمم واستعدادها، ومن أجل ذلك يترل الشرائع التى توائـم مداركهـا وغرائزها وظروفها الاجتماعية والاقتصادية، كما أنه خبير بطبائع النفوس واستعداداها، فلا يكلف نفسا إلا وسعها، ولا يحملها ما لا طاقة لها به.

وهو خبير بما يصلح لهذا العالم من السنن والنواميس، فوضع منها ما لا يتم عمران هذا الكون إلا به، وجعله من الثبات والدوام بحيث لا يقبل تغييراً ولا تبديلاً ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [الفتح٢٣].

وبعد فهذا معنى اسمه تعالى الخبير، كما جلوته عليك، فهل تجد هذا المعنى على تمامه و كماله فى ملك مقرب أو نبى مرسل؟

وإذا كـان ربك هو الخبير بحق فهل تظنه فى حاجة إلى من يخبره بمصالح خلقه أو بأنهم فى حاجه إلى رحمته وعونه ولطفه وفضله؟

هـل هـو فى حاجـة إلى مـن يخبره بضعف عباده وحاجتهم إلى عنايته ورعايته؟فـلما يلجأ الناس إلى المخلوقين يستعينونهم، ويستغيثونهم، ويدعونهم من دون الله أو مع الله ويسألونهم أن يرفعوا إلى الله حاجتهم.

أهم أعلم أم الله؟ أهم أخبر أم اللطيف الخبير؟فقد ضلوا وما كانوا مهتدين.

جـاء فى القاموس المحيط أن الخبير هو العالم بالأخبار، وليس فى الوجود كله أعلم بأخـبار السـماوات والأرض والجن والإنس والملائكة من العليم الخبير سبحانه، فهو سبحانه عليم بالأخبار جميعا، ما علم الناس منها وما لم يعلموا، ما ذكر الناس منها و ما نسوا، مالا يزال ماثلاً للعيون وما صار فى عالم الغيب.

قـال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود٤٩].

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف١٠٢].

فهـو سبحانه خبير بالأنباء جميعاً محيط بالأخبار كلها. يطلع أنبياءه ورسله على ما يشـاء فتتجلى حكمته، وتنفذ مشيئته ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَـيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر٧٨].

ويقص على خلقه من أنباء ما قد سبق لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً ﴿لَقَدْ كَانَ فِـي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف١١١].

وفى القاموس المحيط: الخبير هو العالم بالله تعالى، وليس أعلم بالله من الله فإن كان العارفون يعرفون أسماءه وصفاته ومظاهر أسمائه وصفاته فهو سبحانه خبير بحقيقة ذاته، وأدق معـانى صفاته، وحقائق أسمائه، وقد وصف سبحانه نفسه بالصفات العلا، وهو أخـبر بنفسه من خلقه. فما على المخلوقين إلا أن يتقبلوا عن ربهم ما أخبرهم به من صفاته القدسية وأسمائه الحسنى، بغير تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل. فليس الناس بأعـلم بـالله مـن الله، ولا أحرص على تتريهه من نفسه، وقد رضى لنفسه سبحانه صـفات وأسمـاء، وقد أخبرنا بها لنصفه بصفاته، وندعوه بأسمائه، فلنكن شجعانا فى الحـق، صرحاء فى الاعتقاد، ولنصف ربنا سبحانه بما وصف به نفسه على مراده، مع

تنزيهه عن كل ما لا يليق بعظمته وجلاله. فهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير. وليس كمثله شيء وهو السميع البصير سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

العليم

هو المحيط علمه بكل الأشياء ظاهرها وباطنها، خفيها وجليها، على أتم الوجوه وأكمل الأحوال.

واشتقاقه من العلم، وهو بالقياس إلى المخلوقين الإدراك الجازم المطابق للواقع عن دليل.

فالشك والظن ليسا بعلم، لعدم الجزم واليقين. وإدراك الشئ على غير الحقيقة والواقع ليس بعلم لعدم مطابقته للواقع، والإدراك الجازم المطابق للواقع عن محاكاة وتقليد لا عن دليل وبرهان ليس بعلم كذلك لأن صاحبه لا يستطيع أن يأتى بالبرهان على صحته.

ونستطيع أن نقول: أن العلم هو إدراك الشئ بحقيقته، ولذلك الإدراك ضربان: أحدهما إدراك ذات الشئ، وهو الذى يعبر عنه أصحاب المنطق بالتصور كإدراك الساعة مثلا.

والثانى الحكم على الشئ بثبوت شئ له أو نفيه عنه ذلك ما يعبرون عنه بالتصديق كالحكم على الساعة بالجد أو نفى القدم عنها مثلا.

وهذا وعلم البشر نوعان: نظرى وعملى، فالنظرى يتم بمجرد الإحاطة به كالعلم بالشئ من موجودات هذا الكون.

والعملى لا يتم إلا بالممارسة العملية وهو الذى يعبر عنه بالفن كالموسيقى مثلا فالعلم بقواعد الانقسام وأوزانها وطريقة الإيقاع نظرى، والقدرة على إخراج أنغام مضبوطة موزونة بريئة من النشوز عملى أو فنى لا يتم إلا بالمزاولة العملية.

وللعلم تقسيم آخر من جهة أخرى، فهو سمعى وعقلى، فالسمعى ما يتلقى بالسماع غير أن يكون للعقل مجال فى الوصول إليه كالعلم بوجود الملائكة والجن وأحوال الآخرة. والعقلى ما يمكن الاهتداء إليه بالتفكير وإحالة الذهن كسائر القضايا العلمية.

ولــه تقسيم آخر من وجه ثالث. فهو قسمان كذلك بدهى ونظرى فالبدهى مالا يحتاج إلى استدلال والنظرى ما يحتاج إليه.

هــذا وما ذكرت هذه الأقسام كلها إلا لتعلم أن علم الله تعالى فوقها جميعاً، وأن هذه التقسيمات لا تلحق علمه سبحانه بل هو منزه عنها ومبرأ منها، فعلمه تعالى ذاتى لا ينشــأ مــن إحالــة فكر، ولا اضطراب حاسة، وهو محيط بجميع الأشياء ظاهرها وباطنها، دقيقها وجليها، حسيها ومعنويها على السواء.

وكل ما أنت راء فى هذا الوجود مجال ومظاهر لعلمه تعالى.

هذا النظام البديــع

هــذه الكواكب والنجوم التى تسبح فى أفلاكها بحركات منظمة أتم نظام وأروعه، بغير أن يصطدم ببعضها البعض، وبغير أن يسلك بعضها طريقاً غير الطريق الذى رسم لــه مع هذا التماسك بين المجموعات المختلفة من النجوم التى تجرى معاً بغير أن تتغير المســافات التى تفصلها فى رأى العين من لدن وضعها الله فى مواضعها من هذا الفضاء الهائل إلى أن تنكدر فى اليوم الموعود.

وهــذه الشــمس التى يبعث بها الضوء والحرارة إلى ما يدور حولها من الكواكب وتوابعها.

وهذه الأرض التى جعل فى أديمها المادة التى خلق منها الإنسان وما خلقه من أجله من الحيوان والنبات.

وهذا القمر الذى جعله مصباح السماء يضئ للسارى والمقيم.

وهــذه المصــابيح التى زين بها السماء الدنيا وجعلها رجوماً للشياطين ونثرها فى أكناف السماوات ليهتدى بها الناس فى ظلمات البر والبحر.

وهذا الحب يلقيه الزارع فى الأرض فيمتص كل نوع من أنواعه من عناصرها ما به قوامه ونماؤه، والتربة واحدة، والماء واحد، والهواء واحد.

وهذا الإنسان وهو العالم الأصغر، أقامه على قدمين، وجعل لــه يدين يبطش بهما، وأصــابع يتناول بها الدقيق من الأشياء، وجعل لــه أعصاباً للحس وأخرى للحركة والإرادة، فلا يريد شيئا إلا سرت الإرادة فى أعصاب الحركة فحركت العضو المراد فى أقــل من لمح البصر، وجعل لــه عقلاً يدبر به مصالحه ويدرك أمور معاشه ومعاده، وجعــل لــه السمع والبصر ليحصل بهما معارفه، وجعل لــه الأسنان والأنياب

والأضراس لقطع الطعام وتمزيقه ومضغه ليسهل على المعدة هضمه. وإن فى خلق الكبد لآية بينة على العلم الذى وسع كل شئ، فهى تمد المعدة بالصفراء التى تعين على هضم المواد الدهنية، والكبد تمسك السموم أن تنتشر فى الجسم فتؤذيه، وتختزن السكر الزائد عن حاجة الجسم لتمده به إذا تناول طعاماً يقل فيه المقدار اللازم لحاجته.

وإن فى القلب لآية هذه الحركة الدائمة بدوام الحياة، وهذا النبض الذى لا يسكن ليلاً ولا نهاراً ولا يقظة ولا مناماً بدون أن يخضع لإرادة الإنسان إذ لو خضع لها لمات الإنسان إذا نام وتعطلت إرادته.

وفى الرئتين اللتين تنقيان الهواء وتمسكان الأكسجين الذى يمنح الحرارة والحياة وتطردان الحامض الكربونى الذى فيه المضرة والهلاك.

وفى الدورة الدموية وعجائبها، وفى العين وعجيب تركيبها، وفى الأذن ودقيق تكوينها، وفى الجلد ومسامه، وفى الشعر والأظفار وإمدادهما بالقوة التامة وحرمانهما من الحس والشعور حتى إذا قص الشعر وقلمت الأظفار لا يشعر الإنسان بأقل ألم. وفى أجهزة التنقية كمسارب العرق، ومسالك البول وفى الأجهزة الجنسية وعجائبها ومراتب تكوينها وإحساسها ووظائفها..

كل هذه العجائب التى تراها فى نفسك وفى غيرها، وترى مثلها فى الحيوان كبيرة وصغيرة، آيات بينات على أن ربك بكل شئ عليم ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك١٤].

وما ذكرت لك إلا أمثله ونماذج تقيس عليها وتهتدى بها فى البحث والنظر والتأمل والتدبر، وأقل ذرة من ذرات هذا العالم سمائه وأرضه وجباله وبحاره وعامره وغامره تصلح وحدها موضوعاً لسفر ضخم! يوضح لك من عجائب علم الله ما تأخذك معه الدهشة والحيرة، وما يزيدك إيماناً ويقيناً وخشية من الله وحياء.

تصور ما فى السماوات وما فى الأرض من كائنات لا يحصرها العد واعلم أن ربك قد أحاط علماً بكل ذرة من ذراتها وعلم أقدارها وأحجامها وألوانها وعناصرها وتركيبها وخواصها وما فيها من نفع أو ضر وقد أشار إلى ذلك كله فى قوله تعالى فى سورة سبأ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَلا فِى الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ٣].

سبحانه قد استوى أمام علمه السر والعلن، والباطن والظاهر، والخفى والبادى وقد أحاط علماً بخطرات الأفكار، وخلجات النفوس، ومسارح الأمانى ومطارح الآمال يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.

ولقد استأثر سبحانه بعلم الغيب فلم يظهر عليه أحداً من خلقه إلا المرتضين من رسله أخبرهم بعض الغيوب لتكون أدلة على نبوتهم، وبراهين على صدق رسالتهم كما قال تعالى فى سورة الجن: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [الجن٢٦].

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِى مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران١٧٩].

وقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام٥٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَى أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان٣٤].

وإذا كان الغيب لله وحده فمن الجهل والحمق والسفه إتيان العرافين والعرافات والدجالين والدجالات وسؤالهم عما أضمر القدر فى صدره للسائلين والسائلات.

إذ لو كانوا يعلموا الغيب لاستكثروا من الخير وما احترفوا الدجل والاحتيال.

وإذا كان الرسول الأعظم (صلى الله عليه وسلم) لا يعلم الغيب فكيف يعلمه أولئك الدجالون.

والعجب للمسلمين الذين يقرؤن القرآن وهم عن معانيه غافلون.

ألم يتلوا قول الله تعالى مخاطباً نبيه الكريم: ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِى السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف١٨٨].

وتصديق العرافين من أوضح الدلائل على نقص العقل، وضعف الإدراك كما أنه آية على ضعف الدين.

ويقول صلى الله عليه وسلم: (من أتى عرافاً فسأله عن شئ فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوماً).

ويقول: (من صدق كاهناً أو عرافاً فقد كفر بما أنزل على محمد).

فانظر كيف يحرص الشارع الحكيم على عقول الناس ويحول بينهم وبين تعطيلها وإهدارها.

ويعجبنى هنا قول الشاعر:

لعمرى ما تدرى الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع

وقوله:

لا يعلم المرء ليلاً بصيحته إلا كواذب مما يخبر الفال

فالفال والزجر والكهان كلهم مضللون ودون الغيب أقفال

هذا واستحضار هذا الاسم الجليل من خير ما يدفع الإنسان إلى أن يستحى من الله حق الحياء فيجتنب كبائر الإثم والفواحش، ويحذر ما يسخط الله من قول أو عمل.

وجدير بمن يذكر قول الله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الملك١٣].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة٧].

جدير بمن يتلو هذه الآيات الكريمة ويتدبرها ألا يسمح لنفسه أن تتلوث بسببه أو تلم بخطيئة، وألا يأذن لضميره أن يهجس بشر أو أن يضطرب بسوء.

ورد هذا الاسم الجليل فى القرآن الكريم فى ستة وأربعين ومائة موضع وما ذلك إلا لإيقاظ القلوب وتنبيه البصائر، وإحياء الضمائر، وتربية خلق الحياء من الله تعالى ومراقبته، وتوجيه الأذهان إلى أن الله جل شأنه وتبارك اسمه مطلع على كل شئ وعليم بكل شئ فإذا امتلأ قلب المؤمن يقيناً بهذه الحقيقة كان من المحسنين الذين يعبدون الله كأنهم يرونه لعلمهم أنهم إن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم، ويعلم ما أكنوا فى أنفسهم وما أضمروا فى صدورهم وما أظهروا من أعمالهم.

إذا استحضر المؤمنون معنى هذا الاسم الجليل وعملوا بما يقتضيه استحضاره سعدوا فى الدنيا والآخرة واختفت من بينهم أشباح الفقر والمرض والجهل فالفتى الذى يوقن بأن الله عليم بالمال الذى رزقه إياه لا يضن على الفقراء والمساكين بحقوقهم فيه، والفقير الذى يوقن بأن الله عليم بما يعمل يقنع بما فى يده لا يتطلع إلى ما فى يد غيره فتبرأ الجماعة المؤمنة من شرور السرقة والنصب والاحتيال والغش وتكفيف الكيل وإخسار الميزان ويكون المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً وكالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ويحب كل لأخيه ما يحب لنفسه، وتسود روح المرحمة والتعاون ويتعلم الجاهل ويصح المريض.

لو أيقن هؤلاء الوسليون أن ربهم بكل شئ عليم وأنه لا يخفى عليه شيئاً فى الأرض ولا فى السماء، وأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور لكفوا عن سؤاله تعالى بالمخلوقين وتوسلهم إليه بذواتهم واتخاذهم وسطاء وشفعاء لديه، فهو تعالى غنى عمن يعلمه بحاجات عباده فهو وحده مطلع عليها، وهو وحده يجيب المضطر إذا دعاه.

فسبحانه يعلم ما كان وما هو كائن وما سيكون يعلم الماضى والحاضر والمستقبل علما تفصيلياً بجميع الدقائق والجزئيات والأفراد من جميع الأحداث والكائنات، والعواطف والانفعالات وهو عليم بذات الصدور.

الغفار .. الغفور

هذا الاسم الجليل من أسمائه تعالى الحسنى التى تزف البشرى للمؤمنين وتسوق الطمأنينة إلى قلوبهم، والأنس إلى أنفسهم، وإليك ما قال أعلام اللغة فى تحقيق معناه:

قال الفيروزآبادى: غفره ستره، وغفر الله ذنبه يغفره غفراً وغفرة حسنه (بالكسر) ومغفرة وغفوراً وغفراناً وغفيراً وغفيرة غطى عليه وعفا عنه.

وقال الراغب: الغفر إلباس الشئ ما يصونه من الدنس، ومنه أغفر ثوبك فى الوعاء، وأغفر ثوبك فإنه أغفر للوسخ. والغفران والمغفرة من الله تعالى وهو أن يصون العبد من أن يمسه العذاب.

وقال ابن الأثير: الغفار الساتر لذنوب عباده وعيوبهم، المتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم، وأصل الغفر التغطية يقال غفر الله لك غفراً وغفراناً ومغفرة، والمغفرة إلباس الله تعالى العفو للمؤمنين...

والذى يستنبط من مجموع هذه النصوص أن الغفار هو الكثير المغفرة وأن المغفرة ستر الذنوب والتجاوز عنها والعفو عن مقترفيها يصونهم بمغفرته من أن يمسهم العذاب ويذيقهم حلاوة العفو.

وقد بشر الله تعالى عباده فى كتابه الكريم ليطمئنوا إلى مغفرته، ويأنسوا بعفوه، ويسكنوا إلى تجاوزه ولا يقنطوا من رحمته فقال تعالى فى سورة الزمر: ﴿قُلْ يَا عِبَادِى الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِى جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِى لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر٥٩].

فقد بشر الله الغفار سبحانه عباده المسرفين على أنفسهم بواسع مغفرته ونهاهم عن أن يقنطوا من رحمته مهما يسرفوا فى إجتراف السيئات، ومهما يقترفوا من كبائر الإثم والفواحش، وبشرهم بأنه يغفر الذنوب جميعاً دقت أو جلت، كبرت أو صغرت. وكل ما عليهم إن صدقت رغبتهم فى هذه المغفرة وسمت نحوها آمالهم: أن ينيبوا إلى ربهم ويسلموا له، ويقلعوا عن آثامهم ويتطهروا من أوضار الخطايا بالتوبة النصوح.

ولا ينبغى للمؤمن أن يتلوا آية للبشرى وحدها ثم يطير بها فرحاً قبل أن يتلوا الآيات التى تتصل بها لئلا يكون من الذين جعلوا القرآن عضين، فآيات القرآن يفسر بعضها بعضاً، ففى هذه الآيات البينات حين بشر الله بهذه المغفرة الشاملة طلب من هؤلاء الذين ساق إليهم هذه البشرى أن ينيبوا إليه ويسلموا له من قبل أن يأتيهم العذاب ثم لا ينصرون.

وإنما تتم البشرى لهؤلاء الذين يقومون بتحقيق ما طلب منهم فيما يلى من الآيات.

يؤيد هذا قول الله تعالى فى سورة طه: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه٨٢].

لم يقل الله تعالى إنى لغفار لكل من دب ودرج من العصاة والآثمين بل قال سبحانه: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه٨٢].

ولم يقتصر على ذكر التوبة حتى ذكر الإيمان، ولم يقف عند ذكر الإيمان حتى ذكر العمل الصالح ثم توج ذلك كله بالهداية، فمن تحققت منه التوبة والإيمان والعمل الصالح والهداية رجيت له المغفرة. وفى هذا قضاء على غرور المفترين، وطمع الطامعين، وأمانى المفتونين، الذين يتمنون المغفرة بغير عمل صالح قدموه، ولا حسنة ادخروها لمعادهم، بل توكلوا على أشياخهم ومن يمتون إليهم بصلة القربى من الأولياء والصالحين، أو على محض رحمة الله التى وسعت كل شئ. وينسون أن رحمة الله التى وسعت كل شئ أخبر بأنه سيكتبها لفريق خاص من الناس هم أحق بها وأهلها فقد قال تعالى: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِى هَذِه الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الآخرَة إنَّا هُدْنَا إلَيْكَ قَالَ عَذَابى أُصيبُ به مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتى وَسعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا للَّذينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذينَ هُمْ بآيَاتنَا يُؤْمنُونَ﴾ [الأعراف١٥٦].

وللرسول عليه الصلاة والسلام كلمة جامعة حكيمة لو قرأها أسرى الأمانى وتدبروها لصرفت أبصارهم عن خدع الشيطان الذى يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ولأقبلوا على الصالحات يبتغون بها الوسيلة إلى مغفرة الله وجنته، فاستمع إليه صلوات الله عليه يقول: (ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقة العمل. إن قوماً ألهتهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، وقالوا: نحن نحسن الظن بالله، وكذبوا، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل).

هذا ولعلك تتدبر ما قصه الله علينا من استغفار الملائكة للمؤمنين إذ يقول: ﴿الَّذينَ يَحْملُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بحَمْد رَبِّهمْ وَيُؤْمنُونَ به وَيَسْتَغْفرُونَ للَّذينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعلْمًا فَاغْفرْ للَّذينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبيلَكَ وَقهمْ عَذَابَ الْجَحيم (٧) رَبَّنَا وَأَدْخلْهُمْ جَنَّات عَدْن الَّتى وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ منْ آبَائهمْ وَأَزْوَاجهمْ وَذُرِّيَّاتهمْ إنَّكَ أَنْتَ الْعَزيزُ الْحَكيمُ (٨) وَقهمُ السَّيِّئَات وَمَنْ تَق السَّيِّئَات يَوْمَئذٍ فَقَدْ رَحمْتَهُ وَذَلكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظيمُ﴾ [غافر٩].

وعسى أن تتدبر قوله تعالى فى سورة الرعد: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ منْ آبَائهمْ وَأَزْوَاجهمْ وَذُرِّيَّاتهمْ وَالْمَلائكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهمْ منْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُمْ بمَا صَبَرْتُمْ فَنعْمَ عُقْبَى الدَّار﴾ [الرعد٢٤].

وفى هـــذه الآيات وأشباهها ما يقضى على غرور المفترين وآمال المسرفين الذين تتوق أنفسهم إلى مغفرة الغفار بغير توبة نصوح ولا صالح عمل ولا حسنات يذهبن ما اقترفوا من السيئات.

عـــلم الله تعالى ضعف الإنسان وغلبة الغرائز عليه وتحكم العادات والبيئات والهواء والشهوات فيه فيسر لـــه سبيل الخلاص ولم تؤيسه من مغفرته مهما تبلغ أوزاره، بل فتح لـــه باب القبول ودعاه إلى التوبة ليخلص من أوضاره، ويطهر من أدرانه على أنه وعـــد بمغفـــرته الواسعة الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم، قال تعالى فى سورة النجم: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى السماوات وَمَا فِى الأَرْضِ لِيَجْزِى الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِى الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّـــكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم٣٢].

إن مغفرة الله واسعة تسع كل ذنب وتأتى من وراء كل خطيئة ما دامت لم تنحط إلى درك الشـــرك. قال تعالى فى سورة النساء: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء٤٨]، ولكن لا ينـــبغى أن ينخدع بهذه الآية المغرورون فيسوفوا التوبة أو يفرطوا فى جنب الصالحات، إذ من يضمن لهم بأنهم ممن يشاء الله أن يغفر لهم؟

ويـــبدو أن كثيراً من الناس يخطئون فى فهم المشيئة ويحسبون أن الله تعالى يشاء ما يـــنافى حكمته أو ما تتبدل معه سننه. وحاشى لله! لا يبدل القول لديه وما هو بظلام للعبـــيد. ولـــن تجـــد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً. فمشيئته تعالى موافقة لحكمته جارية على سننه والآية الكريمة واضحة أتم الوضوح، جليةً أنصع الجلاء، فقد بين تعالى أنه لا يغفر لمن كان مشركاً به تعالى ثم مات على هذا الشرك قبل أن يطهر نفسه بالإيمان وتجريد التوحيد.

ويتحقق الشرك بأن يعتقد الإنسان أن غير الله يستطيع أن يجلب لـــه خيراً أو يدفع لـــــه ضراً فى الدنيا والآخرة بقوة غيبية وراء الأسباب الكونية فيدعوه أو يعتمد عليه مع الله تعالى. وكذلك يتحقق بأن يتبع الإنسان بعض الناس فى العقائد أو العبادات أو التحليل والتحريم، مخالفاً نصوص الكتاب الكريم أو سنة سيد المرسلين.

ويتضح من هذا أن للشرك ضربان: شرك فى الألوهية. وشرك فى الربوبية فالشرك فى الربوبية هو اعتقاد أن لغير الله تعالى سلطاناً وتأثيراً وراء الأسباب والسنن الكونية وكل قول أو عمل يثمره هذا الاعتقاد.

وأما الشرك فى الألوهية فهو أن يتعبد الإنسان لله تعالى بما شرعه للناس مخالفاً لما أنزل الله على رسوله.

هذا وقد سرى الشرك فى الألوهية والربوبية إلى كثير مما ينتمون إلى الإسلام من عهد بعيد وناهيك بالباطنية ومن على شاكلتهم. فهذا الشرك بنوعيه هو الذى لا يغفره الله تعالى. والحكمة فى ذلك واضحة، فما شرع الله الدين إلا لتزكية الأنفس وتطهير الأرواح والسمو بالعقول. والشرك هو أسفل درك تنحط إليه الأنفس والأرواح والعقول، وهو أصل النقائص والرذائل جميعاً بل ينبوع المفاسد التى تهوى بالأفراد والأمم إلى مكان سحيق.

أى إسفاف وانحطاط وتدهور وراء أن يعمد ابن آدم الذى كرمه الله وحمله فى البر والبحر ورزقه من الطيبات وفضله على كثير من خلقه تفضيلاً - إلى مخلوق مثله أو دونه فيرفعه إلى درجة العبادة والتقديس، وينسب إليه من الشئون ما ليس إلا للخالق سبحانه ثم يذل له و يخضع ويتوجه إليه ويضرع معتقداً أن له قوة غيبية وراء الأسباب الكونية وسنن الوجود، وأن طاعته طاعة لله، وأن التقرب إليه تقرب إلى الله، وأن مرضاته مرضاة الله!!!

ما نشأ استبداد السادة والكبراء واعتسافهم وإذلالهم للناس إلا من هذه العقائد الشركية عياذاً بالله منها ومن أصحابها.

أما التوحيد فهو أن يعتق الإنسان نفسه من رق العبودية لأى مخلوق مهما يسمو قدره أو يغزر علمه، وأن يكون حراً كريماً عزيزاً لا يخضع خضوع عبودية مطلقة إلا لمن خضعت لسنته الكائنات وقامت بأمره الأرض والسماوات.

إن أرواح الموحدين تسمو بالإيمان وتجريد التوحيد إلى الدرجات العلى وأما أرواح المشركين فإنها تنحط بهم وتهوى إلى أسفل درك، ومهما يعمل المشركون من الصالحات فعملهم باطل لا أثر له فى تزكية أنفسهم ولا فى تطهير أرواحهم، ولا تفسد جواهر أنفسهم، ولا تطغى ظلمتها على أنوار قلوبهم، بل الإيمان يدعوهم دائماً إلى أن يرجعوا إلى ربهم، ويتوبوا من ذنوبهم فيعود إلى نفوسهم صفاؤها، والى

أرواحهم نقاؤها والى قلوبهم نورها وضياؤها كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف٢٠١].

وكما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران ١٣٥].

فهم بتوحيد الله تعالى ومعرفته تسمو فضائلهم على رذائلهم، ويغلب خيرهم على شرهم، وترجح حسناتهم بسيئاتهم فتذهب بها كما قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَى النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود١١٤] وكما قال عليه الصلاة والسلام (واتبع السيئة الحسنة تمحها) وإذا محت السيئة وذهب أثرها من النفس فذلك هو الغفران.

إن النفوس تعلو بالصالحات كما يعلو الزئبق فى (الترمومتر) بالحرارة وتنحط بالسيئات كما تنحط بالبرودة. وما العقاب إلا أثر طبيعى للذين ينشأ منه ويترتب عليه كما تنشأ المسببات من الأسباب وتترتب عليها. فالذنوب التى لا تبلغ درك الشرك فى إفساد النفوس وتنسيتها مغفرتها ممكنة تتعلق بها المشيئة الإلهية فمنها ما يكون تأثيره فى النفوس قوياً، يقتضى العقاب، ومنها ما يكون أثره ضعيفاً يغفر بما يزيل هذا الأثر من صالح الأعمال حتى إذا أعجله الموت عن التوبة كانت حسناته مذهبة لسيئاته، وكانت سيئاته مرجوة المغفرة بمشيئة الله تعالى.

ومما يتعلق بهذا البحث الاستغفار وهو سؤال الله المغفرة، فيجب أن يكون قولاً باللسان وعملاً بالجوارح فقد قيل: الاستغفار باللسان بدون الأفعال فعل الكاذبين.

وربك سبحانه غفار، لا تعتاص على مغفرته سيئة مهما تعظم، ولا يشق عليه أن يغفر ذنوب عباده وخطيئاتهم، ولو كانت أمثال الجبال، فهو قادر على أن يغفر الذنوب التى أقترفها العباد منذ أن دب الإنسان على الأرض إلى أن يرث الأرض ومن عليها. كما أنه قادر على أن يغفر ذنوب كل شخص ولو كانت كزبد البحر بمشيئته الحكيمة قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾[الزمر].

أسألك اللهم يا واسع المغفرة أن ترزقنا توحيداً خالصاً تعز به أنفسنا، وعملاً صالحاً يمحو سيئاتنا، ويطهر قلوبنا وتوبة نصوحاً تتجاوز بها عن آثامنا إنك عزيز غفار.

الغالب

الغلبة: القهر والعزة والامتناع.

والله تعالى غالب أى قاهر تنفذ إرادته فى كل مخلوق، ويمضى أمره فى كل كائن، ولا يدركه طالب، ولا يفوته هارب، ولو اجتمعت قوة الإنس والجن والملائكة على أن تناول منه ما لم يرد، لباءت بالخيبة، وردت مغلوبة على أمرها.

وكل ما فى السماوات والأرض لغلابيته.

فأول مظاهر غلبته تعالى: أن غلب العناصر الأولى على أمرها وفطرها ألواناً من الفطرة فاستوى إلى فريقاً منها ضم بعضه إلى بعض بقدر معلوم. واستوى إلى فريق آخر فجعله ماء، وجعل فريقاً منها ناراً، وفريقا تراباً وما أكثر العناصر التى ينطوى عليها أديم الأرض، منها ما عرفه الإنسان وانتفع به ومنها مالم يعرفه بعد، وهو جاهد فى كشفه.

وما استعصى من هذه العناصر على الله الغالب شئ، ولا أى كائن أن يكون كما أراد أن يكون رب الأكوان. غلب عناصر فجعلها سوائل فلم تمتنع عليه، وغلب أخرى فجعلها جامدة لم تخالف عن أمره.

جعل من هذه العناصر سماوات وأرضين وشموساً وأقماراً وكواكب ونجوم فكانت طائعة ذلولاً لمشيئته.

وجعل منها إنساناً وحيواناً ونباتاً وجماداً فخضعت لإرادته.

واستوى إلى ما وراء المادة فسوى العقول والأرواح والأنفس والملائكة والجن والشياطين. وأقام كلاً منها حيث أقامه فقام مغلوباً على أمره، خاضعاً لأمر الله ومشيئته.

وغلب عناصر الذرات من (بروتونات) و(إلكترونات) فألزمها أن تحتبس فى غلافها، وأن تبقى وراء جدرانها، وبنى منها ما خلق من الأجسام الحية والميتة، والغازية والسائلة، فألقت بأيديها خاضعة للحى القيوم الغالب وإلى هذا المعنى يشير قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت١١].

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السماوات والأرض طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد١٥].

فإن السجود هو الخضوع، والخضوع أثر الغلبة فى المغلوب.

ومن مظاهر غلابيته سبحانه: أن غلب الجن والشياطين والمردة، وحال بينهم وبين التمكن من إلحاق الأذى المادى ببنى الإنسان وهم أعدى أعدائهم، ولو لم يغلبهم الله على أمرهم ويكف بقدرته وقهره أذاهم لفتكوا بهم الفتك الذريع، ولعدوا على المؤمنين والصالحين والمصبحين فأذاقوهم النكال، وأروهم الويلات، لأنهم يرون الإنسان من حيث لا يراهم، فلو أتيح لهم أن يسطوا به لكانوا على الثأر منه أقدر. وعلى النكاية به أقوى، ولكن العزيز الغالب سبحانه غلبهم وحفظ بنى آدم من شرهم فلم يمكنهم إلا من الإغراء بالشر، والإغواء بالفساد، والوسوسة فى الصدور امتحاناً للبشر، وابتلاءً لبنى آدم.

وقد نبه البشر إلى عداوتهم ليأخذوا حذرهم ويحتاطوا لأمرهم فقال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِىَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِى عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى فَلا تَلُومُونِى وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم٢٢].

وكذلك غلبهم الله على أمرهم وحال بينهم وبين استراق السمع، وحفظ السماء من أن يتخذوا منها مقاعد للسمع، وجعل من الكواكب نجوماً تقصيهم عن مرادهم قال تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ [الجن٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧) لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلأِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات١٠].

وسخرهم الله تعالى يعملون بأمره ما يشاء. قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِىَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ١٣].

وقـال تعـالى: ﴿فَسَـخَّرْنَا لـه الرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧)وَآخَرِيـنَ مُقَرَّنِـينَ فِى الأَصْفَـادِ﴾ [ص ٣٨].

ولما دعا نوح ربه: أنى مغلوب فانتصر، انتصر الله لـه وغلب غالبيه، وسلط عليهم الطوفـان الـذى قطـع دابرهم، ولم يذر منهم على الأرض دياراً، ولما تبجحت عاد واستكبروا فى الأرض بغير الحق، وقالوا: من أشد منا قوة؟ ونسوا قوة الغالب القهار، قصمهم وسلط عليهم أضعف جنده الهواء الذى لم يكونوا يحسبون لـه حسابا.

قـال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلكوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦)سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧)فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَـةٍ﴾ [الحاقة٨].

وسـلط عـلى ثمود الصيحة فكانوا كهشيم المحتضر. وأما القرية التى كانت تعمل الخبائث فقد جعل عاليها سافلها وأمطر عليهم حجارة من سجيل. ولما أقسم السحرة بعزة فرعون ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَـمْ وَإِنَّكُـمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَـا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِـينَ (١١٥) قَـالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِى تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ(١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾[الأعراف١١٩].

وهكـذا كلما تمرد جبار وعتا وبغى فى الأرض بغير الحق غلبه الله، وقصمه وأذاقه نكال الآخرة والدنيا.

مكر بيوسف أخوته حتى ألقوه فى غيابة الجب، ومكرت به امرأة العزيز حتى ألقته فى غـيابة السجن، ولكن الله الغالب رفع قدره وأعلى شأنه وأنجاه من كيد الكائدين ومكـر الماكـرين، وجعله على خزائن الأرض ﴿وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْـرِمِى مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف٢١].

تنكرت الأمم لرسولها وهمت كل أمة برسولها ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا بـه الحق، ولكن الله الغالب أخذه أخذ عزيز مقتدر قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ

وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة٢١].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات١٧٣].

يجمع الله الكافرين يوم القيامة فى صعيد واحد منذ دبت الحياة على وجه الأرض إلى أن تطوى السماوات بيمينه، ثم يسوقهم إلى جهنم ورداً. فانظر إلى كثرتهم الكثيرة، ومنهم الملوك والجبارون والمستبدون والمعتسفون وأولوا الحول والطول فلا يستطيعون أن يمتنعوا عليه أو يفروا من بين يديه ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران١٢].

ولو فكر كل إنسان فى مجرى حياته لرأى آيات بينات تعد بحق مظاهر لاسمه تعالى (الغالب) ولكن الناس فى غفلة ساهون، وعن آيات ربهم معرضون إذ تدبر الناس شكوى نوح وهو رسول من أولى العزم وضراعته إلى الله تعالى وقوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر١٠].

أفلا يكون لهم فى ذلك موعظة حسنة تصرفهم عن المخلوقين إلى الخالق وعن المغلوبين إلى الغالب. هذا نوح وهو من أولى العزم لم يملك أن ينال من أعدائه منالاً، فلجأ إلى عزة الله وغلبته يشكو إليه ما ناله من قومه. فمن من غير الأنبياء يملك للناس نفعا أو خيراً؟

يا للغفلة! يا للجهالة! يا للضلالة!

يا حسرة على العباد. يضرعون فى حاجتهم إلى الموتى وأصحاب القبور الذين غلبهم الله بالموت وقهرهم وأخرجهم من الحياة أحرص ما كانوا عليها وأذاقهم الموت أبغض ما كانوا له، وينسون ربهم الغالب الذى لا يعجزه شيء ولا يغلبه مرام، ولا يستعصى عليه مراد. فاللهم خذ بأيدى عبادك إلى مراشدهم؛ وبصرهم بالرشد واهدهم صراطك المستقيم.

القاهر.. القهار

فى القاموس المحيط: القهر: الغلبة

وفى النهاية لابن الأثير: القاهر: الغالب على جميع الخلائق وقال الراغب. القهر: الغلبة والتذليل معا ويستعمل فى كل واحد منهما وقد سبق شرح هذه المادة فى اسمه

تعالى (القهار) ولكنه نعيده هنا للتذكرة والتكملة فنقول: جاء هذا الاسم الجليل فى القرآن الكريم وصفاً لرب العزة مرتين فى سورة الأنعام.

الأولى فى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾[الأنعام١٨]. والثانية فى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام٦١].

وحكى الله تعالى فى سورة الأعراف عن فرعون عليه اللعنة أنه قال: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف١٢٧].

فالقاهر اسم جليل من أسماء الله الحسنى يدل على الغلبة والتذليل وسعة السلطان، وقوة البطش ومضاء الحكم.

وقبل أن تفكر فى معنى اسمه تعالى القاهر فكر فى كل ما فى هذا العالم من قوى فكر فى قوة الملائكة وقوة الجن والشياطين وقوة الإنسان وقوة الحيوان فكر فى قوة العناصر الطبيعية: قوة الرياح، وقوة البخار، وقوة الكهرباء، وقوة المغناطيس، وقوة الحرارة.

فكر فى قوة الآلات التى هدى الله الإنسان إلى صنعها وتسخيرها ثم علمه أن يصنع بها العجائب المدهشات.

ثم فكر فى القوة المعنوية: قوة الملوك والعاهلين والأمراء والسلاطين. فكر فى قوة الجيوش وما تستخدمه من شتى الآلات التخريب والتدمير والطائرات والقاذفات والمدمرات والناسفات والغائصات.

إذا أنت فكرت فى هذه القوة جميعاً، ومثلتها لعين بصيرتك، وتصورت أنها اجتمعت فى صعيد واحد، وكان بعضها لبعض ظهيراً، فاعلم أن ربك يقهرها جميعاً، ويغلبها جميعاً، ويذلها جميعاً، بغير إعداد ولا تجهز، ولا أعمال جارحة، ولا بذل جهد ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل٤٠].

فسبحانه من رب قوة قاهرة بيده ملكوت كل شئ وإليه ترجع الأمور.

فمن دلائل قهره أنه كتب الموت على كل حى. وكتب الهلاك على كل شئ.

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران١٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخرَ لا إِلَهَ إِلا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ لــه الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص٨٨].

وقــال تعــالى: ﴿كُــلُّ مَــنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْــهُ رَبِّكَ ذُو الْجَــلالِ وَالإِكْــرَامِ﴾ [الرحمن٢٧].

وكفــى بــالموت قاهــراً للجــبارين والظلمة والعتاة والباغين والملوك والأمراء والســلاطين. يخــرجهم من ديارهم آنس ما يكونون بها، ويسلبهم ملكهم أكثر مما يكونــون إطمئناناً إليه، وحرصاً عليه وإغتباطاً به، لا تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم، ولا قمــتهم ولا جيوشهم ولا عدهم ولا عتادهم. ولا أنصارهم ولا أعوانهم. إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون. أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى برج مشيدة.

ومن دلائل قهره: أن أمره نافذ فى خلقه لا معقب لحكمه، ولا مبدل لكلماته، إن أراد أحــداً بخير فلا راد لــه، وإن أراده بسوء فلا كاشف لــه. فال تعالى فى سورة يونــس: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْــكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لــه إِلا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس١٠٧].

وقال تعالى فى سورة الرعد: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّــهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لــه وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد١١].

وقــال تعالى فى سورة فاطر: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لــه مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر٢].

فــإذا أنت تدبرت هذا الاسم الجليل وحققته وأمنت بمسماه الذى سمى به نفسه لم تخش و لم ترجو أحداً علا الله الذى تغلب مشيئته كل مشيئة، وتقهر إرادته كل إرادة، ويمضى حكمه فى كل كائن فى الأرض والسماء. وكل من رام تغييراً أو تبديلاً فى سنته التى أخضع لها الأفراد والأمم رجع مقهوراً ذليلاً واضح الغلبة بين الذلة.

ومــن مظاهــر قاهريته سبحانه وتعالى أن أخضع العالم كله سماؤه وأرضه لقوانين حكمه ونواميس قهره فلا يملك كائن من هذه الكائنات السماوية أو الأرضية أن يخرج عن هذه القوانين أو يخالف هذه النواميس.

فأنت ترى كل جسم قذف فى الهواء لابد أن يعود إلى الأرض مقهوراً بناموس الجذب الذى يحدد ثقله ووزنه، وأنت ترى كل حبة ألقيت فى الأرض الصالحة وأجرى عليها الماء لابد أن تنبت وتنمو، وأنت ترى كل أمة تشرك بربها وتمعن فى اقتراف السيئات يسلط الله عليها من يخيفها، ويسلبها حقها فى الحرية والاستقلال، والحياة الطيبة. تلك سنن الله القاهر فوق عباده لا تجد لها تبديلاً. ولا تجد لها تحويلاً. فسبحان من قهر الكائنات وسخر العناصر.

ومن آيات قاهريته فى الآفاق: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة٢٧].

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ السماوات والأرض وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة١٢٤].

وسخر البحر ليأكل منه الناس لحماً طرياً ويستخرجوا حلية يلبسونها.

وتجرى الفلك فيه بما ينفع الناس. وسخر الأنهار لينتفع الناس بما فيها مما خلقت من أجله. وسخر الليل والنهار دائبين بتسخير الأرض لدورتها اليومية المستمرة حول الشمس لبث الضوء والحرارة فيما حولها من العوالم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ السماوات والأرض وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة١٢٤].

وقال سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل١٢].

وقال عز من قائل: ﴿وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل ١٤].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السماوات والأرض وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ﴾ [إبراهيم٣٢].

ومن مظاهر قاهريته سبحانه: أن ذلل الحيوان الضخم القوى للإنسان ليستخدمه فى حاجته ثم ينحره لطعامه قال تعالى فى سورة يس: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ [يس٧١].

فترى البعير الضخم أو الثور القوى يسوقه غلام أو تقوده وليدة، وهو خاضع مستسلم ذلول فسبحانك يا قاهر، يا من بيدك نواصى عبادك، تعز من تشاء وتذل من تشاء.

وأنت إذا ذكرت اسم ربك القاهر سهلت عليك الاستجابة له فوقفت من اليتيم موقف الوالد الرحيم، وشملته بعطفك، وحبوته ببرك وتوليته برعايتك وإحسانك، استجابة لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ﴾ [الضحى٩].

فلم تغلبه على حقه، ولم تذقه طعم المذلة والهوان.

ووقفت كذلك من كل ضعيف حتى لا تنازع ربك صولجان قاهريته.

ومن مظاهر قاهريته سبحانه إعادة الحياة إلى الناس بعد الموت ليثيب المطيعين ويعذب العصاة والكافرين ويذيقهم العذاب المهين: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء٥١]. اضرب بطرفك حيث شئت فى ملكوت السماوات والأرض تجد فى كل موضع أنمله آية من آيات قاهريته، وعلماً من أعلام سلطانه ولا جرم أن ذلك يدفعك إلى أن تعبده وحده وتدعوه وحده وتستعينه وحده، وتعلم أن له وحده دعوة الحق، وأن الذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشئ إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال والله يهدى من يشاء.

من هذه النصوص نرى أن اسمه تعالى القهار معناه الذى يغلب على كل شئ ويبسط سلطانه على كل مخلوق، ولا يعتاص عليه ما أراد، ولا يفلت من قبضته جبار تمرد على جبروته، ولا متكبر نازعه رداء كبريائه بل هو سبحانه آخذ بنواصى عباده فمن تمرد عليه قصمه وأذله ومن خالف عن أمره أخذه نكال الآخرة والأولى وجعله عبرة ومثلاً.

بسط جل شأنه سلطانه على العناصر جميعاً فاستجابت لأمره وخضعت لحكمته وسارت على النهج الذى رسمه. رفع السماوات بغير عمد فأذعنت وقامت حيث أقامها، ونثر النجوم حيث نثرها فى فسحة الفضاء فلزمت مسابحها، ودارت فى أفلاكها وأدار الكواكب فى مجاريها فلم تخالف عن أمره، وأجرى الرياح من مهابها فجرت، وأسرى التنسمات فى مساريها فسرت، وأقر الأطواد فى أماكنها فقرت، وأنبت الأشجار من منابتها فنبتت، وسخر الشمس والقمر دائبين، وسخر الليل والنهار، وسخر الفلك لتجرى بأمره وسخر الأنهار. فجميع هذه الكائنات خاضعة لسلطانه، مذعنة لمشيئته، مقهورة لإرادته، صدق الله تعالى إذ يقول فى سورة النحل:﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى السماوات وَمَا فِى الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل٤٩].

وإذ يقول سبحانه فى سورة الحج: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِى السماوات وَمَنْ فِى الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج١٨].

قامت جميع الكائنات حيث أقامها القهار سبحانه. وحققت ما سخرت له مقهورة مكرهة مغلوبة على أمرها لأنها مخلوقة لمنفعة الإنسان ولو منحت الإرادة والاختيار لخالفت فتعطلت مصالحه وتعذرت عليه حاجاته. أما الإنسان فأمره عجب: قهره الله تعالى فى أمور فكان القهر سبباً فى حياته ولو وكل إلى نفسه واختياره طرفة عين لهلك. فنبضات قلبه وجريان الدم فى عروقه، وحركات معدته وأمعائه. وإفراز غدده المختلفة وغير ذلك من أسرار هذا الهيكل الذى بناه الخالق الحكيم القهار كلها حركات قهريه لم يتركها الحكيم العليم لاختيار الإنسان ولو تركها لاختياره لهلك. إذ كيف تعمل هذه الأعضاء ولو كانت خاضعة لإرادة الإنسان إذاً قهره النوم وعطل إرادته؟

وكلفه الله تعالى أموراً النهوض بها فى طاقته وفى وسعه فإن نهض بها أنابه، وإن لم يفعـل أرهقـه صموداً واضطره إلى العذاب الأليم فى الدنيا والآخرة فمن الناس من استجاب لدعوة ربه ففاز، ومنهم من خالف فأعد لـه الله عذاباً غليظاً.

أطاعـت العناصـر كلها فقامت حيث أقام الله، أطاع الجماد فحقق ما خلق من أجله، وأطاع النبات فحقق ما خلق من أجله، وأطاع الحيوان فحقق ما خلق من أجله لم يخـالف إلا الإنسان الذى خلقه الله لعبادته فأبى أكثر الناس إلا كفوراً وصدق قول الله تعالى فى سورة الأحزاب:

﴿إِنَّـا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السماوات والأرض وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب٧٢].

كل كائن من الكائنات أدى أمانته، ولم يخنها إلا الإنسان بظلمه وجهله، ولو تدبر الإنسـان معـنى اسمه تعالى (القهار) وأيقن أن الله تعالى قادر على أن يقهره ويذله فى الدنيا والآخرة لأذعن وانقاد طائعاً مختاراً ولكن استحوذ عليه الشيطان الغفلة والجهالة فصده عن الحق وأعماه عن الرشد.

ولقد اقتضت رحمة الله بالإنسان أن ينبئه من أخبار الأفراد والأمم الذين خالفوا عن أمره فأصابهم العذاب الأليم ليكون لـه فى ذلك موعظة وذكرى.

حدثـنا الله عـن قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين، وحدثنا عن فـرعون وقارون وحدثنا عن غيرهم ممن ظلموا أنفسهم بمعصية الله فصب الله عليهم العذاب صباً. كلفهم يسيراً من الأمر لا يخرج عن توحيده واتباع سبيله التى تفضى بهم إلى السـعادة فلما لم يذعنوا سلط عليهم قوى الوجود المسخرة بأمره من الماء والهواء والبخار والكهرباء فسحقهم سحقاً، ومحقهم محقاً وطهر الأرض من أرجاسهم والهواء من أنفاسهم وأعد لهم فى الآخرة عذاب الهون.

أهلـك قـوم نوح بالماء حين فتح أبواب السماء بماء منهمر، وفجر الأرض عيوناً فالـتقى الماء على أمر قد قدر، وأهلك عاداً بالهواء حين أرسل عليهم الريح العقيم ما تـذر من شئ أتت عليه إلا جعلته كالرميم وأهلك ثمود بالكهرباء حين أرسل عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتضر.

وأحـدث بـبخار المـاء زلزالاً هائلاً، وبركاناً جاحماً جعل عالى القرية سافلها ثم أمطرت مطر سوء فهلك قوم لوط.

وخسف الأرض بقارون وداره فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين. وساق فرعون وقومه إلى البحر حيث لقوا حتفهم تحت أمواجه المتلاطمة وطباقه المتراكمة.

وللقهار سبحانه سنن قهر بها كل عظيم، وأخضع لحكمه كل جبار عنيد وتتجلى لك مظاهر أسمه تعالى القهار إذ نظرت إلى مصائر الأمم التى اغترت بقوتها فأمعنت فى الظلم، وأسرفت فى الطغيان فكان طغيانها وبالاً عليها قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾[الحج٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص٥٨].

وقهر سبحانه الأخيار والأشرار بل كل ذى روح بالموت الذى يدركهم أينما يكونون ولو كانوا فى بروج مشيدة وصدق الله إذ يقول: ﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الواقعة٨٧].

وقهر العباد بالبعث ولو استطاع الأشرار سبيلا إلى الفرار من البعث لآثروا أن يكونوا ترابا على أن يعودوا إلى الحياة ليلقوا ما أعد لهم من عذاب الهون جزاء بما كانوا يعملون ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبأ٤٠].

هذا وقد ورد الاسم الجليل فى القرآن الكريم فى خمسة مواضع: أولها فى سورة الرعد حيث يقول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السماوات والأرض قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد١٦].

بدأ سبحانه فأشار إلى مظاهر قهره وطاعة العناصر له من خلق السماوات والأرض. ثم أشار سبحانه بهذا الأسلوب المقنع إلى أن الأعمى والبصير لا يستويان كما لا تستوى الظلمات والنور ليوجه الأذهان إلى أن الذى خلق السماوات والأرض هو الجدير بأن يخصه الناس بالعبادة وإلى أن أولى الألباب أحرياء أن يوازنوا بين الأعمى والبصير، حتى إذا تبين لهم فضل البصر على العمى انتقلوا إلى التفكير فيما يعبدون من

دون الله من أصنام ليس لهم أعين تبصر بها أو أشخاص مهما يبلغوا من حدة البصر فما هم بمدركى ما وراء الأفق، فهم عمى إذا قيس بصرهم إلى بصر السميع البصير الذى لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء. ثم أشار سبحانه إلى أن أولى الألباب جديرون بأن يوازنوا بين من يتخبط فى الظلمات لا يعرف حيلة ولا يهتدى سبيلا ومن يسير فى نور وضاح يضئ له المناهج ويكشف السبيل فلا يضل ولا يتعثر.

ثم أشار إلى ضلال الضالين الذين انصرفوا عن عبادة الله ودعوا سواه. ماذا صرفهم عن عبادة الله الواحد القهار؟ أظنوا أن له شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم، واختلط الأمر فى أعينهم، فلم يميزوا بين خلق الله وخلق غيره فعبدوا من حسبوهم خالقين مع الله. ولكن قليلاً من التدبر والنظر يكفى للإقناع بأن الله سبحانه خالق كل شيء و مليك كل شيء، وأنه لا رب غيره ولا خالق سواه إذ نطقت جميع الأدلة بأنه الواحد القهار.

وثانيها فى سورة إبراهيم فى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم٤٨].

إذ يشير سبحانه إلى بعض مظاهر القهر إذ تنفذ مشيئته فى السماوات والأرض فيبدل منهما غيرهما وتمضى إرادته فى الناس جميعاً فيجمعهم ليوم لا ريب فيه لا يخفى عليه منهم شئ. ولا جرم أن الذى يستطيع أن يغير العالم كله أرضه وسماواته، وأن يجمع الناس جميعاً ليجزيهم بأعمالهم دون أن يعترض إرادته معترض أو يحول دون تنفيذ مشيئته حائل لابد أن يكون إلها واحداً لا معقب لحكمه، ولا شريك له فى ملكه، فهو يفعل ما يشاء ولابد أن يكون قهاراً غالباً على كل شئ، ولا يغلبه شئ سبحانه هو الواحد القهار.

وثالثها فى سورة ص فى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [ص٦٥]. وفى هذه الآية الكريمة يأمر الله تعالى رسوله الأمين أن ينفى عن نفسه جميع صفات الربوبية والألوهية، وان لا يثبت لها إلا صفة واحدة وهى الرسالة التى أخص مظاهرها أن ينذر الناس بطشة الله. كما أمره أن يبين للناس إنه ليس فى الوجود إلا إله واحد هو الله الواحد القهار.

رابعها فى سورة الزمر فى قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر٤]. ينبه سبحانه الأذهان إلى أنه

إنما يرغب فى الولد من فيه ليشد به أزره، ويستكثر به من قلة، ويعتز به من ذلة، وليخف الولد إلى نجدته ويسارع إلى نصرته. ويكون عصا شيخوخته، ويعود عليه بفضل ماله عند الكبر والحاجة أما الواحد القهار الذى خضع لأمره كل شئ وبسط سلطانه على جميع قوى الوجود فهو غنى عن العالمين لأنه خالقهم ورازقهم ومدبر أمورهم ولو شاء أن يتخذ ولداً لاصطفى من خلقه ما يشاء، ولكنه سبحانه لا يشاء ما يخالف الحكمة وينافى الكمال سبحانه هو الله الواحد القهار.

وخامسها فى سورة غافر فى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر ١٦].

يشير سبحانه إلى يوم القيامة حين يجتمع الناس فى صعيد واحد لا يمتاز عظيم من حقير ولا غنى من فقير ولا ملك من سوقة يوم يرث الواحد القهار الأرض ومن عليها، ويسترد الملك من كل ذى ملك والسلطان من كل ذى سلطان ويشهد الخلق جميعاً أن الملك للواحد القهار.

والمتدبر لمعنى هذا الاسم الكريم يدرك شناعة الخطأ الذى يتورط فيه أولئك الذين يلجأون إلى غير الله من الأحياء والأموات. يستعينونهم على نوال المطالب ويلتمسون منه الحاجات والعجب لهم كيف سول لهم الشيطان أن يتركوا القهار إلى المقهورين وينصرفوا من الغالب إلى المغلوبين، وجميع أسمائه الحسنى تنادى بتجريد توحيده. وبأنه غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

الوهاب

قال فى الأساس: الوهاب الكثير المواهب.

وقال الفيروزآبادى: الموهبة العطية.

وقال الراغب: الهبة أن تجعل ملكك لغيرك بغير عوض.

وعلى ضوء هذه النصوص نستطيع أن نفسر اسمه تعالى (الوهاب) بأنه كثير العطايا والمواهب، الذى يؤتى فضله من يشاء بغير عوض.

وإن نظرة إلى هذا الوجود لتهدى أولى البصائر والأبصار إلى عظم المواهب التى منحها الكريم الوهاب خلقه بغير أن يتقاضى منهم ثمناً أو ينال عوضا.

أول مواهـــبه تعـــالى للأحياء: أن أفاض عليهم نعمة الحياة التى بها صاروا أحياء يحسون ويتحركون وينسلون. وهبهم الحياة من قبل أن يسألوها، ودون أن ينتظر منهم عوضاً. وهبهم الحياة وهى أثمن المواهب وأغلاها، وأجلها وأسماها وبها يتمكن الحى من أن يستمتع بما سواها من ألوان العطايا وأصناف المواهب.

ســبحانك يـــا كــريم يا وهاب، ما أعظم هباتك، وما أكثر عطاياك أية نعمة مما يســـتمتع به الأحياء لم تكن موليها ومعطيها؟ وأى فضل مما ينعمون به لم تكن واهبه ومسديه. تعالى أيها القارئ الكريم ننظر: كم من كائن حى أفاض الله عليه نعمة الحياة مـــنذ خلـــق السماوات والأرض؟ وانظر أتستطيع أن تحصى الأحياء فى الأرض والماء والهواء فى بقعة واحدة من بقاع هذا العالم الفسيح. عجيب أمر هذه الحياة!

وهب الله الحياة أحياء أغناهم عن الهواء والماء والغذاء.

ووهبها أحياء لا يستغنون عن الهواء والماء والغذاء.

وإذا صـــرفنا البصر عن النبات مع اختلاف ألوانه وضروبه وفصائله، وعن الحيوان كذلـــك. وعن الكائنات الغيبية. التى لا تراها العين، ولا تلمسها اليد، وقصرنا نظرنا عـــلى الإنسان وحده. فكم من إنسان وهبه الله الحياة من لدن منحها للنفس الواحدة التى خلق منها زوجها.

اضـــرب بطرفك حيث شئت فى فسيح هذه الأرض وانظر كيف ازدحمت الأقطار وامـــتلأت الديار ببنى آدم من رجال ونساء وشبان وشيب، ثم أرسل رائد الفكر إلى الأجـــيال الغابرة جيلاً بعد جيل لتعلم كم وهب الله من الحياة لهذا التراب الذى صار بشراً ينتشرون.

ولم يهب الله الحياة عطلاً مما يصح الانتفاع بها، بل وهب معها العقل والحواس من سمـــع وبصر وشم وذوق ولمس ليتمم للناس استمتاعهم بالحياة. ووهب غير الإنسان إلهاماً وغرائز تسوقه إلى إحراز ما يحفظ عليه الحياة.

وهب الناس ما يحفظ عليهم نعمة الحياة من طعام وشراب وكساء: وذكرهم بهذه الهبات كلها فى قولـــه تعالى فى سورة عبس:

﴿فَلْيَنْظُرْ الإنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ [عبس٢٤].

وكـــم وهـــب الله سبحانه من صحة وعافية وقوة، وكم وهب من جمال وحسن وملاحـــة وكـــم زان بالحور عيوناً، وبالنضرة خدوداً ، وباللين والهيف قدوراً إلى غير

ذلك من ألوان المواهب الحسيه التى لا تحصى ولا تحصر. وكم لـه تعالى من مواهب معنوية لا يحصرها حساب، ولا يحويها كتاب، فكم وهب من ذكاء وفطنة، وحزم وبصر بالأمور، وعلم وحكمة وشجاعة وإقدام، وقوة إرادة، ونفاذ كلمة، وصدق بصيرة، وصحة فكر، وصفاء ذهن، وقوة إيمان وكمال توفيق وتقوى وإحسان.

وليس فى وسع هذا القلم العاجز أن يحصى مواهب الكريم الوهاب، وإنما ذكرت ما ذكرت لأهيب بالقارئ الكريم لعله ينفق ساعة يستجلى فيها بعض ما أفاض الله عليه من كريم مواهبه، وجلائل نعمه. وما هو ببالغ من ذلك أرباً فقد قال تعالى وقوله الحق: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[لقمان٢٧].

وقد ذكر الكريم الوهاب فى كتابه العزيز بعض هباته للمصطفين الأخيار من عباده لتكون فيها ذكرى لمن كان لـه قلب أو ألقى السمع وهو شهيد: قال تعالى فى شأن إبراهيم عليه السلام من سورة مريم: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاً جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم٤٩].

وقال تعالى فى شأن موسى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم٥٣].

وقال تعالى: وهو يذكر مريم المصطفاة المطهرة: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا﴾ [مريم١٩]. وإنما نسب روح الله الهبة إلى نفسه لأنه السبب فى توصيل هبة الله تعالى إليها، فالإسناد مجازى علاقته سببية. وإنما الواهب الحق هو الله سبحانه الكريم الوهاب.

وقال تعالى وهو يذكر زكريا عليه السلام فى سورة الأنبياء: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء٩٠].

وقال تعالى فى شأن أيوب عليه السلام: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [ص٤٣].

وقد علمنا الله تعالى كيف يستوهبه الراسخون فى العلم لننسج على منوالهم، ونقتفى آثارهم فى دعائهم فقال تعالى فى سورة آل عمران ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ

الْكِـــتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُو الأَلْبَابِ﴾[آل عمران٧].

وعلمـــنا كذلك كيف يستوهبه الأنبياء وهم أعلم الناس به وبما ينبغى لـــه من تجريد التوحيد والإخلاص فى الدعاء والعبادة فقال تعالى: ﴿مخبراً عن زكريا عليه السلام هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[آل عمران٣٨]. وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ [مريم٥].

وقـــال تعالى فى شأن سليمان: (قال رب اغفر لى) وقال تعال حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات١٠٠].

وعلمـــنا سبحانه أنه رب المواهب لأنه رب كل شئ ومليكه فلا يصح أن تلتمس المواهـــب مـــن غيره فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة١٧].

وفى هـــاتين الآيتين الكريمتين يبصر الله الناس، لو كانوا يستبصرون، ويقفهم على الحق الذى هم عنه معرضون، ويعلمهم أن الفضل كله بيده وحده يؤتيه من يشاء، وأنه واهـــب الذرية فلا ينبغى أن تلتمس من غيره لا من نبى مرسل ولا من ملك مقرب. وإذا تدبرت هاتين الآيتين الكريمتين أدركت قبح الخطأ الفاضح الذى يتورط فيه أولئك الذين يلتمسون الذرية من ولى صالح أو من قبر هامد أو من جبل أو صخرة أو شجرة أو ينـــبوع مـــاء أو غـــير ذلك مما يشد الرجال والنساء إليه الرحال، فى طلب النسل والذرية.

وثنية أشر من وثنية الجاهلية، وكفر عميق بقدرة الكريم الوهاب، وإعراض عن رب العـــزة الـــذى بيده ملكوت كل شئ. وانقياد لوسوسة الشيطان ثم يزعمون بعد أنهم مســـلمون، ولا أدرى مـــتى يثوب هؤلاء إلى رشدهم، ويقفون على الحق من أمرهم، ويعرفون حقيقة دينهم، ويجردون توحيد ربهم؟ لاأدرى متى يتنبه الناس لمكان الشيطان. ويقـــبلون عـــلى توحيد الرحمن ويعلمون أن لله الخلق والأمر، فلا يلتمسون من سواه حاجه، ولا يبتغون من غيره إبانة؟

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُــونَ لَكُــمْ رِزْقًــا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت١٧].

هذا و لم تذكر المواهب الخاصة التى يختص الله الكريم الوهاب بها من يشاء من عباده فقد يهب الله لبعض عباده مخيلة قوية خصبة تعينه على أن يخترع من الآلات ما يكون لــــه أحسن الأثر فى عمران هذه الدنيا، وفى إيتاء الأرض زينتها وزخرفها. والآلات التى جادت بها قرائح المخترعين أكثر وأظهر من أن تستوعب فى هذه العجالة.

وقد يهب الله لبعض عباده ملكة البيان والتبريز فى الخطابة أو الكتابة أو الشعر فيأتى بالمعجــب المطــرب الذى يجعل الجماهير مفتونة بقائله معلقة القلوب بلسانه أو بنانه، يقيمهم ويقعدهم، ويبكيهم ويضحكهم، ويسيطر على عواطفهم وأفكارهم ويأمرهم وينهاهم فيكونون أطوع لــه من ظله، وأذل لــه من نعله.

وقــد يهب الله لبعض عباده نفوذاً ذاتياً يستحوذ به على الناس ويتحكم فى إرادتهم فيصبح لهم زعيماً يأتمرون بأمره ويتجهون حيث يوجههم وهم لــه منقادون. ولأمره مطيعون فاللهم هب لنا من التوفيق ما تصلح به ديننا الذى هو عصمة أمرنا ومن الخير مــا تصلح به دنيانا التى هى معاشنا، ومن المغفرة ما تصلح به آخرتنا التى هى معادنا. وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

الفتــاح

اســم فــاعل للمــبالغة من الفتح وهو إزالة الإغلاق، والمطر والنصر وافتتاح دار الحرب، والإلهام، والحكم بين خصمين.

فإن فسرناه بالمعنى الأول. وهو إزالة الإغلاق كان معناه الذى يكثر من فتح أبواب الرزق والرحمة لعباده.

ومــن غــير الله يفــتح أبواب الرزق والرحمة للعباد وهو الذى كفل الرزق لسائر الأحــياء فقــال عــز من قائل: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ إِلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود٦].

ومن ذا الذى لا ينعم برحمة الله وقد وسعت كل شئ.

فمـــا أكـــثر ما يفتح الله لعباده من أبواب الرزق والرحمة، إذ ما من حى إلا فتح لـــه باب رزق يقيم أوده ما قدر لـــه أن يعيش والأحياء جميعهم مغمورون برحمته وأرزاقه المعنوية، من الهداية والتوفيق والذكاء، والعلم والإلهام ومضاء الكلمة لا تدخل تحت حصر.

وإذا فـــتح الله تعالى للناس أبواب رحمته الواسعة فلن تستطيع قوة فى الوجود دون قوته تعالى أن تمسك هذه الرحمة أو توصد ذلك الباب.

قـــال تعـــالى فى سورة فاطر: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر٢].

وقـــال تعالى فى سورة الزمر: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِـــى بِـــرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِىَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر٣٨].

ولقد ألحد فى أسماء الله تعالى من ابتغى فتح أبواب الرزق والرحمة من غير الله تعالى، لأنـــه جـــرد هذا الاسم الجليل من معناه، وخلع هذه الصفة القدسية على غير مولاه، والفـــتاح العلـــيم يقول: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت١٧].

ويقول تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء١٠٠].

فمن أعجب العجب ومن أدل الأشياء على تعطيل العقل وشلل الإدراك، أن يترك الإنسان أبواب الفتاح العليم الذى وسعت رحمته كل شئ. ويبتغى حاجته عند القتور الذى أحضرت نفسه الشح.

إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء من عبادك وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين.

الذين يؤمنون إيماناً يملأ قلوبهم، ويسيطر على أنفسهم بأن الفتاح اسم من أسماء الله الحسنى لا يبتغون الفتح عند غيره، ولا يلوذون بباب أحد سواه، بل يستفتحون أبواب فضله ورحمته،وكلهم ثقة به وتوكل عليه، وقد جعل الله تعالى من مفاتح رحمته الإيمان

والتقوى فمن استفتح بالإيمان والتقوى أبواب الرحمة فتح الله عليه، وأتاه من لدنه رحمة قال تعالى فى سورة الأعراف: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف٩٦].

وقـــد يعـــترض بعض الغافلين قصار النظر بأن الكفار والفاسقين كثيراً ما ينعمون بـــأرزاق واسعة، ونعم ضافية وهم ليسوا على شئ من إيمان ولا تقوى. ولو أن هؤلاء المترضين تدبروا الأمر بعض التدبر لتبين لهم أن للأرزاق أسباباً تتوقف عليها، ووسائل تـــؤدى إلـــيها، واتخاذ هذه الأسباب إيمان بنواميس الله وسنته، واتقاء لأسباب الفقر والعوز. فمن اتخذ للرزق أسبابه وسلك إليه سبله آتاه الله منه وهو سبحانه يقول: ﴿مَنْ كَـــانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى٢٠].

ويقول عز من قائل: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء ١٨].

هـــذا وقد يجعل الله ما يفتح به من الخير على بعض الناس فتنة واستدراجاً، لينظر كيف يعملـــون. قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء٣٥].

وقـــال تعـــالى: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران١٧٨].

وقال تعالى فى سورة المؤمنون: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ﴾[المؤمنون٥٥].

وقال تعالى فى سورة القلم: ﴿فَذَرْنِى وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم٤٤].

وقـــال تعالى فى سورة الأنعام: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام٤٤].

والعاقل الأريب من ينتفع بالعظات والنذر، ويعتبر بما أنزل الله فى كتابه من البينات والعبر.

فإذا فتح الله عليك نعمة من نعمه، فلتحرص على أن تشكر لـــه، وأن تؤدى حق هـــذه النعمة، بأن تستعملها فى الوجوه التى حقها أن تستعمل فيها، ليزيدنك الله من فضله ورحمته ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم٧].

والمعنى الثانى وهو المطر لا يبعد عن الأول كثيراً فقد جاء فى الأساس: فتح الله عليه فـــتوحاً كثيرة إذا أمطرهم أمطاراً. فيكون معنى الفتاح. على هذا مرسل المطر. والمطر أصل الرزق قال تعالى: ﴿وَفِى السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات٢٢].

وقـــال تعـــالى فى سورة الروم: ﴿اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِى السَّـــمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِىَ الْفُلْـــكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم٤٦]. فرحمته هنا هى المطر الذى يبشر به إرسال الرياح.

فالفـــتاح الذى يفتح أبواب السماء بماء منهمر. وينزل الغيث ليحيى به الأرض بعد موتهـــا، وهـــو الله تعالى وحده لا شريك لـــه، فالتماس المطر من غيره تعالى شرك، ونسبة المطر إلى غيره تعالى كفر.

روى الـــبخارى فى صـــحيحه من حديث زيد بن خالد الجهنى: أنه قال صلى لنا رســـول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليلة فلما انصرف النبى صلى الله عليه وسلم أقبل الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال (أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بى وكافر بالكواكب. وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بى ومؤمن بالكواكب).

وإذا كـــان الفـــتح بمعنى النصر كان معنى الفتاح الكثير النصر الذى ينصر رسله، وينصر أوليائه، وينصر المجاهدين فى سبيله، وينصر من ينصره.

وللنصر أسباب أوجب الله على أوليائه أن يأخذوا بها منها الإيمان والتقوى والثبات ومضاء العزم وتصحيح النية على إعلاء كلمة الله تعالى وإعداد العدة.

قال تعالى فى سورة الحج: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج٣٨].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِى عَزِيزٌ﴾ [الحج٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت٦٩].

وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِى سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال٦٠].

تلك بعض أسباب النصر كما بينها الفتاح العليم جل شأنه فمن أخذ بها فتح الله عليه ونصره ومن اعتمد على غيرها خذله الله.

عزم الروس على افتتاح بخارى فقال أهلها: إن (شاه نقشيد) حاميها، وأغفلوا الأخذ بأسباب النصر اعتماداً على (شاه نقشيد) فخذلهم الله.

وعزم الفرنسيس على امتلاك مدينه فاس بمراكش فقال أهلها إن مولاهم إدريس حارسها، وفرطوا فى أسباب الدفاع عنها، فخذلهم الله وما أغنى عنهم مولاهم إدريس شيئاً وعزم نابليون على فتح مصر، فجلس علماء الأزهر فى مسجدهم يتلون صحيح البخارى. وليست تلاوة صحيح البخارى من الأسباب التى جعلها الله تعالى للنصر. فغلبوا على أمرهم.

فربك هو الفتاح الذى يؤيد بنصره من يشاء قال تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِى بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِى أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة٥٢].

فالفتح فى هذه الآية الكريمة هو النصر الذى يؤيد الله به الذين آمنوا وجاهدوا فى سبيله.

وإذا فسرنا الفتح بمعنى افتتاح دار الحرب فيكون معنى الفتاح قريباً من المعنى السالف، ويفسر بالكثير العون للمؤمنين الذين يؤيدهم بنصره. ويفتح لهم بلاد أعدائهم ويورثهم أرضهم وديارهم ويكون من هذا المعنى قوله تعالى (إذا جاء نصر الله والفتح) إذا فسر الفتح بفتح مكة حرسها الله.

وإذا فسر الفتح بالإلهام كان معنى الفتاح الذى يكثر أن يلهم من شاء من عباده من العلوم والمعارف، ما يكون مظهراً لأسمائه الحسنى وصفاته العلا. ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة٧٦].

وقد فتح الله على أنبيائه ورسله بما علمهم من الكتاب والحكمة، وفتح على أوليائه بما منحهم من العلوم والمعارف التى هداهم بها صراطه المستقيم، وأنار بها قلوبهم وبصائرهم، وقربهم من حظيرة قدسه، وفتح على العلماء الذين علمهم أسرار كتبه، وهداهم إلى النظر فى ملكوت السماوات والأرض ليقفوا على أسرار ملكوته، وفتح على الباحثين الذين وقفهم على أسرار الوجود، وعلمهم نواميس الكون، وهداهم إلى معرفة القوانين الأزلية والسنن الكونية التى نظم بها هذا العالم، وأخفاها عن الناس ليفتح بها على من شاء من خلقه ممن تعرضوا بجدهم واجتهادهم لهذه النفحات الإلهية، كقوانين الجاذبية والضوء والصوت والكهرباء والمغناطيسية وآثارها من البرق السلكى وغير السلكى والمذياع وغير ذلك من أسرار هذا الوجود، وكجراثيم الأمراض والأدوية التى تفتك بها وتقى الناس شرها وغير ذلك مما فتح الله به من العلم والمعرفة على من اختارهم ليكونوا مظهراً لاسمه تعال الفتاح تبارك وتعالى.

وإذا فسر الفتح بالفصل بين خصمين أو الحكم بين الناس كان معنى هذا الاسم الجليل الكثير الفصل بين العباد.

ويبدو أن هذا المعنى هو أصح ما يفسر به هذا الاسم الجليل من أسمائه تعالى الحسنى وإذا تدبرت وجدت جميع المعانى السابقة منطوية فيه.

ففى فتح أبواب الرزق والرحمة لعباده، إذ منهم من يقضى لهم ببسطة العيش وسعة الرزق ومنهم من يقدر عليه ويقضى عليه بالحرمان.

وفى إرسال المطر حكم بين العباد كذلك، إذ يصيب به من يشاء، ويصرفه عمن يشاء بمقتضى حكمته، فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم مستبشرون.

والنصر حكم بين الغالبين والمغلوبين، والمؤمنين والكافرين وافتتاح دار الحرب كذلك حكم بالنصر والتأييد للمؤمنين، وبالهزيمة والخذلان على الكافرين.

وإذا تدبرت الآية الفذة التى ورد بها هذا الاسم الجليل، ألفيتها توائم هذا المعنى كل المواءمة. تدبر قوله تعالى فى سورة سبأ: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ٢٦].

تجد الله تعالى يأمر نبيه أن يقول لهؤلاء المشركين الذين كذبوه وأنكروا رسالته: سيجمع الله بيننا يوم القيامه ثم يحكم بيننا بالحق وهو الحكم العدل الذى يقضى بحق ويحكم بعلم. وسيتضح المحق منا والمبطل.

ويؤيد هذا قوله تعالى فى سورة الأعراف: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف٨٩].

أى ربنا احكم بيننا وبين قومنا بالحق وأنت أحكم الحاكمين وقوله تعالى فى سورة السجدة: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [السجدة٢٨].

يقص الله تعالى علينا أن الكفار يسألون النبى صلى الله عليه وسلم سؤال المنكر المكذب المستبعد فيقولون: متى يأتى اليوم الذى يقع فيه الفصل بين الناس؟ ويخبرنا تعالى أنه يأمر نبيه الأمين أن يقول لهم: إذا جاء يوم الفصل انقطعت الأطماع، وضاعت الفرص ويئس الكافرون من رحمة الله، إذ لا ينفع الإيمان عند معاينة العذاب، والفصل بين العباد.

وربك هو الفتاح العليم: فكم فتح بين الأنبياء وأقوامهم!

لقد فتح بين نوح وقومه فأغرقهم بظلمهم، ونجى نوحاً والذين آمنوا معه برحمته، وفتح بين هود وقومه، فأرسل عليهم ريحاً صررا عاتية سخرها عليهم سبع ليال و ثمانية أيام حسوماً. ونجى هوداً والمؤمنين معه. وفتح بين صالح وقومه حين عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم فأرسل عليه صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتضر وكتب لصالح النجاة والسلامة مما أصاب الظالمين.

وفتح بين لوط وقومه فنجاه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين. أمطروا مطر السوء وكانوا من الهالكين. وفتح بين شعيب وقومه فأنجاه وقطع دابرهم. وفتح بين

موســـى وفرعون، فنجى موسى ومن معه من بنى إسرائيل، وأغرق فرعون وجنده بما كانوا يظلمون.

ولم يزل سبحانه فتاحاً عليماً يقضى بالحق، والذين يدعون من غيره لا يقضون بشئ. فــتح بــين المؤمنين والمشركين يوم بدر. فنصر الموحدين وكانوا أذلة، قليلاً عددهم وعــتادهم، وهزم الكافرين وكانوا كثرة موفورة العدد والعتاد. نصر المؤمنين فى جميع المواقع مع المشركين ولكنه أذن أن يصيبهم القرح يوم أحد ويوم حنين تربية لهم وتأديباً حــتى يعــلموا أن سنة الله مطردة لا تتخلف وأن النصر من عند الله. وهو يقضى بين الأمم المتحاربة إلى يوم القيامة. فيكتب النصر لمن أخذ بأسبابه والهزيمة على من فرط فى جنب أسباب النصر. قل اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة.

أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون.

الحليـم

قال الفيروزآبادى فى القاموس المحيط: الحلم الأناة والعقل وجمعه أحلام وحلوم.

وقــال الراغب: الحلم ضبط النفس عند هيجان الغضب وجمعه أحلام وليس الحلم هو العقل، ولكن فسروه بذلك لأنه من مسبباته.

وقــال ابن الأثير: الحليم هو الذى لا يستخفه شئ من عصيان العباد، ولا يستفزه الغضب عليهم ولكن جعل لكل شئ مقدار فهو منته إليه.

والحــلم الأناة والتثبت فى الأمور وذلك من شعار العقلاء وقال الفيومى فى المصباح المنير: حلم بالضم حلما بالكسر صفح وستر فهو حليم.

وفى الأساس: الله حليم عن العصاة لا يعاجلهم بالعقاب. هذه أقوال أساطيل أئمة اللغة ومنها تدرك أن الحليم إذا وصف به المخلوق فهو الأناة والتثبت فى الأمور والعقل وما يترتب عليه من ضبط النفس عند هيجان الغضب.

وإذا وصف به رب العزة سبحانه فهو الصفح والستر وعدم المعاجلة بالعقاب على عصيان العباد.

فربــنا سبحانه حليم لا يستخفه شئ من عصيان عباده، ولا يستفزه الغضب عليهم إذا أذنــبوا، ولكنه يستر ويصفح عن الصغائر إذا اجتنبت الكبائر، ولا يعاجل بالعقوبة مــرتكبى الكفر والشرك والنفاق وكبائر الإثم والفواحش بل يجعل لهم وعداً لن يجدوا من دونه موئلاً.

وإذا استقرأنا ألفاظ لغة العرب وغيرها من لغات البشر التى نعرفها، لم نجد لغة منها وضعت ألفاظاً خاصة لتعبر عن صفات رب العزة وأسمائه تعبيراً صحيحاً دقيقاً يصور

حقائقها، ويوضح عين المراد منها، فكان لزاماً أن نستعير الألفاظ الدالة على صفات البشر لنعبر بها عن صفات الله تعالى مع اليقين بأنها لن تبلغ حقيقة المعنى، ولن تصور منه إلا الجانب الذى تستطيع عقول البشر القاصرة أن تدركه وتتصوره وحقائق صفات البارئ وأسمائه فوق مدارك المخلوقين ووراء متناول عقولهم.

وقد اقتضت رحمة الله تعالى بعباده أن خاطبهم بلغاتهم، ووصل إليهم القول متخذاً ألفاظها أداة للتعبير عن أسمائه وصفاته، وأنزل الكتب السماوية متضمنة للألفاظ الدالة على هذه الأسماء الحسنى والصفات العلا ليدرك منها البشر ما يتسنى لعقولهم أن تدركه، ويبلغوا من العلم بها ما يتيسر لمداركهم أن تبلغه، فإن الإحاطة بحقائق هذه الأسماء والصفات ودقائق معانيها مما ينبغى ألا تطمح إليه العقول. ومثل ذلك - ولله المثل الأعلى - كمثل النقطة الهندسية التى لا يمكن رسمها فى حقيقتها مهما يبلغ القلم من الدقة والرقة. وما النقطة التى يضعها المهندس بقلمه على الورقة إلا دليل على مكانها، أما حقيقتها فلا يمكن إصابتها بقلم ولا رسمها بمداد.

إن بين حلم الله تعالى وبين حلم المخلوقين من الفرق، أبعد مما بين السماء السابعة والأرض. فنحن نطلق كلمة الحليم على الرجل العاقل الكامل الحجا الذى يضبط نفسه عند موجبات الغضب، ويكفها عن أن تسترسل مع النزوات، يتدرك سفيه بكلمة خبيثة تثير الغضب، وتنبه الحفيظة، وتوقظ الحمية وتستفزك إلى الانتقام، لكنك تصطنع الأناة وتستجيب لنداء العقل، فتكظم غيظك، وتملك نفسك، وتفثأ حرارة غضبك، وتقلم أظفار ضغنك، وتلقاه كأنه لم يقل، وكأنك لم تسمع، فأنت إذاً الحليم الرشيد الذى يستوجب الثناء من عارفين، ويستحق الحمد من معاشريه.

فهأنت قد استحققت وصف الحليم لأنك صبرت على كلمة نابية وكظمت دونها غيظك.

فإن شئت أن تعرف كيف يكون الحلم حقا، وكيف يتجلى فى أروع مظاهره وأجمل صوره، فذلك حلم ربك تعالى جده.

تصور مبلغ ما يقع من البشر فى كل طرفة عين، وفى كل بقعة من بقاع الأرض من الفظائع والمنكرات والفواحش والموبقات التى حرمها رب العزة مع إمهاله تعالى لمقترفيها، وإملائه لمجترحيها، لم يعاجلهم بالعقوبة، ولم يؤاخذهم بما كسبوا وهو على سحقهم إذا يشاء قدير ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ

دَابَّــةٍ وَلَكِــنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [فاطر٤٥].

ذلك هو الحلم حقا، ذلك هو الحلم إذا وصف به رب العزة ذو الجلال والإكرام، ذلــك هو الحلم الذى يسع سفه الخلق جميعاً، سفه دنيا طافحة بالشرور والآثام على حين أن أحلم حلماء البشر لحلمه حد ينتهى عنده، وغاية يقف دونها.

ذلك هو الحلم حقاً، حلم المنعم المتفضل الذى منح الناس نعمة الحياة والصحة بعد نعمة الوجود، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، وزود أجسامهم بما هو ضرورى لحــياتها من الوظائف والأعضاء، وأمدهم بأنواع من الهدايات تكفل لهم سعادة الدنيا والآخــرة، وخلــق لهــم ما فى الأرض جميعاً، وأمدهم بنعم لو حاولوا إحصاءها لم يســتطيعوا إليه سبيلا. ثم هم بعد ذلك ينكرون وجوده أو يشركون به إنساناً لا يملك لهــم نفعــاً ولا ضرا، أو ميتاً قد انقطع عمله بانقطاع حبل حياته، أو حيواناً لا عقل لــــه، أو طــيراً لا يــرد عن نفسه سهم الصياد، أو شجرة لا تدفع عن نفسها فأس الحطــاب، أو حجراً جلموداً يستطيع أقل الناس قوة و أضعفهم منة أن يحطمه ويجعله جذاذاً أو يخلعون صفاته العلا على المخلوقين العاجزين، فينسبون لهم القدرة على النفع والضــر، وشفاء الأمراض وتيسير الأرزاق وهبة الذرية، وهم من أجل ذلك يعبدونهم، ويدعونهــم، ويضرعون إليهم ويستعينونهم، ويستغيثونهم، وينذرون لهم، وقد يسفون فيعــبدون أعوادا يطوفون من حولها، ويتمسحون بها، ويحلقون رءوس أبنائهم عندها، ويلتمســون منها البركات وتفريج الكربات، ودفع الأزمات، أو يجاهرونه بالمعصية، وينــتهكون حــرماته، ويتعدون حدوده، ويعادون أنبياءه ورسله، ويملأون صدورهم سخائم وضغائن وإحناً على من يأمرون بالقسط من عباده.

ثم هــو بعد هذا كله لا يزال يبقى عليهم نعمة الحياة والصحة والرزق، ويتولاهم بالحفظ والرعاية، فلا تزال قلوبهم تنبض، وتوزع الدم على أعضاء الجسم ليمده بما فيه قــوام الحياة، ولا يزال يحفظ عليهم أسماعهم وأبصارهم وسائر حواسهم لا يكلهم إلى أنفســهم، ولا يأمــر الأرض أن تميد بهم، ولا الجبال أن تطبق عليهم؛ ولا الكواكب والــنجوم أن تــتهاوى رجومــا فوق رءوسهم بل ما برحت الأرض تقلهم والسماء تظلهم، والأنهار تجرى من تحتهم، والغيوث تنهل من فوقهم، وما انفك الهواء ينسم لهم ويــندى عــلى أكبادهم، والشمس تبعث أشعتها الهفافة تضىء لهم وتبعث الدفء فى أبدانهم.

هــذا مثل من الأمثلة التى توضح لك بعض مظاهر حلم الله تعالى على عباده وإنك لواجــد فى كل لحظة ونفس وفى كل موضع أنملة من سطح البسيطة مظهراً رائعاً من مظاهر اسمه تعالى «الحليم».

غير أن حلم الله تعالى ليس بانفعال ولا بكبت عاطفة، ولا بكبح نزوة، ولا بتهدئة ثورة ولا بضبط نفس، لا إجالة ذهن، لا حركة فكر، ولا تفكير فى عاقبة، ولا بشىء مما يبعث على الحلم فى نفوس الحلماء من المخلوقين، وليس لــه غاية يقف عندها، ولا حد ينتهى إليه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

ورد هذا الاسم الجليل من أسماء الله الحسنى فى القرآن الكريم فى اثنى عشر موضعاً. جــاء فى ســتة منها مقارنا لاسمه تعالى الغفور، سابقا عليه مرفوعا فى أربعة مواضع، ولاحقــاً لــــه منصوبا فى موضعين وورد مقارنا لاسمه تعالى العليم فى أربعة مواضع، ومقارنا لاسمه الشكور مرة، ولاسمه الغنى مرة.

فإذا تدبرت الآيات الكريمة التى ورد فيها مقارنا لاسمه تعالى «الغفور» تبين لك أنه يشــير إلى أنــه تعالى لعظم حلمه لا يعاجل عباده بالعقاب، ولا يعاقبهم فور اقترافهم الخطيئة بل يمهلهم طول حياهم حتى إذا تابوا فى أى وقت قبل احتضارهم جبت التوبة ما اقترفوا من الذنوب، وغفر لهم وكفر عنهم سيئاهم.

وإذا تدبــرت الآيات التى جاء فيها مقارنا لاسمه تعالى العليم ظهر لك أنها تشير إلى أن الله تعالى مع علمه بما يقترف العباد فى سرهم وعلنهم، وبما يسرون من المعاصى وما يعلنون يحلم عنهم ولا يعاجلهم بالعقوبة بل يؤخرهم إلى الأجل الذى كتب لهم.

وعلــيك أن تتدبر الآيات الأخرى التى ورد فيها ذلك الاسم الجليل ليكشف لك تدبرها ما تنطوى عليه من أسرار.

سبحانك ربى وتعاليت!

مــن ذا الذى يحيط علما بحقائق أسمائك الحسنى، وأسرار صفاتك العلا؟ جمعت فى أسمــائك الحسنى بين الأول والآخر، والباطن والظاهر، والمنتقم الجبار، والحليم الغفار فبصرنا اللهم بأسرار أسمائك وصفاتك .

مر الوجود يشف عنك لكى نــرى غضب الحليم ورحمــة الجبــــار.

المقيت

اسم فاعل من أقات الشيء إذا حفظه، أو شهده، وأقاته أعطاه قوته، وأقات عليه اقتدر. فهو بمعنى حافظ. أو شاهد أو معطى القوت أو مقتدر.

وقد اتصف رب العزة سبحانه، بهذه المعانى كلها على أكمل الوجوه، وأتمها وأشملها وأعمها.

فأياً ما أردت منها بهذا الاسم الجليل فهو حق والله تعالى متصف به مادامت اللغة تقره، والواقع لا يأباه، والعقل لا يرفضه.

فإن قلنا: أن المقيت هو الحافظ، فهو سبحانه الحافظ لكل ما فى السماوات والأرض يحفظ النجوم فى أفلاكها، والكواكب فى مداراتها، والطير فى جو السماء، والسمك فى أعماق الدأماء، والرياح فى مهابها، والنمال فى مدابها، والحشر فى مساربها.

يحفظ للأرض خواص إنباتها، وللشمس قوة إشعاعها وقوة حرارتها، ولمعة ضيائها، وللحياة تقلباتها من بخار إلى سحاب إلى أمطار تجرى بها الأنهار، ويحفظ الحياة على كل كائن حى، ويحفظ الفلك تجرى فى البحر بأمره، والسماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، والأرواح فى أبدانها، والأشباح فى متقلبها ومثواها، والأذهان فى مجالاتها، والأفكار فى خلجاتها، والأناسى فى غدوهم ورواحهم، ويقظتهم ومنامهم، والشياطين حين يغوصون والجن حين يعملون ﴿وَمِنْ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ [الأنبياء٨٢].

وما من شيء فى السماء والأرض، ولا كائن فى الوجود إلا هو مقات بإقاتته، محفوظ بحفظه، قائم برعايته. إن ربى على كل شيء حفيظ.

فسبحانه من مقيت يتولى خلقه بالرعاية، ويحوطهم بالعناية، ولو تركهم لأنفسهم طرفة عين لكانوا من الهالكين.

ولا يصح أن ترجى الإقاتة والحفظ إلا منه سبحانه إذ لا يملكها سواه، فطلبها من غيره شرك به تعالى وإلحاد فى أسمائه الحسنى، وإنكار لتفرده بصفاته العلا. سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وإن قلنا: أن المقيت معناه الشاهد، فهو سبحانه الشاهد لكل شيء وعلى كل موجود لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء، ما جالت عين، ولا اختلج

فكر، ولا هجس خاطر، ولا طمحت نفس، ولا تكلم لسان، ولا بطشت يد، ولا سعت قدم إلا كان على ذلك مقيتاً شاهداً له لا يغيب عنه ولا يخفى عليه ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلا فِى السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس٦١].

فهو المقيت الشاهد لكل شئ، المطلع على الظواهر والبواطن، والخفى والمعلن، وطاعة المطيعين وعصيان العاصين، وحكم الحاكمين ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ [الأنبياء٧٨].

ولو استشعر الناس إقاتة الله تعالى بهذا المعنى لحال الحياء منه دون اقترافهم المعاصى، وانغماسهم فى الآثام، ولأضنوا أنفسهم فى طاعته وعبادته، ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ [المؤمنون٦٣].

وإن قلنا: إن المقيت معناه من يعطى كل حى قوته، فهو جل شأنه مقيت كل حى من الحيوان والنبات ومعطيه قوته. فقد سبق فى علمه وحكمته أنه سيجعل فى الأرض خليفة فقدر لهم أرزاقهم من قبل أن يخلقهم حتى إذا مشوا فى مناكب الأرض وجدوا فيها أقواتهم، قدر لهم أرزاقهم من الحيوان والنبات والمعدنيات، وقدر للحيوان والنبات أقواتها كذلك فجعل فى الأرض غذاء النبات، وجعل النبات غذاء الحيوان.

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [فصلت٩].

سبحانه ما شق فماً و إلا أجرى له رزقاً، ولا خلق معدة إلا هيأ لها طعاماً، ولا أوجد كائناً حياً إلا أعد له قوته ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ إِلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود٦].

ومن عجب أن الجيل يمضى ويخلفه الجيل، فيجد أقواته تامة موفورة، وأرزاقه كاملة ميسورة، تمطر السماء وتنبت الأرض، وتنمى الحرارة، وتنضج الشمس، وتتيسر الأرزاق، وتتوافر الأقوات، بيد أنه علقها على أسبابها، وناطها بوسائلها ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك١٥].

فمن ضرب فى مناكب الأرض سعياً وراء رزقه تيسر له، ومن لزم عقر داره جر الحرمان إلى نفسه ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة١٠].

نوع الله سبحانه أسباب الإقاتة، فهذا يقتات من زراعته، وذاك من تجارته، وذلك من صناعته، وآخرون من أعمالهم المتنوعة، وأسبابهم المختلفة والطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً، والأفرخ الضعاف الزغب الحواصل، وصغار الحيوان سخرت لها أمهاتها ترضعها ألبانها أو تزقها، أقات سبحانه كل ذى روح حتى الأجنة فى بطون الأمهات، ورزق كل حى حتى الطفيليات، والشجر والنبات لعجزها عن الغدو والرواح جعل الله قوتها فى الهواء، والتربة المثبتة بها.

وسخر الحكومات فى أوقات الشدة والأزمات، تنشئ لتموين الشعوب إدارات ووزارات، حتى لا تقتلهم الحاجة، ولا تفتك بهم المجاعات، إن فى ذلك لآيات بينات، تشهد بأنه المقيت الحق واهب الأقوات، ولكن أكثر الناس عن فضله غافلون، وبالضعاف الفقراء من خلقه متعلقون.

وإن قلنا: إن المقيت معناه: المقتدر، فهو سبحانه مقتدر على كل شئ وكل ما فى الوجود من أرض وسماء، وظلام وضياء، وشموس وأقمار، وسحب وأمطار ورمال وأحجار، وجن وبشر، وطير وشجر، وصادح وباغم، وصامت وناغم، آيات شاهدة باقتداره، ناطقة بحمد آثاره.

إن قانون الماء فى تبخره من البحار، وهطوله فى الأمطار، والزرع فى إخراج شطئه، واستوائه على سوقه، ثم نضجه لأروع الآيات على اقتدار القادر المقيت سبحانه ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس٢٤].

وبعد هذا فهل نجد معنى من هذه المعانى فى نبى مرسل أو ملك مقرب؟ فكيف نجده فى صديق من الصديقين أو صالح من الصالحين؟

أم كيف نجده فى شهيد من الشهداء أو ولى من الأولياء؟

فلم يدعوهم الناس من دون الله؟

ولم يسألونهم شفاء الأمراض، وقضاء الحاجات، وجلب الخيرات ودفع المضرات، وليس أحد منهم على شئ بمقتدر ولا مغيث؟ ولم يعرضون عن المليك المقتدر الذى لايعجزه شئ فى الأرض ولا فى السماء؟

هذه جاهلية نعوذ بالله منها!

هذه وثنية نبرأ إلى الله من معتنقيها!

هذه هى الثمرة المرة للغفلة المستحوذة، والضلال المستحكم، وامتهان الكرامة الإنسانية، وإهدار العقل الذى هو أجل هبات الله تعالى للعباد.

آيات الله تعالى فى كل موضع أنملة فى السماء والأرض ناطقة بوحدانيته، وتفرده بالتصرف فى ملكه، وقدرته المطلقة، وإقاتته للأحياء من خلقه، وليس لكائن معه تصرف فى مثقال ذرة ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ٢٢].

تلك آيات الله تتلى على الناس بالحق، ولكن أكثرهم غافلون ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج٤٦].

ولم يرد هذا الاسم الجليل فى القرآن الكريم إلا فى موضع واحد، وهو محتمل لأكثر المعانى التى ذكرنا، وذلك حيث يقول الله تعالى فى سورة النساء: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا﴾ [النساء٨٥].

نسألك اللهم يا مقيت أن تجعل القرآن الكريم قوت قلوبنا، وأن تبصرنا بمعانى أسمائك الحسنى وصفاتك العلا، إنك على كل شئ مقيت.

الشاكر.. الشكور

الشكر عرفان الجميل ونشره، أو تصور النعمة وإظهارها، أو مقابلة النعمة بالقول والفعل والنية، فيثنى من وصلته النعمة على المنعم بلسانه. ويذيب نفسه فى طاعته ويعتقد أنه موليها.

ذلك ما قاله أئمة اللغة فى تعريف الشكر. وقالوا: أنه مأخوذ من شكرت الدابة إذا ظهر عليها أثر المرعى أو العلف. لأن الشاكر يظهر عليه أثر نعمة المشكور، أو من شكر الضرع إذا حفل وامتلأ باللبن. لأن الشاكر يمتلئ من ذكر من أنعم عليه. ومهما

تختلف عبارات اللغويين عن الشكر فإنها تلتقى جميعاً عند معنى واحد يتألف من ثلاثة عناصر: اعتقادى ولفظى وعملى.

فالاعتقادى: هو اليقين بأن هذه النعمة جاءت على يد هذا المنعم ومن طريقه. وهو ما عبر عنه بعض اللغويين بقوله: تصور النعمة. وعبر عنه غيره بقوله عرفان الجميل. وهو المراد بقول الآخر: مقابلة الفعل الجميل بالنية.

واللفظى: هو الثناء الجميل على المنعم. أى إظهار النعمة باللسان، ومقابلتها بالقول الكريم.

والعمل إظهار النعمة ونشرها بالعمل واستعمال الجوارح فى طاعة المنعم. فإذا علمك صانع صناعة تستدر منها رزقك، فانطوى قلبك على الاعتراف بفضله وأثنيت عليه بلسانك، وأسديت بيدك إليه عوناً كنت له شاكراً.

ولا يتم الشكر إلا بتوافر هذه العناصر الثلاثة.

قال الشاعر:

أفادتكم النعماء منى ثلاثة   يدى ولسانى والضمير المحجبا

والشكر مثل الحمد إلا أن الحمد أعم منه، فانك تحمد الإنسان على صفاته الجميلة ومواهبه، كما تحمده على معروفه، ولكنك لا تشكره إلا على معروفه دون صفاته ومواهبه.

وربك الكريم هو مولى النعم جميعاً.

فلن تبلغ حقيقة الشكر إلا إذا امتلأ قلبك يقينا بأنه سبحانه المسدى جميع ما تنعم به من خير، ثم أعربت عن عقيدتك هذه بلسانك، وأوضحتها ببيانك، وأثنيت عليه الثناء الحسن الجميل، وأنت موقن أنك لا تحصى ثناء عليه ثم صرفت كل نعمة من نعمه إلى الوجه الذى من أجله سبحانه تفضل بها عليك.

وقد حرص الشيطان – عليه اللعنة – على أن يصد الإنسان عن بلوغ حقيقة الشكر وقد أخبرنا الله تعالى بذلك لنأخذ منه حذرنا، فقال تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى لأقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف١٦].

وعلى الرغم من أن الله سبحانه حذرنا من كيد الشيطان وبصرنا بوسوسته أبى الإنسان بغفلته إلا أن ينقاد له ويتبع خطواته، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ٢٠].

ولا جرم أن هذا الفريق هو القليل الذى ذكره رب العزة بقوله: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ١٣].

هذا ولصعوبة الارتقاء إلى ذروة الشكر لم يثن الله تعالى بالشكر إلا على اثنين من أولى العزم من الرسل، وهما نوح وإبراهيم عليهما السلام.

قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم٥٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل١٢٠].

وكان خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم يحرص على أن يبلغ حقيقة الشكر ويكون من الشاكرين، فكان يقوم الليل فى عبادة ربه حتى تورمت قدماه فلما قيل له: كيف تفعل ذلك، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال (أفلا أكون عبداً شكوراً؟).

هذا هو شكر المخلوقين بعضهم لبعض، أو شكرهم لرب العزة سبحانه.

وإنما كتبت فيه بإفاضة وإسهاب ليكون تمهيداً لبيان حقيقة الشكر الذى وصف رب العزة به نفسه، وقد رأيت أن شكر المخلوقين فى مقابل نعمة نالت الشاكر، وأنت على يقين من أن ربك سبحانه مولى النعم كلها، وما لأحد عنده من نعمة تجزى، بل هو الكريم الوهاب الذى غمر الخلق بنعمته. فما حقيقة الشكر المضاف إليه تعالى؟

إذا شئت أن تقف على حقيقة الشكر الذى أثنى به رب العزة على نفسه بالوصف المشتق منه - وهو الشاكر والشكور - فتصور العناصر الثلاثة التى جلوتها عليك لتخلص من تصورها إلى الوقوف على حقيقة الشكر.

أما العنصر الاعتقادى أو النفسى فيقابله علم الله تعالى بما يأتيه العبد من نوايا الخير، وأفعال البر، وصادق الطاعات وما يدعه من نيات الشر، وأعمال السوء وقبيح المعاصى. ولذلك تجده تعالى يقرن الشكر بالعلم فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ

شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة١٥٨].

وفى قوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء١٤٧].

وأما العنصر اللفظى فيقابله ثناؤه تعالى على المطيعين المخلصين من عباده كقوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران١١٣].

وقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ [الفرقان٦٣].

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(١٨)أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ(١٩)الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾[الرعد٢٠].

أما العنصر العملى فيقابله ما أعده الله للعاملين من حسن المثوبة وعظيم الأجر والنعيم المقيم كما قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِى يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ [الكهف٣٠].

ومن كل ما تقدم تستطيع أن تستنبط أن معنى اسمه تعالى (الشاكر) أنه الذى يعلم ما يعمل عباده من خير، ويثنى عليهم بنسبته إليهم، ثم يجزيهم به الجزاء الأوفى.

وأما اسمه تعالى (الشكور) فمعناه كمعنى الشاكر، ولكن لأنه على صيغة المبالغة التى تدل على زيادة المعنى يزيد عليه انه الذى يضاعف الثواب ويجزى الحسنة بعشر أمثالها أو أكثر من ذلك إلى مالا حد له، ويجعل الحسنات يذهبن السيئات، وتتسع مغفرته للذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش. ولذلك نجد اسمه الشكور مقروناً بالغفور فى قوله تعالى ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر٣٠].

وفى قولـه تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّه الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر٣٤].

وفى قولـه تعالى: ﴿ذَلكَ الَّذى يُبَشِّرُ اللَّهُ عبَادَهُ الَّذينَ آمَنُوا وَعَملُوا الصَّالحَات قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْه أَجْرًا إلا الْمَوَدَّةَ فى الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَـه فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى٢٣].

ولما فيه من معنى الصفح عن زلات الذين يجتنبون الكبائر قرنه باسمه تعالى الحليم فى قولـه: ﴿مَنْ ذَا الَّذى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعفَهُ لـه وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد١١]. وعلى ذلك يكون معنى (الشكور): الذى يزكو عنده القليل من أعمال العباد فيضاعف لهم الجزاء ويغفر لهم ويتجاوز عن سيئاتهم ويزيدهم من فضله.

فإذا نحن وقفنا على حقيقة هذا الاسم الجميل من أسماء الله تعالى الحسنى، وآمنا إيماناً حقا بأن ربنا سبحانه لابد أن يعامل عباده بمقتضاه معاملة تتجلى فيها مظاهره الرائعة، دفعنا ذلك الإيمان إلى أن نبذل منتهى وسعنا فى صالح العمل، وفى بذل العفو من ذات أيدينا، ونحن واثقون بشكر الغفور الشكور سبحانه لنا أى يحسن ثوابه، وعظيم أجره والمزيد من فضله.

إذا تقرر هذا أهبت بك أن تنظر بعين الإنصاف إلى تصرف فئة من الناس تعتزى إلى الإسلام وتلقى بأموالها فى ثقوب الصناديق التى علقها الخبثاء الماكرون فى المقاصير المضروبة حول قبور بعض الموتى، وتقرب الجداء والكباش والعجول إلى هؤلاء الذين احترفوا سدانة الأصنام المنصوبة على هذه القبور، ثم تخبرنى هل تشكر لها هذه الأصنام ما قربت إليها من قربان، أم هل يجزيها السدنة بما قدمت إليهم من حيوان؟ أم هل يشكر لها ربها الغفور الشكور ما عملت وهى لم تعمل ابتغاء وجهه الكريم. ولا طلباً لمرضاته، ولا فراراً من سخطه؟

ألست تقرنى بعد هذا القول بأن هذه الفئة من الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً. ذلك بأن سعيهم غير مشكور، وعملهم غير مأجور: ينفقون أموالهم ثم تكون عليهم حسرة ثم يبوءون بصفقة الخاسرين:﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّه لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل٥٦].

وهناك فئة أخرى بلغ بها السفه أو البله إلى أن تفرض فى أموالها ضريبة تدفعها إلى شيخ من شيوخ الطرق الأغنياء الذين يغزون المدن والقرى والدساكر بعد موسم

الحصاد ليجمعوا هذه الضرائب التى فرضها الدجل والختل والمكر والخديعة وأقرها الجهل والغفلة والغباء والبله والفتون والوثنية.

والقرى التى تفرض فيها هذه الضرائب فقراء لا يجدون ما ينفقون، ومساكين تعوزهم اللقمة التى تمسك الذماء، والخرقة التى تستر السوءة، ولا يحفل بهم أحد، ولا يعنى بشأنهم إنسان، فيسقطون صرعى تحت كلاكل الأمراض أو يدفعهم ضغط الحرمان إلى الانفجار بالشر والجريمة والفتك والبغى والفساد.

ولو أن هذه الضرائب التى تصرف إلى هؤلاء الأغنياء المترفين لتزيدهم ترفاً إلى ترفهم ورفاهية إلى رفاهيتهم بغير شكران ولا اعتراف بجميل، لو أنها تصرف إلى هؤلاء الفقراء المعوزين لكان لهم منها سداد من عوز، وطعام من جوع، وكساء من عرى، ولشكر الغفور الشكور للباذلين ما بذلوا وزادهم من فضله.

ولكن واأسفاه! إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور.

﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور٤٠].

الشكر لغة: تصور النعمة وإظهارها. أو هو عرفان الإحسان ونشره.

أو هو مقابلة النعمة بالقول والفعل والنية، فيثنى الشاكر على المنعم بلسانه، ويذيب نفسه فى طاعته، ويعتقد أنه موليها. كما قال بعضهم:

أفادتكم النعماء منى ثلاثة ... يدى ولسانى والضمير المحجبا

وشرعا صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه إلى ما خلق من أجله.

وقليل من الناس من يصيب حقيقة الشكر بهذا المعنى، ولذلك يقول تعالى:

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ١٣].

ولم يثن الله تعالى فى القرآن الكريم بالشكر إلا على اثنين من أولى العزم من الرسل وهما نوح عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء٣].

وإبراهيم عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل١٢٠].

وقد اجتهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أن يصيب حقيقة الشكر، فكان يقوم الليل حتى تورمت قدماه.

فلما قيل له: أتفعل ذلك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً؟.

وإذا حققت النظر فى معانى الشكر التى جلوتها عليك وجدت أن للشكر اللغوى ناحيتين: ناحية نفسيه، أو باطنية وهى تصور النعمة أو عرفانها أو اعتقاد صدورها من مصدرها، وناحية عملية أو ظاهرية، وتتمثل فى إظهارها بالقول والفعل: أى الثناء بها باللسان، ووضع الجوارح والأركان تحت تصرف النعم، وإرصاد الجسم لخدمته. وأن الشكر الشرعى عملى كله، قوامه أن توضع نعم الله فى مواضعها، ذلك شكر المخلوقين للخالق سبحانه، وشكر المخلوقين بعضهم لبعض فما معنى شكر الله لعباده؟ وما معنى تسميته سبحانه بالشاكر والشكور.

يمكننا أن نفسر شكر الله تعالى لعباده تفسيراً يقرب من المعنى اللغوى الذى سلف ذكره، مع تتريه الله سبحانه عن مشابهة الحوادث وعما لا يليق بجلاله وعظمته وقد بينا أن للشكر اللغوى ثلاثة أركان، إذا أمعنا فيها النظر تبين لنا أن شكر الله تعالى لعباده يتجلى فى ثلاثة أمور قريبة منها.

أولها – علم الله تعالى بما قام به العبد من امتثال أوامره واجتناب نواهيه وإخلاص العبادة له..

ثانيها – الثناء على العبد بنسبة الطاعة إليه ووعده بالرضوان وحسن المثوبة.

ثالثها – منح العبد الثواب الموعود فى وقته المحدود.

تدبر قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ [الفرقان٦٣].

وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الأَخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [الزمر٩].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران١٣٤].

فلا جرم أن هذا الثناء من الله تعالى على عباده الصالحين. الذين ينهضون بواجب الطاعة لله تعالى، ويعملون من الصالحات ما أسنده إليهم رب العزة فى هذه الآيات.

وهذا الثناء يشعر بأن الله سبحانه علم بأنهم يفعلون هذه الصالحات التى استحقوا بها ثناء الله تعالى عليهم. وفى هذه الآيات الجزاء الموعود الذى سيمنحه الله تعالى إياه.

فقد تضمنت هذه الآيات الكريمة أركان الشكر، التى بها سمى رب العزة نفسه شاكراً وشكوراً.

ولا يفوتك أن تدرك هذا الفارق العظيم، وهو أن العبد إذا شكر فإنما يشكر على نعمة وصلت إليه وانتفع بها. ولكن رب العزة يشكر لعباده وهو لم ينتفع منهم بشئ، إذ منفعة أعمالهم عائدة عليهم، وفائدة سعيهم واصلة إليهم. بل لو حققت النظر لعلمت أن الله تعالى حقيق بأن يشكر على توفيقه العباد وتهيئته لهم كل أسباب العمل الذى به يستحقون شكره وعظيم مثوبته.

وإلى هنا بلغنا تحقيق معنى اسمه (الشاكر) وتلخيصه:

إنه الذى يعلم أعمال عباده، ويثنى عليهم بالصالح منها ويثيبهم عليه رحمة ومغفرة وجنات لهم فيها نعيم مقيم.

فإذا آمن العبد وشكر لربه فضله ونعمته شكر الله له قال تعالى: ﴿ما يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء١٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة١٥٨].

وأما اسمه تعالى (الشكور) فهو فى اللغة أبلغ من الشاكر. وقد فهمت معنى اسمه تعالى (الشاكر) على قدر ما يسر الله.

وأما (الشكور) فهو الذى يزكو عنده القليل من أعمال العباد فيضاعف لهم الجزاء عليه، ويجعل الحسنة بعشر أمثالها. ثم يضاعف لمن يشاء.

كما قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلا مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام١٦٠].

وقال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [القصص٨٤].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم٣١].

وقال تعالى: ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن١٧].

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ الَّذِى يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى٢٣].

ويوم يرى المؤمنون ما أعد الله لهم من المثوبة ويجدون ما وعدهم ربهم حقاً يقولون: وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر٣٤].

وإذا تدبر قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة١٠٤]. وجدته يلخص معنى اسمه (الشكور) أصدق تلخيص وأوضحه.

وبعد فمن هو الجدير بالعبادة؟

أمن يشكر لعباده كل ما يقدمون من صالح الأعمال؟

أمن يغفل عن عبادته، ولو دعوه إلى يوم القيامة ما استجاب لهم؟

من الحقيق بأن تقربوا له قربانكم؟

أمن يثيبكم من فضله، ويشكر لكم ما قدمتم؟

أمن لا يعلم بكم ولا بما قدمتم، وإنما يأخذه السدنة العاطلون والكسالى المتسكعون، الذين يعيشون عالة على العملين كما تعشى الطفيليات، من الديدان والحشرات.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ(١٧)الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [الزمر١٨].

وفقنا الله لما يحب ويرضى من العقيدة والقول والعمل، وأعاننا على ذكره وشكره وحسن عبادته آمين.

نور السماوات والأرض

النور فى اللغة: هو الضوء المنتشر الذى يعين على رؤية الأشياء، وهو عامل خارجى عن العين يؤثر فى أعصابها تأثيرا يعبر عنه بالإبصار.

وقد اتسع محيط علمنا بالضوء فى العصور الحديثة اتساعاً عظيماً بفضل هداية الله تعالى طائفة من العلماء، أنار بصائرهم، ووفقهم إلى كشف كثير من الحقائق العلمية التى تتصل بالضوء والتى كانت تخفى على البشر، فى العصور الماضية.

ومما أجمع العلماء عليه: أن العين لا ترى جسما إلا بما يصل إليها من ضوئه، سواء أكان ضوئه ذاتياً أم مرتدا: أى منعكسا عن الجسم من آخر، والانعكاس هو الوسيلة إلى رؤية الأشياء التى لا تضىء بذاتها.

ومما اتفق عليه أكثر العلماء: أن هناك شيئاً يملأ الفضاء، وهو وسيلة انتشار الضوء، وذلك الشيء هو المسمى الأثير **Ether**. وهو مرن، عديم الذرات، قليل الكثافة لا تدركه الحواس، يتخلل جميع الأجسام، وينفذ فيها، مهما تكن كثافتها أو صلابتها وهو مائج مذبذب دائما، وأمواجه هى التى تنقل الضوء إلى الأبصار إذا بلغت عددا معينا فى الثانية، فإذا زاد عددها أو نقص عجزت الأبصار عن رؤية ما ينقله إليها من الضوء.

هذا وقد كشف العلماء أن ضوء الشمس مركب من سبعة ألوان مرتبة على هذا الوضع: الأحمر، فالبرتقالى، فالأصفر، فالأخضر، فالأزرق، فالنيلى، فالبنفسجى.

واختلاف عدد أمواج الأثير أو ذبذباته فى الثانية. هو الذى يؤثر فى شعورنا بهذه الألوان وقرروا كذلك أن هناك أشعة لا تدركها أبصارنا وهى الأشعة تحت الحمراء، وفوق البنفسجية، وقد دلت عليها العلماء آلات خاصة هدوا إلى ابتكارها من عهد قريب.

وقد التقطت هذه الآلات أشعة لا يعرف مصدرها فسماها العلماء الأشعة الكونية، وقرروا أيضا أن سرعته فى الفضاء هى ١٨٦ ألف ميل فى الثانية تقريبا. وهناك حقائق أخرى كثيرة تتصل بالضوء ضربنا عنها الذكر صفحا أن كان إدراكها يشق على من لم يتمرسوا بالعلوم الطبيعية.

وقد صار الضوء علما مستقلا يدرس فى المدارس له مبادئه وقوانينه وأجهزته، وإنما ألمعنا إلى الحقائق التى ألمعنا إليها لنبين للقارىء الكريم أنه كلما زاد إلمام الناس بقوانين الضوء اتسع فهمهم لمعنى اسمه تعالى « نور السماوات والأرض».

هذا والنور نوعان: حسى ومعنوى وكل ما كتبناه إلى الآن إنما هو النور الحسى، أما النور المعنوى: فهو نور العقول والأذهان والبصائر والإفهام، ونور الهداية والإرشاد المستمد من الكتب السماوية، وحكم الأنبياء والمرسلين، وتعليم الهداة والمرشدين.

قال تعالى: ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ(١٥) يَهْدِى بِهِ اللَّهُ

مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة١٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء٤٨].

هذا وكل نور حسى أو معنوى فى السماء والأرض، وفى الدنيا و الآخرة. فرب العزة سبحانه هو موجده، ومن أجل ذلك أخبر سبحانه عن نفسه أنه نور السماوات والأرض أى منورهما بما خلق ودبر ورهب ومنح من أنوار حسية ومعنوية، وبما هدى وأرشد وأوحى وألهم.

سمى نفسه نور السماوات والأرض مبالغة: لأن هذا النور لا يملكه غيره. ولا يقدر عليه سواه ولو اجتمع من فى السماوات ومن فى الأرض على أن يوجدوا ومضة نور أو شعاعة ضوء ما وجدوا إلى ذلك سبيلا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

إن فى اختراع النور الحسى لآية بينة على القدرة التى لا حد لها، والعلم الذى لا نهاية له والحكمة التى لا غاية لها.

ماذا يكون مصير هذا العالم لو ساده الظلام، ولم يشرق فيه نور؟.

ماذا يكون مصير النبات والحيوان والإنسان لو لم يكن فى هذا العالم نور يستمد منه النبات لونه ونمائه، ويستمد منه الحيوان نموه وقوته ويهتدى إلى ضروراته، ويزاول فيه الإنسان عمله الذى تعتمد عليه حياته؟

ولقد جعل الله السماء مصدر النور الطبيعى، وهدى أهل الأرض إلى اختراع نور يستعيضون به عن ضوء السماء إذا احتجبت الشمس، فجعل النار مصدر النور، وجعل من السماء ما يتصل بالنار أى يحترق فيبعث النور كالخشب والفحم والزيت والنفط والشمع وغيرها من الأشياء التى اتصلت بالنار أشعت نوراً يمحو الظلام عن المكان الذى يريد الإنسان أن ينوره.

ولقـــد هـــدى الله سبحانه إلى الاستضاءة بالكهرباء الناشئة من تحاك بعض الأجســـام، أو تفاعل بعض العناصر، فإذا مرت بسلك دقيق من فلز معروف موضوع بـــنظام خـــاص فى زجاجة مفرغة توهج السلك وأحدث ضوءاً قوياً أو ضعيفاً طوعاً لحجمه. وهذه آية من آيات الله ظلت خفية أحقاباً متطاولة ثم جلاها سبحانه لوقتها، حين هدى بنوره إليها من وفقه إلى كشفها.

ولقد هدى الله سبحانه الإنسان منذ القرون الأولى إلى أن احتكاك الصوان بقطعة مـــن الصـــلب تحدث شرراً. فكان يتلقى هذا الشرر فى مادة قابلة للاحتراق فتشتعل وتحدث النار والنور.

وكـــان قد هداه من قبل ذلك إلى أن احتكاك أغصان الشجر بتأثير الريح العاصف يحدث النار والنور، فكان يحاكى الطبيعة ويفرك قضيبين من الحطب ببعض فيشعل النار ويبعث النور.

وقد منح الله الإنسان والحيوان والطير والحشرات أبصارا تدرك النور وتبصر ما يقع عليه أو يرتد عنه. وماذا يكون الشأن لو خلق الله النور. ولم يخلق الحاسة التى تدركه، وماذا يكون الشأن لو خلق الحاسة التى تدرك النور حيث لا نور؟

ولكن نور السماوات والأرض خلق النور وخلق الحاسة التى تدركه فتمت الفائدة وتحققت الحكمة وقامت الحجة.

و أعود فأقول: إن ابتداع النور لأمر رائع، ونبأ عظيم، وما أبلغ دلالة على القدرة الشاملة، والعلم الواسع، والحكمة البالغة!

مـــا الشأن لو أن الدنيا كلها ظلام دامس، وليل سرمدى لا يعقبه نهار، ولا صبح لـــه ولا مساء؟

إن اختراع الغريزة والذهن والفكر والعقل والبصيرة والوجدان وهى مصادر الأنوار المعـــنوية لآية بينة على قدرة الخالق المبدع وواسع علمه وبالغ حكمته، وعلى أنه نور السماوات والأرض والدنيا والآخرة.

كـــتلة مـــن الـــلحم والدم والعصب والعظم تفكر وتقدر وتخترق وتبتدع، وتأتى بالمدهشـــات والأعاجيب من ثمار العقل ونتائج الفكر، وروائع التدبير بفضل ما أفاض عليها من نور السماوات والأرض من نور سبحانك يا نور السماوات والأرض!

من منحته النور فقد هديته إلى سبيل الرشاد، ومن حرمته فإنه يضل ضلالاً بعيداً.

ووحى الله تعالى إلى رسله وأنبيائه، وشرائعه التى أنزلها لعباده نور يهتدون به طريق السعادة. وأعداء الحق يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواهم ويأبى الله إلى أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

فمن اهتدى بنور الشرائع فى الدنيا، وسار على هداه متعه الله بالنور الأخروى الذى يشع من المؤمنين ولا يخضع لقوانين النور المعروفة فى هذه الحياة الدنيا.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد١٢].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد١٣].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم٨].

هذا وقد جعل رب العزة النور حجاباً له دون خلقه رحمة بهم ورأفة بضعفهم، روى أن جبريل عليه السلام قال: لله دون العرش سبعون حجاباً لو دنونا من أحدها لأحرقتنا سبحات وجه ربنا.

وروى أن النبى (صلى الله عليه وسلم) حين سئل: هل رأيت وجه ربك؟

قال: (نور أنى أراه وحجابه النور؟ - وفى رواية - ولو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل شىء أدركه بصره) أى لو انكشف من أنوار الله التى تحجب العباد عنه شىء لهلك كل شىء وقع عليه ذلك النور، كما خر موسى صعقاً، ودك الجبل دكا لما تجلى الله سبحانه وتعالى.

ولربنا سبحانه نور ذاتى لا يشبهه شىء مما نعرف ومما لا نعرف من هذه الأنوار المخلوقة قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر٦٩].

وقـــال (عليه الصلاة والسلام) من دعاء الطائف المأثور « أعوذ بنور وجهك الـــذى أشرقت لـــه الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل بى غضبك أو يترل بى سخطك».

وكـــان الســـراج المنير صلى الله عليه وسلم يحب النور نور الحق والخير والفضيلة ويسأل الله أن يجعل النور فى كثير من أعضائه. فمن مأثور دعائه صلى الله عليه وسلم: «الـــلهم اجعـــل فى قلبى نوراً، وفى بصرى نوراً وفى سمعى نوراً، وعن يمينى نوراً وعن يســـارى نوراً، وفوقى نوراً وتحـــتى نوراً، وأمامى نوراً، وخلفـــى نوراً، واجعـــل لى نوراً».

ومراده عليه الصلاة والسلام: أن يدعو ربه - وهو نور السماوات والأرض - أن يجعل مداركه كلها تنصرف دائماً إلى الحق والخير والفضيلة، وأن يجعل سبيله دائما إلى الحـــق والخـــير والفضيلة، وأن يجعل الهداية والتوفيق ملازمين لـــه فى سائر تصرفاته، وجميع أعماله ومعاملاته حتى يتم لـــه الفضل من جميع جهاته، ويحظى برضوان الله فى جميع أوقاته.

وقـــد جعل الله النور حظ المؤمنين الأتقياء فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِـــيمٌ(٢٨)لِئَلا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[الحديد٢٩].

نســـأله تعـــالى بـــنور وجهه الذى أشرقت لـــه الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخـــرة أن يجعل لنا نورا نمشى به، يسعى بين أيدينا وبأيماننا، وأن يكتب لنا التوفيق والهداية إلى أمثل طريق. إنه أكرم مسئول ونعم المجيب.

الحميـــد

يطلـــق الحمـــد فى اللغة على الشكر، والرضا، والجزاء، وقضاء الحق، وهى معان مـــتقاربة لا يبعد بعضها عن بعض كثيراً، ولا تتفاوت إلا قليلا، فمن حمد لمحسن فعله فقد شكر لـــه ورضى عمله،وجزاه به، وقضى حقه.

غـــير أن الحمد يكون على نعمة نالت الحامد، وعلى فعل جميل يقع من المحمود لا ينال الحامد منه شىء. أما الشكر فلا يكون إلا عن نعمة نالت الشاكر.

فأنت تحمد فلانا لأنه أسدى إليك صنيعة، وتحمده لأنه يسهم فى أعمال الخير، ويشارك فى مشروعات البر، ولا تشكره إلا إذا نالتك أنت منه نعمة، ومسك منه جناح خير.

والحمد أخص من المدح وأعم من الشكر، فإن المدح ثناء حسن على ما كان من الممدوح باختياره، وعلى ما لم يكن له فيه اختيار. فقد تمدح إنسان لتبرعه لمشروع خيرى، وهو عمل اختيارى آتاه باختياره، وقد تمدحه بشدة عارضته، أو سرعة بديهته، أو حدة ذكائه، أو قوة بدنه، أو طول قامته، أو ما إلى ذلك من الأمور التى لا اختيار للممدوح فيها. أما الحمد فلا يكون إلا على الجميل الاختيارى.

والشكر لا يكون إلا فى مقابل نعمة وصلت إليك ممن تشكر له.

أعتقد أن هذا البيان كافٍ لتوضيح حقيقة الحمد.

وقد سمى رب العزة نفسه (الحميد) وأكثر ما قرن هذا الاسم فى القرآن الكريم باسمه الغنى. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِى حَمِيْدٌ﴾ [البقرة٢٦٧].

وقد ورد مقروناً باسمه تعالى (العزيز) قال تعالى: ﴿آلر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم١].

وقد ورد مقروناً باسمه تعالى الحكيم) قال تعالى: ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت٤٢].

كما ورد مقروناً باسمه تعالى الولى قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِى الْحَمِيدُ﴾ [الشورى٢٨].

فما معنى هذا الاسم الجليل

ليس من شك فى أن الحميد مشتق من الحمد. فهو فعيل بمعنى فاعل: أى حامد، أو بمعنى مفعول: أى محمود. وكلاهما صحيح بالإضافة إلى رب العزة جل شأنه. فإن كان بمعنى فاعل أى حامد فانه سبحانه يحمد من يستحق من عباده، ويثنى عليهم، ويشيد بأعمالهم التى أتوها باختيارهم ابتغاء وجه ربهم، ليستنهض الهمم إلى الاقتداء بهم، والاحتذاء بأعمالهم والنسج على منوالهم، واتباع سبيلهم.

حمد جل ثناؤه ملائكته وأثنى عليهم، فقال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم٦].

وقال عز شأنه: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَانُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء٢٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف٢٠٦].

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت٣٨].

وقال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء١٧٢].

والحق أن الملائكة مختارون فيما يفعلون، وإن كانوا لا يختارون إلا ما فيه لله رضا، وبذلك استحقوا حمداً لله تعالى إياهم، وكذلك الأنبياء الذين هم مع عصمتهم مختارون مستحقون لحمد الله إياهم.

حمد سبحانه ملائكتة المكرمين، ليبين للناس أن الملائكه مع سمو مترلتهم وعلو مكانتهم وطهارة عنصرهم لايستنكفون عن عبادته ولايستحسرون، ولايتقاعسون ولا يستكبرون: فخليق بالإنسان الذى خلق من صلصال من حمإٍ مسنون: أن يقنى الحياء، ويخلع الكبرياء، وأن يتقى الله ما استطاع، وأن يسمع ويطيع، وأن يسمو بهذه الطينة حتى يجعلها أهلا لسكنى جنات الفردوس، يجد فيها مستقراً ومقيلاً.

وحمد سبحانه عباده الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ليكون فيهم لغيرهم أسوة حسنة، وليلهب فى نفوس المؤمنين الشوق إلى أن يظفروا من ربهم الحميد بسعادة الرضا.

فقد حمد سبحانه نوحاً عليه السلام فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم٥٨].

وحمد إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الآخِرِينَ﴾ [الصافات٧٨].

وقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود٧٥].

وحمد سبحانه إسماعيل عليه السلام، فقال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾ [مريم٥٤].

وحمده سبحانه وحمد معه إدريس وذا الكفل، فقال سبحانه: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنبياء٨٥].

وحمد موسى وهارون عليهما السلام، فقال: ﴿سَلامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الصافات١٢٠].

وحمد سبحانه زكريا وزوجه وابنهما، فقال: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء٨٩].

وحمد سليمان عليه السلام فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص٣٠].

وقال فى شأن أيوب عليه السلام: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص٤٤].

وحمد آخر النبيين محمداً صلى الله عليه وسلم والذين معه، فقال جل من قائل: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى٥٢]. وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم٤].

والحق أن الخلق أمر كسبى اختيارى يكسبه المرء بالتخلق. قال الشاعر:

إن التخلق يأتى بعده الخلق

وقال آخر: ولن تستطيع الحلم حتى تحلم

وحمد سبحانه مريم عليها الرضوان، ليكون فيها لنساء العالمين أسوة حسنة، فيتعلمن منها العفاف، ويصن جمالهن عن مهانة التبذل، ويربأن بأنفسهن عن دنس المضاجع لتطهير الأنساب، وتسلم الأعراق قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا

فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم١٢].

وحمد سبحانه الصالحين من عباده الذين ليسوا بملائكة مقربين، ولا أنبياء مرسلين، ليعلم من عداهم أن التقوى فى وسعهم، وأن الطاعة فى استطاعتهم، وأن الصلاح ميسر لهم وأنهم لو صحت عزائمهم وقويت إرادتهم، وطابت نياتهم لكانوا كأمثالهم الذين سبقوهم بالإيمان، وبدروهم إلى الإحسان، فقال: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة١٥].

هذا الحمد آية الرضوان، وأمارة القبول والغفران. فما أسعد هؤلاء الذين رضى عنهم ربهم، وحمد سعيهم. وسجل فى الذكر الحكيم ثناءه عليهم، ورضاه عنهم، وحمده إياهم.

يشعر الرجل برضى رئيس عاجز ضعيف فقير لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فيكاد يخرج من إهابه فرحاً وسروراً، وزهواً وغروراً، فكيف بمن يرضى عنهم ربهم القوى القادر الغنى الحميد سبحانه؟ لا جرم أنهم السعداء حقاً، بل هم أسعد السعداء حقاً. ومن رأى السعادة فى غير رضوان الله فقد افترى إثما عظيما.

هذا على تقدير أن فعيلا بمعنى فاعل: أى أن الحميد بمعنى الحامد. وهو صحيح كما رأيت. ولكن أصح منه أن يقدر فعيل بمعنى مفعول: أى أن الحميد بمعنى المحمود؛ لأن النصوص التى تؤيد هذا التقدير أصرح وأكثر. وقد جاء فى القرآن الكريم: (الحمد لله – ولله الحمد) أى أن الله تعالى خليق بأن يحمد، بل هو وحده المستحق للحمد على التحقيق. وهذا ما يؤيد أن الحميد بمعنى المحمود.

وقد حمد رب العزة نفسه فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم؛ ليعلم عباده كيف يحمدونه رحمة بهم وتفضلا عليهم؛ لعلمه أنهم مهما ترسخ أقدامهم فى العلم، ومهما يعظم حظهم من الذكاء فلن يحصوا ثناء عليه، ولن يبلغوا حقيقة الحمد الجدير به سبحانه، فحمد نفسه بنفسه وبين ذلك لعباده ليحمدوه بمحامده التى حمد بها نفسه.

وقد حمد جل ثناؤه نفسه بما أنعم به على عباده من نعم الخلق والرزق، وتيسير المنافع وتسخير قوى الوجود التى خلقها للإنسان.

قال سبحانه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(١)الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٢)الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(٣)مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ(٤)إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة٥].

وقال جل شأنه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام١].

وقال عز من قائل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الكهف٣].

وقال جل ثناؤه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سبأ١].

وقال تبارك اسمه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلا أُولِى أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِى الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر].

وكل هذه النصوص تؤكد كذلك أن حميداً بمعنى محمود.

وقد أمر سبحانه نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم أن يحمده ناسباً إليه الكمالات التى تليق بجلالته وعظمته، فقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِىٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء١١١].

وأمره أن يحمده إذا جادله الكافرون، فانتصر عليهم، وظهر حقه على باطلهم، ودحضت حجتهم، فقال: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِى اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِىَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[الزمر٣٨].

وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا رَجُلا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر٢٩].

كما أمره سبحانه أن يبدأ حجاجه واستدلاله بحمد الله، والسلام على المصطفين من عباده فقال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَىِّ الَّذِى لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان٥٨].

وأخبر سبحانه عن أصحاب الجنة أنهم يحمدونه حين يرون صدق وعده، فقال: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ [الزمر٧٤].

وقـال تعـالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس١٠].

وأخـبر تـبارك اسمـه أنه محمود فى كل مكان وفى كل زمان، فقال: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم١٨].

إن ربوبيـته تعـالى لكـل شىء فى السماوات والأرض تستوجب أنه يحمد فى السماء والأرض. قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التغابن١].

وقـال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء٤١].

إن مجرد وجود الكائنات أقطع دليل على عظيم فضله تعالى، وواسع كرمه إذ أفاض عليها نعمة الوجود، وأنشأها من العدم، فإن لم تكن الموجودات ذوات ألسنة تنطق بها وتعرب عن حمدها لبارئها سبحانه فإن لسان حالها أفصح إعرابا، وأبلغ تعبيراً، وأصدق حمـداً. إن كـل حمد وجه إلى غيره تعالى فهو الأجدر به؛ لأنه واهب النعمة التى من أجـلها حمد المحمود. فهو سبحانه المحمود بكل لسان، وبكل جارحة وعلى كل نعمة وعلى كل حال.

يحمد سبحانه على المحبوب للمتاع به، ويحمد على المكروه لأن لـه نعما كامنة فى طـيه لا يدركها إلا الموفقون الذين استنارت بصائرهم، وسمت مداركهم، وعلموا أن لـلحق سـبحانه حكما عالية وأسراراً دقيقة فى كل ما يفعل، فحمدوه على السراء والضـراء. ولو لم يكن فى الحمد على المكروه إلا الظفر بثواب الصابرين الذين يوفون أجرهم بغير حساب، لكان ذلك من أعظم موجبات الحمد لـه.

هو الغنى الحميد؛ لأنه لا يضن بفضله كما يضن الأغنياء. وهو العزيز الحميد؛ لأنه مع عزته لا يظلم أحداً كما يظلم الأعزاء.

وهو الحكيم، الحميد لأنه لا يضل ولا ينسى كما يضل وينسى الحكماء. وهو الولى الحمـيد لأنـه لا يخذل من والاه كما يخذل الأولياء. فله الحمد، هو نور السماوات والأرض وما فيهن، وله الحمد هو قيم السماوات والأرض وما فيهن، وله الحمد، هو الحق، وقولـه حق، ولقاؤه حق.

قد استحمد خلقه بما والى عليهم من عظيم نعمه، وما يزالون فى المزيد من فضله ما داموا فى المزيد من حمده. فله الملك وله الحمد. وهو على كل شىء قدير.

الماجد .. المجيد

تقول العرب: مجدت الإبل إذا حصلت فى مرعى كثير واسع، وقد أمجدها الراعى إذا سامها فى هذا المرعى الكثير الواسع. وتقول: مجدت الغنم مجودا إذا أكلت البقل حتى هجع غرثها أى ذهب جوعها، وتقول: رأيت أرضا قد مجد شائها و بعيرها أى أرضاً غنية بالعشب والكلأ قد شبعت الأنعام التى ترعى فيها، وبدت عليها علامات الشبع من الشحم واللحم.

هذا أصل هذه المادة، فهى تدل على كثرة المرعى وسعته ثم انتقل المعنى من المحسوسات إلى المعقولات، فصار فى سعة الشرف، فقالوا: نحن - بنو هاشم - أمجاد أنجاد أى أشراف كرام.

وقال الشاعر:

دعنى أماجد فى الحياة فإننى ... إذا دعا داعى الوفاة، مجيب

أى أكاثر وأتوسع فى الشرف

فصار معنى المجد الشرف الواسع. وكانوا لا يدركون الشرف إلا بالبذل والسخاء، فمن بذل وتوسع فى الكرم اعتبروه ماجداً أى شريفاً كريماً سخياً. ولما كان البذل ملازما للوجد والسعة، لأنه لا يكون فى غالب الأمر إلا عن ظهر غنى لوحظ فيه كذلك اتساع الثروة والغنى، وقالوا: رجل ماجد أى مفضال كثير الخير شريف. والمجيد فعيل منه للمبالغة.

ولما كان من شأن الناس وطباعهم الغالبة أن يحبوا من يحسن إليهم، ويبذل لهم المال، ويحترموه، ويرفعوا قدره كما قال الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ... فطالما استعبد الإنسان إحسان

صار مما يكمل معناه أيضاً رفعة القدر، وعلو المنزلة، ومضاء الكلمة.

وأصبح المجد جامعا لكل هذه المفاخر، والمجيد من يبالغ فى التوسع بالاتصاف بها.

ذلك مجد المخلوقين.

فما معنى مجد الخالق سبحانه؟

إن شئت أن تدرك معنى مجد الخالق سبحانه، فاعلم أن رب العزة تبارك اسمه قد سمى نفسه بأسماء تعبر عما اتصف به سبحانه من الصفات العلا، وألفاظ هذه الأسماء مما تعرفه العرب فى لغتها، وتدرك معناه إدراكا صحيحا، فحين أخبرها سبحانه بها انصرفت أذهانها إلى تلك المعانى التى تعرفها، ولكن رب العزة سبحانه كان أبر بها، وأرحم من أن يذرها تهيم فى أودية المعانى التى تناسب المخلوقين؛ فتداركها سبحانه بلطفه ورحمته وأخبرها أنه ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنْ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾[الشورى١١]. فأصبحت تجعل المعانى المعروفة لديها أساسا لإدراك هذه الصفات. ثم تتسامى بها عن أن تشبه صفات المخلوقين.

وفى ضوء هذه الحقائق نستطيع أن نسير فى تفسير اسميه الكريمين: الماجد: والمجيد

فمعناهما الغنى الذى له ملك السماوات والأرض وما بينهما، الذى لا يفتقر إلى غيره، وكل ما عداه ومن عداه مفتقر إلى فضله ورحمته، الكريم المتره عن أدنى شائبة من شوائب النقص فى ذاته وصفاته وأفعاله، ذو الفضل العظيم والإحسان الكريم الذى غمر بفضله وإحسانه كل حى فى السماء والأرض، رفيع الدرجات الذى سما قدره فوق جميع الأقدار، ونفذت مشيئته فى جميع الأقطار وعنت له الوجوه، وخشعت الأصوات، وسجد له من فى السماوات والأرض.

أما ما يشهد بمجده تعالى من الآيات الكونية فى الأنفس والآفاق. فأكثر من أن تستوعب فى الأسفار والأوراق، وحسبك أن فى كل منبت شعرة من كل حى آية ناطقة بمجده، وفى كل قيد أنملة من فجاج الأرض وآفاق السماء آيات شاهدات لو ترجمت شهادها إلى اللغات، وعبر عنها بالألفاظ والكلمات لضاقت عنها صحائف الأرض والسماوات.

وأما آيات مجده فى القرآن الكريم فكثيرة، أورد عليك منه ما تطمئن به القلوب وتقر العيون.

فما يشهد بغناه المطلق – والغنى عنصر من عناصر المجد – قوله تعالى فى سورة فاطر: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِى الْحَمِيدُ﴾ [فاطر١٥].

وقوله تعالى فى سورة المائدة: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة١٧].

وكل ما فى أيدى المخلوقين من النعم التى خولهم الله إنما هى عوارى مستردة وودائع إلى حين.

وإذ قد ثبت أن من آيات مجده تعالى الغنى المطلق وافتقار جميع الخلق إلى فضله ورحمته، وجب ألا تطلب الحاجات إلا إليه، ولا تلتمس الرغبات إلا عنده، ولا يدعى فى الجلى إلا هو، ولا يغيبن عن ذهنك قوله تعالى فى سورة سبأ: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى السَّمَاوَاتِ وَلا فِى الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ٢٢].

وإذا كان الكرم من دلائل مجد الكريم الوهاب سبحانه، الذى لو اجتمع من فى السماوات والأرض منذ خلق الله الدنيا إلى يوم القيامة؛ وسأله كل منهم أقصى ما تطمح إليه نفسه، وتترامى إليه آماله وأمانيه، فأعطاه أضعاف ما سئل لم ينقص ذلك من ملكه إلا كما ينقص الخياط من البحر إذا غمس فيه.

أفيسوغ فى قضية العقل - مع هذا - أن يترك باب هذا الماجد الكريم الوهاب، الذى يعطى بغير سؤال ليطرق باب مخلوق عاجز ضعيف فقير، كل ما بين يديه من فضل الله ورحمته؟

يا حسرة على عقول أضاعها أصحابها، وألقوها فى الرغام، وداسوها بالأقدام.

ومن آيات مجده تعالى أنه رفيع الدرجات ذو العرش، خضع لعلوه كل شئ وذل لعزته كل عزيز، وعنا لسلطانه كل ذى سلطان، بيده نواصى العباد جميعاً، وما منهم إلا عبد ذليل خاضع مسخر.

ذلك هو الله المجيد الذى سخر لعظمته كل شئ، وتصرف بقدرته فى كل موجود وقهر بالموت والمرض كل جبار عنيد.

أيحسب الإنسان الظلوم الجهول أن غيره يملك معه مثقال ذرة من السماوات والأرض فيدعوه للجلى ويلتمس منه الحاجات، ويهتف باسمه فى الغدوات والروحات؟!

أيحسب الإنسان الظلوم الجهول أن الله الحميد المجيد تعالى جده جعل مشيئته للمخلوقين يوجهونها كيف يشاءون، ويبرمون منها ما يحبون وينقضون منها ما يكرهون؟ تعالى ربنا الحميد المجيد عما يقول الظالمون!!

أيحسبون أن ربنا الحميد المجيد لا يخيب سؤال السائلين إلا إذا توسلوا بحبيب من أحبابه، كفساق الحكام الذين لا يقضون حاج ذوى الحاج إلا إذا قادوا له من يحب من الحسان، أو مرد الغلمان؟

ومن آيات مجده تعالى الشاهدة بسعة سلطانه قدرته على تأييد رسله بأمور خارجة عن طوق البشر، وعلى إكرامهم بما لم تجر به عادة الناس، فرق البحر لموسى وقومه، وفجر لهم الماء من الصخر، وأنزل عليهم المن والسلوى، وجعل عيسى يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وجعله يبرأ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله، وأصلح زوج زكريا بعد العقم والإياس، ووهب له غلاماً زكياً، ووهب لإبراهيم بعد شيخوخته وشيخوخة زوجه غلاماً من الصالحين حتى لقد عجبت امرأته أشد العجب حين بشرتها به الملائكة، ﴿قَالَتْ يَاوَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود٧٢].

وهو سبحانه خالق العناصر فكيف لا تطيعه العناصر، وموجد الكائنات فكيف لا تخضع له الكائنات؟ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شئ وإليه ترجعون.

أفليس ذلك الإله المجيد الفعال لما يريد، القادر على خرق العادات، والتأييد بالمعجزات والكرامات أخلق وأجدر بأن يدعى ويستغاث من هؤلاء المخلوقين الذين لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، ولا يملكون موتاً ولاحياة ولا نشوراً.

هذا وقد وصف القرآن الكريم - وهو كلام الله تعالى - بالمجد فى قوله تعالى فى سورة ق (ق والقرآن المجيد) وقوله تعالى فى سورة البروج: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ [البروج٢١].ومجد القرآن الكريم فى إعجاز أساطين البلاغة من الجن والإنس عن الإتيان بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وفى سمو أحكامه وعلو حقائقه، وإخباره بالغيوب، وتحقق ما أخبر به وفى هيمنته على الكتب السماوية، وفى كثرة الخير والسعادة لمن اتبعه وسلك سبيله واعتصم به واهتدى بهداه. وفى أنه فى كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون، وفى أنه تنزيل من الحميد المجيد رب العالمين، لا رب غيره، ولا مأمول إلا خيره.

المتين

المتانة فى اللغة: الصلابه والشدة والقوة، يقال: متن الشئ متانة فهو متين أى صلب واشتد وقوى.

والمتن من الأرض: ما صلب وارتفع، والمتن: الظهر، وهو أصلب ما فى الإنسان وأشده وأقواه، والمتنان: مكتنفا الصلب من العصب والعضل عن اليمين وشمال، وهما اللذان يشدان الظهر ويقويانه.

وإذا تتبعنا هذه المادة ومشتقاتها فى المعاجم اللغوية واستقصيناها أفضى ذلك بنا إلى الحكم بأنها تدل فى كل استعمالاتها على الصلابة والشدة والقوة، فإذا وصف بناء بالمتانة كان المعنى: أنه صلب لا تنال منه عاديات الأيام ولا يصدعه كرّ الأعوام، وإذا كانت نعتاً لحيوان دلت على أنه قوى يثير الأرض ويسقى الحرث، وينهض بأقدح الأثقال، وإذا كانت صفة لإنسان، فإن كانت فى جسمه أفادت أنه شديد الأسر ومفتول الذراعين، قوى العضل يقوم بأشق الأعمال، وإذا كانت فى عقله دلت على أنه قوى العقل، حصيف الرأى، يجيد التدبير، ويحسن التفكير، ويعالج بالحكمة والحزم تصريف الأمور.

غير أن القوة فى كل هذه الحوادث محدودة، فالبناء مهما تكن متانته يخضع لعوامل الهدم والتدمير، ويستجيب لداعى الفناء.

والحيوان إذا واصل العمل أحس الأين والكلال، واعتراه الفتور والهزال، وإن امتدت به الأيام على ذلك تحللت قواه، واستسلم لعوامل الضعف والوهن.

والإنسان المتين العضل، المستحصد العصب الشديد الأركان، القوى البنيان لابد أن يعتريه الضعف والشيبة، وتنال منه الشيخوخة والهرم، فتخور قواه وتنحل عراه، وإذا أطال العمل والتفكير شعر بالملل والسآمة، واحتاج إلى الراحة والجمام، ليجدد القوى، ويعوض ما يفنى من خلايا بدنه.

ثم أن متانة البناء تعود إلى شدة تماسك عناصره التى يتألف منها، ومتانة الحيوان والإنسان ترجع إلى ما يمنحها الغذاء من قوة، وما يكسب العمل والرياضة أعصابهما وعضلاتهما من استحصاد واستحكام، فإذا لم ينالا من الغذاء النصيب المفروض ضعفت متانتهما، وخارت قواهما.

هــذا، وأول درجــات الاستطاعة القدرة، فإذا زادت القدرة واشتدت فهى القــوة، والموصوف بها قوى، فإذا زادت القوة وفاقت صارت متانة، وسمى الموصوف بها متيناً.

وبعد، فإذا تصورت جميع ما جلوت عليك من معنى المتانة فى الحوادث، فانزع منها جميع نقائصها، وأضف إليها ما يكملها، ويسمو بها عن جميع شوائب النقص، ويربأ بها عن مشابهة متانة المخلوقين تقف على معنى المتانة مسمى بها رب العزة ذو القوة المتين سبحانه.

فمعنى اسمه تعالى (المتين) أنه القوى الذى لا يستعصى عليه فعل، ولا يعيا بمراد، ولا تــلحقه فى أفعالــه مشقة ولا كلفة، ولا يناله فى تدبيره سأم ولا ملال، ولانصب ولا لغوب، ولا يستمد قوته من غذاء ولا رياضة، وليست لها غاية تقف عندها، ولا نهاية تنتهى إليها، ولا يعتريها تحلل ولا فناء، ولا يلحقها ضعف ولاكلال، لم يسبقها عجز، ولا تكثر بعد قلة، ولم تقو بعد ضعف، ولم تنشأ تدرجاً، ولم تختلف أمامها الأشياء.

هــذا، ومــن مظاهر متانته سبحانه أنه خلق السماوات فبناها سبعاً شداداً، ورفع سمكها فسواها طباقاً، وزين السماء الدنيا بمصابيح وجعلها رجوماً للشياطين.

وخلق الأرض ودحاها، وأخرج منها ماءها ومرعاها، وشق أنهارها، وفجر بحارها، وبــارك فيها وقدر فيها أقواتها، وأنبت فيها حباً وعنباً وقضباً، وزيتوناً ونخلا، وحدائق غلباً. متاعاً للإنسان، ورزقاً للحيوان.

ولكى تستطيع أن تقدر شيئاً من عظمة السماوات تذكر أن الأرض التى تعمرها إذا قيست إلى الشمس وهى بعض الأجرام السماوية كانت جزءاً من مليون وثلاثمائة ألف مــره. ثم انظر إلى قرص الشمس التى عرفت نسبتها إلى الأرض، وقدر كم يشغل من فضاء السماوات، وحينئذ تدرك أنه بالقياس إلى السماء الدنيا على الرغم من ضخامته وعظامــته - شــئ ضئيل لا يكاد يذكر فى هذا الفضاء الفسيح الذى يظلك فى بلدك الــذى تعــيش فــيه، فكــيف إذا قرنته بفضاء السماء الدنيا كلها وكيف إذا قرنته بالسماوات جميعاً؟

أفــإن فكــرت فى هــذه المظاهر أفلست تجد نفسك مضطراً أن تهتف من أعماق صــدرك قــائلا: ما أخلق رب العزة أن يسمى «المتين»! بعد أن شاهدت من مظاهر متانته ما تعيا الأقلام، وتعجز الألسنة عن التعبير عن جلاله.

خلــق ذو القوة المتين سبحانه هذا العالم بقدرته ودبره بحكمته، ووضع لــه بمتانته نظامــا حكيما لا يعتريه خلل ولا فساد، ولا يلحقه وهن ولا اضطراب. أدار الأرض حول نفسها أمام الشمس دورة ينشأ عنها الليل والنهار وجعل سرعتها فى هذه الدورة ألــف ميل فى الساعة؛ فكان فى تحديد السرعة بهذا القدر كل الخير والصلاح للأرض ومن عليها وما عليها، إذ بها كان طول اليوم أربعا وعشرين ساعة، فلو كانت السرعة مائة ميل مثلا بدل ألف ميل ماذا كان يحدث؟

كــان يحــدث أن طــول اليوم يكون عشرة أمثال طوله الحالى، أى مائتين وأربع وعشــرين ســاعة، والليــل مائــة وعشرين فى الجهات الاستوائية، وفى فصل الربيع والخــريف، فتصــور ما يحدث لو كان طول النهار مائة وعشرين ساعة وطول الليل كذلك!

ألا تجفف حرارة الشمس فى هذا النهار الطويل كل نبات على سطح الأرض؟ ألا يقضى برد هذا الليل الطويل وجليده على كل ما تنبته حرارة النهار من نبات؟ وأنت خبير بأن النبات مادة الحياة للإنسان والحيوان، ألا تفنى الحياة الحيوانية والنباتية فى عام واحد، إن لم تفنى فى شهر واحد أو يوم واحد؟

ألا تصــير الأرض خرابا يباباً لا يخطر عليها إنســان، ولا يدب على سطحهــا حيوان؟

جعــل المتين سبحانه الأرض تدور مرة حول الشمس فى عام واحد: أى فى بعض يوم وخمسة وستين وثلاثمائة يوم، دورة تنشأ عنها الفصول الأربعة، فتصور ما ينشأ من الفساد فى الأرض لو كانت دورتها أسرع من ذلك، فقطعت شوطها فى أقل من العام، أو كانت أبطأ من ذلك فقطعته فى عامين أو ثلاثة مثلاً.

أوجــد بمتانته تعالى نظام المد والجزر فى البحار؛ لتتحرك مياهها بتأثير المد والجزر والتيارات البحرية فى جهاتها الأربع، وينشأ عن حركتها من المنافع ما لا يقدر قدره إلا العليم الحكيم سبحانه، وجعل المد والجزر من آثار جذب القمر لكرة الأرض، وجعل بعد القمر عن الأرض ٢٨٦ ألف ميل. فتصور ما يحدث من الضرر، ووضعه على ٧٠ ألــف ميل مثلاً! إذا طغى الماء على اليابسة، وغمر كل شئ على سطح الأرض ومات الأحياء غرقى.

أفإذا تصورت ذلك وتدبرته، أفلست تجد نفسك مضطراً أن هتف بكل قوى نفسك قائلا: سبحانك يا متين! ما أعظم متانتك! وما أحقر كل موجود بجانب وجودك! وما أضعف كل قوة أمام قوتك!؟

لقد علق سبحانه فى سماء دنيانا هذه سراجاً وهاجاً، يضيئها ويدفئها، وجعل حرارة الشمس عند سطحها ٦٧٠٠، ووضع الأرض بحيث لا يصل إليها من حرارة الشمس إلا القدر الصالح لنمو النبات والحيوان وتصريف الرياح، وبخر ما يلزم مياه العيالم الزواخر لتكوين السحاب المسخر، الذى يخرج الودق من خلاله، فتحيا به الأرض بعد موها، ولو زادت قوة الإشعاع على هذا القدر لأحرقت الأرض وما عليها، ولو نقصت لقضى البرد على كل حى. أليس فى هذا كله آية على أن الله تعالى متين فى علمه، متين فى قدرته، متين فى حكمته؟

حفظ سبحانه بتدبيره هذا النظام، ورعاه ملايين السنين، لم يدب فيه أدنى خلل، ولم يعتريه أقل اضطراب، وما زال، ولن يزال حافظاً له بقدرته، راعياً له بحكمته، لم يدركه ملل ولا سأمٌ ولم يأخذه نصب ولا وصب.

وصدق سبحانه إذ يقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوب﴾ [ق٣٨].

رزق بمتانته كل كائن حى على سطح الأرض منذ دبت الحياة على سطح الأرض، ولم يزل يرزق هذه الأحياء، وسيرزقها إلى يوم الخروج، لم يعى بتدبير الأرزاق للأحياء جميعاً، ومن أصدق من الله قيلا إذ يقول: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِي(٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات٥٨].

يولد الإنسان ضعيفاً لا يقوى على شئ إلا التقام ثدى أمه، ثم يأخذ فى القوة شيئاً فشيئاً، وقليلا قليلا، حتى يبلغ أشده ويستوى، ثم يأخذ فى الضعف والاضمحلال حتى يوافيه أجله.

أما رب العزة فهو القوى المتين فى الأزل والأبد وما بينهما، لا يعجزه شىء فى السماوات ولا فى الأرض، خلق السماوات والأرض فى الأزل، وسيطوى السماء كطى السجل للكتب، ويبدل الأرض غير الأرض فى الأبد، ويعيد الخلق كما بدأه، وينسف الجبال على ضخامتها ومتانتها ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا(١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا(١٠٦) لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه١٠٧].

هـذا وليست متانة القوى المتين سبحانه كمتانة المخلوقين بشدة أسر، ولا بقوة عضل، لا باستحصاد عصب، وليست ثمرة غذاء ولا رياضة ' بل هى ذاتية لا تستند إلى سبب ولا تعتمد على مؤثر.

يملى للظالمين، ويمكن لهم فى الأرض حتى استمرءوا مراعى الظلم، واستباحوا الحرمات، واستهانوا بكل مقدس: أخذهم بمتانته أخذ عزيز مقتدر كما قال تعالى: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [الأعراف١٨٣].

هـذا ولو رحت أسطر جميع مظاهر متانته تعالى لما اتسع لذلك عمرى، ولا أعمار الأجيال من بعدى، وما وسعته ما أخرجت المصانع من الأوراق؛ فإن مظاهر متانته تعالى بقدر كلماته ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان٢٧].

أفلا يأخذك العجب بعد هذا: أن ترى إنساناً يترك ذا القوة المتين سبحانه؛ ليدعو من دونه مخلوقاً عاجزاً ضعيفاً، لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً؟.

أليس من العجب العجاب: أن ترى الناس يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين، فيسيرون فى مواكب حافلة تتقدمها الطبول والمزامير، ويحدى فيها بالظعائن فى الأحداج إلى قبور موتى قد قضوا نحبهم، ولم يستطيعوا أن يردوا الموت ولا المرض عن أنفسهم - يلتمسون منهم قضاء الحاجات، أو جلب المنافع أو دفع المضار، أو شفاء المرضى، أو كسب القضايا، أو هبة الذرية أو حفظ الدور، أو البركة فى الزروع، أو النقمة من الأعداء، أو غير ذلك من ألوان المطالب وشتى الرغائب ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد١٦].

وإذ استطعنا أن نبسط عذر العامة، وأن نقول هؤلاء قوم جاهلون لم يجدوا من يرشدهم ويهديهم السبيل، فهم على آثار أسلافهم مقتدون ولو وجدوا معلماً لتعلموا ولو وجدوا هادياً لاهتدوا، فما عذر العالم الذى إذا مسته نعمة هرع إلى أجداث الموتى، ووقف عندها خاشعاً خاضعاً ذليلاً، يشكر للرفات السحيق نعمة لم يكن له فيها بد، ويحمد له صنيعه لم يكن له إلى اصطناعها من سبيل ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِى بَحْرٍ لُجِّىٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور٤٠].

الوكيل

يقال: وكل بالله، وتوكل على الله، أى استسلم إليه، والتوكل: أن تعتمد على غيرك، وتجعله نائباً عنك فى العناية بشئونك وتقول: وكلت أمرى إلى الله، أى ألجأته إليه، واعتمدت فيه عليه. وتقول: وكلت الله فى أمرى (بالتشديد) أى استكفيته أمرى ثقة بقدرته عليه، وعجزاً عن القيام به بنفسى.

ومن ذلك يكون معنى «الوكيل» الذى يشتغل بأمر الموكول إليه.. وصيغة فعيل فيه بمعنى مفعول. أى الذى وكل إليه الأمر.

فإذا كان اسماً من أسمائه تعالى الحسنى كان معناه: من توكل إلى علمه وقدرته وحكمته أمور الخلق، وشئون العباد التى يعجزون عن القيام بها بأنفسهم، والنهوض بها بما منحوا من قوى محدودة الأثر، فيتوكل لهم بها ويتولاها.

وقد وكل سبحانه إلى نفسه أمر الخلق، فخلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق وتوكل بذلك فأتى به على أبدع نظام وأتم إحكام.

عرفنا ذلك فى عالمنا الأرضى الذى نعيش فيه، وقسنا عليه ما لم نعرف من العوالم التى لا علم لنا بها، فقد أراد سبحانه أن يخلق على الأرض كائنات حية لا تعيش إلا بالهواء والماء، فتوكل لها من قبل خلقها بالهواء والماء، وجعل الهواء محيطا بالكرة الأرضية إلى ارتفاع بعيد، وجعل الماء يغشى حوالى ثلاثة أرباع هذه البسيطة، وجعله ملحاً حتى لا يأسن بالركود فى بعض الأماكن أو بما يقذف فيه من مواد قابلة للفساد. ثم توكل بتنقيته من الملح، فدبر ذلك تدبيراً عجباً يشهد بعظيم القدرة وإحاطة العلم وبالغ الحكمة، فجعل الشمس ترسل أشعتها إلى هذا الفضاء الفسيح المغمور بالماء الملح، فإذا لامسته الأشعة الحارة سخن وتحلل وصعد فيه البخار تاركا الملح وراءه، وارتفع إلى طباق الجو العالية، فتجمع وتراكم وكون سحاباً ثقالا تسوقه الرياح إلى الأرض الجرز، فإذا برد تكاثف وانحدر غيثاً ثجاجاً تجرى به الأنهار، أو يسلك ينابيع فى الأرض لتستمد منه الكائنات الحية قوام عيشها ومادة حياتها.

وتوكل الوكيل سبحانه بأن يجعل لأجسام الكائنات الحية أجهزة محكمة، كل جهاز يؤدى أمانة خاصة أؤتمن عليها، وأعضاء تامة ينهض كل منها بعمل لازم لحياة الجسم لا غنى عنه كالجهاز العصبى فى الحيوان وما يتبعه من الحواس والمشاعر، والجهاز الهضمى من الأسنان واللسان وغدد العاب والبلعوم والمرئ، والمعدة والأمعاء وما إليها.

وجهاز الدورة الدموية من القلب والشرايين والأوردة والشعيرات، والجهاز التنفسى من الحنجرة والقصبة الهوائية والشعب. والرئتين. والجهاز التناسلى فى الذكر والأنثى مع عجيب أمره وإحكام تكوينه، والجهاز الإخراجى مع حكيم وضعه ودقيق تركيبه من الكليتين والحالبين والمثانة وما يتصل بها من جهة. والشرج وما يتصل بها من جهة أخرى.

ولو رحت أصف أعمال هذه الأعضاء، ووظائف هذه الأجهزة لضاق النطاق، وما وسعت الأوراق.

ولقد توكل الوكيل سبحانه بإيجاد هذه الأعضاء الضرورية لحياة الإنسان والحيوان والنبات. ولو أن الإنسان حاول أن يوجد لنفسه أقل أعضائه شأناً وأضعفها أثراً لتبين عجزه الواضح وجهله الفاضح، ولقد تعطب بعض الأعضاء، فلا يستطيع صاحبها أن يعوضها ولو ملك كنوز قارون، ولا يمكن أن يردها عليه طب ولا طبيب.

توكل الوكيل سبحانه بالرزق للأحياء جميعاً من العاقل وغير العاقل، من المؤمن والكافر، كما توكل بحفظ حياتهم، ولو وكلهم إلى أنفسهم طرفة عين لهلكوا.

يغفل أكثر الناس عن إدراك هذه الحقائق الأزلية الخالدة ويسيرون فى طريق الحياة غافلين لاهين لا يلقون إليها بالا، حتى إذا مسهم الضر نبههم الألم من غفلتهم، وردهم إلى ربهم الوكيل يكلون إلى قدرته ورحمته وحكمته ما عجزوا عنه من دفع البلاء عن أنفسهم ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان٣٢].

وما الدعاء إلا ثمرة اليقين بأن لهم رباً قادراً رحيما يكلون إليه ما عجزوا عن تدبيره بأنفسهم، ويتوكلون عليه فيما أعجزهم أمره، وأعيتهم الحيلة فيه.

والإنسان مهما يؤت من القوة والعقل والذكاء والعلم والكياسة وحسن التدبير - عاجز عن إدراك ما يخفى عليه من أمور الغيب التى استأثر بعلمها علام الغيوب سبحانه لا يدرى كيف يقدر الله الأرزاق، ولا كيف يسوق الخير، ولا كيف يدفع الشر، ولا كيف يبنى النصر.

وقد منحه سبحانه من القوى ما يستطيع به أن يدبر أموره الظاهرة التى تبلغها مداركه، وتناولها قدرته، أما ما وراء ذلك مما لا تناله قوى البشر، ولا تبلغه مداركهم فعليه أن يكله إلى الوكيل سبحانه ليجريه بعلمه وقدرته وحكمته ورحمته.

مـــن أجـــل ذلك يأمر الوكيل سبحانه أحب خلقه إليه، وأكرمهم عليه عبده ورســـوله محمداً صلى الله عليه وسلم أن يتخذه وكيلا يتوكل لـــه بين أمور الرسالة وهداية الناس ودفع أذاهم. ونشر الدعوة وتنحية العوائق من طريقها بما يعجز عنه صلى الله عليه وسلم بقواه البشرية التى منحه الله تعالى إياها.

قال تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ [المزمل٩].

ولمـــا اكثر المنافقون من الدس والكيد والرياء أمره الوكيل سبحانه أن يتوكل عليه ليكفيه من أمرهم، ويدفع عنه من أذاهم ما لا يقدر على استكفائه ورفعه بنفسه.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُـــمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَـــى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ [النساء٨١].

ولمـــا أرادت قريش الهجوم على المدينة لتنتقم من المسلمين وتثأر لقتلى بدر، ورأى الـــنبى صـــلى الله عليه وسلم أن يعتصم بالمدينة ولا يخرج إليهم، وحبب إليه الشباب الذيـــن لم يشـــهدوا بدراً أن يخرج ليخرجوا معه ويظفروا بشرف الجهاد - دخل بيته ليتأهب للخروج فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: أكرهتم الرسول على مالا يحب، فلما خرج متأهباً مستعداً قد لبس لامته وشك فى سلاحه أرادوا أن يثنوه عن عزمه.

فأمره الله تعالى أن يمضى فى سبيله وأن يتوكل على ربه.

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُـــمْ فِى الأمـــْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَـــى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِـــينَ﴾ [آل عمران١٥٩].

وقـــد أخـــبر الوكيل سبحانه رسوله عليه الصلاة والسلام أن ما يخفى عليه وعلى الناس من أمور الغيب مرده إلى الله سبحانه، وأن الأمور كلها مرجعها إليه وحده، فما اعويـــا الرسول من أمر، وما أعجزه من شئ فليكله إلى الله تعالى، وليصرف عن نفسه همه ليفرغ لعبادة ربه.

قـــال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود١٢٣].

ولمـــا اشتد عنت المشركين وتزنيئهم على النبى صلى الله عليه وسلم وتغييظهم إياه بالتضـــرع إلى الأصـــنام فى حضرته، وطلب عونها بمشهد منه عزاه ربه عما يلقى من ذلـــك، وأمـــره أن يتوكل عليه وحده إذا توكل هؤلاء إلى هذه الأحجار التى تعوزها

الحياة قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا(٥٥)وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا(٥٦)قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً (٥٧)وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان٥٨].

ولما أمره جل ثناؤه إن ينذر عشيرته الأقربين، وعلم أنه سيكون منهم من يتنكر له، ويعصى أمره. ولا يقبل هدايته ونصحه عزاه الوكيل سبحانه، وأمره أن يتوكل عليه، وهو كافيه أمرهم ذاكراً له من صفاته القدسية ما يحمله على هذا التوكل قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ(٢١٤)وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(٢١٥)فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ(٢١٦)وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ(٢١٧)الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ(٢١٨)وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ(٢١٩)إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الشعراء٢٢٠].

ولما أعرض بنو إسرائيل عن هداية القرآن بعد أن بين لهم وجه الحق فيما كانوا يختلفون فيه من أمور دينهم، وجمدوا على الباطل الذى ألفوا عليه آباؤهم، وأنفقوا فيه حياتهم أمره الوكيل سبحانه أن يتركهم إلى قضاء الله وحكمه لأنهم كالموتى الذين لا يسمعون وكالعمى الذين لا يبصرون، وأن يتوكل على الله ليكفيه أمرهم، ويدفع عنه كيدهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(٧٦) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ(٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ(٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ(٧٩) إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ(٨٠) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [النمل٨١].

ولما حاول الكافرون أن يقتلوا النبى صلى الله عليه وسلم ليُنزلوه عن بعض ما أُنزل إليه من ربه، وجاراهم المنافقون وأرادوا أن يخدعوه بقولهم: لو أجبتهم إلى بعض ما طلبوا لآمنوا بك واتبعوك، وكسبت بذلك كسباً عظيماً، نهاه الوكيل سبحانه وهو العليم بسيئ نواياهم، الخبير ببواطن أمورهم، عن طاعاتهم، وأمره أن يتبع الوحى الذى أنزل إليه وأن يتوكل على الله ليكفيه أمر فتنتهم، ويبصرهم بخفى أمورهم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا(١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا(٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ [الأحزاب٣].

ولما أكثر الكافرون والمنافقون من محاولة فتنة النبى صلى الله عليه وسلم عما أنزله الله عليه وبالغوا فى ذلك وأسرفوا كرر سبحانه النهى عن طاعتهم تثبيتا لنبيه صلى الله عليه وسلم فقال سبحانه: ﴿وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ [الأحزاب٤٨].

وقد أخبرنا سبحانه أن رسله جميعاً كانوا يتخذونه وكيلا يتوكلون عليه فى جميع شئونهم وخاصة حين يضطهدهم أقوامهم، ويتربصون بهم الدوائر، ليرد عنهم كيد الأعداء، ويكفيهم شرهم.

قال تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم١١].

ومن ذلك أن هوداً عليه السلام حين زعم قومه أن بعض آلهتهم قد اعتراه بسوء أخبرهم أن آلهتهم التى تعوزها الحياة التى لا تعوز أحقر الحيوان شأناً، الحياة التى تتمتع بها القردة والخنازير والحشرات والهوام - أحقر وأذل وأضعف من أن تناله بسوء حتى ولو كانت حية، لأنه متوكل على الوكيل الحى القوى الذى لا يغلبه غالب، والذى يدبر الخير للمتوكلين عليه ويدفع الشر عنهم.

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود٥٣].

وأخبرنا الوكيل سبحانه فى كتابه الكريم أن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم الرضوان حين أخبرهم المنافقون بأن الكفار يجمعون الناس لحربهم والتنكيل بهم لم يبالوا، ولم يكترثوا. بل ازدادوا إيماناً بنصر الله، ويقيناً فى الفوز على الأعداء، لأنهم قد اتخذوا الله وكيلاً يتولى شئونهم، ويدبر أمر انتصارهم.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران١٧٣].

وقد أنبأنا الوكيل سبحانه أن أتباع الرسل كانوا يتواصون بالتوكل على الله فيكتب لهم النصر على أعدائهم وليستمدوا من التوكل قوة يوجهون بها أشد الأعداء، ويتغلبون على أخطر المخاطر، ومن ذلك أن موسى عليه السلام حين أمر بنى إسرائيل أن يدخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لهم، غلبهم الجبن الذى تغلغل فى نفوسهم

حين كانوا يرسفون فى قيود الذل والاستعباد تحت حكم فرعون، ورفضوا الدخول محتجين بقوة أعدائهم، فنصح لهم إخوانهم الموفقون بالتوكل على الله لينتصروا، فإن أقوى القوى تذوب وتفنى أمام قوة الله قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة٢٢].

هذا واتخاذ الله وكيلا والتوكل عليه فى كل الأمور من أخص صفات المؤمنين، وأبرز مميزاتهم؛ إذ كلما قوى إيمان المؤمن ازداد توكله على الله، وثقته بما عنده، وبرئ من حوله وقوته إلى حول الله وقوته موقنا أن مرجع الأمور كلها إليه تعالى وحده لا شريك له، وأنه تعالى وكيل على خلقه وهم غافلون وأنه لو تركهم لأنفسهم طرفة عين لصاروا فى عداد الهالكين. قال جل ثناؤه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال٢].

وقد بين سبحانه أن الإيمان والتوكل على الله يدفعان كيد الشيطان، ويسلبانه سلطانه، ويردانه أضعف كيداً، وأحقر شأناً من أن ينال من المؤمن منالا، أو يدرك منه غرضا قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل٩٨].

كما أنبأنا جل ذكره أنه وكيل على عباده المؤمنين فلا يمكن الشيطان من الكيد لهم قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلا﴾ [الإسراء٦٥].

كما أنه لا يمكن منهم غير الشيطان، ولا يجعل لأحد عليهم سبيلا.

قال تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِى يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران١٦٠].

التوكل على الوكيل سبحانه أن تستعمل كل ما منحك من القوى فيما منح من أجله وتستعمل سمعك وبصرك وسائر حواسك فيما خلقت من أجله: وتستعمل عقلك وذهنك وتفكيرك وتدبيرك وبحثك وعلمك وذكاءك وتجاربك وسعيك وجدك واجتهادك، ويقظتك وانتباهك وكل ما أنعم به الوكيل سبحانه من المواهب والاستعدادات لكى تصل إلى غايتك، وتدرك أهدافك، وتتوكل على الوكيل سبحانه فى تحقيق ذلك والبلوغ إلى نتائجه. كما تتوكل عليه سبحانه فيما تعجز عنه، ولا يمكنك إدراكه بقواك الممنوحة لك.

أما التواكل فهو أن تترك كل سعى وتدبير، وعمل وتفكير، وتزعم أنك تتوكل على الوكيل سبحانه وليس هذا توكلا ولكنه تواكل مذموم قبيح لا يوصل إلى خير

ولا يبلغ أملاً ولا يحقق غاية. بل هو من الكسل الذميم الذى لا يليق أن يتصف به مؤمن، وقد استعاذ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول: اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل.

إن الشارع الحكيم يأمرنا بالعمل إذ يقول: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة١٠٥]. وما انتصر المؤمنون السابقون من الرعيل الأول فى جهادهم وقتال أعدائهم إلا بالجد والعمل ﴿فَـإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد٤].

لو سلك الناس طريق التوكل الكاذب الذى هو التواكل ما بنى بان، ولا غرس غارس، ولا زرع زارع، ولا جاهد مجاهد، ولا عمل عامل، ولهلك أولئك المتواكلون جوعاً وظمأ.

الحيوان الأعجم يجد فى تحصيل رزقه، ويعمل دائبا للظفر بقوته، ويفر مما يؤذيه ويضره، أفيليق بالإنسان العاقل أن يكون دون الحيوان الأعجم سعياً وعملا.

يقول عليه الصلاة والسلام: «لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير: تغدو خماصاً وتروح بطانا».

فلم يفسر رسول الله صلى الله عليه وسلم توكل الطير بأنها تجثم فى أعشاشها ثم يأتيها رزقها عفواً بغير سعى ولا عمل، ولكنه صلى الله عليه وسلم فسره بأنها تغدو وتخرج من وكناتها مبكرة غداة كل يوم باحثة عن رزقها، فيلتقط دودة من هنا وهناك، حتى إذا كان آخر النهار، راحت إلى أعشاشها ممتلئة البطن شبعاً بفضل سعيها وبحثها.

* * *

لقد أفسدت المتصوفة عقول الناس وتفكيرهم بالتفسير الآثم لمعنى القدر، ولمعنى التوكل ونفثوا فى أرواح أتباعهم رذائل الخمول والكسل والتواكل. ألم تر شاعرهم الأحمق إذ يقول:

جرى قلم القضاء بما يكون ... فسيان التحرك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق ... ويرزق فى غشاوته الجنين

هذا منكر من القول وزور

ففى أى عقل يسوغ القول فإن الحركة والسكون سيان إن الذى يسوى بين الحركة والسكون يسوى بين الحياة والموت، فالحركة من دلائل الحياة، والسكون من إمارات الموت وكيف يكون السعى فى طلب الرزق جنوناً؟

وهل الجنون إلا هذا القول الذى لا تسيغه العقول؟

إن الجنين الذى يرزق فى غشاوته لم يتم خلقه وتكوينه ولم يمنح القدرة على السعى والعمل، ولم يخرج من ضيق الرحم وظلمته إلى سعة الحياة ونورها، فلابد أن يتوكل الوكيل سبحانه له بكل أسباب حياته. فإذا برز إلى نور الوجود تغير نظام معيشته، وأخذ فى طلب رزقه بالصياح الذى ينبه أمه إلى أنه جائع يطلب الغذاء، أو متألم يطلب إنقاذه من أسباب الألم. فإذا ترعرع، واشتد ساعده واستغنى عن أمه صار يطلب الرزق بالجد والسعى والعمل واستعمال القوى التى منحه الوكيل سبحانه إياها.

ليت شعرى متى تصح الأمة الإسلامية من هذه الأمراض النفسية التى أصابها بها أولئك الجاهلون الغافلون الدجالون.

متى تنفض عن نفسها غبار الكسل الذى تراكم عليها فى ظل العهود السابقة حينما كانت الحكومات الجاهلة الظالمة المستبدة تقتل فى الأمة روح العمل والطموح لتظل خائفة خاضعة مستخذية تسبح بحمد الحاكم الظالم الذى يبيح لها الاستجداء والتسول، وأكل أموال الناس بالباطل؟.

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا، وإليك المصير.

الفاطر

الفطر بفتح الفاء وسكون الطاء الشق طولا، والابتداء، والاختراع.

وفطر الأمر ابتدأه وأنشأه.

وفطر البئر ابتدأ حفرها.

وفطر الله الخلق أوجده وأبدعه.

هذه خلاصة ما ذكرت المعاجم لهذه المادة من معنى. وتتلخص فى الشق والابتداء والاختراع والإنشاء والإيجاد والإبداع.

وعلى ضوء هذه المعانى نفسر هذا الاسم الجليل من أسمائه تعالى. وهى كما ترى معان متقاربة ليس بينهما كبير فرق.

فإن قلنا: إن الفطر معناه الشق كان معنى الفاطر الذى اشتق العوالم من السديم الذى عبر عنه سبحانه بالدخان فى قولـــه تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت ١١].

فـــالله تعالى فطر العوالم من السديم الذى هو مادة الخلق الأولى التى خلقها أولا ثم اشتق منها العوالم كلها بقدرته وعلمه وحكمته.

وإن قلنا أن الفطر بمعنى الابتداء كان معنى الفاطر الذى ابتدأ خلق العوالم لم يسبقه إلى خلقها سابق، ولم يتقدم عليه فى إيجادها أحد.

وإن فســـرناه بالاختراع ومعناه البدء بإيجاد الشىء على غير مثال سابق كان معناه الذى خلق العوالم كلها ابتداء لم يقتد فى خلقها بغير، ولم يتبع خطوات سواه.

وإن فســـرناه بالإنشاء والإيجاد كان معناه المنشئ والموجد للعوالم كلها لم ينشئها غيره ولم يوجدها سواه.

وإن فسرناه بالإبداع كان معناه مبدع العوالم ومقيمها على هذا النظام الذى ليس لـــه مثيل.

وهـــذه المعـــانى لفرط تقاربها من الممكن أن ينتظمها جميعا معنى واحد جامع وهو الخلق أول مرة.

غـــير أن بين الفطر والخلق فرقاً دقيقاً ينبغى أن يلقى إليه البال. فالخلق معناه مطلق الإيجاد. فتقول خلق الله السماوات أى أوجدها وخلق الله الإنسان أى أوجده.

أمـــا الفطر فمعناه إيجاد الشئ وإبداعه على هيئة خاصة تجعله مستعداً للوفاء ببعض المقاصد.

تقـــول فطر الله الأرض أى أوجدها على هيئة خاصة تجعلها مستعدة للوفاء بما يراد مـــن إيجادها، وهى أن تكون موطناً للجنس البشرى منها يخلق وفيها يعاد ومنها يخرج تـــارة أخـــرى، يســـتغل تربتها، ويستخرج كنوزها وذخائرها، ويمشى فى مناكبها، ويبحـــث عـــن قوته فى أكنافها ويتخذ من سهولها قصوراً، وينحت من جبالها بيوتاً ويتخذ من حيوالها ونباتها طعاماً ومن مائها شراباً، وينتفع بما سخره الله تعالى لـــه من حيوالها وطيرها.

وتقول: فطر الله السماوات أى أوجدها وأبدعها على هيئة خاصة تجعلها مستعدة للوفـــاء بـــبعض مقاصدها، فتكون شمسها سراجاً وهاجاً يضئ للناس فيختلفون إلى

مصالحهم، ويزاولون أعمالهم، ويبعث الدفء إلى أجسامهم ويرسل الحرارة فتنضج الثمار والحب وتصبغ الفاكهة، وتلون الطير، وتبخر ماء البحر فتنشأ السحب التى تزجيها الرياح إلى الأرض الجرز فتنزل مطراً تجرى به الأنهار. ويكون قمرها نوراً يهتدى به السارى فى ظلمات البر والبحر، ونجومها زينة ورجوماً للشياطين، وهداية للسارين. إلى غير ذلك من المقاصد والحكم والأسرار التى لا تبلغها عقولنا، ولا تصل إليها مداركنا.

وتقول: فطر الله الإنسان أى أوجده وأبدعه على هيئة خاصة تجعله مستعدا للقيام بعبادة الله وتوحيده ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِى﴾ [الذاريات٥٦].

وإلى هنا تستطيع أن تقول فى تفسير اسمه تعالى « الفاطر إنه هو الذى خلق الخلق وأوجد الكون بحيث جعل كل كائن على هيئة خاصة تجعله مستعداً للقيام بما يراد من خلقه وإيجاده».

ولسنا نقول ذلك افتئاتاً على اللغة. بل ما طوع لنا أن نقول ذلك إلا نصوص اللغة، فابن الأثير يقول. « فطر الله الخلق، إيجاده وإبداعه على هيئة ترشيحه لفعل من الأفعال وما زدنا على أن بسطنا قوله ومنحناه فضلا من الوضوح ومزيداً من البيان».

ولم يكن ابن الأثير مفتاتاً على اللغة فى تفسيره هذا، فإنه ما أخذ إلا من قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم٣٠].

فالفطرة مصدر يدل على الهيئة كالجلسة والركبة.

وفطرة الله هى ما ركز فى غريزة الإنسان من الاستعداد لمعرفة الله تعالى والإيمان به وعبادته وحده وذلك هو المراد من خلق الإنسان. وهو ما أمره الله تعالى به فى قوله: (فأقم وجهك للدين حنيفاً)، وعنى به الفطرة التى فطره عليها.

وإلى هذه الفطرة يشير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ(١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف١٧٣]. أى أن الله تعالى فطر بنى آدم مستعدين لمعرفته والإيمان به وإنما تضرهم الغفلة والإقتداء بالآباء والسير على منهاجهم.

وإلى هذه الفطرة يشير قولــه صلى الله عليه وسلم: « ما من مولود إلا يولد عــلى الفطــرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه، كما تنتجون البهيمة. هل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها».

فالإنسان يولد على الفطرة أى على نوع من الجبلة والطبع يهيئه بقبول الدين، فلو تــرك على فطرته التى فطره الله عليها لأستمر على لزومها و لم يفارقها وإنما يعدل عن الفطرة من يعدل عنها، من رمى بآفة من الآفات التى تعرض للبشر: من الغفلة، وفساد البيئة ومحاكاة الآباء.

تدبر قولــه تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت٦١].

وقولـــه تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت٦٣].

وقولــه تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُــنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُــونَ﴾ [الزخرف٨٧].

لتعــلم أن الفطرة هى التى تدفع هؤلاء العرب المشركين إلى أن يجيبوا هذا الجواب الصحيح السليم الذى يدل على أن التوحيد مركوز فى طبائع البشر، وعلى أن الإنسان مفطــور على أن يقر بوجوده إله خالق، ولو سماه بغير اسمه ولو أشرك معه غيره، وإنما يفسد الناس هذه الفطرة بجهلهم وغفلتهم وطاعة سادتهم وكبرائهم.

ولمــا كان الفطر يدل على الخلق لأمر يراد آثر القرآن الكريم وهو يترجم جواب إبراهــيم لقومــه أن يعــبر بالفطر دون الخلق فى قولــه تعالى: ﴿قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [الأنبياء٥٦].

ففــى قولــه تعالى (فطرهن) من الإعجاز فى الإيجاز مالا يعزب عن ذهن الأديب. فلقــد انطــوت هــذه الكــلمة على قلة حروفها على جميع مراد الله تعالى من خلق السماوات والأرض. وذلك مالا سبيل إلى الإنسان أن يعبر عنه بقلم ولا لسان.

وكذلــك ما حكاه الله تعالى عن سحرة فرعون فى قولــه تعالى: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَــى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِى فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه٧٢].

فقولـــه تعالى فطرنا. ليس معناه الخلق فحسب، بل معناه خلقنا لطاعته وعبادته والخضوع لأمره لا لطاعة فرعون ولا لعبادته ولا للخضوع لأمره.

فسبحان فاطر السماوات والأرض مترل هذا الكلام البليغ المعجز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

إن مراد فاطر السماوات والأرض من خلق الإنسان هو ما عبر عنه بالأمانة فى قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَات وَالأرْض وَالْجبَال فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْملْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الأنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب٧٢].

نعم خان الإنسان الأمانة التى أودعها الله تعالى إياه والتى خلقه من أجلها، وأداها كل كائن فى السماوات والأرض. فما تأخرت الشمس يوماً عن موعد شروقها، ولا سبقت موعد غروبها وما ضنت يوماً بضوئها ولا بدفئها ولا حرارتها، وما أمسكت الأرض نبتها عند توافر شروط الإنبات، وما قصرت الجبال عن إرساء الأرض وحفظها من أن تميد بساكنيها، ولكن الإنسان وقد خلقه الله تعالى لعبادته خان أمانته فوجه عبادته لغير فاطره فعبد الأحياء والأموات من البشر، وعبد النجوم والأنهار والحجر، وعبد الحيوان والشجر، وعبد الطير والحشر، وخالف بذلك أمر فاطر السماوات والأرض وخالق القوى والقدر.

نعم خان الإنسان الأمانة التى فطر من أجلها، فدعا غير الله واستعان بسواه وفزع فى أموره إلى المخلوقين العاجزين الذين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا، وهذا شر ما انتهى إليه جهل الجهول وغباء الغبى وظلم المظلوم.

لو علم هؤلاء الذين يدعون غير الله، ويفزعون إلى القبور، ويستعينون الموتى أنهم يلحدون فى اسمه تعالى الفاطر وينقضون معناه بمحاولتهم إفساد الفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها لقنوا حياءهم، وأنابوا إلى ربهم وأخلصوا توحيدهم، وصححوا إيمانهم، ولكن واأسفاه غلبت الغفلة عليهم وران على قلوبهم ما كانوا يكسبون.

هذا و لم يرد هذا الاسم فى القرآن الكريم إلا مضافاً قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ للَّه فَاطِرِ السَّمَاوَات وَالأرْضِ جَاعِلِ الْمَلائكَة رُسُلا أُولِى أَجْنحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِى الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر١].

وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَات وَالأرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَة أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر٤٦].

وهذه الآية الكريمة تشير إلى ما يتم به معنى هذا الاسم الجليل وهو البعث الذى هو غاية الخلق ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون١١٥].

الكريــم

أصــل الكــرامة فى الأشياء العزة والنفاسة، ومن ذلك كرائم الأموال أى نفائسها وخــيارها، وكل جارحة شريفة فى الإنسان كالعين والأذن واليد فهى كريمة وكريمتا الإنسان عيناه، وكريمة الرجل ابنته لأنه ينفس بها ويعزها.

وقــد وصــف الــرزق بالكرامة فى قولــه تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [الروم٤٥]. أى واسع كثير يأتيهم صفواً لا يمتهنون أنفسهم فى الحصول عليه.

ووصف بها القول فى قولــه تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَــانًا وَبِــذِي الْقُــرْبَى وَالْيَــتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُــورًا﴾ [النســاء٣٦]. أى ليناً سهلاً مرضياً فيه إبقاء على شرفهما وحرص على كرامتهما.

ووصف به كتاب سليمان إلى ملكة سبأ فى قولــه تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِــيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل٢٩]. وكرامة هذا الكتاب بكرامة مرسله لأنه ملك يفوقهــا قوة وسعة ملك وعزة وكرامة، وبكرامة موضوعه لأنه مبدوء باسم الله تعالى، وطالب بالخضوع لسلطانه.

ووصفت به الديار فى قولــه تعالى: ﴿كَــمْ تَرَكُــوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُــونٍ﴾ [الدخان ٢٥]. وكــرم الديــار فى مواءمتها للصحة، وعدم نبوها بساكنها، مع الأمن والظفر بالــرزق الواســع والاحتفاظ بالحرية والكرامة. ووصفت به ألوان النبات فى قولــه تعــالى: ﴿خَلَــقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان ١٠]. وكرامة أزواج النبات فى نفاستها ومنفعتها ورفعة قيمتها.

ونفيــت الكرامة عن ظل الجحيم لإثباتها بظلال الجنة. وبضدها تتميز الأشياء قال تعــالى: ﴿وَأَصْــحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ [الواقعة٤١]. وكرامة الظل فى الروح المنعش الذى يذهب كرب الحر.

ووصــف بالكرامة عرش الله تعالى فى قولـــه: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلا هُــوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون١١٦]. وكرامة العيش فى أنه مركز تدبير الأمر، وتنزيل الوحى، وتنظيم الكون.

ووصف بها القرآن الكريم فى قولـــه تعالى ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة٧٧].

وكرامة القرآن فى حفظ الله تعالى، يصونه عن غير المطهرين، وفى أنه معجز للبشر، لــئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يستطيعون ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وفى تضمنه لأسباب السعادة فى الدنيا والآخرة.

وبوصف الإنسان بالكرامة إذ كان جامعاً لخصال الخير، وقد وصف بها موسى عليه السـلام فى قولـــــه تعـــالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ [الدخان١٧]. وكرامته فى اصطفاء الله تعالى إياه على الناس برسالته وبكلامه.

ووصــف به يوسف ويعقوب وإبراهيم عليهم السلام فى قول النبى صلى الله عليه وســلم: الكـــريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إبراهيم، وكرامة هؤلاء فى أنه قد اجتمع لهم شرف النبوة، ومجد النسب وكرم الخلق.

وبالـــنظر إلى كل ما وصف بالكرامة من هذه الأشياء أو الأشخاص أن كل منها ممـــتاز فى جنسه، أو مستكمل للصفات التى تجعله ممتاز فى جنسه. وما ليس لـــه نظير كالعـــرش والقـــرآن الكريم كامل فى نفسه لا يلحقه العيب، ولا يتحيفه نقص ويزيد الإنســـان عـــلى ذلك إذ وصف بالكرامة أو الكرم أنه جامع لأشتات الفضائل وعلى رأسها السخاء.

فماذا يكون معنى الكريم إذا كان اسماً لرب العزة سبحانه؟

تصـــور أفضل المعانى التى جلوتها عليك فى أتم أحوالها، وأكمل أوضاعها ثم اسم بها مـــن الكمال، إلى حد لا يخطر على قلوب البشر، بل إلى غير غاية ولا نهاية ولا حد، تدرك معنى هذا الاسم الكريم.

فهو الذى جمع الكمال كله، وتنزه عن أدنى شوائب النقص، وتفرز بالوجود الحق وتعالى عن الشبيه والنظير، ولم يكن لإحسانه غاية، ولا لإنعامه نهاية ولا لعطائه نفاد، ولا لصفحه حد. سبحانه لا أحصى ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه.

وأما الكمال المطلق لرب العزة سبحانه فقد استوعبت بعض نواحيه آية الكرســـى

﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَى الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ مَــنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِى الْعَظِيمُ﴾ [البقرة٢٥٥].

وأشارت إلى جانب منه مع التتريه عن شوائب النقص فيه سورة الإخلاص.

﴿قُــلْ هُــوَ اللَّــهُ أَحَدٌ(١)اللَّهُ الصَّمَدُ(٢)لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ(٣)وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص٤].

وأشار إلى ذلك فى قولــه تعالى: ﴿الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان٢].

وقــال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِى مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء١١١].

وقولــــه تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى١١].

ومن الآيات التى أشارت إلى عفوه وصفحه قولــه تعالــى: ﴿وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى٢٥].

وقولــه تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء١١٠].

ومن الآيات التى أشارت إلى بعض نواحى جوده سبحانه قولــه تعالى: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل٥].

وقولــه تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل٧٨].

والقــرآن الكــريم كله آيات تشهد بكرم الله تعالى، ولذلك لم يذكر هذا الاسم الكريم فى القرآن إلا مرة واحدة، لأن الناس جميعاً مغمورون فى كرم الله وجوده، يرون آثار هذا الكرم بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم وفى كل قيد شعرة فى السماوات والأرض.

هـــذا هو الغنى الكريم الذى أفاض نعمه على الكافرين كما أفاضها على المؤمنين، وغمر عباده بفضله العميم وجوده العظيم، ومنحهم الحياة والسمع والبصر والفؤاد من

قبل أن يسألوه، وأتاهم من كل ما سألوه. ولو حاول أقل الناس حظاً من نعم الله أن يحصى ما أنعم الله به عليه لأعجزه حصره، وفاته إحصاؤه.

فهل يليق مع هذا أن ينصرف الناس عن باب الكريم الذى لا حد لكرمه الجواد الذى لانهاية لجوده، ليبسطوا أكف الضراعة والرجاء ويريقوا ماء وجوههم أمام القبور والرجام، والتى أصبح الموسدون فى تربتها رفاتاً سحيقاً، وصعيداً جرزا، هكذا الذى أفاض النعم التى لا تحصى بغير سؤال من خلقه أيضن عليهم بإجابة المطالب الحقيرة التافهة حتى يستشفعوا إليه بمخلوق عاجز ضعيف لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، أو حتى يقسموا عليه بشيخ من هؤلاء الشيوخ الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، ويأكلون أموال اليتامى ظلماً، أو حتى يسألوا دجالاً محتال، يلبس ثياب الصالحين، وقد أحاط إهابه بشيطان رجيم.

أليس من الحمق والسفه بل من الجنون أن يترك الظامئ ينبوع عذباً نميراً غدقاً غمراً فياضاً بين يديه ثم يبعد النجعة ليلتمس الرى من الأوشال الآسنة الناضبة التى تمازجها الأوحال أو يعتصر البلة من البئر الظنون، والحمأ المسنون؟

يا حسرة على العباد!

منحهم الله نعمة العقل وهى أجل النعم فعطلوها، ولم ينتفعوا بها، ولم يسيروا على ضوئها، وآثروا أن يسيروا فى طريق الضلال فى الظلام الدامس البهيم، ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِى حَمِيدٌ﴾ [لقمان١٢].

الواسع

الوسع والسعة الجدة والطاقة. قال تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة٢٨٦].

وقال تعالى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق٧]. أى ذو وجد من وجده.

وتقول: وسعنى بيتى ووسع أولادى إذ كان كافياً لسكانهم ولم يضق عنكم فهو واسع.

وتقـــول: وسعنى رزقى ووسع عيالى إذ كان كافياً لكم ولم يقصر دون النفقة اللازمة لكم، فهو واسع.

وقال صلى الله عليه وسلم (إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فسعوهم بأخلاقكم). أى أن أموالكـــم ليست كافية لعطاء الناس، فاجعلوا مكارم أخلاقكم كافية لحسن صحبتهم.

فالواسع فى الحوادث لا يكون كافياً لما يراد به أو منه.

وعلى نور من هذه المعانى يمكن تفسير اسمه تعالى (الواسع) فهو الذى يسع الخلائق بما يقوم به وجودها وحياتها، وبما يكون ملاك أمرها.

فمـــن شئون الخالق أن يكون كافياً لخلقه يضمن لهم أرزاقهم، ويحفظ على الأحياء حـــياتهم، ويعيـــنهم عـــلى أمورهم، وتستلزم هذه الكفاية أن يكون عليماً بهم محصياً لعددهم.

وســـع ربى كـــل شئ علماً. يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها، وما يترل من الســـماء، وما يعرج فيها، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور. يعلم السر وأخفى إذ كـــل موجـــود مخلوق لـــه تعالى، ولا جرم أنه محيط بكل خلقه (ألا يعلم من خلق) (وسع كرسيه السماوات والأرض).

وإذا كان سبحانه قد وسع علمه جميع الخلائق من إنس وجن وملك وطير وحشر وذرع، وشـــجر ونـــبات، وسائل وجامد، وظاهر وخفى، فليس بحاجة إلى من ينبئه بـــأحوال عباده، أو يظهر لـــه حاجتهم إلى معونته ورحمته وفضله وعفوه. فمن ضيق الفكـــر بـــل من سفه النفس أن يستعين الناس بالأولياء ليرفعوا حاجاتهم إلى ربهم، أو ليكونوا وسطاء بينهم وبينه، فهو أعلم بهم من كل وسيط.

وقـــد وسعت رحمته كل شئ وكل مخلوق وكل إنسان، فمن رحمته أن أفاض على الـــناس نعمة الوجود، ورزقهم أنواعاً من الهدايات: هداية الفطرة، وهداية الوجدان، وهدايـــة الحـــواس، وهداية العقل، وهداية الدين ليعودوا أنفسهم للسعادة الخاصة التى أعدها للمؤمنين فى جنات النعيم.

وإذ كـــان سبحانه قد وسع كل شئ رحمة فليست به حاجة إلى من يستثير رحمته بعباده، فرحمته تعالى ذاتية. وهو أرحم الراحمين، فمن أفَن الرأى، وضعف مليكة الحكم

أن يهتف الإنسان باسم مخلوق مفتقر إلى الرحمة يشكو إليه الرحمن الرحيم الواسع الذى وسعت رحمته كل شئ.

ولنا فيما قصه الله تعال علينا من دعاء الملائكة واستغفارهم وذكرهم، وطلبهم من الله ما اقتضته سننه فى الوجود - درس نافع يهتدى به من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

يقول تعالى: ﴿الَّذينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بحَمْد رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ به وَيَسْتَغْفِرُونَ للَّذينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعلْمًا فَاغْفرْ للَّذينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبيلَكَ وَقهِمْ عَذَابَ الْجَحيمِ(٧) رَبَّنَا وَأَدْخلْهُمْ جَنَّات عَدْنٍ الَّتى وَعَدْتَهُم وَمَنْ صَلَحَ منْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [غافر٨].

فليس استغفار الملائكة استدراراً لرحمة الله تعالى، واستمطاراً لمغفرته، لأن رحمة الله ومغفرته ذاتيان، لا يستشيرهما نبى مرسل، ولا ملك مقرب، ولكنه ذكر الله تعالى بصفاته العلا، وأسمائه الحسنى، وبأحكامه الأزلية التى لا تتبدل، وسننه الكونية التى لا تتحول. بدليل أنهم لا يستغفرون للعصاة والمذنبين، ولكنهم يستغفرون للذين تابوا إلى ربهم واتبعوا سبيله، ويستنجزون وعد الله - ووعده حق - للمؤمنين والصالحين من آباء التائبين وأزواجهم وذرياتهم فما أنفعه من درس! لو تدبره هؤلاء الذين يقولون أنهم عصاة مذنبون أثمة ملونون، لا يتقبل الله دعاءهم، ولكنه يتقبل دعاء الأولياء لهم - لثابوا إلى رشدهم وأقلعوا عن ذنوبهم، وتابوا إلى ربهم، ثم دعوه مخلصين له الدين حنفاء.

وهو سبحانه واسع يسع عباده بغوثه وعونه، فما استغاثه أحد أو استعانه متبعاً سبيله، مخلصاً فى دعائه، مضطراً إليه إلا أغاثه وأعانه، فهو غياث المستغيثين وعون المستعينين، إياه نعبد وإياه نستعين، فمن استغاث غيره فهو من المخذولين ومن استعان سواه فهو من الخاسرين الضالين ﴿وَمَنْ أَضَلُّ ممَّنْ يَدْعُو منْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف٥].

وهو سبحانه وتعالى واسع، وسع رزقه كل مخلوق، فما شق فماً إلا أجرى له رزقاً ﴿وَمَا منْ دَابَّة فِى الأرْضِ إلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود٦].

الودود

أذكـــر القارئ الكريم بما سبق أنى قررته فى الفصول الماضية: من أن أسماء الأجناس الحسية سبقت فى الوضع أسماء الأجناس المعنوية، التى لم توضع إلا بعد أن ارتقى العقل الإنســـانى، وسمـــا إلى إدراك المعانى المجردة، والأمور المعنوية، فاستعر لها أسماء الأمور الحسية للدلالة عليها.

ومـــن ذلـــك كلمة «الود» فأصلها الوتد أو الجبل. قال الفيروزآبادى فى القاموس المحـــيط: والـــود الوتد والجبل. وذلك أن الوتد ملازم لمكانه الذى يوضع فيه، ويشتد اللـــزوم بيـــنه وبين الأطناب التى تشتد إليه. والجبل كذلك ملازم لمكانه لرسوخه به وتمكـــنه منه. فلما أرادوا أن يعبروا عن مهانى الملازمة الشديدة أو التعلق الشديد وهما من الأمور المعنوية .. أخذوا هذه الكلمة الموضوعة لهذا الجنس الحسى، ووضعوها لهذا الأمر المعنوى، وسموه: «وداً».. ثم تصرفوا فيه فجعلوه مثلث.

الأول: أى ينطق بفتح الواو وضمها وكسرها. وأطلقوه على الحب المتعلق بالشئ، أو المـــتمنى له، كما أطلقوه على حب الشئ، وتمنى حصوله. لتلازم الحب والمحبوب، ولتعلق الشخص بالشئ الذى يتمناه.

يتبين من ذلك أن للود معنيين:

الأول تمـــنى حصـــول الشـــئ، كقولـــه تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْـلِمِـــينَ﴾ [الحجر٢]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَـــوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال٧].

وقولـــه تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيـــهِ﴾ [المعارج١١]. لأن هذه الأمانى كلها تبدو من أصحابها بعد فوات وقتها، وحين استحالة حصولها.

والود بهذا المعنى محال على رب العزة سبحانه، لأنه صفة العاجز الذى يفوته الشئ، أو يـــتعذر عليه الطلب، فتتعلق به آماله حتى لا يمكن دركه، وتتبعه نفسه حين يكون حصوله مستحيلا، فالمؤمنون ببدر كانوا يتمنون أن العير غير ذات الشوكة تكون لهم، وقـــد نجـــت العير وفاتهم وأصبحت بمنجاة من ظفرهم بها، ولم يبق أمامهم إلا النفير بشـــوكته وســـلاحه وعدته وعتاده. فكانوا يتمنون محالا أو متعذراً على أقل تقدير. والكفار يتمنون يـــوم القيامة لـــو آمنوا فى الدنيا، والمجرم يتمنى لـــو يفتـــدى نفسه

مــن عــذاب النار بأبنائه. وكلتا الأمنيتين لا يمكن تحقيقها، لأن الحياة الدنيا - وهى وقت الإيمان - تكون يوم القيامة قد انقضت بغير رجعة، ولأن عدل الله المطلق يأبى أن تجزى نفس عن نفس شيئاً.

ورب العــزة سبحانه لا يتعذر عليه مطلب، ولا يفوت قدرته أمر، ولا يعجزه شئ فى الأرض ولا فى السـماء؛ فالأمانى محالة عليه تعالى، لأنها مطلب العاجزين، تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً.

الــثانى: محبة الشئ. والله تعالى يحب الصالحين من عباده، وعباده الصالحون يحبونه. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ منْكُمْ عَنْ دينه فَسَوْفَ يَأْتى اللَّهُ بقَوْمٍ يُحبُّهُمْ وَيُحبُّونَهُ أَذلَّة عَلَى الْمُؤْمنينَ أَعزَّة عَلَى الْكَافرينَ يُجَاهدُونَ فى سَبيلِ اللَّه وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائمٍ ذَلكَ فَضْلُ اللَّه يُؤْتيه مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسعٌ عَليمٌ﴾ [المائدة٥٤].

وقـال تعالى: ﴿إنَّ الَّذينَ آمَنُوا وَعَملُوا الصَّالحَات سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَـنُ وُدًّا﴾ [مـريم٩٦]. وقال تعالى: ﴿وَمنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخذُ منْ دُون اللَّه أَنْدَادًا يُحبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّـه وَالَّذيـنَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للَّه وَلَوْ يَرَى الَّذينَ ظَلَمُوا إذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ للَّه جَميعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَديدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة١٦٥].

إذا تقرر هذا عدنا إلى اسمه تعالى (الودود) فنقول: إن اشتقاقه من الود بمعنى الحب فهـو فعـول: إما بمعنى: فاعل: أى محب لعباده الصالحين، وإما بمعنى مفعول: أى أنه محبوبهم وعلى كلا التقديرين: فهو يستلزم المعنيين جميعاً، لأن الفرق بين الحب والود: أن الحـب قـد يكون من جانب واحد، كحب المال والمنصب، وحب الولد العاق، وحب الزوج الجميلة الناشز. وأما الود: فالغالب أنه يكون بين متوادين: أى بين طرفين يتبادلان الود.

قـال تعالى: ﴿وَمنْ آيَاته أَنْ خَلَقَ لَكُمْ منْ أَنْفُسكُمْ أَزْوَاجًا لتَسْكُنُوا إلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْـنَكُمْ مَـوَدَّةً وَرَحْمَةً إنَّ فى ذَلكَ لآيَات لقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم٢١]. ولا جرم أن الزوجين إذا تحابا: حرص كل منهما على أنْ يبادل صاحبه الود.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ إنَّمَا اتَّخَذْتُمْ منْ دُون اللَّه أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنكُمْ فى الْحَيَاة الدُّنْيَا ثُمَّ يَـوْمَ الْقـيَامَة يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ ببَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ منْ نَاصـرينَ﴾ [العنكبوت٢٥]. أى أنهم اتخذوا الأوثان معبودات ليتحابوا ويتبادلوا الود. وقـال تعـالى: ﴿لا تَجدُ قَوْمًا يُؤْمنُونَ باللَّه وَالْيَوْمِ الآخرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ

كَـانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِـرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة٢٢].

أى يبادلونهم الود.

يطلق (الود) فى اللغة على معنيين: أولهما محبة الشئ، والثانى تمنى حصوله. على أن تمنى حصول الشئ مشعر بحبه، لأن الإنسان لا يتمنى حصول شئ إلا إذا كان يحبه.

وعلى ذلك: يكون (الود) هو الحب المجرد، أو الحب المقرون بالتمنى. ويقرر فقهاء اللغـة: أن اسـتعمال الألفاظ فى المعقولات جاء بعد استعمالها فى المحسوسات، وأن (الود) مأخوذ من الوتد، لأن الوتد يتعلق بما يشد به ويلازم مكانه، ويثبت فيه، فتصور منه معنى المودة والملازمة. وقد قلبت التاء دالاً.

و (الـود) بين المخلوقين ضروب شتى، تتنوع بتنوع عللها وأسبابها، ويمكن ردها جميعاً إلى الأنس بالمودود، والركون إلى عونه عند الحاجة، فقد تود شخصاً لأنك تأنس بـه، وتستريح إلى لقائه، لما بينك وبينه من مشاكلة فى بعض الأمور. وقد توده لأنك تأنس فيه عطفاً عليك، واهتماماً بأمرك، وحرصاً على نفعك مع القدرة عليه.

و (الود) مضافاً إلى رب العزة سبحانه حب مجرد عن التمنى، لاستحالته عليه تعالى، وتنزه عنه.

و (الـودود) من أسمائه الحسنى فعول بمعنى فاعل، أو بمعنى مفعول. فإن كان بمعنى فـاعل فمعنـاه كثير الحب لعباده المطيعين. فإن الله يحب المحسنين، ويحب الصابرين، ويقول تعالى فى سورة المائدة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى اللَّـهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّـهِ وَلا يَخَـافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِـعٌ عَلِيـمٌ﴾ [المائدة٥٤].

غـير أن ود الله لعـباده، وحبه إياهم ليس كود بعضهم لبعض، فليس أثر انفعال نفسـى تـثيره أسبابه وعلله، وليس المشاكلة والمشابهة، فإن رب العزة لا مشاكلة ولا مشابهة بينه وبين شئ من خلقه. سبحانه (ليس كمثله شئ) ولا لأنه يؤنس فيهم عطفاً علـيه وحرصاً على نفعه، فهو سبحانه غنى عن العالمين، ليس فى حاجـة إلى عطف

أحد، ولا إلى نفع أحد، بل جميع الخلق محتاجون إلى رحمته وفضله، وإنما يودهم لأنهم يحرصون على سعادة أنفسهم، ويبتغون نجاتها بالإيمان والتقوى وصالح العمل.

ووده إياهم معناه: توليهم بالرحمة والمغفرة والرعاية والعناية، ولذلك جاء اسمه تعالى (الودود) فى القرآن الكريم مرة مقروناً بالرحمة، فى قوله تعالى فى سورة هود ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود٩٠]. وجاء مرة مقروناً بالمغفرة فى قوله تعالى فى سورة البروج ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [البروج١٤].

فالرحيم الغفور الودود سبحانه محب لأوليائه يرضى عنهم، ويثيبهم ويدافع عنهم، ويؤيدهم بنصره، ويثبت أقدامهم، ويكف عنهم بأس الكافرين، ويذكرهم فيمن عنده، ويكتبهم مع الشاهدين، ويفرج كربهم، ويستجيب دعاءهم، ويقبل توبتهم، ويزيدهم من فضله، ويجعل لهم فرقاناً، ويهديهم لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويؤتى الحكمة منهم من يشاء، ويربى صدقاتهم، ولا يؤاخذهم إن نسوا أو أخطأوا، ويتم نعمته عليهم، ويشرح صدورهم للإسلام، ويفتح الحكمة عليهم بركات من السماء والأرض. ويشفى صدورهم، ويذهب غيظ قلوبهم، ويترل السكينة عليهم، ويزيدهم هدى وإيماناً وقوة إلى قوتهم، ويستخلفهم فى الأرض، ويمكن لهم دينهم، ويبدلهم من بعد خوفهم أمناً ويصلح بالهم وأعمالهم، ويهديهم إلى الطيب من القول، ويرزقهم من حيث لا يحتسبون، ولا يزيغ قلوبهم بعد إذ هداهم، ولا يجعل للكافرين سبيلاً عليهم، ويحييهم حياة طيبة يمتعهم فيها متاعاً حسناً. تلك بعض مظاهر وده تعالى لعباده الصالحين فى الحياة الدنيا.

وأما فى الآخرة: فإنه يجعل لهم قدم صدق عنه، ويغفر ذنوبهم، ويؤتيهم أجورهم، ويكفر عنهم أسوأ الذى عملوا، ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون، ويهب لهم من لدنه رحمة، ويقيهم عذاب النار، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار، لهم فيها ما تشتهى أنفسهم وتلذ أعينهم، ويحلهم دار المقامة من فضله لا يمسهم فيها نَصَب ولا يمسهم فيها لُغوب، ولا يحزنهم الفزع الأكبر، وتتلقاهم الملائكة، ويطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب، ويسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، ويُعِدّ لهم ما لا عين رأَت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. هذه بعض مظاهر وده تعالى لعباده الصالحين فى الآخرة.

وقد استوعبت هذه المعانى كلها فى بلاغة إيجاز، وروعة إعجاز قوله تعالى فى سورة مريم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم٩٦].

تلك بعض وَمَضَات من عظمة اسمه تعالى الودود، لا يتفضل بها أحد غيره سبحانه، ولا يملكها أحد سواه.

فإن زعم لك زاعم أن فلانا أو فلانا من شيوخ الطرق أو غيرهم ممن فوقهم أو ممن دونهم يملك أن ييسر لك رزقاً، أو يجلب لك خيراً، أو يكشف عنك ضرّاً، أو يغفر لك ذنباً، أو يكفيك عقاباً، أو يمنحك ثواباً، فاعلم أنه مفتر كذاب. ومسرف مرتاب، ومشرك تلعاب لأن هذه مظاهر اسمه تعالى (الودود) لا يملكها غيره، ولا يمنحها سواه.

وإن كان بمعنى مفعول أى محبوب، فهو الذى يحبه عباده الصالحون، لأنهم يوقنون أنه ربهم الذى يربيهم بنعمه وفضله، وواسع غناه وحكمته وعدله وأنه ذو السلطان المطلق، والرحمة الشاملة، والمشيئة النافذة، والقدرة التى لا حد لها، وأنه المتصرف فى ملكوت السماوات والأرض، وأنه مسبب الأسباب، وأنهم يلجئون إلى فضله ورحمته إذا حزبَتْهم الأمور، أو حاقت بهم الكروب. فهم يحبونه أعظم الحب، ويذلون له أعظم الذل، ويطيعونه، ويقدرونه، ويذكرونه ويشكرون له، ويعبدونه ويخلصون له دينهم، ويجاهدون فى سبيله بأموالهم وأنفسهم.

والحب بهذا المعنى لا يكون إلا لله تعالى، ولا ينبغى أن يكون لأحد غيره. والمؤمن يأنس بربه؛ ويطمئن قلبه بذكره، ويزداد إيمانا إذا تليت عليه آياته وليس للمؤمن إلا محبوب واحد يعتقد أن بيده ملكوت كل شئ، وأن ما ناله من خير كسبى فهو بتوفيقه وهدايته، وما آل إليه بغير حساب؛ فهو بعنايته وتسخيره، وأنه إذا تعذر عليه مطلب وكله إليه، واعتمد فى الظفر به عليه. ذلك هو الرحيم الودود. لا رب غيره، ولا مأمول إلا خيره.

وإذا كان الإحسان سببا من أسباب الود: فليس هناك إحسان أسمى من إحسان الله تعالى إلى عباده المؤمنين. لأنه أمدهم بما به يكونون سعداء فى الدنيا والآخرة سعادة غير مقطوعة ولا ممنوعة، لك بأنه هداهم إلى هذا الدين، وعلمهم العقائد الصحيحة التى تسمو بها العقول وتخرج من ظلمات الشرك والوثنية إلى نور التوحيد والإخلاص. وأرشدهم إلى العبادات التى تتهذب بها أنفسهم، وتتطهر بها قلوبهم، وهداهم إلى

الأخـلاق الكـريمة التي بها تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم وتآزرهم وتعاونهم. ليس بين المخلوقين من يستطيع أن يحسن إلى غيره مثل هذا الإحسان، وإذاً فليس من المخلوقين من يستحق أن يكون محبوبا كحب الله تعالى.

أما المشركون: فهم يعتقدون أن كل ما وصل إليهم من خير فهو بفضل شركائهم أو شـيوخهم، فيـتخذونهم من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله، كما قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة١٦٥].

ونحن نحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر مما نحب أنفسنا، ولا يتم إيماننا إلا بذلـك ولكـن حبنا إياه ليس حب عبادة، ولا حب من يعتقد أنه يتصرف فى الملك والملكـوت، أو يملك لأحد نفعا أو ضراً، بل حب تعظيم وتوقير، ونصر وتعزيز، لأن الله تعـالى أجرى الخير الذى وصل إلينا على يديه، وأنزل الكتاب الكريم عليه، ولأنه علـيه الصلاة والسلام حريص علينا رءوف رحيم بنا، ولم يترك شيئا يقربنا من الجنة، ويـبعدنا عن النار إلا أمرنا به ولم يترك شيئا يقربنا من النار ويبعدنا عن الجنة إلا نهانا عنه.

هـذا وأكثر الناس يحبون الله لما أسبغ عليهم من النعم، وما تغمدهم به من الفضل والرحمة.

وفقنا الله لأن نفهم أسرار أسمائه الحسنى، ونذكر آثارها فى الآفاق وفى أنفسنا. إنه رحيم ودود.

وهـناك فرق دقيق بين الحب والمودة يدرك بالذوق السليم، وهو أن المودة يلحظ فيها معنى الحب: معنى الإعطاء والمنح.

يقـول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِى سَبِيلِى وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَـلَّ سَوَاءَ السَّبِيـلِ﴾ [الممتحنة١]. أى: بأسبابها: من

بذل النصح والإرشاد وإرادة الخير. والله تعالى ودود كثير الود يبدأ عباده بأسباب محبته، ويفيض عليهم من خزائن فضله ورحمته.

ذرات من الطين والحمأ المسنون. وقطرات من الماء المهين نظر إليها الودود سبحانه نظر رحمه وإحسان، ونفخ فيها من روحه ليهبها الحياة التى تحقق الاستمتاع بما يليها من النعم، فإذا هى كائن حى، وبشر سوى، وإنسان كامل الخلق ذو حواس يجليها، وأعضاء يتصرف بها، وعقل يدرك ويدبر.

ولقد نظر الودود جل ثناؤه إلى هذا الجهاز البشرى نظر رحمة وإحسان، فأمده بكل ما يلزم لنموه وحفظه وبقاءه وصلاحه من قلب ينبض، فيوزع الدم على جميع أجزاء الجسم، وشرايين يجرى فيها الدم النقى ليغذى جميع الخلايا ويعوضها ما فقد منها الحركة والعمل وأوردة يعود فيها الدم إلى القلب والرئتين، لينال ما يلزمه من النقاء والصلاح والحرارة من أوكسجين الهواء، وأمده بأسنان وقواطع وأضراس تقضم الطعام وتفتته وتطحنه، ليسهل ازدراده وهضمه، ولعاب يبلل الطعام حتى يسهل عمل الأسنان فيه، ولسان يحركه ليتيسر بلعه. وبلعوم يجتازه الطعام فى انتقاله من الفم إلى المرئ، ومعدة تتلقى الطعام والشراب من المرئ وتبذل له عصارتها المختلفة التى تلينه وتعده ليسلك طريقه فى الأمعاء لهضمه، وامتصاص حاجة الجسم منه وكبد تمده بالصفراء لهضم الدهن، وتمد الجسم بالسكر إن أعوزه وتخلص الطعام مما فيه من سموم وصلت إليه من غير علم الإنسان، وأمده الودود سبحانه بجهاز إخراجى ينفى عن الجسم ما يضر بقاءه فيه من البقايا والسموم، التى قلما ما يخلو منها طعام. وجعل له جهازا عصبيا كأسلاك البرق، أو شبكة الكهرباء، فلا يكاد الأمر يصدر فى مركز التدبير فى الدماغ حتى يصل عن طريق الأعصاب إلى أبعد عضو فى الجسم وإلى أقربه على سواء، فى أقل من لمح البصر بطريقة لا تدرك كنهها العقول، ولا تحيط بها الإفهام.

ماذا أقول؟ وماذا أصف؟

لو أننى حاولت أن أصف آثار فضل الودود سبحانه على خلقه فى خلية واحدة من خلايا الجسم فى خلقها، ومنحها الحياة، وإمدادها بالغذاء والماء، وانقسامها وتكاثرها، وغير ذلك من مظاهر حياتها التى هى بعض إنعامه وإحسانه: لضاق نطاق هذه الأوراق، فكيف يوصف عضو كما يتألف من ملايين الخلايا؟ فكيف يوصف البدن

كله وفيه ما نعرف ومالا نعرف من مختلف الأعضاء ذات الوظائف المنوعة، والأعمال المختلفة؟.

علم الودود جل ثناؤه أن الإنسان الذى جعله خليفة فى الأرض لا يعيش إلا بغذاء وكســاء وهواء، فخلق لـــه ما فى الأرض جميعا وأنزل لـــه من السماء ماء، فأحيا به الأرض بعد موتها، وأنبت لـــه فيها من كل زوج بهيج: متاعا لـــه ولأنعامه.

مـــن الـــناس مـــن عرف نعمة الودود عليه فأحبه من كل قلبه، وتقرّب إليه بأداء الفرائض وازداد تقرباً وازدلافاً بالنوافل، فصار من الذين قال الودود سبحانه فيهم ﴿يَا أَيُّهَـــا الَّذينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ منْكُمْ عَنْ دينه فَسَوْفَ يَأْتى اللَّهُ بقَوْمٍ يُحبُّهُمْ وَيُحبُّونَهُ أَذلَّة عَلَى الْمُؤْمنينَ أَعزَّة عَلَى الْكَافرينَ يُجَاهدُونَ فى سَبيلِ اللَّه وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائمٍ ذَلكَ فَضْلُ اللَّه يُؤْتيه مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسعٌ عَليمٌ﴾ [المائدة٥٤].

والـــودود سبحانه يجزى على الود الذى يكون من عباده بود خير منه وأكثر بركة وفضلاً.

روى البخارى من حديث أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم يرويه عن ربه (إذ تقرب العبد إلىّ شبرا تقربت إليه ذراعا، وإذا تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا وإذا أتانى مشيا أتيته هرولة).

ويشـــهد بصـــدق هذا قولـــه تعالى: ﴿وَالَّذينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمـــد١٧]. فالودود سبحانه لا يبغض عبداً أحبه وأخلص لـــه الود، وتقرب إليه بما يكون سببا فى رضاه.

روى البخارى من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله قـــال: (من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلىّ عبدى بشئ أحب إلىّ مما افترضـــت علـــيه. مازال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الـــذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، ولئن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه ...).

فانظر إلى ما يترتب على التقرب إلى الودود سبحانه من الخيرات والبركات التى لو فطن لها الغافلون لضحوا بأثمن ما يملكون ابتغاء مرضاته وازدلافاً إليه.

ومـــنهم من عرف نعمة الودود سبحانه ثم أنكرها، وذلك هو الغافل الكنود الذى يجحد فضل الله عليه وإحسانه إليه.

وهو الذى عناه الودود سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ(٦) وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ(٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات٨].

ولكـــن الودود سبحانه - لواسع رحمته وعظم إحسانه - لو تاب إليه هذا الكنود واســتغفره لقــبل توبته، وتولاه بإحسانه ورحمته. قال تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام وهو يدعو قومه إلى الرجوع إلى ربهم ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود٩٠].

فلـــو اســتجابوا لنصح نبيهم وتعرضوا لنفحات الودود سبحانه لنالوا خيراً كثيراً ولكـــنهم لم يفعلـــوا فبطش بهم وانتقم منهم. إِنَّ بَطْـــشَ رَبِّكَ لَشَدِيـــدٌ(١٢)إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ(١٣)وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ(١٤)ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج١٥].

فهـــو الغفـــور الودود لمن خاف مقامه ونهى نفسه عن هواها، وأناب إليه متعرضا لـــنفحات رحمـــته، وهو شديد البطش على من طغى، وآثر الحياة الدنيا، وكند فضل الودود جل ثناؤه.

وبعد، فما ظنك بهؤلاء الغافلين الذين يعرضون عن الودود سبحانه، ويتقربون إلى الموتى بما ذرأ لهم الودود من الحرث والأنعام، وما أمدهم به من الورق النضار؟.

ولـــو عقـــل هـــؤلاء الغافلون لعلموا أن الودود الذى خلق ورزق أحق بالتقرب والازدلاف مـــن الموتى الذين لم يخلقوا، ولم يرزقوا، بل هم مخلوقون مسترزقون. فلم تلك الذبائح التى تراق دماؤها تقربا إلى مخلوق لا يودهم ولا يملك لهم ولا لنفسه نفعاً ولا ضـــراً؟ لم هذه الأموال التى توضع فى الخزائن التى ألصقها المحتالون بقبور الموتى، ليضع فيها هؤلاء السفهاء أموالهم التى جعلها الله لهم قيام؟.

أمـــا إنهم لو عقلوا لتقربوا بهذه الذبائح إلى الله الودود الذى يقابل ودهم بود خير مـــنه. أما إنهم لو عقلوا لأسهموا فى أعمال الخير، ومؤسسات البر بهذه الأموال بدل إلقائها فى صندوق النذور ليأخذها الواجدون، وينتفع بها الأغنياء والموسرون. ولو أنهم ادخروها لأبنائهم لكان خيراً لهم.

إن هؤلاء الموتى مهما يتقربوا إليهم فلن يجعلوا لهم ودًّا بل سيكونون لهم أعداء لداً. ﴿وَمَـــنْ أَضَـــلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَـــائِهِمْ غَـــافِلُونَ(٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف٦].

الولى ..المولى ..الوالى

هذه الأسماء الكريمة ثلاثتها مشتقة من الولى وهو القرب، تقول: المؤمن يسمى الله تعالى، ويأكل مما يليه أى يقرب منه، والولاء والتوالى أن يحصل شيئان فصاعداً وليس بينهما ما ليس منهما، ويستعار ذلك - كما قال الراغب - للقرب من حيث الزمان والمكان والنسبة والنصرة والصداقة والدين والاعتقاد.

أ - الولىّ

ولىّ الشخص قريبه الذى له حق رعايته والقيام عليه وتدبير أمره والمطالبة بحقوقه. قال عليه الصلاة والسلام. (أيما امرأة تزوجت بغير إذن وليها فنكاحها باطل) أى بغير إذن قريبها الذى له حق رعايتها وتدبير أمرها كأبيها أو أخيها أو عمها. وقال تعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتى حَرَّمَ اللَّهُ إلا بالْحَقِّ وَمَنْ قُتلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِفْ فِى الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء٣٣].

أى لقريبه الذى له حق المطالبة بدمه. وقال تعالى: ﴿وَلا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِى حَمِيمٌ﴾ [فصلت٣٤]. أى كأنه قريب يرعى شأنك ويهتم بأمرك، فإذا أنت أثبت هذا المعنى وتبينت فى جلاء ووضوح استطعت أن تدرك على ضوئه معنى اسمه تعالى (الولىّ) فهو فعيل بمعنى فاعل من وليه إذا قام برعايته وتدبيره وحفظه، فهو سبحانه القائم برعاية العالم وتدبير الخلق، وتشريع الشرائع لحفظ الحقوق. فمن رعايته تعالى للعالم أنه يمسك السماوات والأرض أن تزولا، وأنه يبقى على حياة الحيوان إلى أجل مسمى، وذلك بتنظيم نبض القلوب، وسريان الدم فى الشرايين والأوردة ومنح القوى الغاذية والهاضمة والمفرزة وغيرها مما تقوم به الحياة، وأنه يسخر للنبات غذاءه من التربة والماء والهواء، فينمو ويزهر ويثمر.

ألم تر إلى الأب الحدب كيف يرعى ولده ويعمل على ما فيه راحتهم وسعادتهم عن الولى الحميد سبحانه لأشد رعاية لهذا العالم: ملائكته وإنسه وجنه وحيوانه ونباته وسائر موجوداته من الوالد لولده.

ومن تدبيره سبحانه للخلق أنه وضع كل نجم فى مداره، وكل كوكب فى مساره، وزين السماء الدنيا بمصابيح وجعلها رجوماً للشياطين، وأوحى فى كل سماء أمرها، ووضع الأرض من الشمس بحيث يكون الضوء والحرارة الواصلان من الشمس إلى الأرض كفاء حاجتها ووفق مطالبها. لم يزيدا فيقتلا جفافاً وإحراقاً، ولم ينقصا فيهلكا

صـــقيعا وظلامـــاً وبرداً، وقدر فى الأرض أقواتها وألقى فيها رواسى حتى لا تميد بمن علـــيها، وأجـــرى فـــيها الأنهار وروافدها، وفجر فيها الينابيع والعيون وأنبت الزرع والزيتون، والنخيل والرمان ومن كل الثمرات، رزقاً للعباد، ومتاعا للإنسان والحيوان وأودع بطـــن الأرض من الفلزات والمعدنيات ما هدى الإنسان إلى استخدامه فى شتى أغراضه والانتفاع به فى مختلف شئونه ولم يغفل عن رعاية العالم وتدبيره طرفة عين ولا أقـــل مـــن ذلك، إذ لو ترك تدبير العالم طرفة عين أو ومضة برق لفسدت السماوات والأرض وما فيهن ومن فيهن، واضطربت النجوم فى مداراتها، وتهاوت الكواكب من أفلاكهـــا، واصـــطدمت الأجرام السحرية بعضها فى بعض، وصعق من فى السماوات ومن فى الأرض.

ألم تر إلى الولى الحميد سبحانه يجعل الغذاء بمحكم تدبيره دما معوضا غاذيا يكون سمعا فى الأذن، وبصرا فى العين، وشما فى الأنف، وذوقا فى اللسان وحسا فى الجلد وقوة فى البدن وإدراكا وذكاء وتخيلا وتذكراً فى الدماغ؟.

فهل فى الوجود من يملك كل هذا التدبير أو بعضه أو أقل القليل منه؟ كلا إن ذلك مما استأثر به الولى الحميد سبحانه لم يمنح مثقال ذرة منه أحداً من خلقه لا نبياً مرسلا، ولا ملكا مقربا. بل تفرد وحده بالخلق والأمر والتدبير.

ومـــن تشـــريعه لحفظ العقول والأجسام والعقائد والأموال والأعراض ما تجده فى كـــتابه الكـــريم، وسنة رسوله الأمين من التكاليف الشرعية وفرض الفرائض وتحريم المحـــرمات والأمـــر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى، والنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى والعدوان.

فسبحانه هو ولى الحق ومدبر الشؤون ومصرف الأمور. قال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِى وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[الشورى٩]. ينكر سبحانه على المشركين الذين اتخذوا من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً أو ضراً وهم يقرون أن الأمر لـــه وحده لا شريك له: فهو وحده الولى الذى يتولى أمور الخلق جميعا وهو يحيى الموتى وهو على كل شئ قدير.

وقـــال تعالى مخاطبا نبيه الكريم: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام١٤]. يأمره جل شأنه أن ينكر على قومه ما كانوا أحيانا يدعونه إليه مـــن عبادة آلهتهم حتى

يعبدوا إلهه، ويقول لهم: أيسوغ فى قضية العقل أن اتخذ غير الله وليا يتولى أمرى، ويتعهد شأنى، وغيره تعالى لا يملك مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض، ورب العالمين سبحانه هو فاطر السماوات والأرض وهو الرازق ذو القوة المتين الذى يرزق الأنام وهو غنى عن العالمين؟.

وقد نفى سبحانه الولاية عن غيره فى كثير من آيات كتابه الكريم؟

قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِي وَلا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام٥١].

وقال تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِى وَلا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام٧٠].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِى وَلا نَصِيرٍ﴾ [البقرة١٠٧].

وقال جل شأنه: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِى وَلا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف٢٦]. وقال تبارك اسمه: ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى٤٦].

وقال جل ثناؤه: ﴿وَمَنْ لا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَولِيَاءُ أُولَئِكَ فِى ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [الأحقاف٣٢].

وبين سبحانه إن الملائكة المقربين معترفون بتفرده تعالى بالولاية لا يقرون بها لأحد من خلقه. قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ(٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ٤١].

وقرر جل ثناؤه أن صفوة البشر وهم الأنبياء والمرسلون يقرون بتفرده تعالى بالولاية، ولا يعترفون بولاية أحد غيره، قال تعالى حاكياً ما قال موسى عليه السلام حين أخذت قومه الرجفة ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّاى أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِى

إلا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِى مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف١٥٥].

وقال تعالى حاكياً عن يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِنْ تَأْوِيلِ الأحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّى فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف١٠١].

وأنبأنا جل شأنه أن جميع المعبودات التى ضل المفتونون بعبادتها من دون الله تقر له تعالى بالتفرد بالولاية. قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ(١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِى لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ [الفرقان١٨].

وقد تناول سبحانه بالتقريع والتبكيت من اتخذوا الأولياء من دونه، وهو سبحانه الولى الذى ليس للمخلوقين ولى غيره، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف٥٠].

وقال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأعراف٣٠].

وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِى مِنْ دُونِى أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً﴾ [الكهف١٠٢].

وإذا كان ربنا جل شأنه هو الولى، أفليس من أحمق الحمق، وأسفه السفه، أن يتخذ الناس أولياء من دونه؟.

أيبتغون عندهم القوة وهم الضعفاء؟

أيبتغون عندهم العزة وهم أذلاء؟

أيبتغون عندهم الغنى وهم الفقراء؟

وقد ضرب سبحانه الأمثال للناس لعلهم يتذكرون، وبين لهم أن الذين يتخذون من دون الله أولياء غافلون ومخدوعون، لأن أولياءهم لا يغنون عنهم شيئاً، ولا يملكون لهم ولا لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ

﴿الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت٤١]. وقال تعالى: ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الجاثية١٠].

أيحسب أولئك الأغرار، أن أولياءهم يقربوهم من الله، وغفلوا عن أن الله سبحانه، لا يقرب إليه إلا التقوى، ولا يظفر بولايته إلا صالح العمل؟.

وصدق الله إذ يقول: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام١٢٧].

هذا، وتأتى الولاية بمعنى المحبة والنصرة، فتكون صفة لرب العزة سبحانه، ولرسوله المجتبى صلى الله عليه وسلم، وللمؤمنين. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ(٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة٥٦].

فالولى هنا بمعنى الناصر والمحب والصديق. فرب العزة سبحانه يحب المؤمنين ويؤيدهم بنصره، والرسول صلى الله عليه وسلم يحب المؤمنين، والمؤمنون يحبون الله وينصرون دينه، ويحبون الرسول وينصرون سنته، ويحب بعضهم بعضا.

وتكون الولاية بين المؤمنين بعضهم وبعض. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[الأنفال٧٢].

وقد نهى سبحانه عن اتخاذ الكافرين أولياء، وشدد النكير فى ذلك، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة١].

وقال تعالى: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ(٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة٨١].

وقــال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء١٣٩].

وتأتى كلمة (ولى) صفة للمؤمن التقى المطيع لربه، فتكون بمعنى (مفعول) أى الذى تولاه ربه بفضله ورحمته وعنايته وتوفيقه جزاء إيمانه وتقواه. أو بمعنى (فاعل) أى المحب لله تعــالى، الناصر لدينه. ولا جرم أن من يكون كذلك يكون موضع عناية الله تعالى ورعايته وتوفيقه.

قال تعالــى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِــمْ وَلا هُــمْ يَحْزَنُونَ(٦٢)الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ(٦٣)لَهُمُ الْبُشْرَى فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَــوْزُ الْعَظِيمُ(٦٤)وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٦٥)أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِى الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس٦٦].

ولقد أضل الشيطان بالأولياء أناسىّ كثيراً، حسبوا أن الله تعالى يختارهم عفواً بغير عمــل صــالح يعملونه، وبغير بلاء حسن يبلونه. فراحوا يخلعون الولاية على أبله رث الثياب، وكل معتوه دنس الإهاب، وكل دعى دجال، وكل أفاك محتال، ويحسبون أنهم يملكون الخير والشر، والنفع والضر، ولم يفرقوا بين حى تسعى به القدم، وميت استأثر به العدم.

أمــا الموتى فقد أنذروا لهم النذور، وأطلقوا حول قبورهم دخان البخور، وضخوا قبورهم بالطيوب والعطور، وشدوا إليها الرحال، واختلط فى رحابها النساء بالرجال، ووقفــوا أمامها فى خشوع دونه خشوعهم فى الصلاة لو كانوا يصلون. وعقروا على أعــتابها الجباه، وهم يسجدون، وربما سالت على وجناتهم الدموع، من فرط الخشية والخشــوع واتخــذوا هذه الأجداث أعياداً يسمونها (موالد) وهى من البدع المنكرة والضــلالات التى عصم الله منها السلف الصالح، إنها لتنطوى على مفاسد شتى وشر كــثير، تحمل على الإفراط فى السهر الذى يضيع صلاة الصبح ويهدم الصحة، وتدعو إلى الإســراف فى المال، والتعرض للعنة الله باتخاذ السرج على القبور، وانتهاك حرمة المســاجد، وتعــرض النســاء للفتنة بخروجهن فى غسق الليل، وتربص الفساق بهن، والاجــتماع حول الأنصاب، وما يحدث فيه من الأمور المخزية، والمناظر المؤذية، التى تطيل ألسنة القادحين والمستهزئين بالدين. وشر ما فيها ما يحدث فى يومها الأخير من خروج

مواكب الأوثان بثيابها وعمائمها على الإبل، والطواف بها فى أنحاء المدينة بين تهكم المتهكمين، وسخرية الساخرين، وفى ذلك إحياء لوثنية الفراعنة الأقدمين، الذين كانوا يتخذون مثل هذه المواكب بوثنهم المعبود: آمون.

أما الأحياء فقد عزوا إليهم علم الغيب الذى استأثر به رب العالمين، وظنوا أنهم يعلمون سرهم ونجواهم، فخافوهم بالغيب، وأطاعوهم فى السر والعلن، وألقوا إليهم السلم، وسلموا إليهم المقادة، وآتوهم ما يطلبون، وفوق ما يطلبون، حتى لو طلب أحدهم إلى مريده زوجته ليخلو بها الخلوة المحرمة، لقرت بذلك عينه وثلج صدره.

أترى أولئك الدجالون بعد مسبغة وفقر، وملكوا الدور والقصور بعد تشرد، وعزوا بعد ذلة، وانحنت بين أيديهم هامات الغافلين، وقد يكون أحدهم قد مضى شطرا من عمره بين جنبات السجون، ينوء بحمل السلاسل والأغلال، وينهض بأشق الأعمال. فلم تكد تلفظهم أبواب السجون حتى نزحوا إلى أمكنة نائية يجهل سكانها ماضيهم، واتخذوا من العمائم واللحى، والسبح والمساويك حبائل لاقتناص الأغرار الغافلين.

ليست الولاية منحة تمنح ولا هبة توهب، ولكنها فريضة مفروضة، لها ركنان، هما: الإيمان والتقوى. والناس جميعا مطالبون بالإيمان، مكلفون التقوى، فمن لم يؤمن فهو كافر خالد فى النار، ملعون مطرود من رحمة الله، ومن آمن ولم يتق فهو فاسق لاحظ له فى رضوان الله.

أما إن الناس لو اتبعوا الحق من ربهم لأعتقوا أنفسهم من رق الدجالين، وأدعياء التدين الكاذبين، الذين يفرضون عليهم سلطانهم، ويستذلون أعناقهم ويبتزون أموالهم.

لو أنهم اتبعوا الحق من ربهم لعاشوا أعزة كراما، وقضت حاجاتهم بالوسائل المشروعة الخاضعة لنظام الأسباب والمسببات، وظفروا بما يبتغون.

ب – المولى

كل من ولى أمراً أو قام به فهو وليه ومولاه. وعلى ذلك: يكون اسمه تعالى (المولى) واسمه تعالى (الولى) بمعنى الواحد.

وكلمة (الولى) تدل لغة على معان كثيرة، فتدل على الرب والمالك والسيد والمنعم والناصر والمحب والمعتق والتابع والجار وابن العم والحليف والعقيد والصهر والعبد. وهى بالمعانى الستة الأولى يصح إطلاقها على رب العزة سبحانه. فهو الرب، والمالك، والسيد، والمنعم والناصر لرسله والذين آمنوا، والمحب للمحسنين والصابرين من عباده.

و أما باقى المعانى فهى خاصة بالمخلوقين.

ومن عجب أن المولى يطلق على العبد كما يطلق على السيد.

ولن يتساوى سادة وعبيدهم على أن أسماء الجميع موالى.

وقال بعضهم: مولاك يا مولاى طالب حاجة: أى عبدك يا سيدى طالب حاجة.

وقد جاءت فى القرآن الكريم بمعنى الرب فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام٦٢].

وفى قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِى اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِى هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج٧٨].

وجاءت بمعنى الناصر فى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد١١].

وفى قوله تعالى: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم٤]. وفى قوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران١٥٠].

ج – الوالى

الوالى: مالك الأشياء كلها، المتصرف فيها، القادر عليها، فاسمه تعالى (الوالى) يجمع كل هذه المعانى. فهو المالك المتصرف فيما يملك، القادر الذى لا يعجزه شئ فى السماوات ولا فى الأرض.

قال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد١١].

فنسبة التصرف المطلق إلى غيره تعالى: شرك مخرج من الملة، ومن هذا تعلم ما فى قول العامة وأشباههم (أهل التصريف) وهم يعنون الأولياء الذين يعتقدون أنهم يتصرفون فى الخلق، فيضرون وينفعون بقوى خفية، وراء نظام الأسباب والمسببات الكونية.

والله يقول الحق. وهو يهدى السبيل.

الحق

(الحق) فى الأصل مصدر بمعنى المطابقة والموافقة. تقول: حَقَّ الصمام القارورة حقاً أى طابقها ووافقها، ثم استعمل فى كل شئ مطابق وموافق: إما للواقع، مثل: اعتقاد أنصار السنة فى الأولياء حق، أى مطابق وموافق للواقع، وإما لمقتضى الحكمة، مثل قضاء الله حق مطابق، وموافق لمقتضى الحكمة. ثم استعمل فى الأمر الواقع الثابت نفسه فتقول: الإسلام حق، والموت حق، والبعث حق، والجنة حق، والنار حق، أى أمر واقع ثابت فى نفسه لا ينبغى أن يشك فيه. وَدَيْنُكَ على فلان حق أى ثابت، ولك عليه حق أى دين ثابت لا شك فيه. قال تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس٥٣]. وكل ما لَيس واقعاً ولا ثابتاً فهو باطل، وبذلك يكون الحق ضد الباطل.

هذه هى المعانى اللغوية لهذه الكلمة.

ورب العزة سبحانه يخاطب الناس بما يفهمون، وقد سمى نفسه (الحق) و أخبر عباده بذلك فى كتابه الكريم، وهو قرآن عربى مبين. وهم يفهمون معنى كلمة (الحق) فى لغتهم فماذا كان عليهم أن يفهموا من هذه الكلمة؟ وما المعنى الذى كان ينبغى أن يتمثل لأذهانهم من هذا الاسم الجليل؟.

كان عليهم أن يفهموا أن معنى اسمه تعالى (الحق) أنه الإله الذى إلهيته ثابتة ومحققة، قام عليها برهان بالفطرة، وحجة العقل، وشهد بها ما فى الوجود جميعاً من ناطق وصامت. يشهد بهذا ما قال الله تعالى فى سورة يونس وهو يعلم رسوله كيف يجادل المشركين وكيف يقيم الحجة عليهم: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَى مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَى وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ(٣١)فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ(٣٢)كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس٣٣].

علم رب العزة جل ثناؤه أنهم يؤمنون فى قرارة أنفسهم، وفى صميم وجدانهم: أن مقدر الأرزاق ومسخرها، ومالك السمع والأبصار، ومخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ومدبر أمر هذا الكون هو الله رب العالمين، وأنهم إذا سئلوا عن المتفرد بهذه الأمور كلها فسيجيبون لا محالة أن الله هو المنفرد بهذه الأمور. علم رسوله أن يوجهه إليهم هذا السؤال، حتى إذا أجابوا عنه بالجواب الذى تدعوه الفطرة، ويحتمه

الوجدان، والذى لا يقبل العقل السليم غيره أخذ الحجة من جوابهم، وقال لهم: إذا كنتم تقرون وتعترفون بأنه لا يفعل مثل هذه الأمور التى سئلتم عنها إلا الله، فاعلموا أن الله الذى يفعل كل هذا هو ربكم الحق، أى الذى ربوبيته ثابتة محققة لا شك فيها، وأما الآلهة التى تدعونها من دونه فهى ضلال وباطل، إذ ليست موصوفة بشئ من صفات الله الحق، وليست تقدر على شئ مما يقدر عليه الإله الحق، فالله هو ربكم الحق، وليس بعد الحق إلا الضلال، فالانصراف عن عبادة الله الحق إلى عبادة الباطل من سفه النفس وغبن الرأى وأفن العقل.

ويوم ترفع الحجب، وتكشف الأغطية، وتتجلى آثار القدرة الإلهية، واضحة جلية، حين تنطق الأيدى، وتشهد الأرجل، ويوفى كل عامل ما عمل: يدرك الناس جميعاً: مؤمنهم وكافرهم، موحدهم ومشركهم: إن كل ما تعلقت به الأنفس فى الدنيا من الملذات والشهوات، وكل ما ضحت بالإيمان من أجله من الشرور والموبقات، وكل ما عبدت من دون الله جل ثناؤه، إنما هو وهم باطل، وظل زائل، وسند مائل، وأن الله وحده هو الحق. قال تعالى فى سورة النور: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافلات الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِى الدُّنْيَا وَالآخرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٢٣)يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٢٤)يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ(٢٥)الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور٢٦].

والله الحق هو الذى يقدر على خلق الإنسان فى أطواره المختلفة، كما يقدر على خلق غيره من الكائنات الحية وغير الحية، ويقدر على إعادته بعد الموت لتجزى كل نفس بما تسعى. أما المعبودات الباطلة، والطواغيت المعبودة من دون الله فلا تقدر على خلق شئ، بل هى مخلوقة مسخرة للخالق الحق سبحانه.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج٥].

والإله الحق هو الذى ينصر المجاهدين فى سبيله، ويشد أزرهم، ويخذل الباطل والمبطلين، ويرد كيدهم فى نحورهم، وسهامهم إلى صدورهم، لأنه قوى عزيز يملك أسباب النصر والخذلان، وبيده ملكوت كل شئ، وكل مظاهر الوجود شاهدة بأنه الحق. أما الباطل الذى يعبده المبطلون، والطاغوت التى يدعيها الجاهلون، والمخلوقات العاجزة الضعيفة الزائلة التى يخلع عليها المتعصبون الجامدون صفات الألوهية ونعوت الربوبية لهو كفرٌ وزوراً.

فهى لا تملك شيئاً ولا تقدر على شئ، وكلها مملوكة خاضعة لأحكام القدر، مسخرة بأمر الحق، عانية فى قبضة القضاء. قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِى عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ(٦٠)ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ(٦١)ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِى الْكَبِيرُ(٦٢)أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج٦٣].

وقال تعالى فى سبيل الاستدلال بمظاهر الوجود، وآياته فى الآفاق على أنه الحق، وأن ما عبد من دونه هو الباطل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(٢٩)ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِى الْكَبِيرُ﴾ [لقمان٣٠].

والناس لفرط ظلمهم وجهلهم، وإغواء الشيطان إياهم، واستمساكهم بعادات أسلافهم السيئة، وعقائدهم الفاسدة، يلجّون فى عتوهم ونفورهم، ويستكبرون فى الأرض بغير الحق، ويعبدون ما شاء لهم الهوى، وما زينه الشيطان فى صدورهم، والله الحق يملى لهم ما شاء أن يملى، ويكتب عليهم ما هم فاعلون، ثم يقهرهم بالموت، ويردهم إليه ليحكم بينهم ويجزيهم بأعمالهم.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ(٦١)ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام٦٢].

تعالى الحق سبحانه أن يخلق الناس عبثا، أو يتركهم سدى، أو يدع الخلق هملا وهو سبحانه قد استوى على العرش يدبر الأمر. قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ(١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون١١٦].

والملك الحق سبحانه يرشد عباده إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم، وفوزهم وفلاحهم، ويحذرهم ما يؤذيهم ويضرهم فى دينهم ودنياهم وآخرتهم. ومن أجل ذلك أخبر الحق سبحانه بتوعد الشيطان بنى آدم ليأخذوا حذرهم، وينتبهوا لكيده ولا يستجيبوا لإغرائه. قص الحق سبحانه علينا توعد الشيطان إيانا، وبين لنا المصير الذى ينتظر كل من عصى الرحمن وأطاع الشيطان حتى نكون على بينة من الأمر، فلا نؤخذ على غرة. قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(٨٢)إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ(٨٤)لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص٨٥].

والملك الحق تبارك اسمه يحق الحق بكلماته وبقطع دابر الكافرين. و إحقاق الحق إثباته بالآيات البينات التى يجريها على أيدى رسله الكرام وبالأدلة القاطعة، والحجج الناصعة من كتبه المطهرة، وما يلهمه المصلحين من ورثة الأنبياء ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون. ومن إحقاق الحق: إكمال الشريعة، و بثها و إظهارها على باطل الشرائع ومنسوخها قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة٣٣].

وقد تفضل الحق سبحانه فكتب النجاة والنصر لرسله وأوليائه والمؤمنين الذين يتبعون سبيلهم، ويهتدون بهديهم. وما كتبه الله لأهل الحق فلن يمحوه المبطلون قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم٤٧].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس١٠٣].

والملك الحق سبحانه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض كما يقتضيه علمه وحكمته ورحمته لا كما تتطلبه أهواء ذوى الأهواء، وأغراض ذوى الأغراض ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون٧١].

والحق جل ثناؤه خلق السماوات والأرض بالحق، وأرسل رسوله بالهدى ودين الحق، ولكن الذين غلبهم الهوى على أمرهم، واستحوذت عليهم تقاليد الجاهلية، وملك قيادهم الحرص على ما كان عليه الآباء، يسوءهم الحق، ويؤذى أنفسهم فيبغضونه لأنه يزهق باطلهم، وصدق الله إذا يقول: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [المؤمنون٧٠].

ولكن الحق ظافر أبداً، والباطل زاهق أبداً ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء٨١].

الشهيد

الشهيد: فعيل بمعنى فاعل: إما أن يكون مشتقاً من الشهود، وهو الحضور المجرد، أو الحضور المقترن بمشاهدة بالبصر أو البصيرة، وأما يكون مشتقاً من الشهادة، وهى الخبر القاطع، أو الإخبار بالمعلوم، ولو غير قاطع، وهى بهذا المعنى الأخير لا تستلزم الشهود، فقد يشهد الشاهد بمجرد العلم الناشئ عن السماع مثلاً، كقول إخوة يوسف ﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ [يوسف٨١]. ولكنها بالمعنى الأول تستلزم الشهود، فمن شهد على شئ وعن حضور ومشاهدة كانت شهادته أحق من شهادة من لم يشهد إلا بمجرد العلم أو السماع.

ويطلق الشهيد شرعاً على طائفة ممتازة من المؤمنين، يقول الله تعالى فيهم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [الحديد١٩].

وأخصهم الذين قتلوا فى سبيل الله.

هذا هو المعنى اللغوى والشرعى لهذه الكلمة إذا أسندت إلى المخلوقين، فإذا أسندت إلى الخالق سبحانه كان معناها أسمى وأشمل، وأتم وأكمل، فإن كان اشتقاق اسمه تعالى (الشهيد) من الشهود بمعنى الحضور كان معناه: أن ربنا سبحانه لا يغيب عن شهوده مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض، وليس من شهوده سبحانه شهوداً مجرداً كشهود المخلوقين، بل هو شهود ورعاية وحفظ ورقابة ومحاسبة، فهو سبحانه يشهد الكائنات جميعاً فى أماكنها وفى مختلف أحوالها، يشهد النجوم فى مداراتها، والكواكب فى أفلاكها، والشمس وهى تجرى لمستقر لها، والقمر وهو فى منازله المقدرة، والسحب فى مزجاها بين السماء والأرض، والرياح فى مهابها، والغيوث فى هتونها؛ والجبال فى رسوخها، والأنهار ومجاريها، والبحار وما فيها من عجائب الخلق، والنحل فى خلاياها، والنمل فى قراها، والطير فى عشاشها ووكناتها، والأسماك فى مسابحها، والحيوان فى مرابضه ومسار به، والناس فى غدوهم ورواحهم، ومتقلبهم ومثواهم، وطاعتهم ومعصيتهم، وإيمانهم وكفرهم، وتوحيدهم وشركهم، وإخلاصهم وريائهم، وشجاعتهم وجبنهم، وسخائهم وبخلهم، لا يغيب عن شهوده سبحانه شئ من هذا كله، فجميع ما فى الوجود بمشهد منه جل شأنه يرعاه، ويدبر أمره، وينظم حركة المتحرك، وسكون الساكن، قال عز من قائل: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس٦١].

وكمـــا يشهد سبحانه الخلق شهود حفظ ورعاية، كذلك يشهد المكلفين شهود رقابة ومحاسبة، شهود من يحصى عليهم عقائدهم وعبادهم، ومللهم ونحلهم، وأديانهم ومذاهبهم، واتفاقهم واختلافهم، وبواطنهم وظواهرهم، ودقائق أعمالهم وجلائلها، لا يغـادر صـغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ليجزيهم بها يوم القيامة جزاء وفاقا أو عطاء حســابا، قــال جل ثناؤه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيـدٌ﴾ [الحج١٧].

وإن كان اشتقاقه من الشهادة، وهى الخبر القاطع، فمعناه: أن شهادته تعالى قاطعة، وخــبره أصدق الأخبار، إذ لا يغيب عن علمه شئ، قال تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَــا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف٧]. وقال تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ [ص٨٤]. وقــد شهد سبحانه لنفسه بالوحدانية بما أخبر فى محكم كتابه وبما أقام فى الوجود من الآيــات الشــاهدة بوحدانيته من كبير الأشياء وصغيرها، وجليلها ودقيقها، وناطقها وصامتها، ومتحركها وساكنها، ففى كل شئ لــه آية تشهد بوحدانيته وتفرده بالملك والتدبير.

قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران١٨].

ومع شهادة الله تعالى لنفسه بالوحدانية، وشهادة الملائكة، وشهادة أولى العلم نرى كــثيرا من الجاهلين يؤلهون المخلوقين، فيدعون من دون الله ويسألونهم الغوث والعون والمــدد، ويضرعون إليهم فى طلب الحاجات، ويفزعون إليهم فى دفع الملمات ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد٢٤].

وشــهادته تعالى حكم بين المختلفين، وفصل بين المتنازعين، وقضاء بين المتفرقين، ومــن لم يصدق بشهادة الله فهو من الضالين المكذبين الذين خسروا أنفسهم، وباءوا بسوء المصير.

اختلف كفار مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ونسبوا إليه ما يكرهون من احتــباس المطر، وقلة الزرع، وجفاف الضرع، ونفوق الأنعام متشائمين بما كان عليه الصلاة والسلام يرمى به آلهتهم فشهد الله فى قضيتهم، وفصل بينهم فيما اختلفوا فيه، قــال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُــوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا(٧٨) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيــدًا﴾ [النساء٧٩].

واختلفوا فى القرآن وكذبوا به، فشهد الله تعالى عليهم بأن القرآن منزل من لدنه، وإذا شهد الله وجب الحكم بمقتضى شهادته وتصديق ما شهد به، إذ هو الحق والحق يقول: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء١٦٦].

ويأمر الله تعالى نبيه الأمين، أن يؤكد لقومه أمر رسالته بشهادة الله تعالى، إذ شهادته فوق كل شهادة، وإذ شهد الله فلا ينبغى الشك، بل تجب أن تنفى كل ريبة، وأن تزاح كل شبهة، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد٤٣].

وشك الكفار فى رسالة النبى صلى الله عليه وسلم وفى أمر البعث، فأخبر الله تعالى بأنه سيريهم آياته فى الآفاق وفى أنفسهم ما يثبت لهم بأجلى برهان أن الرسول حق، وأن دعوته حق، وأن القرآن حق؛ وأن الساعة حق، وأن الله تعالى يشهد بذلك وشهادته تقضى على كل شبهة وتأتى على كل ريبة، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت٥٣].

ولما رمى الكفار رسول الله صلى الله عليه وسلم بافتراء القرآن أمره جل شأنه أن يخبرهم بأن الله تعالى يشهد بأنه حق، ولا ينبغى بعد شهادة الله شبهة ولا ريبة، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الأحقاف٨].

وهو سبحانه شهيد على الناس فى أعمالهم لا يخفى عليه من أعمالهم الظاهرة ولا الباطنة شئ، يحصيها عليهم وينبئهم بها يوم القيامة، ثم يجازيهم بها إن خيرا فخير وإن شراً فشر، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة٦].

أباح الله لنساء النبى عليهن الرضوان أن يلقين محارمهم سافرات بعد أن أمر المؤمنين إذا سألوهن متاعاً أن يسألوهن من وراء حجاب، ولكى يحملهن على التزام حدوده، والوقوف عندها أهاب بهن أن يتقين الله، ثم ذكرهن بأنه شهيد على كل شئ حتى يخشينه ولا يتعدين حدوده، قال تعالى: ﴿لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِى آبَائِهِنَّ وَلا أَبْنَائِهِنَّ وَلا

إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلا نِسَائِهِنَّ وَلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ [الأحزاب٥٥].

ينافق المنافق ما مد له الشيطان فى غيه ويظهر الإيمان ويبالغ فى إظهاره، ويبطن الكفر ويبالغ فى إبطانه، وهو يحسب أن الله غافل عنه وإن نواياه تخفى عليه كما تخفى على الناس ولكن الله تعالى يفضح المنافقين، ويبدى ما يكتمون قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون١].

أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم لينقذ الإنسانية من ورطتها، وينتشلها من كبوتها، ويهديها من ضلالها، ويسلك بها سبل الخير والسعادة والطمأنينة لتطعم من جوع، وتأمن من خوف، وبذلك يظهر فضل ذلك الدين على الأديان وتسارع البشرية الرشيدة إلى اعتناقه لأنها تجد فيه ضالتها، وتظفر فى تعاليمه بحاجتها. وقد شهد الله بهذه الحقائق حتى لا يجد العقلاء إلى الشك فيها سبيلا، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح٢٨].

والكون كله فى رعاية الله وحفظه وشهوده، وكيف لا يرعاه ويشهده، وهو ملكه؟ وإذا كنا معشر البشر المخلوقين نرمى بالسفه وأفن الرأى من يغفل عن ملكه أو عن رعايته، ونجد كل مالك يهتم بملكه ويحمى حماه، ويتولى حراسته ويرعاه، فكيف برب العالمين المنزه عن جميع شوائب النقص الذى له ملك السماوات والأرض وهو على كل شئ شهيد؟.

النبوة سلسلة متصلة الحلقات. وقد أخذ الله العهد على جميع النبيين لئن جاءهم رسول مصدق لما معهم ليؤمنن به ولينصرنه، حتى تكون كل أمة هى تمام الأهبة لقبول دعوة الرسول الجديد الذى يقفى الله به على آثار رسولها لكى يجدد دعوته حتى تظل راية الإيمان والفضيلة خفاقة إلى يوم القيامة، وقد أشهد الله النبيين على أنفسهم، وشهد سبحانه عليهم بذلك.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِى قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران٨١].

هـذا. واستحضار العبد لمعنى هذا الاسم الجليل يربى فيه خلق الحياء من الله تعالى، وينمى فيه الخشية والمراقبة، ويحمله على التقوى، وبهذه الخلال يقيه الله مقته وسخطه وعقوبته، ويمنحه رضاه ومغفرته.

وثقة العبد بأن الله على كل شئ شهيد تجعله يتوكل عليه حق التوكل ويفوض أمره إليه، ولا يعول على أحد من خلقه.

ومن يوقن بأن الله على كل شئ شهيد يقيناً يملأ نفسه ويسيطر على جوارحه يربأ بنفسه أن يجد الله حيث يكره، أو يفقده حيث يحب ويستحيى أن يلم بمعصية، أو يقترف سيئة، أو يفرط فى عمل صالح أو يقصر عن خير، فإن ارتقى به يقينه إلى هذه الدرجة كان من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذى آمنوا وكانوا يتقون، الذين لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، الذين يكتبهم الله مع الشاهدين، ويدخلهم مع القوم الصالحين.

الحافظ.. الحفيظ

اسمان جليلان من أسمائه تعالى الحسنى اشتقاقها من الحفظ وهو فى حق المخلوقين التفقد والتعهد والرعاية والحراسة والرقابة وعدم النسيان ومعناه فى حقه تعالى أن جميع مافى الوجود قائم بعنايته ورعايته وأنه لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

يدل أولهما على أن حفظه تعالى للأشياء يتجدد بتجددها، ويتوالى بتواليها، وأنه كلما خلق شيئا تولاه بالرعاية والحفظ إلى الأجل الذى كتبه له.

ويدل ثانيهما على أن الحفظ صفة ثابتة لازمة لجلاله أزلا وأبدا.

فكلاهما يدل على معنى خاص لا يغنى عنه الآخر.

وكل ما حولك مما فى السماء والأرض مظاهر لحفظه تعالى فلا شئ فى الوجود إلا هو قائم بحفظه ورعايته.

أرسل رائد البصر إلى السماء فى ليلة صافية الأديم، وانظر ما يرصعها من الكواكب، وما يزينها من النجوم وتفكر؛ أكان شئ منها يبقى فى موضعه لولا حفظ الله تعالى إياه.

لو وكل الله تعالى هذه الكواكب والنجوم إلى ذواتها، ولم يتولها بالحفظ والرعاية لتهافتت وتهاوت وتساقطت وذهب كل منها إلى حيث لا يعلم له غاية ولا مستقر.

وهـذه الشمس وهـى آية النهار المبصرة لولا حفظ الله إياها ما رأيتها تذرع السماء، وتبعث الضوء والدفء إلى ما حولها من الكائنات.

والقمر لولا حفظ الله تعالى ما رأيته يرسل أشعته الفضية تثير سبل السارين وتهدى الحائرين وتبدد ظلام الليل الدامس.

فسبحانه ما أصدقه إذ يقول ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء٣٢].

وكل ما ترى وما لا ترى من الكائنات فى السماء والأرض مؤلف من ذرات ضئيلة لا تكاد ترى بالعين المجردة ولا يقدر صغرها إلا خالقها سبحانه.

هذه الذرات متماسكة تماسكا شديدا هو الذى يعطى هذه الأشياء قوامها وكيانها. ولولا أن الله تعالى حفظ تماسك هذه الذرات وناط كل ذرة بجارتها وألصقها بأخواتها لصار ذلك العالم كله هباء منبثا لا تلوى ذرة منه على أخرى.

والذرات أنفسها تتألف من جزيئيات أدق منها هى التى تدعى بلسان العلم البروتونات والالكترونات لولا حفظ الله تعالى ما بقيت هذه الجزيئات متماسكة ولتفجرت وتبددت فى الفضاء وأنت خبير مما يحدثه تفجر الذرة من آثار.

والأرض التى وضعها الله للأنام، فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام، والحب ذو العصف والريحان لولا حفظ الله تعالى لعصفت بذراتها الرياح وأصبحت عدما لا يعرف الوجود.

وقد أخبرنا رب العزة سبحانه بما يعترى هذه العناصر، وما يصيب هذه الكائنات إذا بلغت أجلها الذى أجله الله لها، وأدت أمانتها التى ناط الله بها أداءها فقال تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا(٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا(٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾ [الواقعة٦].

وقال تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير٣].

وقال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ(٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار٣]. فما قام نظام العالم الرائع البديع إلا بحفظه تعالى ورعايته.

ومن مظاهر هذين الاسمين الجليلين هذه الأعلام المنصوبة، والجبال الشاهقة والقصور الشامخة، والنخل الباسقات، والشجر القائم على أصوله، والأغصان المتصلة بشجرها، والأوراق العالقة بأغصانها والأزهار المتفتحة فى أفنانها، والبراعم الناشئة فى

فروعها، والثمار اللاصقة بأعوادها، والأجنة فى بطون أمهاتها، والمياه المالحة فى بحارها، والعذبة فى أنهارها، والرمال فى بيدائها والحصى فى صحرائها. وكل ما فوق البسيطة من الكائنات، ناطقها وصامتها، حيها وجمادها لولا حفظ الله تعالى إياها لذهبت فى بدداً، وخلا العالم منها أبداً.

سبحانه حفظ العلوم والمعارف فى أذهان العارفين، والعقول والأذهان فى أدمغة العاقلين، والفنون والصناعات فى أيدى الصانعين. والسمع فى آذان السامعين والبصر فى عيون المبصرين، والنبض فى القلوب، وقوة الإفراز فى الغدد، وحفظ الألوان فى الأزهار والريش والشعر والفاكهة والنبات. وحفظ السحاب المسخر بين السماء والأرض، والطير فى جو السماء. ماذا أقول؟ وماذا أعرف؟

كل شئ فى الوجود قائم بحفظ الله تعالى إياه. ولو أنك نظرت فى هذه الآيات ومنحتها فضل تأمل، ومزيد تدبر لهتفت من أعماق صدرك قائلا: إن ربى على كل شئ حفيظ.

- حفظ أسرار السماء أن تنالها الشياطين كما أنبأنا فى كتابه المبين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ(١٦)وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (١٧) إِلا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ [الحجر١٨].

وحفظ القرآن الكريم على تطاول الأحقاب، وتراخى السنين، وتوالى القرون من أن تناله يد التحريف، أو التبديل على الرغم من كثرة الكائدين، وإفساد المفسدين، وتأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين أعداء الدين وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر٩].

وحفظ الشياطين مسخرين بأمره فى قبضة سليمان يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات. قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر٩].

وهو تعالى الحفيظ بمعنى الرقيب على أعمال العباد يسجلها عليهم ثم يسألهم عنها ويحاسبهم عليها قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ [الطارق٤].

وقال تعالى: وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَولِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى٦].

وقــال تعــالى: ﴿سَـوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَــارِبٌ بِالنَّهَارِ(١٠) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَــيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَــا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِـــنْ وَالٍ﴾ [الرعد١١].

- ولــو ذكر المؤمنون هذين الاسمين الجميلين لسموا إلى مقام الإحسان وعبدوا الله كــأنهم يرونه، واستشعروا عظمته وهيبته وأخلصوا لــه فى السر والعلن وأسلموا وجوههم لــه واستمسكوا بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها، فكانوا من الفائزين.

- والحفــظ بهذا المعنى من شئون ربك جل شأنه لم يجعله لأحد من خلقه فقد نفــاه عن خبر الرسول صلى الله عليه وسلم فقال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء٨٠].

وقــال تعالى: حكاية عن شعيب عليه السلام ﴿بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [هود٨٦].

وأمــا الحفظ الذى أثبته يوسف لنفسه فى قولــه تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّــى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف٥٥]. فهو بمعنى الأمانة وحسن الرعاية والمحافظة على ما وكل إلى عنايته وأمانته من أقوات الناس وأرزاقهم.

وها نحن أولاء قد رأينا أن العوالم كلها قائمة بحفظ الله تعالى إياها ولولا أن تولاها سبحانه بالحفظ والرعاية لكانت هباء.

أفلا تأخذك الدهشة ويتولاك العجب بعد هذا حين ترى رجلاً يريد السفر فيذهب إلى ضـــريح من أضرحة الأولياء والصالحين ويسأله الحفظ والرعاية لبيته ومن فيه وما فيه، ثم ينذر لــه لئن عاد سالماً ووجد أهل بيته سالمين ليمنحه كذا وكذا؟.

لــو أنه عمد إلى خفير يسأله حراسة بيته على أجر معلوم لقلنا: رجل حازم يحتاط للأمر، ويجرى على سنة الله الكونية (فيعقلها ويتوكل) بعد ذلك على الله الحفيظ.

أما وهو يعمد إلى العظم الرميم، والرفات السحيق، والصعيد الجرز، الذى لا يدفع عن نفسه، فذلك هو الخرق والعجز وأفن الرأى وسوء التقدير.

أمــا وهو يعمد إلى من انقطع عمله بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصــادق الأمين الذى لا ينطق عن الهوى إذ يقول: إذ مات ابن آدم انقطع عمله ... فذلــك هــو الخسران المبين، والخذلان المهين، بل الشرك الأثيم الذى ما بعث رسوله

صلى الله عليه وسلم إلا للقضاء عليه، وتطهير القلوب من أرجاسه، وتنقية النفوس من أدناسه.

أليس من الخذلان أن نرى امرأة مسلمة تذهب إلى ضريح وتخاطب الرفات المضطجع تحت صخوره ورجامه: لئن عاش ولدى لأجعلن لك كذا وكذا، ولأولمن الولائم فى واديك ولأحلقن رأسه فى ناديك.

كأن صاحب الضريح يملك تقسيم الآجال، ومنح الأعمار، أو كأنه الحفيظ على الناس يمنع عنهم ما كتب الله أن يصيبهم، أو يرد عنهم السوء الذى أراده الله بهم.

لقد قدر الله الأرزاق و الآجال، ولن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو. وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء وهو الغفور الرحيم.

قصرت أيدى المخلوقين عن أن ترد الخالق، وضعفت همة المحفوظين أن تدفع قدر الحافظ إذ جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

أيها الناس. إن ربكم هو الحفيظ العليم لو ترك أحدكم إلى نفسه طرفة عين لهلك.

فتوجهوا إليه وحده واسألوه أن يحفظكم، وأن يحفظ لكم من تحبون وما تحبون ولا تتوجهوا إلى غيره فتكونوا من المشركين الهالكين.

اللهم احفظ علينا ديننا وإيماننا ويقيننا، واحفظنا من طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير يا حفيظ يا عليم يا أرحم الراحمين.

الحاسب .. الحسيب

حسب الشئ. قدره وعده، فهو حاسب.

وحاسب رب العمل العامل: قدر عمله، وأثابه عليه.

وحاسب الأمير عماله: نظر فى أعمالهم. و أثابهم بإخلاصهم، وعاقبهم بتقصيرهم فهو محاسب وحسيب.

هذه هى المعانى اللغوية لهذه المادة إذا أسندت إلى المخلوقين. فإذا أسندت إلى رب العزة سبحانه كانت معانيها قريبة من هذه المعانى وموافقة لها، ولكنها من الكمال والسمو والتتره عن مشابهة المخلوقين فى المترلة التى ليس وراءها مترلة.

لم يرد اسمه تعالى الحاسب، فى القرآن الكريم مفردا محلى بأل، بل ورد جمعاً مجردا منها، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء٤٧].

وورد جمعا معرفا بها مضافا إليه قال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام٦٢].

وأما اسمه تعالى (الحسيب) فقد جاء مفردا مجردا من الـ.

قال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾[النساء٦].

دلت الأبحاث العلمية الحديثة، والتحليلات الكميائية على أن عناصر الكون كالماء والهواء والنبات والحيوان مركبة من أجزاء، وأجزاؤها مؤلفة من جزيئات، وجزيئاها مكونة من ذرات، وذراها تحتوى على بروتونات وإلكترونات: يختلف عددها فى العناصر المختلفة، ولكنها فى العنصر الواحد بمقادير ثابتة، لا يعتريها تغير ولا تبدل. ولا زيادة ولا نقصان، وكلها بحساب دقيق بالغ الدقة مالا تتصوره عقول البشر. وهذا الاختلاف فى المقادير هو الذى ميز العناصر بعضها من بعض، وجعل لكل منها خواصه ومميزاته.

وربك الخلاق العليم دائم الخلق لا تمر ثانية من دقيقة إلا وله فى ملكوت السماوات والأرض مخلوقات لا يحصيها عداً إلا خالقها سبحانه، فلا يشغله حساب تركيب العناصر اللازمة لمخلوق منها عن حساب غيره وسبحانه أن يخطئ فى حساب شئ منها. على الرغم من فرط كثرها وتنوعها.

أفلا يدل ذلك على أن رب العزة سبحانه حاسب لا يعجزه حساب شئ فى السماوات ولا فى الأرض، بغير إجراء عملية حسابية من العمليات التى يجريها الحاسبون من البشر، ولا احتياج إلى صحيفة ولا قرطاس، ولا أداة من الأدوات الحاسبة التى يفتقر إليها المخلوقون العاجزون، ولو كانوا أذكى الأذكياء وأبرع البارعين؟.

يقـدر الليـل والنهار، وسير الشمس والقمر، وحركات الكواكب والنجوم بـنظام مجيب، وحساب دقيق. تعلم منه الناس كيف يحسبون ما يدخل فى طوقهم وما يحتاجون إلى حسابه فى معاشهم ونظام معاملاتهم. وصدق سبحانه إذ يقول:﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَـرُ بِحُسْـبَانٍ﴾ [الرحمن٥]. وإذ يقول: ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس٥].

وإذ يقـول سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلا﴾ [الإسراء١٢].

جعل للأجنة فى بطون أمهاتها قدرا لا تعدوه وإن اختلف باختلاف أنواع الحيوان، وجعل لأجنة الطير فى البيض زمنا لا تتجاوزه، وإن تنوع بتنوع أجناسها، وقدر لنضج الـزرع والثمر آجالا ولإدراك أنواع الحيوان آمادا، كل ذلك بأدق حساب، وأظبط تقديـر، وجعـل لفيضان بعض الأنهار وتراجعها، ولهطول الأمطار فى بعض الجهات، وانقطاعهـا: مواعيد دقيقة، وآونة مظبوطة، وأدار الكواكب والنجوم فى مداراتها فى وقت معين، وزمن محدود، وقدر ما جعل فى الأرض من أرزاق وأقوات بحسب ما بث فيها من دابة. ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾[الحجر٢١].

إذا تجلـت لك هذه الآيات من آيات ربك فى الآفاق والأنفس، رفعتك إلى اليقين بـأن ربك يحسب أعمال الناس دقيقها وجليلها، ويحصى حسناتهم وسيئاتهم ثم يجزيهم بهـا. إن خيراً فخير، جزاء من ربك عطاء حسابا، وإن شرا فشرا جزاء وفاقا وصدق ربـنا إذ يقول: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء٤٧]. فسبحانه من إله أحاط بكل شئ علما، وأحصى كل شئ عددا.

ولا تهولـك كـثرة بـنى آدم وبنات حواء، واختلاف أعمالهم، وتنوع مساعيهم والأزمان المتطاولة، والآماد البعيدة و الأقطار الواسعة والديار النازحة من لدن بثهم الله

فى الأرض إلى أن يطوى السماء كطى السجل للكتب، فتظن أن ربك فى حاجة إلى وقت لإحصاء أعمالهم وجمعها وحسابها. حاشا لربك أن يكون حاسبه كحساب البشر، بجمع رقم إلى رقم، وضم عددا إلى عدد أو إعمال فكر أو إجالة ذهن، تعالى ربنا عن ذلك علواً كبيراً وقد أخبر عن نفسه فى محكم كتابه فقال: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ(٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾[الأنعام٦٢].

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور٣٩].

وقال تبارك اسمه: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران١٩٩]. والآيات فى هذه المعنى كثيرة لا نطيل بإيرادها جميعا.

والحسيب هو الرقيب الذى يحاسب بالأعمال ويجزى عليها.

وذلك من شئون رب العزة وحده، لم يشرك فيه ملكا مقربا، ولا نبياً مرسلا: ومن أجل ذلك يقول لخاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) ويقول تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية٢٦].

جدير بالعبد أن يعرف أسماء ربه ليعبده بما تقتضيه هذه الأسماء فإذا أيقن العبد أن الله تعالى عليه حسيب، يراقبه ويحاسبه بما عمل خاف مقامه، ونهى نفسه عن هواها. ولازم الخشية من الله واجتنب ما يحاسب عليه، وعمل لما ينجيه من أهوال يوم الحساب. فما أوقع الكافرين فى الكفر. وورط العصاة فى المعصية إلا غفلتهم عن يوم الحساب! ونسيانهم إياه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ [النبأ٢٧]. وقال تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص٢٦].

وكما جعل سبحانه يوم الحساب يوم حسرة وندامة وألم على الكافرين جعله يوم سعادة ولذة ونعيم للمؤمنين. قال تعالى: ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩)

جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ (٥٠) مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص ٥٣].

لا حسيب على ضمير الإنسان، ولا رقيب على سرائره إلا ربه.

فالمؤمن لا يخشى إلا الله، قال تعالى فى معرض الثناء على رسله الكرام عليهم الصلاة والسلام: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب٣٩].

لا شىء يقوم من أخلاق الإنسان، ويوقظ ضميره ويحيى وجدانه أكثر من الخوف من حساب الله، فإذا جعل العبد حساب ربه نصب عينيه لم يحتج إلى من يقوم ما اعوج من سلوكه، ولا ما زاغ من تصرفه بل يسير على المنهج القويم ويسلك الصراط المستقيم. مدفوعا بقوة ضميره ووازع وجدانه.

إذا أمر رب العزة العبد بعمل من الأعمال التى لا رقيب عليها إلا الوجدان ولا حسيب إلا الضمير. ذكره بحسابه. قال تعالى وهو يأمر الأوصياء بالإشهاد على اليتامى، حين يدفعون إليهم أموالهم إذا آنسوا منهم رشداً ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء٦].

لينبههم إلى أن يضبطوا الحساب حتى لا يأخذوا من أموال اليتامى كثيرا ولا قليلا وإلى أن اليتامى إذا تساهلوا ورعوا حق التربية وخجلوا من الأوصياء وأن المجالس الحسبية ونحوها من محاسبى البشر إذا تساهلوا أو تغاضوا لأمر من الأمور فإن الله سيحاسب الأوصياء على النقير والقطمير - وكفى بالله حسيباً.

- وقد نبه الله تعالى الناس إلى ألا يضيعوا حقوق غيرهم وأن يراقبوا حساب الله فى ذلك، حتى لا ينسيهم الشيطان أداء هذه الحقوق. واتل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء٨٦]. لتعلم أنك لا تكون مؤديا من حيا لك كل حقه إلا إذا حييته بأحسن من تحيته. فإذا أنت حييته بمثل تحيته بقى له عليك حق البدء بالتحية. فانظر كيف ينبهك الله إلى هذه الدقائق التى لا تكاد تلقى إليها بالا، ويذكرك بها بقوله تعالى إن الله كان على كل شئ حسيبا.

لم يحمل الله الضمير الإنسانى مئونة مراقبة أى حسيب إلا الله حتى لا يكون قلبه نهبا مقسما بين الحسباء حتى الرسول صلى الله عليه وسلم قال فى شأنه: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء٨٠].

لم يجعله حسيبا على قلوب الناس وضمائرهم، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد٤٠].

فجعل الحساب من خصائصه تعالى وحده لا شريك له.

لا تخش حسابا من ولى نذرت له نذرا. إنه لا يملك حسابا فى الدنيا ولا فى الآخرة والنذر عبادة والعبادة لا تكون إلا لله. والنذر لغيره فسوق وإثم كبير بل شرك عظيم.

والرسول الكريم يقول (من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه) فلا تعرف لولى نذرا نذرته له. تب إلى الله من هذا النذر وأكفر بالطاغوت الذى يخوفك من الميت الذى لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشورا ولا تخف إلا رب العالمين الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم: سبحانه وكفى به حسيبا.

المجيب

الجوب قطع الجوبة وهى المكان المطمئن من الأرض، ثم استعمل فى القطع المسافة من الأرض مطلقا، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ [الفجر٩]. وقولهم: هل من جائبة خبر؟ أى هل من خبر يجوب البلاد؟

قال ابن الأثير (وجواب الكلام هو ما يقطع الجوب فيصل من فم القائل إلى سمع المستمع، ولكن خص بما يعود من الكلام دون المبتدأ من الخطاب).

والإجابة توصيل الجواب المطلوب إلى السائل.

والسائل إما أن يطلب مقالا، وإما أن يطلب نوالا.

والمجيب اسم فاعل من أجاب يجيب إذا نطق بالجواب أو منح النوال، فإذا كان المجيب اسما لرب العزة من أسمائه الحسنى كان معناه: الذى يقابل الدعاء بالقبول، والسؤال بالنوال. أى هو الذى يعطى من سأله. ويحقق رجاء من دعاه.

وقد أخبرنا رب العزة بذلك فى محكم كتابه الكريم فقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة١٨٦].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى٢٦].

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل٦٢].

والاستجابة هى الإجابة. ويقال: استجاب له. واستجابه.

وقد بدت مظاهر هذا الاسم الكريم فى استجابته لرسله وأنبيائه حين توجهوا إليه ضارعين إلى فضله ورحمته.

فلقد دعاه نوح عليه السلام فاستجاب له، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ [الصافات٧٥].

وقال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا له فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء٧٧].

وقد أجاب سبحانه دعاء زكريا حين سأله الولد شاكيا إليه ضعفه وشيخوخته وذلك حيث يقول الله تعالى: ﴿كهيعص(١)ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا(٢)إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا(٣)قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّى وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا(٤)وَإِنِّى خِفْتُ الْمَوَالِى مِنْ وَرَائِى وَكَانَتِ امْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا(٥)يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم٦].

حقق الله رجاءه، واستجاب دعاءه، وآتاه سؤله، وقال له: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم٧].

وقد ذكرت هذه القصه موجزة فى موضع آخر من القرآن الكريم.

قــال تعــالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْــتَجَبْنَا لَــه وَوَهَبْنَا لَــه يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَــه زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء٩٠].

وقد سأل موسى ربه أموراً قصها علينا السميع المجيب فى كتابه العزيــز بقولــه: ﴿قَــالَ رَبِّ اشْــرَحْ لِـــى صَــدْرِي(٢٥)وَيَسِّرْ لِى أَمْرِي(٢٦)وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِــنْ لِسَــانِي(٢٧)يَفْقَهُوا قَوْلِي(٢٨)وَاجْعَلْ لِى وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي(٢٩)هَارُونَ أَخِي(٣٠)اشْدُدْ بِهِ أَزْرِى(٣١)وَأَشْرِكْهُ فِى أَمْرِى(٣٢)كَــى نُسَبِّحَــكَ كَثِــيرًا(٣٣)وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا(٣٤)إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه٣٥].

وقــد استجاب القريب المجيب لدعائه فقــال: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه٣٦].

وقــد سأل موسى ربه السقيا لقومه؛ فأنبط لــه الماء من الصخر، قال تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْــقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِى الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة٦٠].

وقد بسط موسى و هرون إلى السميع المجيب أكف الضراعة أن يطمس على أموال فرعون وقومه، وأن يشد على قلوبهم؛ فأجاب دعاءهما، وحقق رجاءهما.

قــال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِــبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْــوَالا فِــى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِــمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس٨٩].

وأجــاب سبحانه جواب مقال حين سأله تحقيق رغبة بنى إسرائيل فى بيان سمات الــبقرة التى سأله تحقيق رغبة بنى إسرائيل فى بيان سمات البقرة التى أمرهم أن يذبحوها قــال تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِى قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِــى إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا

ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِى الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة٧١].

واستجاب لأيوب عليه السلام حين شكا إليه ما مسه من الضر قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِى الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ(٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء٨٤].

واستجاب ليونس عليه السلام حين شكا إليه ما ساوره من الضيق والغم حين التقمه الحوت قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِى الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء٨٧].

واستجاب لعيسى عليه السلام حين سأله أن تنزل مائدة من السماء لتكون آية منه. قال تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّى أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة١١٥].

هذا وإذا كان إجابته تعالى لرسله و أنبيائه خوارق وآيات تثبت بها نبوتهم، وتشهد بصدق رسالتهم، فإن إجابته سبحانه لغيرهم تحقيق لسنته فى الأسباب والمسببات، والمقدمات والنتائج.

وللدعاء شروط إذا حققها العبد استجاب الله تعالى له وآتاه سؤله.

أولها: أن يعتصم الداعى بالصبر ولا يعجل، فقد روى البخارى من حديث أبى هريرة: قال صلى الله عليه وسلم: (يستجاب لأحدكم مالم يعجل: يقول دعوت فلم يستجب لى).

ثانيها: ألا يدعو بإثم ولا قطيعة رحم، لقوله صلى الله عليه وسلم (يستجاب للعبد مالم يدع بإثم ولا قطيعة رحم).

ثالثها: أن يخص الله تعالى بالدعاء. ولا يدعو معه أحدا، و لقد كان مشركو العرب فى جاهليتهم إذا حزبتهم الأمور يدعونه مخلصين له الدين فيستجيب لهم قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان٣٢].

رابعها: أن يلجأ إليه التجاء حقيقيا بحيث يذهب عن نفسه إليه، ويخلص له الضراعة، ويشعر قلبه أن لا ملجأ إلا إليه بعد أن تقطعت به الأسباب وأعجزته الحيل.

وهــذا هو الاضطرار المشار إليه فى قولــه تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل٦٢].

خامســـها: أن يـــتخذ جميع الوسائل من طرقها الصحيحة المعروفة بالعلم والعزيمة والعمل. فقد مضت سننه تعالى أن تسبق المطالب بالمساعى.

قـــال تعـــالى: ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك١٥].

وقـــال عليه الصلاة والسلام: (لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً).

فـــالغـــدو فى طلـــب الرزق والتماس القوت هو السبب فى رواحها بطانا مملوءة الحواصـــل.

وقـــال عمـــر بن الخطاب رضى الله عنه (لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول: اللهم ارزقنى. وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة).

أمـــا من يدعو الله فى الأمور التى تتوقف على أسبابها بغير اتخاذ هذه الأسباب فهو جـــاهل، بـــل هو أقرب إلى أن يكون ساخرا مستهزئاً. وكأنه يقول: اللهم أبطل من أجلى سننك التى قلت: إنها لا تتبدل.

وإجابـــة الدعـــاء بالرحمة والمغفرة تتوقف على صالح العمل. قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَـــمِعْنَا مُـــنَادِيًا يُنَادِى لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّـــنَا مَـــعَ الأَبْرَارِ(١٩٣)رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِـــفُ الْمِيعَادَ(١٩٤)فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران١٩٤].

هذا وثمرة معرفة هذا الاسم الجميل أن نعرف أنه وحده المجيب فلا نسأل غيره. وأن نعـــلم أن شـــأنه الإجابة وإلى إجابته ذاتية فليس فى حاجة إلى وسيط ولا شفيع. وأن نوقن أنه المجيب. فنكثر من دعائه والابتهال إليه فإن الدعاء مخ العبادة، وهو يحب من يدعوه. وما أكثر عنايته بالمتوجهين إليه الداعين له، وخاصة إذا تعسرت عليهم المطالب وأعياهم طلابها!

وقـــد جـــاء فى الحديث الصحيح أن القريب المجيب سبحانه يقول: (من يدعونى فأستجيب له؟ من يسألنى فأعطيه؟ من يستغفر فأغفر له؟).

وقد حكى الله عن صالح عليه السلام قوله لقومه: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود٦١].

ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً إنك سميع قريب مجيب.

الكبير

الكبير فى اللغة: ما أعظم جرمه أو مساحته بالقياس إلى ما هو أقل منه وأصله فى الأعيان: كالقصر الكبير، والمسجد الكبير، والحفل الكبير، ثم استعمل فى المعانى كالفضل الكبير والذنب الكبير.

ويطلق على المسن، كالشيخ الكبير، وعلى الرئيس ذى القدر والرفعة، مثل كبير القوم.

ويلاحظ فى جميع هذه المعانى أن شيئاً يفوق شيئاً آخر ويزيد عليه. فهذا الزائد الفائق يقال له كبير، ويقال لمقابله صغير.

وقد وصف به الأجر الذى أعده الله تعالى لمن يخشونه بالغيب. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك١٢]. وكبر هذا الأجر يتمثل فى كثرته وعظمته وسمو نوعه، وبعده عن أن يكون مما رأت مثله العيون أو سمعت الآذان أو خطر على القلوب. فهو كبير بالقياس إلى كل أجر كان العاملون فى الدنيا يمنحونه، بالإضافة إلى مانحه الكبير المتعال سبحانه.

ووصف به الفضل الذى يغمر الله تعالى به عباده الصالحين السابقين بالخيرات. قال تعالى: ﴿وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر٣٣].

وكبر هذا الفضل يتمثل فى أنه عطاء الكريم الوهاب الكبير المتعال، الذى يتفضل على عباده فيمنحهم الثواب العظيم على العمل الذى لم يكونوا يعملونه لولا أنه تولاهم بتوفيقه، ثم يضاعف لهم الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائه ضعف إلى مالا نهاية له.

ووصف به الفوز الذى يناله المؤمنون الصالحون. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [البروج١١].

وهل ثمة فوز أكبر من فوز من يظفر بجنة عرضها كعرض السماء والأرض؟ إن كل فوز دون هذا الفوز عدم بالقياس إليه.

ووصف به العذاب الذى أعده الله تعالى للظالمين. قال تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان١٩]. وكبر هذا العذاب من حيث أن الذى يذيقهم إياه هو الكبير المتعال، الذى لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد، الذى له جنود السماوات والأرض فهو كبير بالإضافة إلى مصدره وإلى نوعه، وإلى أنه دائم التجدد كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب فى نار كلما خبت زادهم الله سعيراً.

ووصف به الفساد الذى ينجم من ولاية المؤمنين للكافرين. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال٧٣]. وكبر هذا الفساد أن المؤمنين إذ تولوا الكافرين أضعفوا شوكتهم وفلوا حدهم بإطلاعهم على عوراهم، وتمكينهم من التغلب عليهم، ولا فساد أكبر من هذا الفساد.

إذا تدبرت هذه المعانى تدرك فيها جميعاً الزيادة والفروق والامتياز، ولا جرم أن بعض هذه المعانى وهى المعانى المادية محالة على رب العزة سبحانه. كما يستحيل عليه المعنى الذى يتصل بعلو السن وتقادم العمر، وإن كان سبحانه لا أول لوجوده ولم يسبق وجوده عدم.

أما المعانى الأخرى التى تشير إلى الرفعة وسمو القدر والعظمة والكبرياء، فإذا سمونا بها عن مشابهة أوصاف المخلوقين وجعلناها للرفعة التى لا حد لها، والسمع الذى ليس له غاية، والعظمة التى لا تحدها نهاية، والكبرياء التى يتضاءل بجانبها كل كبير، جاز أن تراد من اسمه تعالى الكبير. فإذا نظرنا إلى الرياسة ورفعة القدر، استطعنا أن نقول: إنه الكبير أى العظيم الذى له الكبرياء فى السماوات والأرض وما بينهما، الذى له السلطان المطلق على كل موجود، والتصرف التام فى كل كائن والحكم النافذ على كل مخلوق، والأمر الحكيم الذى لا مرد له، الذى اتصف بكمال الذات وكمال الوجود سبحانه هو العلى الكبير. كما نقول: إنه الذى تتره وجوده عن جميع شوائب النقص، الذى لا يعرف كنه عظمته، ولا تدرك حقيقة كبريائه.

وقـد سمى رب العزة نفسه هذا الاسم الجليل وأخبر به العباد فى محكم التنزيل ليحملهم على التفكير فى معنى كبريائه تعالى، وليوقنوا بأن كل قوة فى الأرض والسماء صغيرة إذا قيست إلى قوته، وكل عظمة فى أية ناحية من نواحى العالم حقيرة إذا قورنت بعظمته، وكل مقام دون مقامه، وكل سلطان خاضع لسلطانه، فإذا تمكنت هذه العقيدة من أنفسهم، وهيمنت على قلوبهم ومشاعرهم لم يعتمدوا على غيره، ولم يستمدوا النفع إلا منه. ولم يستدفعوا إلا به.

اتـل قولـه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَـه عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إلا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالأخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى السماوات وَلا فِى الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَـه مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إلا لِمَنْ أَذِنَ لَـه حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِى الْكَبِيرُ﴾ [سبأ٢٣].

لكى توقن بكبرياء الله، وتعتقد أنه لا مالك سواه، ولا سلطان لغيره، وأنه لا يملك أحد ممن فى السماوات والأرض ذرة فى ملكه، ولا يشاركون فيها وأنه تعالى لا يحتاج منهم إلى معين ولا ظهير، ولا يملك أحد أن يشفع عنده إلا بإذنه لمن ارتضى يوم يجمع الأولين والآخرين ويقوم الروح و الملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن لـه الرحمن وقال صواباً. وهنالك يتجلى لهم علو الله وكبريائه حين تعنوا لـه الوجوه وتخشع الأصوات، فلا تسمع إلا همساً.

أخبرنا رب العزة باسمه الجليل حتى نجعل معناه نور قلوبنا وملء مشاعرنا إذا عبدناه، ونمتلئ يقيناً بأن العلو والكبرياء من صفاته العلا التى لا يشاركه فيها مشارك، ولا ينازعه منازع. فلا (بوذا) الصين ولا (براهما) الهند ولا (آمون) الفراعنة ولا (هبل) قريش، ولا أحبار أهل الكتاب ورهبانهم، ولا أولياء المسلمين و شيوخهم، بل ولا الأنبياء والمرسلون، ولا الملائكة المقربون. كل أولئك لا يملكون مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً.

واتل قولـه تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد٩]. لنوقن أنه بكل شئ عليم، وعلى كل شئ رقيب، ولا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء. وتلك ناحية من نواحى كبريائه، إذ جعلها المؤمن نصب ضميره فنى الحياء وسار فى الطريق السوى الذى رسمه ربه الكبير الذى يعلم سره ونجواه وهو علام الغيوب.

واتل قولـــه تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِىَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَـــالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِىِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر١٢]. لنعلم أن فريقاً من الناس قد فسدت فطرهم، وانحرفـــت غرائزهم، وعبث الحرص على محاكاة الآباء بعقائدهم فأصبحت الدعوة إلى الدين الخالص والتوحيد المجرد تؤذى أنفسهم وتشمئز لها قلوبهم و دعوة الشرك المتقنة تقـــرها أعينهم وتنشرح لها صدورهم وتستبشر بها أفئدتهم. ذلك بأنهم لم يقدروا الله حق قدره، ولو قدروا علوه وكبرياءه، وتدبروا معنى اسمه تعالى الكبير لصغر فى نظرهم كـــل عظـــيم، وهان كل جليل وتضاءل كل كبير، وما وجدنا بين الناس من يهتف بأسمــــاء الموتى فى قومته وقعدته، وغدوته وروحته، ولا من يحدو بالظعائن نحو القبور والرجام ولا من يهل لها بالنذور، ويذبح الذبائح تقرباً إليها وابتغاء مرضاتها واستدفاعاً لغضبها.

يا حسرة على العباد!

ماذا دهاهم وماذا أصاب عقولهم؟؟

جاء دين القيمة يدعو إلى التوحيد الخالص، ويطرح بالوسطاء والشفعاء ويحذر من الشـــرك ظاهره وخفيه، وأخبر رب العزة بأسمائه الحسنى وصفاته العلا ليعتصموا بحبله، ويستمســـكوا بعـــروة التوحيد الوثقى، ولكنهم غفلوا عن روح هذه الدعوة الكريمة، وجهلوا سر هذه الشريعة القويمة، وطغت عليهم موجة من الجهل المطبق، نهضت فيها طائفة من الخبثاء الذين لا هم لهم إلا إشباع بطونهم، وملء خزائنهم فراحوا يروجون للشـــرك بـــين السذج والبسطاء. ويعبثون بعقول الغافلين والجهلاء حتى لبسوا عليهم دينهم، وأفسدوا عليهم عقائدهم وجعلوهم يهشون للشرك، ويضيقون بدعوة التوحيد، ولا يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون.

ما أتى العباد إلا من غفلتهم وجهلهم فلو تدبروا أذكار الصلاة وفقهوا معنى التكبير فـــيها لآمـــنوا بكبرياء الله، وعبد كل ربه كأنه يراه فكان من المحسنين ومن كان من المحسنين كان الله معه، فالله مع المحسنين ومن كان من المحسنين كان الله معه، فالله مع المحســـنين، والله يحـــب المحســـنين، ومن أحبـــه الله وكان معه بالتأييـــد والعون فلا غالـــب لـــه.

وبـــين أيدى المؤمنين كنوز من القوة، وذخائر من القدرة يستطيعون أن يستمدوها مـــن خـــزائن رحمة الله لو صدق إيمانهم به، وكبروه تكبيراً، ولكنهم يتركون الينبوع

العذب الفياض بالطهر والقدس ويرتادون الأوحال العفنة الناضبة التى لا تنقع غلة ولا تشفى علة.

ومن لا يجعل الله لـــه نوراً فما لـــه من نور.

القـادر .. القديـر .. المقتـدر

القدرة فى الإنسان صفة يتمكن بها من فعل كل شئ ما. والقادر اسم فاعل منها.

يقـــال: فلان يقدر على ارتجال الخطابة أو يقدر على إنشاء المقالات. أو يقدر على قرض الشعر، أو يقدر على صنع الساعة أو الطائرة أو السيارة أو المذياع أو غير ذلك من أنواع المقدورات فهو قادر.

وقدرة الإنسان محدودة مقيدة.

أمـــا قدرة الله تعالى فهى صفة يتأتى بها إ يجاد كل شئ ممكن وإعدامه. وقدرة الله تعـــالى مطلقة، ولا يوصف بالقدرة المطلقة غيره تعالى. وكل موصوف بالقدرة غيرة تعالى فهو قادر من وجه وعاجز من وجوه.

والقدير صيغة مبالغة من القادر، ومعناه الفعال لما يشاء على قدر ما تقتضى الحكمة لا زائداً عليه، ولا ناقصا عنه، ولذلك لا يصح أن يوصف به إلا الله. والمقتدر أبلغ منه، وأدل عـــلى عظم القدرة، وإذا أطلق على المخلوقين فمعناه المتكلف للقدرة، المكتسب لها.

وقد أقام القادر المقتدر سبحانه أدلة قدرته، وبراهين اقتداره فى كل قيد أنملة، بل فى كل قيد شعرة من العالم البعيد الآفاق الفسيح الجنبات لمن كان لـــه عينان يبصر بهما، وذهـــن يجيله فى الكائنات، وقد ملأ القرآن الكريم بالآيات الناطقة بالقدرة، الشاهدة بالاقـــتدار ليعـــلم الناس أن القادر هو الإله الحق الجدير بأن يعبده العابدون و يدعوه الداعون، ويستغيثه المستغيثون، ويسأله السائلون.

فمن أبرز دلائل قدرته تعالى خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة والخلق هو عـــلم الربوبية. قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى٢٩].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَـــاطَ بِكُلِّ شَـــيْءٍ عِلْمـــًا﴾ [الطلاق١٢].

وقـــال تعـــالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذى خَلَقَ السَّمَوَات وَالأَرْضَ قَادرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فيه فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلا كُفُورًا﴾ [الإسراء٩٩].

وقـــال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَديرًا﴾ [الفرقان٥٤].

وقـــال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذى خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْف ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْد ضَعْف قُوَّةً ثُمَّ جعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّة ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَديرُ﴾ [الروم٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّة مِنْ مَاء فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشى عَلَى بَطْنه وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشى عَلَـــى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِى عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَى لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [النحل٧٠].

والآيات الكريمة فى هذا المعنى أكثر من أن تستوعب فى مثل هذه العجالة فليتدبرها الـــتالون ليقفوا من تدبرها على ألوان من أسرار القدرة الإلهية التى لا حد لها. حتى إذا اطمأنـــت أنفســـهم إلى قـــدرة الله تعـــالى نظروا من يدعوهم الناس من دون الله أو يستعينونهم: هل يملكون هذه القدرة أو عشر معشارها، ولا جرم أنهم بعد ذلك واثقون كل الثقة بأن هؤلاء المدعوين من الأحياء أو الموتى لا يملكون من قدرة الله شئ، وإذاً لوجـــب الانصراف على دعائهم و استعانتهم إلى دعاء الله وحده لأنه على كل شئ قدير.

ومـــن دلائل قدرته التى سجلها فى كتابه العزيز انه مطلق التصرف فى السماوات والأرض وما فيهما، وأن المخلوقين جميعاً تحت سلطانه يعذب منهم من يشاء ويغفر لمن يشـــاء على حسب ما تقتضى حكمته العالية التى تدق عن كل ذكاء وتخفى على كل فطنة.

قـــال تعالى: ﴿لِلَّه مَا فى السَّمَاوَات وَمَا فِى الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِى أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة٢٨٤].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَات وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران١٨٩].

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك١].

فهل لأحد من المخلوقين هذا النوع من القدرة؟

هل تملك الملائكة هذا النوع من القدرة الإلهية؟

هل يملك الأنبياء والمرسلون هذا النوع من القدرة الإلهية؟

هل يملك الأولياء والصالحون هذا النوع من القدرة الإلهية؟

هـــل يملـــك الموتـــى المقبورون هذا النوع من قدرة القادر المقتدر سبحانه إذاً فلم يدعوهم الناس من دون الله؟

و لم يشدون إلى قبورهم الرحال؟

و لم ينذرون لهم النذور؟ ويذبحون لهم الذبائح، ويقربون إليهم القربان!

ومن أبرز دلائل قدرته تعالى أنه لو شاء لذهب بالنعم التى أنعمها على عباده بل لو شاء أن يفنيهم لفعل.

وقـــال تعـــالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحشر٦].

وقـــال تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَـــانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب٢٧].

ذلـــك فعل القادر الحكيم الذى لا يعجزه شئ فى السماوات ولا فى الأرض وهو على كل شئ قدير.

ومـــن أوضـــح أدلة القدرة الإلهية قدرته على إيجاد الحياة الحيوانية والنباتية و إيجاد الأعضـــاء اللازمة لحفظ الحياة فى الإنسان والحيوان والنبات، والتفكير فى هذه القدرة وحدهـــا كفيل بأن يهدى إلى الإيمان أعرق الناس فى الكفر والجحود لو أهم وجهوا عقولهم وأفكارهم إلى آثار قدرة الله فى منح الحياة وحفظها على الأحياء.

قـــال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِىَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف٣٣].

ومما يتصل بذلك قدرته تعالى على بعث الموتى وإعادة الحياة إلى من فارقتهم الحياة، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ(٣)بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّى بَنَانَهُ﴾ [القيامة٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِه لَقَادِرٌ﴾ [الطارق٨].

وقال تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّه كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم٥٠].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج٦].

ستصادف قوماً فارغين يتعلقون بالسخافات وسفاسف الأمور: يسألونك: هل يقدر الله أن يدخل الدنيا فى بيضة؟! فقل أن قدرة الله تعالى تتعلق بالممكنات وهو الذى جعل بحكمته الممكن ممكناً، و المحال محالاً، ولو شاء لقلب الأوضاع إن اقتضت الحكمة ذلك..

ومثل هذا السؤال لا ينبغى أن يتعلق به المؤمنون الذين يجدر بهم ألا ينشغلوا بغير المجدى من القول، والنافع من الفعل، والله يحب معالى الأمور وأشرافها ويكره سفاسفها.

وبعد. فهذه قدرة الله تعالى أوضحنا لك من آيات الله تعالى بعض آثارها. فهل تتعلق نفس المؤمن بعد هذا بمخلوق عاجز ضعيف لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا عَبْدًا مَمْلُوكًا لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّه بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٦) وَلِلَّه غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النحل٧٧].

نسأل الله بعظيم قدرته وواسع رحمته أن يهيئ لنا من أمرنا رشداً، وأن يوفقنا لما فيه خيرنا وسعادتنا، ويرزقنا العفو والعافية فى الدين والدنيا والأخرة. فإنه سميع قدير.

الرقيب

لا يخاطب رب العزة سبحانه الناس بما تعيا به عقولهم، بل يخاطبهم بما يفهمون، وما أرسل من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم. ولما أنبأ سبحانه الناس بأسمائه الحسنى ليدعوه بها، كانت لهذه الأسماء فى لغاتهم معان يعرفونها ويفهمونها فاتخذوا هذه المعانى التى كانوا يعرفونها سلماً لإدراك معانى أسمائه تعالى بعد أن أبعدوا منها ما لا يوافق عظمة الله وكبرياءه، وعزته وجلاله، وربوبيته وألوهيته. وأقاموا هذه المعانى - معانى أسمائه الحسنى - على أساس من معارفهم السابقة، وأكملوها، وأزالوا نقصها، وسموا بها عن التشبيه والتمثيل حتى يصح إطلاقها على رب العزة ذى الجلال والإكرام.

أنبأنا سبحانه أن من أسمائه الحسنى (الرقيب).

ونظرنا فى لغتنا فإذا لكلمة الرقيب عدة معان:

منها الحافظ.. يقال: رقب الوصى مال اليتيم إذا حفظه فهو رقيب أى حافظ ومنها الحارس يقال: رقب الراعى المال إذا حرصه حتى لا تعبث به اللصوص فهو رقيب أى حارس.

ومنها المنتظر - يقال: ارتقبوا إنى معكم رقيب، أى انتظروا إنى معكم منتظر ومنها أمين أصحاب الميسر، والثالث من قداح الميسر، ونجم من النجوم يراقب نجماً آخر، وابن العم، وحبة خبيثة، وخلف الرجل من ولده وعشيرته، ومنازل القمر كل منها رقيب لصاحبه.

فأبعدنا من هذه المعانى ما لا يليق برب العزة سبحانه وهو المعنى الثالث وما بعده إلى آخر المعانى.

أما المعنيان الأول والثانى وهما الحافظ والحارس، فإذا تصورنا معنى الحفظ ومعنى الحراسة وجدنا الحفظ أعم وأشمل فكل حافظ حارس وليس كل حارس حافظاً. فحارس الكرم قد يمنع اللصوص أن تعبث به ولكنه لا يستطيع أن يحفظه من الآفات التى تعرض له.

وعلى ذلك يتعين أن يكون معنى اسمه تعالى الرقيب هو الحافظ.

ولكى يكون المعنى أكثر مواءمة لإطلاقه على رب العزة سبحانه نقول كما قال ابن الأثير: الرقيب هو الحافظ الذى لا يغيب عنه شئ.

فهو سبحانه رقيب على السموات وما فيهن من كواكب ونجوم يحفظها أن يخرج شئ منها عن موضعه الذى أقامه فيه، أو ينقص من سرعته التى أجراه بها، وأداره عليها، أو ينحرف عن اتجاهه الذى وجهه إليه، لا تشغله الرقابة على كبارها عن الرقابة على صغارها، ولا يعوقه حفظ قريبها عن حفظ بعيدها، أما كل رقيب سواه فإنه إذ شغل بشيء غابت عنه أشياء، وإذا رقب مادنا غفل عما نأى، ولكنه سبحانه رقيب على كل شئ ولا يخفى عليه شئ يرقب أشعة الشمس فى اختلاط ألوانها حتى لا يطغى بعضها على بعض، وحتى يظل الظاهر منها ظاهراً، والخفى منها خفياً.

يرقب الأرض فى دورتها حول نفسها أمام الشمس حتى لا تنحرف عن مدارها الذى رسمه لها، وحتى تحتفظ بالسرعة التى خصها بها، يرقبها فى إنبات نباتها، وفى صعود البخار من مياهها، وفى إزجاء الرياح لسحابها، وفى هطول غيثها، وجريان أنهارها.

يرقب الأجرام السماوية أن تقع على الأرض، إذ لو وقع أصغر جرم منها على الأرض لدكها دكا، وصيرها هباء منبثاً.

يرقب البحار أن تطغى على اليابسة، إذ لو طغت عليها لأصبحت الكرة الأرضية كلها بحراً يعج عجاجه وتصخب أمواجه.

يرقب الفلك فى دورته فترى الشمس لا ينبغى لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار، وكل فى فلك يسبحون، وبفضل رقابته على الفلك المدار تأتى فصول العام فى مواقيتها التى حددها لها، لا يتأخر شئ منها عن موعده ساعة، ولا بعض ساعة،ولا يتقدم دقيقة ولا بعض دقيقة، ولا يطول ليل ولا نهار فوق ما قدر لكل منهما، ولا يقصران دون ما كتب لهما.

يرقب الأجنة فى بطون أمهاتها وتطورها فى خلقها، ونموها، وتغذيتها وتماسها وخروجها من ظلمات الأرحام.

يرقب القلوب فى نبضاتها، وتوزيعها الدم فى دورته فى الأجسام، وتحول الدم إلى أنسجة وخلايا وقوى مختلفة.

يرقب خطرات الأفكار، وخلجات الأنفس، وهجات الضمائر لا يغيب عن رقابته من كل ذلك شئ.

يرقب كل كبد و إفرازها، وقياسها بما أقاسها فيه من تنقية الدم وتخليصه من السموم واختزان العناصر الصالحة الزائدة على حاجة البدن، وإمداد المعدة بالصفراء لهضم الأطعمة الدهنية، ويرقب كل معدة وإفرازها العصائر والخمائر اللازمة لهضم الأغذية وتمثيلها حتى تغذوا الجسم وتعوض ما فقده من الأنسجة فى حركاتها المتنوعة.

يرقب الطير فى خفوق أجنحتها، وفى طيرانها فى جو السماء، وتحليقها فى الفضاء وفى غدوها ورواحها، وفى احتضان بيضها، وزق فراخها. وحمايتها من عدوها. يرقب كل نبتة فى نموها، وامتصاص غذائها، وسريان الغذاء فى مختلف أجزائها، وتكون جذورها، وسوقها و لحائها وفروعها وأزهارها وثمارها.

يرقب الغدد الحارسة للجسم، وفتكها بجراثيم المرض التى تهاجمه، والغدد الصماء وإفرازها للعصائر التى تترك فى البدن آثارها المنوعة.

يرقب أجهزة الجسم المختلفة فى أداء وظائفها، والمشاعر فى شعورها، والحواس فى إحساسها، والعيون وانسكاب الضوء فى أحداقها بقدر معلوم، والأسماع وتدفق الأصوات فى أصمختها، وما تحدثه المرئيات والمسموعات فى النفس من شتى الآثار، ومختلف الانفعالات.

لولا رقابة الحافظ الرقيب سبحانه على كل ما تقدم وعلى غيره مما لم أذكر ما قامت السماوات والأرض، وما قام شئ فى الوجود، وما بقى فى هذا الكون شئ مما يستمتع به الإنسان والحيوان، ولو تخلت رقابة الله عن هذا العالم طرفة عين لغرق فى طوفان من الظلام. وأصبح عدما من الإعدام.

وإذ قد ثبت أن الله تعالى يرقب كل شئ فى الوجود، فهو كذلك يرقب أعمال المكلفين وأقوالهم وخائنة أعينهم وما تخفى صدورهم ثم يجزيهم إياها الجزاء الأوفى.

وثمرة معرفتنا لهذا الاسم الجليل من أسمائه تعالى الحسنى تربية الحياء منه تعالى فى نفوسنا وبلوغنا منزلة الإحسان وتجريد التوحيد، لأن الذى يعتقد اعتقاداً صحيحاً أن الله رقيب على أقواله وأفعاله وأفكاره لا يفكر فى شر، ولا ينطق بشئ من القول، ولا يلوث نفسه باقتراف فاحشة ولا يقصر فى خير، ولا يقعد عن صالحة يستطيعها.

ودوام استحضار هذه العقيدة يسمى (بالمراقبة)، فمراقبة الله تعالى - أى دوام استحضار أنه الرقيب - وقاية من اقتراف السيئات، وحصن من الخطايا والموبقات.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك١٢].

والذى يعتقد أن ربه الذى يربيه بفضله ورحمته رقيب عليه حافظ له لا يولى وجهه شطر مخلوق يلتمس منه خيراً أو يستدفع به شراً ليقينه أن الله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين.

وقد أجمل القرآن الكريم جميع ما فصلت فى بلاغة إيجازه، وروعة إعجازه بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء١].

العلى... الأعلى... المتعال

اشتقاق هذه الأسماء الحسنى جميعاً من العلو، ومعناه لغة بالإضافة إلى المخلوقين الصعود و الارتفاع والرقى. وهذه معان حسية محالة على رب العزة سبحانه ليس كمثله شئ. ويطلق العلو على التكبر و التجبر، وهما معنيان ذهنيان إذا أطلقا على البشر كانا من النقائص المذمومة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِى نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص٤].

وكما قال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص٨٣].

وقد سمى رب العزة نفسه الجبار والمتكبر من الجبروت والكبرياء اللائقين بجلاله تعالى و عظمته وتنزهه عن مشابهة المخلوقين. ويطلق العلو كذلك على القهر والغلبة. ويصح إطلاق هذا المعنى على المخلوق فتقول: علا جيش العرب جيش الصهيونيين أى قهرها غلبها. وقد وصف الله تعالى به موسى فقال: ﴿قلنا لا تخف إنك أَنْتَ الأعلى﴾ ووصف به المؤمنين فقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران١٣٩]. ووصف به القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِى أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف٤].

ويصح إطلاق هذا المعنى على رب العزة بصفة أتم وأكمل مع اعتقاد التتريه عن مشابهة الخلق. فقد قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام١٨]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف٢١]. فإطلاق العلو بهذين المعنيين سائغ غير محظور.

وقد سمى رب العزة نفسه بالعلى فى مواضع من القرآن الكريم فقال تعالى فى آخر آية الكرسى: ﴿وَلا يَؤُدُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِىُّ الْكَبِيرُ﴾ [البقرة٢٥٥]. وقد سمى نفسه المتعال كما فى قوله تعالى فى سورة الرعد: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد٩].

فالعلى فعيل بمعنى فاعل أى الرفيع القدر الذى يعلو أن يحيط به وصف الواصفين بل علم العارفين الذى ليس فوقه سماء فى المرتبة ولا فى الحكم.

والأعلى الأفضل و الأشرف بالإضافة إلى كل ماهو فاضل وشريف فى هذا العالم، فهو أعلى أن يقاس به: أو يعتبر بغيره، أو يشبهه أحد من خلقه أو يتحكم فى إرادته ومشيئته غيره.

والمتعال الذى جل عن إفك الأفاكين وافتراء المفترين، وتتره عن جميع شوائب النقص، وتعالى عما يقول المبطلون، ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون١١٦].

علو مطلق

وقد وصف رب العزة نفسه بالعلو المطلق فليس فوقه شئ، ولا تعلو إرادته إرادة.

فكيف يزعم الغافلون أن أحداً - مهما يكن - يتحكم فى إرادته تعالى، أو يصرفه عن مشيئته أو يحمله على أن يفعل مالا يريد أن يفعل، أو على أن يترك مالا يريد أن يترك.

لو جاز أن يتحكم فى إرادة الله أحد لبطل علوه تعالى. واستحال علمه جهلا وحكمته سفهاً. وقدرته عجزاً. سبحان ربنا وتعالى يقول عمَّا الظالمون علواً كبيراً.

إذاً فمن سفه النفس وغبن الرأى والإلحاد فى أسماء الله أن نطلب الحاجات من غيره تعالى، أو يفزع فى الملمات لسواه. وأعرق من ذلك فى السفه أن يعمد إنسان حى إلى

حدث هامد يلتمس مما فيه من العظم الرميم والرفات السحيق أن يجلب لـــه خيراً، أو يكشف عنه ضراً على غير مراد رب العالمين سبحانه.

فمن لوازم علوه تعالى أن ينفرد سبحانه بتدبير الأمر فلا يملك غيره من الأمر شيئاً. ولا يقدر سواه على نفع أو ضر. قال تعالى فى سورة يونس: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَـلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس١٠٧].

وقـــال العـــلى الأعلى سبحانه فى سورة فاطر: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر٢].

وقـــال الكـــبير المـــتعال جـــل من قائل فى سورة الزمر: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِى اللَّهُ بِضُرٍّ هَـــلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِىَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر٣٨].

لقد جعل ربنا سبحانه من آيات وحدانيته وتفرده بالملك أنه العلى الأعلى الذى لا يعلو عليه غيره فقال تعالى فى سورة المؤمنون: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـــهٍ إِذًا لَذَهَـــبَ كُـــلُّ إِلَـــهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَـــمَّا يَصِفُـــونَ(٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون٩٢].

دوافع من البينـــات

ســبق فى عـــلمه تعالى أن يمس فلاناً بضر لحكمة يعلمها جل شأنه. وتنفيذاً لسنته الحكـــيمة فى نظام الأسباب والمسببات. أفتستطيع قوة فى الأرض أو فى السموات أن تحـــول دون تنفيذ إرادته. أو تقف فى سبيل مشيئته؟ وهو العلى العظيم العليم الحكيم الذى لا يشاء إلا ما تقتضيه الحكمة، لا معقب لحكمه، ولا تبديل لكلماته.

هل استطاعت الملائكة أن يحولوا بينه تعالى وبين خلق آدم وجعله خليفة فى الأرض بقولهـــم ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِـــدُ فِـــيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة٣٠].

هـــل اســـتطاع نوح أن ينقذ ولده وفلذة كبده من الغرق الذى استوجبه بفساد عقـــيدته وسوء عمله. حين أراد الله أن يغرقه وقد ضرع إلى الله بحنو الوالد العطوف

وشفقة الأب الحميم؟ كلا بل نفذت مشيئة الله. ومضت إرادته. ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود٤٦]. ذلك بأن الله هو العلى الأعلى والكبير المتعال الذى لا يبدل القول لديه وما هو بظلام للعبيد.

هل استطاع إبراهيم أن ينقذ أباه آزر وقد دعا الله بقلب الولد البار والنبى الصالح قائلا: ﴿وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء٨٧]. كلا. لأن الله هو العلى الأعلى الذى يحكم لا معقب لحكمه ولا يرد قضاءه شئ.

هل استطاع أفضل الخلق خاتم النبيين وإمام المرسلين أن يهدى عمه أبا طالب الذى احتضنه ورباه وكفله وكان لـه أبر الأعمام، وأحنى الأقربين، ولم يأل جهداً فى حمايته والذود عنه حين لم يشأ الله أن يمنحه التوفيق إلى الإيمان لحكمة تدق على الإفهام، وتخفى على أثقب الأذهان؟ كلا لأن الله هو العلى الأعلى والكبير المتعال الذى لا يقع فى ملكه إلا ما يشاء ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص٥٦]. ألا فقل لهؤلاء الذين يتوسلون إلى الله بذوات المخلوقين ويقسمون على جلاله بأسمائهم: لقد ضل سعيكم فى طلب حاجاتكم وأنتم تحسبون أنكم تحسنون صنعاً.

قل لهؤلاء الذين يدعون غير الله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً﴾ [الإسراء٥٦].

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ٢٢]. تعالى ربنا العلى الأعلى والكبير المتعال أن يفعل إلاّ ما مضت به إرادته، وسبقت به مشيئته وقضت به حكمته. ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة٢٥٥].

إن فى ذكر هذه الأسماء الحسنى لطباً للقلوب المريضة والنفوس الضعيفة التى ينفخ الشيطان فى أنوف أصحابها فيتعالون ويتعاظمون ويستكبرون، ويحتقرون من دونهم من خلق الله، ويستطيلون عليهم، و يعاملونهم بعنجهية وكبرياء. فلو ذكروا أن الله تعالى فوقهم وأنه العلى الأعلى الذى بنواصيهم لتواضعوا لله، وعنت لـه وجوههم، وخشعت لـه أصواتهم وانتظروا برحمتهم من فى الأرض رحمة من فى السماء.

العلو والاستواء على العرش

يطيب لى فى هذا المقام أن أعالج مسألة شغلت الأذهان، وخاض فى حديثها الناس بالحق والباطل. ورمى بعضهم بعضاً بالعظائم، ونسب بعضهم إلى بعض الزيغ والإلحاد، بل إلى الفسوق والكفر. وما كانت بحاجة إلى كل هذا المراء لولا غلبة العجمة وتحكم الجهل، وبعد الناس لذلك عن الإحاطة بأسرار الكتاب الكريم. وتذوق اللسان العربى، والتضلع من الفصحى. والتمرس بأساليبها الرائعة، والنهل من سلسبيل مواردها العذبة السائغة.

ومن أعجب العجب: أن أكثر الخائضين فى هذه المسألة من العامة وأشباههم، ممن لا يلمون بشئ من العلوم اللسانية، ولا يعرفون نحو اللغة ولا صرفها، ولا استعارتها وكنايتها. وحقيقتها ومجازها. ولا يأخذون أنفسهم بشئ من مناحى بلاغتها، ومرامى عباراتها. ثم هم مع هذا يخوضون فى مسألة كان ينبغى أن تكون فوق الخوض، ويأتمرون فى أمر كان خليقاً أن يكون أبعد الأشياء عن الجدل والمراء. لأنها تتصل بالإعجاز البيانى، وتلتصق بالذوق العربى من جهة، ثم هى تدور حول صفات ربنا الخالق العظيم سبحانه من جهة أخرى.

هذه المسألة هى مسألة: علو الله تعالى: أو الفوقية، أو الاستواء على العرش.

مقدمات البحث

المقدمة الأولى

ليس المخلوق بأعلم بخالقه من نفسه، فهو سبحانه أعلم بنفسه من جميع خلقه، أعلم بنفسه من الجن والإنس والملائكة. وهو أرحم بعباده من أمهاتهم، لم يخاطبهم بما تعيا به عقولهم، أو تعجز عنه مداركهم، بل خاطبهم بما يدركون وأمر رسله أن يخاطبوهم بما يفهمون، وأنزل إليهم كتاباً مبيناً معجزاً بيانه ووضوحه، ميسراً للذكر، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

المقدمة الثانية

وصف رب العزة نفسه فى كتابه المبين بصفات كمال، وأسند إلى نفسه أفعالا فوجب علينا أن نسند إليه تعالى ما أسند إلى نفسه من أفعال، وأن نؤمن بما وصف به نفسه من صفات، وأن نوقن بأنه موصوف بتلك الصفات كما أخبر، مع اليقين بأنه سبحانه متعال عن مشابهة المخلوقين، وأنه (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير).

المقدمة الثالثـــة

ليس من شك فى أن فى اللسان العربى كما فى اللغات الحية حقيقة ومجاز واستعارة وكـــتابة، وليس من شك فى أن المجاز والكتابة من الروعة والحسن والبلاغة والتأثير فى النفس، و الأخذ بمجامع القلب ما ليس للحقيقة.

ولـــولا ذلـــك مـــا عـــدل عـــن الحقيقة إليها. وقد حفلت آيات الكتاب العزيز بالاستعارات البليغة، والمجازات الرائعة المعبرة أصدق تعبير عن المعانى التى قصد أداؤها بها. ومن ذلك قولـــه تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ﴾ [الرحمن٣١].

وقولـــه تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهـــيم٤٣]. وقولـــه تعالى ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّـــاسِ كَمَـــنْ مَـــثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام١٢٢].

وقولـــه تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح٢].

وقولـــه تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُـــونَ﴾ [الأعراف١٥٤].

وقولـــــه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِـــرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء١٢].

وقولـــه تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّـــا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء١٨]. إلى غير ذلك من الاستعارات البليغة التى تفعل فى نفس السامع ملا تفعل الحقيقة، والتى تمتاز بشرح المعنى، وفضل الإبانة عنه وتأكيده، والمبالغة فيه، والإشارة إليه بالقليل من اللفظ.

وما أكثر ما فى القرآن الكريم من استعارات ومجازات لو حاولت استقصاءها لخرج بى القول عن نطاق هذا البحث.

ثم ماذا؟؟

كـــان الله ولا شـــئ معـــه. وكان الله ولم يكن معه أرض ولا سماء. ثم خلق الله الســـماوات والأرض، فكـــان العالم، وكانت المملكة، وكان الملك، وكان الملكوت،

ولـــلمملكة ملك يستوى على عرشها، ويدبر أمرها، وينظم شئونها ويتولاها بالعناية والرعاية.

وربـــنا ســـبحانه مالك الملك، استوى على عرشه يدبر أمره، ويتصرف فى شئونه وحده لا شريك لـــه، يحكم لا معقب لحكمه، وقد أخبر عباده بذلك فى كل شريعة من شرائعه المترلة، فآمن به الموفقون فى كل ملة، وصدق به المهتدون فى كل عصر. ثم بعـــث الله نبيـــنا محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق على فترة من الرسل وضلال من الأمم، وحيرة من الناس، وفساد فى العقائد، وتشبيه الله تعالى بخلقه، وثنية طغـــت، وشرك تحكم، وأنزل عليه كتابه العزيز، فيه هدى ونور، ليمحق ببيانه الشرك الـــذى أفســـد الأمـــم، وقوض دعائم مجدها، ويقيم به سرح التوحيد الذى ينهض بالشـــعوب، ويقوى شوكتها و لم يدع إلى التوحيد تلقينا وإكراها وإرغاماً، بل تبصيراً وتنبيهاً وإقناعاً.

فاستدل بخلق السماوات والأرض على أنه رب هذا العالم ومليكه، خلقه وحده، واستوى على عرشه يدبر أمره وينظم شأنه، لا يملك غيره مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض، وماله فيهما من شرك وماله منهم من ظهير، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن لـــه.

وإلـــيك مـــا جاء فى هذا المعنى من الآيات البينات، والحجج الدامغات والبراهين الساطعات.

قـــال تعالى فى سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّـــامٍ ثُـــمَّ اسْـــتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[الأعراف٥٤].

قال تعالى فى سورة يونس: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس٣].

وقـــال تعـــالى فى سورة الرعد: ﴿اللَّهُ الَّذى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَـــى الْعَـــرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد٢].

وقال تعالى فى سورة طه: ﴿تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلا(٤) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى(٥) لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ [طه٦].

وقال تعالى فى سورة الفرقان: ﴿الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان٥٩].

وقال تعالى فى سورة السجدة: ﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِىٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ(٤)يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ(٥)ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [السجدة٦].

وقال تعالى فى سورة الحديد: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد٤].

فإذا تدبرت هذه الآيات البينات بعقل طليق من أسر التقليد، مطهر من رواسب الماضى، برئ من حمى التعصب لآراء الرجال، وكنت أوتيت حظاً من الذوق الأدبى وتمرست بألوان البلاغة وضروب التعبير، وتذوقت أساليب القرآن الكريم، ووقفت على بعض أسراره، وأشربت روح الدعوة الإسلامية فهمت هذه الآيات الكريمة، وأدركت مراد الله تعالى منها، ولم تحتج إلى السؤال عنها، مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يلين ظهرانيهم، ولم يضن عليهم ببيان ما نزل إليهم.

لم تدر بخلد أحد منهم شبهة فى معنى استواء الله تعالى على العرش مع يقينهم. أنه متره عن مشابهة المخلوقين.

أدركوا أن الله تعالى استوى على العرش كما أخبر، استواء يليق بجلاله، يدبر ملك السماوات والأرض أتم تدبير ويتصرف فيه أحكم تصرف ويمضى إرادته فى المخلوقين وينفذ مشيئته، وينفرد بالملك والسلطان، وذلك هو المعنى الواضح المستقيم الذى لا عوج فيه ولا التواء والذى هو محور الدعوة الإسلامية التى جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتى سداها ولحمتها التوحيد الخالص لله رب العالمين.

وماذا فى اللغـــة ؟؟

يطلـــق الاستواء فى اللغة حقيقة على التساوى، واستقامة الشئ واعتداله، والتماثل، وبلـــوغ الأشـــد. ومجازاً على عدة معان. إذ يقال: استوى على الدابة، وعلى السرير وعـــلى الفراش. واستوى على البلد، ويقال: استوى على عرشه إذا ملك، وثل عرشه إذا هلك (انظر الأساس).

وفى المصباح: استوى على سرير الملك، كناية عن التملك وإن لم يجلس عليه، كما قيل: مبسوط اليد. مقبوض اليد، كناية عن الجود والبخل.

أثر الفتح الإسلامـــى

كـــان الصحابة الكرام عليهم الرضوان. إذ سمعوا هذه الآيات البينات التى سقيتك من نميرها، وأرويتك من نبعها الفياض، فهموا منها ما يدل عليه أسلوبها السهل اليسير الـــبين، كما أوضحت لك، فلما فتحت الفتوح ودخل الإسلام طوائف من الأعاجم الذين أسلموا، وفى عقولهم رواسب العقائد الباطلة، وركام من لغاتهم التى لا تمت إلى الفصـــحى بصـــلة، أخذوا يسألون عن معانى هذه الآيات، وعن معنى الاستواء على العرش بمعنى خاص.

كانوا يسألون صحابة رسول الله، ويسألون التابعين لهم بإحسان من بعدهم، لأنهم وقد بدءوا يعرفون العربية لم يترووا منها ترويا يطوع لهم فهم أسرارها، والوقوف على دقـــائق مجازاتها واستعاراتها، كما أنهم لم يتحرروا كل التحرر مما وقر فى أنفسهم من العقائد السابقة.

روى أن أم المؤمـــنين أم ســـلمة رضـــى الله عنها سئلت عن معنى قول الله تعالى: (الـــرحمن عـــلى العـــرش استوى) فقالت: الكيف غير معقول، الاستواء غير مجهول، والإقـــرار بـــه إيمان، والجحود به كفر. فإن صحت هذه الرواية سببها كما أسلفت القول: إن أحد التابعين الذين اشتبهوا فى معنى هذه الآية لغلبة العجمة عليهم، وضعف الملكـــات اللسانية عندهم، وعدم سلامة عقائدهم من لوثة التشبيه - سألها ليقف على حقيقة المعنى.

وروى أن ربـــيعة شيخ الإمام مالك سئل عن قولـــه تعالى (استوى على العرش) فقـــال: الاســـتواء غير مجهول، والكيف غير معقول. ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق.

وقيل: إن مالكا رضى الله عنه وجه إليه هذا السؤال فوجد وجداً شديداً، وأخذته الرحضاء، ولما سرى عنه قال للسائل: الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وإنى أخاف أن تكون ضالا، وأمر به فأخرج. وروى عنه أنه قال: (الرحمن على العرش استوى) كما وصف نفسه زلا يقال: كيف؟ وكيف عنه مرفوع. وأنت رجل سوء صاحب بدعة (انظر تفسير المنار).

وكأنه رضى الله عنه توسم فى السائل أنه ليس طالب علم، وأنما هو مفتون مثير للشكوك.

وأخيراً:

وأخيراً أدرك هؤلاء العلماء علماء السلف رضى الله عنهم أن نصوصاً جاءت فى القرآن الكريم تفيد أن لله تعالى عرشاً تحمله الملائكة، ويحفون من حوله، وأن نصوصاً أخرى تفيد أن الله استوى على العرش فأرشدوا السائلين إلى أنه يجب أن نؤمن بما تدل عليه هذه النصوص من معنى الكمال المطلق الذى يليق بجلاله سبحانه من غير تمثيل ولا تعطيل ولا تأويل.

وحسبهم أن يستفيدوا من استواء الله تعالى على عرشه: أن الملك والتدبير له وحده، فلا يعبد غيره ولا يستعان سواه.

أمثل الطرق

والطريقة المثلى فى فهم هذه الآيات: هى إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تأويل ولا تعطيل لأن الظاهر الذى يتبادر إلى أذهان المشبهين منفى عن رب العزة سبحانه ليس كمثله شئ.

ومن شبه الله بشئ من خلقه كفر، ومن جحد ما وصف به نفسه كفر، ومن أثبت ما وردت به الآثار الصريحة والأخبار الصحيحة، على الوجه الذى يليق بجلال الله تعالى وينفى عنه النقائص، فقد سلك سبيل الهدى، وهدى إلى صراط مستقيم.

ولم يزل أهل الشريعة من أول الأمر يثبتون لله تعالى صفة العلو اللائق بعظمته وجلاله. المتره عن المشابهة لعلو المخلوقين، حتى نفتها المعتزلة ومن اقتدى بقولهم من متأخرى الأشعرية. وظواهر الشرع كلها تقتضى إثبات العلو لله تعالى كقوله جل شأنه ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة١٧].

وقولـه جلت قدرته: ﴿يُدَبِّرُ الأمْرَ مِنْ السَّمَاءِ إِلَى الأرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَة مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة٥].

وقولـــه تبارك اسمه: ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج٤].

إلى غير ذلك من الآيات التى إن سلط عليها التأويل عاد الشرع كله مؤولا، وإن قلنا إنها من المتشابه عاد الشرع كله متشابهاً.

فسبحانه من إله علىّ عظيم تفرد بالكمال وتعالى عن مشابهة الحوادث، وهو كما وصف كماله وجلاله. وكما أخبر عن نفسه، وهيهات أن تحيط العقول الفانية العاجزة المحـــدودة بـــالخلاق العظيم القادر الذى لا نهاية لكماله وجلاله ﴿هُوَ الأوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد٣].

العظيـم

أصل العظيم فى اللغة ما كثر عظمه من الإنسان و الحيوان واستعير لكل كبير محسا كـــان أو معقولا، عينا كان أو معنى. يقال: عرش عظيم. ونبأ عظيم، وعذاب عظيم، ويوم عظيم، وفضل عظيم، وإذا استعمل فى الأعيان فأصله أن يقال فى متصل الأجزاء كالطود العظيم، والقصر العظيم، ولكنه قد يستعمل فى متفرقها كالجيش العظيم.

وإذا وصف به الإنسان فمعناه الغنى ذو السطوة والجاه والنفوذ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَـــوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف٣١]. أى رجل من ذوى الثراء والمكانة.

ولعلك إذا تدبرت هذه المعانى فى المخلوقات آنست بصيصا من النور يكشف لك شـــيئا مـــن معنى هذه الكلمة إذا أطلقت على رب العزة سبحانه، هو المتره عن شبه المخلوقين ليس كمثله شئ وهو السميع البصير.

إذا أطلـــق لفـــظ (العظيم) على رب العزة سبحانه فمعناه: الذى جل عن إدراك العقول فلا تحيط بكنه ذاته وتدرك حقائق صفاته، ولا تقف على أسرار أفعاله.

فمـــن آيات عظمتـــه سبحانـــه أن الإحاطة بحقيقة ذاتـــه ليســـت فى متنـــاول عقـــول البشـــر ومـــن أجل ذلك نهى رسول الله صلى عليـــه وسلـــم: (تفكروا فى آلاء الله، ولا تفكـــروا فى ذات تهلكوا، وفى رواية: فإنكـــم لـــن تقـــدروا قـــدره).

ومن آيات عظمته جل شأنه أن صفاته العلا وراء مطارح الأفكار، ومطامح العقول، فكيف تدرك العقول حقائق الوجود الذاتى؛ والبقاء السرمدى؛ وغير ذلك من صفاته التى لو طمحت العقول إلى تصورها، أو رمت الأفكار إلى إدراكها لردت خاسئة تتعثر فى أذيال الحيرة.

ومن آيات عظمته تبارك اسمه أنك ترى أفعاله فى نفسك وفى الآفاق ثم تحار فى الإحاطة بأسرارها، فلا تدرك كيف أودع عينك البصر، وأذنك السمع، ولسانك الذوق، ولا تعلم كيف أمدك بالإدراك والفهم والذكر والحفظ والتخيل والتصور وغيرها من القوى والمشاعر التى تدركها فى نفسك، وتجد آثارها فى حسك، ولكنك لا تدرى كيف أمدك بها خالقك العظيم ذو الجلال والإكرام جلت قدرته وسمت حكمته.

لا تدرى كيف أودع العناصر خواصها، ولا الكائنات استعداداتها ولا كيف منح الكواكب والنجوم حركاتها الدائمة المنظمة، وألزمها مداراتها المرسومة، وأفلاكها المعلومة.

ورد هذا الاسم الجليل فى القرآن الكريم فى خمسة مواضع وكلها تشير إلى ما أسلفنا لك، فإذا تدبرتها أشرقت عليك من آفاقها شموس العرفان، ولاحت لك آيات العظمة من كل مكان.

أولها آية الكرسى (٢٥٥) فى سورة البقرة. وهى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَى الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِى الْعَظِيمُ﴾ [البقرة٢٥٥].

فإذا تدبرت هذه الآية الكريمة التى ختمت بهذا الاسم الجليل ليكون اختصاراً يجمع معانيها جميعاً، وجدتها تعداداً لمظاهر عظمته تعالى، فالتفرد بالملك والملكوت، والحياة التى لا أول لها ولا نهاية، والوجود الذاتى الذى يفيض الوجود على كل موجود سواء، والقيام بالذات والغنى عن كل كائن فى الوجود، والقدرة التى لا تلحقها أية شائبة من شوائب العجز، ولا تعطلها سنة ولا نوم، والملك الواسع الشامل لما فى السماوات وما فى الأرض، و العلم المحيط بكل شئ فى الماضى والحاضر والمستقبل، وعجز الأنام عن الإحاطة بشئ منه إلا بما شاء العليم الحكيم سبحانه، وتهيب المقربين

أن يشفعوا عنده إلا بإذنه، والسلطان الكامل الشامل لجميع العوالم العلوية والسفلية، وحفظها بقدرة غيبية لا يعلم حقيقتها إلا هو، كل أولئك من آيات عظمة الخالق العظيم سبحانه.

فإذا تدبرت هذه الآية حق تدبرها لا يسعك إلا أن تهتف من أعماق صدرك:

ما أعظمك يارب العالمين!

إن ربى لعلىّ عظيم !

ثانيها: قوله تعالى فى سورة الشورى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِي الْعَظِيمُ﴾ [الشورى٤]. والكلام فيها كبعض الكلام فى آية الكرسى فلا موجب لإعادته.

ثالثها: قوله تعالى فى سورة الواقعة: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ(٥٨)أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ(٥٩)نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ(٦٠)عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ(٦١)وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ(٦٢)أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ(٦٣)أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ(٦٤)لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ(٦٥)إِنَّا لَمُغْرَمُونَ(٦٦)بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ(٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ(٨٦)أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ(٦٩)لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ(٧٠)أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ(٧١)أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ(٧٢)نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ(٧٣)فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة٧٤].

فانظر كيف ساق لك أدلة عظمته فى هذه الآيات البينات بهذا الأسلوب المعجز، والبيان الرائع.

بدأ سبحانه فنبهك إلى خلق الإنسان ومادة خلقه وما يعتره من الموت وفقدان الحياة وأشار إلى إمكان النشأة الأخرى مستدلا عليها بالنشأة الأولى. وكل هذه ظواهر لا يمكن أن يدرك العقل كنهها ولا أن يقف على حقيقتها. ولا يدرى أغزر الناس علما بالجسم البشرى وتشريحه وتكوينه ووظائف أعضائه - كيف تدب الحياة فى الأجسام، فتمنحها القوى والمشاعر، وكيف تفارقها فتعود جمادا أمواتاً لا أثر فيها لحس ولا حركة ولا شعور.

أليس فى ذلك كله آية على عظمة الخالق العظيم؟.

ثم أشـــار سبحانه إلى النبات وكيف أنبته من الأرض فأحال ترابها الأغبر نباتاً أخضر وزهراً أحمر و أصفر، وثمرا حلوا، وفاكهة طيبة.

فهل تدرك العقول سر هذا التحويل؟ وهل تحيط الإفهام بمدى هذا العجب العجاب من دلائل عظمة البارئ العظيم؟.

ثم أشـــار سـبحانه إلى الماء وإنزاله من المزن عذباً فراتاً سائغاً للشاربين، ولو شاء لجعله ملحاً أجاجا لا تستسيغه الحلوق، ولا تستطيبه الأفواه. وإلى النار وأمرها عجب. كـيف اشتعلت؟ من أين استمدت حرارتها؟ كيف اتصلت بمواد الحريق؟ كيف تكون الأكسجين الذى يشب ضرامها؟

كل هذه أسرار يعجز العقل البشرى عن إدراكها، ويقصر البيان دون التعبير عنها، وتقف المدارك حسرى دون الإحاطة بها. وكلها آيات ناطقة بعظمة الله سبحانه.

ألست جديراً بعد أن تتلو هذه الآيات أن تملأ قلبك يقيناً بعظمة الله، فتخشع لـه وتخر ساجداً لعظمته.

فلا تعجب إذا رأيت هذه الآيات البينات قد ختمت بهذه الآية الكريمة، فسبح باسم ربك العظيم.

رابعها: قولـه تعالى فى سورة الواقعة أيضاً:

﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ(٨٣)وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ(٨٤)وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِـرُونَ(٨٥)فَلَـوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ(٨٦)تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(٨٧)فَأَمَّا إِنْ كَـانَ مِـنَ الْمُقَـرَّبِينَ(٨٨)فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ(٨٩)وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَـابِ الْيَمِـينِ(٩٠)فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَـذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَـنُـزُلٌ مِـنْ حَمِيـمٍ(٩٣)وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ(٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ(٩٥)فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة٩٦].

بعد أن أنكر على الناس تكذيبهم بالقرآن وكفرانهم النعمة أخذ يورد عليهم دلائل قدرته المتمثلة فى سلب الحياة من الإنسان وأحباؤه من حوله ينظرون قد قعد بهم العجز عن إعادتها أو إمساكها، فتفلت من بين أيديهم وهم صاغرين.

فالقدرة على منح الحياة وسلبها ثم إعادتها، و إبراز الأحياء بعد البعث فى أبدان لا تخضع لـنظام الفناء، و إثابة المطيعين وعقوبة الكافرين آية العظمة الكاملة التى هى أخص صفات الخالق العظيم.

خامسها: قولــه تعالى فى سورة الحاقة:

﴿فَــلا أُقْسمُ بمَا تُبْصرُونَ(٣٨)وَمَا لا تُبْصرُونَ(٣٩)إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُول كَرِيم(٤٠)وَمَا هُوَ بقَوْلِ شَاعــر قَليــلاً مــَا تُؤْمنُــونَ(٤١)وَلابقَوْلِ كَاهنٍ قَليلاً مَا تَذَكَّرُونَ(٤٢)تَنْزِيلٌ منْ رَبِّ الْعَالَمينَ(٤٣)وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيــلِ(٤٤)لأَخَذْنَا منْهُ باليَمين(٤٥)ثُمَّ لَقَطَعْنَا مــنْهُ الْوَتــينَ(٤٦)فَمَا منْكُمْ منْ أَحَد عَنْهُ حَــاجزِيــنَ(٤٧)وَإِنَّهُ لَتَذْكرَةٌ للْمُتَّقينَ(٤٨)وَإِنَّا لَــنَعْلَمُ أَنَّ منْكُمْ مُكَذِّبينَ(٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافرِينَ(٥٠)وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقينِ(٥١)فَسَبِّحْ باسْمِ رَبِّكَ الْعَظيم﴾ [الحاقة٥٢].

فــبعد أن أقســم سبحانه بدلائل العظمة من خلقه مما يبصر الناس ومالا يبصرون، وأكــد أن القــرآن الكريم نزل به جبريل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وســلم. وإنه ليس بشعر ولا كهانة، وإنه تتريل من رب العالمين، وأن النبى لا يتقول عــلى الله تعالى لأنه لو تقول عليه أى تقول لناله بأشد ألوان العقاب و لم يستطع أحد مــن البشر أن يدفع عنه. واتخذ لــه من ذلك كله آية تشهد بعظمته ولذلك ختمت هذه الآيات البينات بقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ باسْمِ رَبِّكَ الْعَظيمِ﴾ [الواقعة٧٤].

ومــن ذا الذى لا يسبح باسم ربه العظيم إذا لاحت لــه هذه الآيات وأشرقت فى أفق عقله أنوارها. وتفتحت عين بصيرته على غوامض أسرارها؟.

وبعد فالعظيم حقاً هو لجدير بأن تعظم شعائره، ويطاع أمره ونهيه، ويرجى فضله ورحمته، ويخشى بطشه وانتقامه.

لأنــه وحــده الذى يملك القوة الغيبية التى لا يدرك كنهها والتى تحار فى تصورها العقول، وتعجز عن إدراكها الأفكار. والتى يكون بها النفع والضر والتصرف فى الملك والملكوت.

أمــا المخلوقــون فــأبعد شئ عن العظمة وعما يستحق التعظيم الحق من العبادة والخضــوع والخشوع والإخبات والخشية والخوف، وعما يملك العظيم الحق من عون وغــوث وفضل وإنعام فإن صرف العبد أمراً من الأمور التى يستحقها العظيم لعظمته إلى غــير العظــيم فقد ألحد فى أسماء الله تعالى، و أشرك به، وخلع صفاته العلا على الضعفاء العاجزين الذين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً.

وقد صورت لك بهذا القلم الكليل بعض نواحى العظمة الإلهية فهل تجد شيئاً منها فى المخلوقين؟.

أليس كل عظيم فى هذه الحياة حقيراً بالإضافة إليه سبحانه؟ ومن ثمرات ذكر هـذا الاسـم العظـيم أن يشعر المرء نفسه التواضع لعظمته تعالى، والإخبات لـه والخشـوع بين يديه فيلزم نفسه كلمة التقوى ويكون أحق بها وأهلها. ومن يتق الله يجعـل لـه مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب. ومن تواضع لله رفعه وما أطيبها من ثمرات!.

توجـيه: إذا أردت أن تـتحدث عـن عظيم من الناس فصفه بالعظامة ولا تصفه بالعظمـة فـإن العظمة لله وحده، وإذا وصفت بها إنساناً كانت صفة ذم ونقص لأن معناها بالقياس إلى الناس الكبر والزهو والإعجاب والاختيال.

فسبحان من تفرد بالعظمة والجلال وهو العلى العظيم.

أعيد هنا ما سلف أن كتبته فى أكثر من موضع من هذا البحث وهو أن اللغة حين وضعت إنما وضعت للتعبير عن ذوات المخلوقين وصفاتهم وأعمالهم، فلما أريد منها أن تعـبر عن صفات الخالق سبحانه وهى أجل من أن تحيط بها العقول استعيرت الألفاظ التى تقرب المعنى إلى الأذهان للتعبير بها عن صفات الله تعالى مع اليقين بأنها لا تعبر عن حقـائق هذه الصفات فى سموها وكمالها وجلالة معناها وإنما تقرب معناها إلى العقول المحدودة القاصرة. فإذا أردنا أن نقرب إلى الأذهان معنى اسمه تعالى (العظيم) رجعنا إلى المعاجم اللغوية لنقف منها على اشتقاقه وعلى ما يدل عليه أصله.

جـاء فى القـاموس المحيط للفيروزآبادى: العظم بكسر العين خلاف الصغر، عظم كصغر عظما، وعظامة فهو عظيم، وعظم الرجل تكبر، والعظمة محركة الكبر والنخوة والزهو. وأما عظمة الله فلا توصف بهذا. ومتى وصف العبد بالعظمة فهو ذم ...

وقال الراغب: عظم الشئ أصله كبر عظمه ثم استعير لكل كبير فأجرى مجراه محالاً كان أو معقولا، عينا كان أو معنى.

وقـال ابن الأثير: العظيم من أسمائه تعالى هو الذى جاوز قدره، وجل عن حدود العقـول حـتى لا تتصور الإحاطة بكنهه وحقيقته. والعظيم فى صفات الأجسام كبر الطول والعمق. والله تعالى جل عن ذلك.

وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم وجدنا كلمة (العظيم) كما جاءت وصفاً لرب العزة سبحانه جاءت وصفاً لغيره تعالى فجاءت وصفـاً ليوم القيـامة فى قولـه تعـالى: ﴿أَلا يَظُـنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ(٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ(٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين٦]. وعظمة ذلك اليوم تتمثل فى شدة ما يقع فيه من الأهوال والعظائم.

وصف به العذاب فى قولــه تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة٧].

وعظمة العذاب فرط إيلامه، وشدة إهانته للكافرين، وإمعانه فى إلحاق الخزى البالغ بهم.

ووصف به الفوز فى قولــه تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّه وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَــنَّاتٍ تَجْــرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء١٣]. وعظمـــة الفــوز كثرة ما يلقى المؤمنون من ألوان النعيم واللذة وقرة العين مما لم تكن تتصوره عقولهم، ولا يخطر على قلوبهم.

ووصف به الظلم فى قولــه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِه وَهُوَ يَعِظُهُ يَابُنَى لا تُشْرِكْ بِاللَّــهِ إِنَّ الشِّــرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان١٣]. وعظم الظلم فى قبحه وشره وإسراف مقترفه فى إهدار حرمة الحق وكرامة العدل.

ووصف به الحنث فى قولــه تعالى: ﴿وَكَانُوا يُصِــرُّونَ عَلَى الْحِنْــثِ الْعَظِيــمِ﴾ [الواقعة٤٦]. وعظم الحنث وهو الخطأ والإثم وسوء ما يترتب على اقترافه من الضرر فى الدنــيا والآخرة وقبح ما يترك فى النفس من آثار تدنيسهـــا وعلى القلب من رين يطمـــس نوره.

ووصف به الأجر الذى يمنحه الله المؤمنين يوم القيامة فى قولــه تعالى ﴿لا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّه فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء١١٤].

وعظـــم الأجـــر كثرته وسمو نوعه فوق ما يعرف الناس فى الدنيا وما يدخله على قلوب الظافرين به من مسرة وهناءة وفرحة وسعادة.

ووصف به الميل فى قولــه تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا﴾ [النساء٢٧].

وعظـــم الميل قبح تنكب لسبيل الحق والخير والاستقامة، واعتساف طريق الباطل والشر والشهوات المردية الموبقات.

ووصف به عرش ملكة سبأ فى قولــه تعالى: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِــنْ كُــلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل٢٣]. تتمثل فى ضخامته ونفاسته وإتقان صنعه، وبديع نقشه، وقيمة مادته.

ووصف به عرش الله تعالى فى قولـــه تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِى اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة١٢٩].

وعظمته فى أنه فوق متناول عقول البشر، وأن البشر لا يعرفونه على الحقيقة، وفى إضافته إلى رب العزة سبحانه.

ومن أروع ما جاء فى وصف العظمة الإلهية قولــه تعالى: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَى الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ولا نَوْمٌ لَــه مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِــه يَعْلَــمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ولا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِنْ عِلْمِه إِلا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ولا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَـــا وَهُوَ الْعَلِى الْعَظِيمُ﴾ [البقرة٢٥٥].

فمن كانت لــه هذه الصفات العلا فهو العظيم حقاً، وختام هذه الآية الكريمة لهذا الاسم الجليل يشير إلى أنه يجمع كل ما تقدم فيها من صفات، فمن دلائل عظمته التى جاءت فى هذه الآية الكريمة: تفرده تعالى بالألوهية، وحياته الذاتية التى لا أول لها ولا آخــر، على حين كل حى سواه منقوص الحياة، وقيامه بنفسه بحفظ وتدبير كل شيء على حين يقوم كل شيء فى الوجود بحفظه سبحانه ورعايته.

كل شيء فى الوجود فى قبضته، وهو المسيطر عليه والمتصرف فيه، ليس لأحد معه تصــرف، لا الأولياء الصالحون، ولا الأنبياء المرسلون، ولا الملائكة المقربون، له الخلق والأمر، أحاط بكل شيء علماً، ووسع كل شيء رحمةً وفضلاً.

لـــو قدر الناس عظمة خالقهم لم يصرفوا وجوههم إلى غيره، ولم يلتمسوا شيئاً من أحــد سواه، ولم يطلبوا العون من الضعفاء العاجزين، ولا الرزق من الفقراء المعوزين، ولا الشــفاء مــن المرضــى المدنفــين، أو الموتى المقبورين. فسبحانه ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ولا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَـــا وَهُوَ الْعَلِــى الْعَظِيــم﴾ [البقرة٢٥٥].

فهرس المحتويات